

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIETE EGYPTIENNE D'ETUDES HISTORIQUES.

المجلد التاريخية المصرية

يشرف على تحريرها

محمد مصطفى زيادة

الأمين العام

محمد شفيق غربال

رئيس الجمعية

سكرتير التحرير

أحمد محمد عيسى

سنة ١٩٥٩

المجلد الثامن

تطلب من مقر الجمعية - ٢ شارع ناصر الدين ، المتفرع من شارع البستان
ومن المكتبات الكبرى

طبع بدارالتجارية الكنتالدينية
عيسى البايي الحلي وشركاه

محتويات العدد

البحوث :

- ١ - الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة :
دكتور إبراهيم على طرخان ١ - ٦٨
- ٢ - امتداد الإسلام والعروبة إلى وادى النيل الأوسط :
دكتور مصطفى محمد مسعد ٦٩ - ٩٩
- ٣ - دولة حبشية في اليمن :
دكتور زاهر رياض ١٠١ - ١٣٠
- ٤ - بعض معالم عهد شرلمان :
دكتور السيد الباز العرينى ١٣١ - ١٥٥
- ٥ - مفهوم الصحة العقلية في التاريخ :
دكتور التجانى الماحى ١٥٦ - ١٨٨
- ٦ - الخطوط الرئيسية لسياسة إنجلترا تجاه الدولة العثمانية
في القرن الثامن عشر :
دكتور محمد أنيس ١٨٩ - ٢٠٠
- ٧ - جم سلطان والدبلوماسية الدولية :
دكتور أحمد السيد دراج ٢٠١ - ٢٤٢
- ٨ - تاريخ بناء جامعة القرويين :
الأستاذ عبد الهادى التازى ٢٤٣ - ٢٤٧

Library of the Alexandria University (GCAL)
Khalifa Abdel Nasser Library
2007-2008

النصوص :

- ١ - ذكر الرؤوس الثمانية :
من مقدمة خطط القرظى ٢٥١ - ٢٥٤

تقد الكتب :

- ١ - المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة لبدوى وكيس :
دكتور أحمد نخرى ٢٥٧ - ٢٧٠
- ٢ - الإسلام والعصر الحديث لألزى لشتنشتار :
دكتور جمال الدين الشيال ٢٧١ - ٢٨١
- ٣ - تأملات فى ثورة العصر للاسكى :
الأستاذ أحمد عبد الكريم ٢٨٣ - ٢٩٤
- ٤ - المكتبة التاريخية :
بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ٢٩٥ - ٣٠٦
- ٥ - حوادث دمشق اليومية للبدرى :
محمد أبو الفرج العش ٣٠٧ - ٣١٠

أنباء ومؤتمرات :

- ١ - المؤتمر الثالث للآثار فى البلاد العربية
٣١٣ - ٣١٥
- ٢ - أحدث مقتنيات مكتبة الجمعية من الكتب الأفرنجية

البحوث

الإسلام والممالك الإسلامية بالحيشة

في العصور الوسطى

الأثيوبيون والأحباش - عناصر السكان - سيادة لغة الجعز - تكوين المملكة الحبشية - عناصر حضارتها : الأثر السامى العربى - الأثر اليهودى - أثر الحضارة المصرية - البطالة والحضارة الأغريقية - توسع مملكة أكسوم - دخول المسيحية والنفوذ الروحى للكنيسة المصرية - وصول الرهبانية والديرية إلى الحبشة - أثر المسيحية في تاريخها الدينى والسياسى - علاقات الحبشة بالعرب قبل الإسلام - الحبشة واليمن - أثر النزاع الفارسى البيزنطى في العلاقة الحبشية العربية - أبرهة - ظهور الإسلام وهجرة المسلمين الأولين إلى الحبشة - محاولات قريش - ما ذكرته المراجع من إسلام النجاشى - انتشار الإسلام في الحبشة - ثغر عدوليس - احتلال العرب لجزائر دهلوك - المعادن والبجّة وإسلامهم - بنو مخزوم - المراكز الإسلامية - التوسع الإسلامى روحياً وسياسياً - « الطراز الإسلامى » - الخصائص المميزة لممالك الطراز الإسلامى : الوضع السياسى لها - نظم الحكم فيها ومظاهره - أحوالها العامة - تاريخها السياسى : أوقات - بالى - هديه - داره - مشيخات الساحل - تطلع الممالك الإسلامية إلى مصر - سياسة ملوك الحبشة : يكونوا أملاك ويبرس - أوقات تزعم حركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة - اضطراب مملكة الحبشة - عمداصيون والناصر محمد - سفارة الممالك الإسلامية برئاسة الزيلعى إلى الناصر محمد - اشتداد النزاع بين الممالك الإسلامية والحبشة - سيف أرعد والناصر حسن - نهاية سلطنة أوقات في زيلع وظهورها باسم « بر سعد الدين » أو مملكة عدال - بين برقوق والنجاشى داود - زرع يعقوب والحلف المسيحى ضد الإسلام خلال حملات مصر على قبرص - محاولة ربط الكنيسة الحبشية بروما - كتاب زرع يعقوب إلى السلطان جقمق - رجحان كفة المسلمين والنجاشى لبان العذراء - حلول العثمانيين محل سلاطين مصر في حماية مسلمى الحبشة .

تدل المعلومات التى أوردها الكتاب والمؤرخون من اليونان والرومان ، على أن البلاد التى نعتوها بكلمة (أثيوبيا) تعنى المساحات الشاسعة الممتدة جنوبى مصر من أفريقية غرباً إلى آسيا شرقاً، وهى المنطقة التى تسكنها العناصر من ذوى البشرة المحترقة

أو السوداء أو الزيقونية اللون ، وهذا ما يعنيه اللفظ الأغريقى (Aethiops) ، ويتكوّن من مقطعين : (Aitheim) بمعنى محترق ، (ops) بمعنى وجه^(١) .

ومن هؤلاء الكتاب هوميروس الشاعر وهيرودوت المؤرخ اليونانيان، وديودور وسترابو من مؤرخى الرومان أوائل ظهور المسيحية . قسم هؤلاء المؤرخون سكان تلك المنطقة تقسيماً عرضياً إلى مجموعتين كبيرتين هما : الأثيوبيون الشرقيون ، وموطنهم بلاد العرب وسوريا وما بين النهرين ثم امتداد هذا الصقع شرقاً حتى الهند ، والأثيوبيون الغربيون ، ويقطنون البلاد الواقعة غربى البحر الأحمر وتضم مصر والسودان^(٢) .

على أن الذين تولوا ترجمة الإنجيل إلى اللغة اليونانية ، استعملوا كلمة (كوش) وأرادوا بها أثيوبيا ، أى أنهم حددوا أثيوبيا أو شطرها الغربى بالمنطقة المعروفة باسم كوش والامتدة جنوب مصر ، وهى التى اشتهرت بصلتها بمصر منذ أقدم العصور ، وجاء فى سفر التكوين أن كوش هو ابن حام بن نوح^(٣) ويقال إن لكوش هذا ولداً يسمى إيتيوبس (Aethiopsis) وهو الذى سميت البلاد باسمه^(٤) .

(١) القنائى : الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان؛ الجاحظ : فخر السودان على اليبضان ص ٨١ .
Coulbeau (J. B.) : Histoire Politique et Religieuse d'Abyssinie, T. I, p.79

(٢) لهذا التجديد الجغرافى صلة بأسطورة القديس يوحنا .

(انظر : عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ١٦٧ - ١٦٩ ؛
Budge (sir E. A. W.) : A History of Ethiopia, Nubia & Abyssinia, Vol. I, pp. 120. Jone (A. H. M.) & Monroe (Eliz) : A History of Abyssinia, pp. 59-63, 178, 180) .

(٣) جاء فى سفر التكوين : « وبنو حام كوش ومصرام وفوط وكنعان ؛ وبنو كوش سبأ وحويلا وسبته ورعمة وسبتكا ؛ وبنو رعمة بشا ودوان ؛ وكوش ولد عمرود الذى ابتداءً يكون جباراً فى الأرض » (الإصحاح العاشر : آيات ٦ ، ٧ ، ٨) .

(٤) اليعقوبى : ج ١ ص ١٥٥ ، المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٨١ ؛
Alype (pierre) : L'Empire des Negus, p. 19; Budge, op . cit. pp. 142, 190.

وهناك حديث ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مؤداه أن سام أبو العرب ويافت أبو الروم وحام أبو الحبش^(٥).

وحيث أعيدت ترجمة الإنجيل من الأغريقية إلى اللغة الأثيوبية المعروفة باسم الجعز، أطلق المترجمون كلمة أثيوبيا وعنوا بها الحبشة، وكان هذا الاسم الأخير معروفاً وقتئذ، أى في القرن الرابع الميلادي يوم دخلت المسيحية دولة أكسوم الحبشية.

والمعروف أن الأحباش الأكسوميين يفضلون أن تدعى بلادهم أثيوبيا بدلاً من الحبشة، وأن يدعواهم أنفسهم بالأثيوبيين لا الحبشيين، بل إنهم يشعرون بالإهانة إذا ما نعتوا بالأحباش، ولعل ذلك يرجع إلى أن أثيوبيا تعنى الكوش، والكوشيون قد أضخوا سادة على أغلب بلاد شمال شرقي أفريقيا، باستثناء مصر، وذلك بعد إخضاعهم للقبائل الزنجية، وهذا مجد قديم. كما أن أثيوبيا وردت في التوراة، فالحرص على هذه التسمية فيه معنى التيمن، أما الأحباش فتعنى الأخلاط، فضلاً عن أن الأحباش عنصر أجنبي^(٦).

أما كلمة الحبشة، ومنها الأحباش، وهما اللفظان اللذان صارا في اللغة الأجنبية (Abyssinia — Abyssinians) فيرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي «حبشت» السامية التي عبرت البحر الأحمر، مهاجرة من جنوب بلاد العرب واستقرت في أفريقيا^(٧)،

(٥) السيوطي: أزهار العروش في أخبار الحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال — ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب).

ابن الجوزي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش (مصور عن نسخة بالاسكوريال — ميكروفلم رقم ٢٩ تاريخ بدار الكتب).

(٦) الجواهر الحسان ص ح - ٧؛ عابدين: ص ٧؛ Budge, op. cit. pp.

120, 130; Coulbeaux, op. cit. pp. 81.

Jones and Monroe, op. cit. pp. 10-14.

الشاطر بوصيلي: معالم تاريخ السودان وادي النيل ص ٦

(٧) ورد في بعض المراجع العربية أن الحبش من نسل حبش بن كوش بن كنعان بن حام

ابن نوح (ابن عبد الباقي: الطراز المنقوش بمحاسن الحبش (مخطوط) ورقة ٦؛ الحلبي: أعلام الطراز المنقوش (مخطوط) ورقة ٤).

ويرجح أن ذلك تم في الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد ، والغالب أن الوطن الأصلي لهذه القبيلة هو بلاد اليمن . ولما كانت اليمن خلال تلك الفترة على درجة كبيرة من التقدم وال عمران في ظل ملوك سبأ ، فإن هذه القبيلة لا شك كانت أرفع حضارة ومدنية من الوطنيين المقيمين في أفريقية إبتائذ ، وهم الذين استقر الأحباش بينهم . ولم تلبث قبيلة حبشت حتى سادت في موطنها الجديد ، وصبغت البلاد بالصبغة الحضارية التي تميزت بها ، غير أن الوطنيين لم ينظروا بعين الارتياح أو الرضا لسيادة هؤلاء الأجانب . ومع ذلك لم يكد القرن الرابع الميلادي يطلع حتى غلب اسم هذه القبيلة السامية على المنطقة التي استوطنتها ، بل وعلى الوطنيين أنفسهم ، فغدا الجميع أحباشا ، وأصبحت كلمة الحبشة ترادف أثيوبيا^(٨) .

وهنا تحسن الإشارة إلى وجوب التفرقة بين ما نعرفه اليوم بمدلول هذا اللفظ (الأحباش) ، وبين ما عرف قبيل الإسلام من « أحابيش قريش » فهؤلاء الآخرون ليسوا أحباشا أو زنوجا ، وإنما هم حلف عربي قوامه أحياء من عرب كنانة وخزيمه اللتين كانتا تنزلان أغوار تهامة^(٩) .

ومن الآن فصاعداً، سنستعمل كلمة حبشة كترادف لأثيوبيا ، وحدود هذه المنطقة قديماً، بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقاً، ومن النوبة شمالاً إلى ماوراء خط الاستواء جنوباً ، بمعنى آخر أن الحبشة أو أثيوبيا في فجر الفترة التي يعيننا الحديث عنها، تشمل ما هو معروف حالياً باسم السودان والحبشة وأرتريا والصومال ، وكانت حدودها دأمة

Kammerer (A.) : Essai sur l'Histoire Antique d'Abyssinie, (٨)
pp. 25-82; Coulb. op. cit. pp. 77-78; Budge, op. cit. p, 122;
Trimingham (J.S.) : Islam in Ethiopia, pp. 5,7,32; Pankhurst (S.):
Ethiopia, A Cultural History, p. 28; Encyc. of Islam, Art. «Abyssinia»;

عابدين ص ١٢

(٩) انظر العبادي : صور من التاريخ الإسلامي - العصر العربي ، وهو بحث ممتع عن أحابيش قريش للمحقق الثبت المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي ص ١٣-٢١ .

التغير من ناحية الشمال والجنوب ، وحدث نزاع حول هذه الحدود في العصور الوسطى^(١٠).

أما العناصر المكونة للحبشة ، فالمعروف أن القبائل الكوشية الرعوية الحامية تكون العنصر الغالب في شمالها ، وتنقسم هذه القبائل إلى عدة فروع منها : الأجاو والنبجة والساو والسيداما والجالا، وأبرز هذه العناصر عنصر الجالا (Galla)^(١١) تعرض الكوشيون إلى تغير ثقافي عميق مبعثه هجرة القبائل السامية منذ القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا ، وأهم قبيلة سامية ذات الأثر البارز في تاريخ الحبشة ، هي قبيلة حبشت التي سميت البلاد باسمها ، ثم قبيلة الجعز أو الأجاو ، وهي التي سادت لغتها وغدت اللغة الأدبية للمسيحية فيما بعد ، وتعرف اللغة الأثيوبية باسم « لسان الجعز » وأقدم نص كتب بهذه اللغة في الحبشة ، وجد على مسلة ترجع إلى القرن الثالث الميلادي^(١٢) . استقر الجعزيون في مناطق : شميزانا وأجاما وأكيله وجوزي^(١٣).

لذلك لم تكن هجرة الساميين لقبائل بدوية، وإنما لجماعات من الزراع المتحضرين الذين ألفوا الاستقرار ، ولهم نظمهم الاجتماعية وعناصر حضارتهم العريقة . أدخل هؤلاء الحضارة السبئية المعتمدة على الوسائل الصناعية كوسائل الري المتقدمة في عمل الخزانات والسدود وشق القنوات ، وزراعة سفوح الجبال ، وأدخلوا كذلك استعمال

(١٠) رسمت حدود الحبشة الحالية بمقتضى معاهدة أديس أبابا عام ١٩٠٢ ، بينها وبين السودان ، وذلك من ناحية الشمال والشمال الغربي ، وحدودها الشمالية الشرقية أرتريا والصومال بأقسامه ، ويحدها من الجنوب أفريقية الشرقية البريطانية ؛ Budge, op. cit. p. 122 Trimingham, op. cit. p. 1).

ابن حوقل : كتاب صورة الأرض (القسم الأول) ص ١٦

(١١) Budge, op. cit. pp. 129-31

(١٢) عايدن ص ١٣ ؛ Trimingham, op. cit. pp. 6-7, 32

(١٣) Jones & Monroe, p. 34; Trimingham, p. 32; Coulbeaux, p. 91; Encycl. of Religion & Ethics, Art. Hamitss & East Africa; Pankhurst, pp. 28, 111; Beckingham (C. F.) & Huntingford (C.W.B.), Trans. & Edit. : some records of Ethiopia, p. LXVIII.

المعادن ، وبعض النباتات الجديدة ، واستخدموا الأحجار في البناء ، وهذا بجانب نوع من التنظيم الإداري والإقليمي وفن الكتابة ، ومن ثم أُنحت المناطق التي استقروا فيها مراكز لنشر الحضارة . وقد عثر على أثر قديم لهذا العنصر السامي في مدينة قديمة تسمت آفا (Ava) وتعرف الآن باسم « يحا » ؛ عثر في هذه المدينة السامية على بعض أحجار لمعبد إله الشمس وعليها كتابات حميرية ترجع إلى القرنين السابع والخامس قبل الميلاد^(١٤) .

وجد هؤلاء المستعمرون الجدد في مهجرهم مناخا يشبه ذلك المناخ الذي فارقوه ، مما ساعدهم على مواصلة نشاطهم ، ورغم أن الكثير منهم جاء ومعه نساؤه ؛ إلا أنهم لم يلبثوا أن اختلطوا بالقبائل الحامية وصاهروها ، وكان من نتيج هذا الامتزاج مواطنو مملكة أكسوم ، حيث برز بيت من البيوت الإقطاعية الوثنية ، تولى الزعامة وأسس هذه المملكة التي يرجح أنها قامت في القرن السابع قبل الميلاد ، ونمت نواة هذه المملكة في الجبال ثم امتد سلطانها إلى الوديان والمناطق الساحلية حتى ضمت أرتريا ، وعاصمتها « أكسوم^(١٥) » . ولم تزل أكسوم حتى الوقت الحاضر العاصمة الدينية للملك الحبشة ، يتوجون فيها .

نشطت مملكة أكسوم ، وهي المملكة الحبشية الأولى ، واستطاعت أن تكون حضارة وطنية متأثرة بالحضارة السامية ، وكذلك بالحضارات الأخرى في شمالي شرقي إفريقية وهذه الحضارات مشتقة بدورها من الحضارة المصرية القديمة ، ومن أمثال هذه الحضارات المشتقة من الحضارة المصرية مملكة مروى (Meroë) في وادي النيل^(١٦) ، وكذلك حضارة البجة والشعوب النيلية مثل باريا . غير أن أبرز

Alype, op. cit. pp. 23-24; Pankhurst, p. 48; Trimingham, (١٤) pp. 33-43.

(١٥) تذكر بعض الروايات أن هذه العاصمة أخذت اسم مؤسسها : أكسوماي ؛

Bupge, pp. 140, 190-1 - Coulb. p. 84.

(١٦) قامت هذه المملكة في حموى قرب نباتا عند الشلال الثاني ، وامتد سلطانها من =

عنصر في حضارة أكسوم هو العنصر السبئي الذي اشتقت منه أصلاً^(١٧) .
ومن الحضارات التي أثرت في حضارة أكسوم ، هناك الحضارة اليهودية ، التي
تسربت إلى البلاد عن طريق اعتناق قبائل الأجاو (Agao) لهذه العقيدة . ويرجح
أن اليهود وصلوا إلى الحبشة على أثر تفرقهم أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين
ضرب بمختنصر البابلي (Nebuchadrezzar) بيت القدس وشتت بني إسرائيل .
ويعرف اليهود في الحبشة باسم قبائل الفلاشة^(١٨) ؛ وقد كون هؤلاء مستعمرات تجارية في
الحبشة وغيرها ، وصارت هذه المستعمرات خلايا للرعاية اليهودية فضلاً عن النشاط
التجاري الذي أسهم في تقدم أكسوم ، ورغم أن قبائل الأجاو قد اعتنقت اليهودية
إلا أنها لم تثبت عليها ، فقد تحولت فيما بعد إلى المسيحية النوفيزيتية ، ولا يخفى أثر
اليهودية في الأفكار السياسية والدينية لملكة الحبشة ، منها أسطورة تسلس ملوك
الأحباش من سلالة سليمان الحكيم وزوجته ملكة سبأ التي يسميها الأحباش ماقده
(Makeda)^(١٩) ، أما أثر الإغريق والحضارة الهلينية ، فقد وصل عن طريق البطالة
في مصر ، ولعبت الثغور التجارية التي أنشأوها على ساحل البحر الأحمر الغربي دوراً
هاماً في نقل الحضارة الهلينية إلى دولة أكسوم الناشئة ، ومن هذه الموانئ البطلمية
الإغريقية : ليوكوس ليمون وميوس هرموس ، وبدأ مظهر الحضارة الهلينية في
التنظيم التجاري وإصلاح الموانئ وصيانتها وتنظيم الجيوش ، ونظم التعليم والإدارة ،

== الشلال الأول إلى حدود الحبشة ، وتأثرت بالحضارة المصرية القديمة ، ومن مظاهر هذا التأثير
أن ملوك مروى كانوا يدفنون موتاهم في مقابر على شكل أهرامات ، وتكتب أسماءهم في
خراطيش ، وذلك على النحو المعروف عند القراءة (Budge, pp.56-62 ؛ عبدالله حسين :
تاريخ السودان ص ٥١ - ٥٢) .

Trim., pp. 33,35 (١٧)

(١٨) الجواهر الحسان ص و ، ٨ ؛ Hall (H.R.): The Ancient Hist. of the
Near East, p. 246.

(١٩) عابدين ص ١٦-١٧ ؛ Trim., pp. 345; Budge, p. 194; Coulb.;
pp. 95,99.

يقصدها التجار من مختلف الجنسيات ، حتى أشبهت على عهد عزانة ، الإسكندرية على عهد البطالة . بل إن أى أثر أو نقش ذى أهمية فى تاريخ الحبشة ، إنما يرد إلى عهد هذا الملك ، كتبت حولياته بالإغريقية وبالحبشية أو الحميرية ، وربما قورن بدارا الأكبر الفارسى من حيث إن كلا الرجلين رغب فى أن يقرأ رجاله أعماله ويشهدوا مآثره ، كل بلغته الخاصة حين يزور العاصمة ، وقد طال عهده وازدهر . وبجانب كونه محارباً من الدرجة الأولى كان سياسياً من الطراز الأول ، وحسبنا دليلاً على سعة تفوقه أن السجلات التى دوّنت فى عهده كانت تستهل بعبارة « نحن عزانة ملك أكسوم وحمير وريدان (صفر باليمن) - وسبأ وسالحين (حصن مأرب) - وسيامو (القبائل الساكنة جنوب شرق أكسوم) - وبجة وكاسو (الكوش) ... » (٢٣) .

وعن اعتناق أكسوم للمسيحية ، يلاحظ أن هذه الدولة كانت تدين بالوثنية ، وعلى دين الصابئة الذى أتاه من اليمن . وأعظم آلهتها « عثر » آلهة السماء ، ومدر (Meder) آلهة الأرض ومحرم (Mahràm) إله الحرب ، ويقابله الإله مارس (Mars) إله الحرب عند الرومان (ومارس هو كوكب المريخ) ويعتبر محرم إله الأسرة الحاكمة ، التى تدعى أنها منحدرة عنه ، فى سجلات الملك عزانة أن أباه الإلهى هو محرم . وأغلب رعايا الدولة الأكسومية على الوثنية ، ولآلهتها عدد كبير من المعابد يتبعها طوائف من الكهان (٢٤) .

وخلال القرون الأولى للمسيحية ، نهضت طوائف المبشرين بعملها فى مصر وشمال شرق إفريقيا ، وازداد عدد الداخلين فيها ، ولا سيما بعد مرسوم ميلانو عام ٣١٣ م ،

(٢٣) Coulb., pp. 138-9; Pankhurst, p. 51; Budge, pp. 242-3
Bury (J.B.): Hist. of the Later Roman Empire, Vol. II, p. 323;
Kammerer, op. cit., pp. 58, 87-88
Trim., p. 37; Kammerer, pp. 121-3, Budge, pp. 142, (٢٤)
243.

وهو المرسوم الذى أصدره الامبراطور قنسطنطين الأكبر معترفاً بالمسيحية ضمن الديانات القائمة فى امبراطوريته^(٢٥). وتسربت المسيحية إلى الحبشة فى وقت مبكر عن طريق العلاقات التجارية مع بيزنطة وولاياتها ؛ على أن تأسيس الكنيسة الحبشية الأكسومية يرجع إلى أخوين صوريين هما: فرومنتيوس (Frumentius) وأيدسيوس (Aedesius) .

يذكر المؤرخ رفينوس التوفى عام ٤١٠ م أن الفيلسوف أو التاجر الصورى (Meropius) ، أرسل جماعة للتبشير بالمسيحية بين الأحباش وكان الأخوان فرومنتيوس وأيدسيوس ضمن هذه البعثة ، فلما وصلت السفينة بهم إلى إحدى موانئ البحر الأحمر المطة على الحبشة ، خرج عليهم المواطنون وقتلواهم ولم ينج سوى هذين الأخوين اللذين أخذوا كرفيق وبيعا إلى الملك فى أكسوم ، وفى البلاط الأكسومى عمل الأول رائداً للأمير الطفل ولى العهد ، واشتغل الثانى ساقياً للملك ، وعند ماتولى ولى العهد العرش ، وهو عزانة ، بقى الأخوان فى خدمته ، وبرز اسم فرومنتيوس بسبب نشاطه الدينى فى نصيح المسيحيين من تجار الإغريق المقيمين فى أكسوم وأخذ يحثهم على بناء الكنائس ، ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً . وبعد فترة غادر الأخوان أكسوم ، وصار أيدسيوس أسقفاً لمدينة صور حيث التقى بالمؤرخ رفينوس وقص عليه قصته ، وتوجه فرومنتيوس إلى الإسكندرية حيث تقابل مع البطريق أثناسيوس ، الذى كان قد تولى البطركية منذ عام ٣٢٨ م ، وتناقش معه فى وجوب إرسال أسقف ليشرف على المسيحيين الذين كثر عددهم فى أكسوم وليس لهم راع أو رئيس يرشدهم . أجاب أثناسيوس بعقد مجلس من الأساقفة بالإسكندرية واستقر رأى على إرسال فرومنتيوس نفسه ، إذ بدأ فى نظر المجلس أنسب رجل لهذه المهمة التى خبرها من قبل ، وصدر قرار تعيينه أسقفاً للحبشة عام ٣٤١ م أو ٣٤٦ م . سافر الأسقف إلى أكسوم

(٢٥) انظر المرسوم فى : Barker, (E.) from Alexander to Constantine. :
«Passages & Documents Illustrating the Hist. of social & Political Ideas». pp. 468-471.

وقام بمهمته خير قيام ، ويعتبر مؤسس الكنيسة الحبشية وأول أسقف لها .
وخلال إقامته اعتنق الملك عزانة المسيحية بعد أن كان وثنيا وجعلها الدين الرسمي للدولة
حوالي عام ٣٥٠ م ، وربما أشبه عزانة الإمبراطور قنسطنطين الأول في اعترافه
بالمسيحية واعتناقه لها ، حتى ليعد في نظر بعض المؤرخين أنه قنسطنطين الحبشة^(٢٦)
كما أنه يشبه من جانب آخر الإمبراطور تيودور سيوس الأول الذي جعل المسيحية الدين
الرسمي للإمبراطورية البيزنطية .

ومنذ ذلك الوقت أضحت الشارة التي تزين عملة عزانة هي شارة الصليب الإغريقي
وحلت هذه الشارة محل رمز الشمس والقمر الذي كان يطبع على عملته
حين كان على الوثنية . احتفى عزانة ومن تبعه من المسيحيين ، بالقدّيس
فرومنتيوس ولقبوه الأب سلامة (Abba Salama) ويقال إن الأب سلامة هو
الذي ترجم الإنجيل إلى لغة الجعز أو على الأقل بدأ هذه الترجمة ، وخلفه في منصب
الأسقفية بالحبشة القدّيس مينا أو الأب ميناس (Abba Minas) الذي عين بقرار من
البطريق اثناسيوس عام ٣٦٢ م^(٢٧) . وحدث خلال تلك الفترة أن أرسل الإمبراطور
البيزنطي قنسطنطيوس الثاني (٣٣٩-٣٦١ م) أسقفا معينا من قبله وهو الأسقف
ثيوفلس الأريوسي ، عينه الإمبراطور على كنائس الحبشة واليمن وجزيرة سوقطرة^(٢٨)
وبعث إلى عزانة وأخيه شيزانا (Shaiazana) خطابا عام ٣٥٦ ، يطالب إليهما فيه

Pankhurst, pp. 120-5; Kammerer, p. 85 Jones & Monroe, (٢٦)
pp. 26-27.

(٢٧) الجواهر الحسان ص ٩ ؛ Budge ، pp. 38-40. Trim. , pp. 322, Bury, II
pp. 147-8, Coulb., pp. 159-161.

(٢٨) اختلفت الآراء في مهمة الأسقف الأريوسي ثيوفلس ، فنسب إلى هذا الأسقف
نشر المسيحية في جنوب بلاد العرب وإنشاء ثلاث كنائس في ظفار وعدن وهرمز ، وهذه
الأخيرة مع الخليج العربي ؛ ونسب إليه كذلك عقد معاهدات تجارية لصالح الإمبراطورية البيزنطية ؛
وهناك من يقول أن مهمته قد اقتصرّت على تحويل المسيحيين الموجودين في تلك البقاع ، إلى
المنذهب الأريوسي . (Trim, p. 40 , Bury, II p. 322)

طرد القديس فرومنتيوس لأنه مهرطق^(٢٩) ، غير أن الملك لم يستمع إلى هذا الطلب ، وظلت الكنيسة الحبشية منذ ذلك العهد مرتبطة بكنيسة مصر حيث يقوم البطريق القبطي بتعيين أسقف (مطران) للحبشة^(٣٠) ، ويقال إن أحد المجامع الدينية التي عقدت في نيقيا خلال القرن الرابع الميلادي ، قد أقر خضوع كنيسة الحبشة لمصر ومضمون القرار - : « أن مسيحي الحبشة لا يجوز لهم الاستقلال بأمورهم الدينية ، وإنما هم تابعون للكرسي الإسكندري^(٣١) ». وفي هذا المعنى يقول المقريري : « ولا بد للحبشة من مطران يوليه بطريق النصارى اليعاقية بمصر ، بعد سؤال الحطى - لقب ملك الحبشة (Hade) - لسلطان مصر في ذلك بكتاب يبعثه مع مرسله صحة هدية ، فيتقدم البطريق بتعيين مطران^(٣٢) ». وفي كتاب القوانين : « والحبس فلا يبترك عليهم بترك من علمائهم ولا باختيار منهم في أنفسهم لأن بتركهم إنما يكون من تحت يد صاحب الإسكندرية وهو الذي ينبغي أن يصلح عليهم قاتوليقا الذي هو دون البطريك ومن قبله ، فإذا بترك عليهم هذا المذكور باسم القتلقة فليس له مطلقا أن يعطرن مطارنة كما يعطرنهم البطاركة ، لأنه إنما يكرم باسم البطريكية من غير أن يكون له سلطان ذلك^(٣٣) »

ولهذا المطران المصري مكانة محترمة في نظر الحبشه ، كما أن لأوامر البطريق المصري من الاعتبار بقدر ما لشريعته من الحرمة في عين الأقباش . يقول العمري « وإذا كتب إليه - أي إلى ملك الحبشة - كتابا فأتى ذلك .

(٢٩) انظر نص الخطاب في : Pankhurst, pp. 58-59

(٣٠) Bury, II, p. 322, Trim, p, 39, Budge, pp. 150, 243

(٣١) الجواهر الحسان ص ٩

(٣٢) يلاحظ أن صلاة الحبشة الدينية بمصر قد انقطعت خلال الاحتلال الإيطالي ، ثم استؤقت

عقب عودة هيلاسلاسي إلى الحكم . Trim., p. 25

المقريري : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣

القلقشندی : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٥ ص ٣٢٢-٣٢٣

(٣٣) ابن العسال : كتاب القوانين (قانون رقم ٤٢ من القوانين النيقية) ص ٢٣

الكتاب إلى أول مملكة ، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علم ولا يزال يحمله بيده حتى يخرج من أرضه وأرباب الدولة في تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة ، فإذا خرجوا من أرضهم تلقاهم من يليهم أبدا ، كذلك في كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أعمره ، فيخرج صاحبها بنفسه - أى الملك - ويفعل مثل ذلك الفعل الأول ، إلا أن الطران هو الذى يحمل الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك ، ثم لا يتصرف الملك فى أمر ولا نهى ولا قليل ولا كثير حتى ينادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد فى الكنيسة ويقرأ والملك واقف ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمر به»^(٣٤).

وخلال حكم الملك الأكسوس ال عامدا (Al 'Amida) دخلت الرهبانية والديرية حوالى عام ٤٨٠ م ، وذلك حين وفد على الحبشة عدد كبير من الرهبان وأسسوا عدة أديرة فى مناطق مختلفة ، منها منطقة تيجرى ، ويقال إن بعثة مكونة من تسعة رهبان قديسين من أصل سورى جاءت من مصر وروما ودخلت أثيوبيا بقصد إصلاح العقيدة وتأسيس الأديرة ، وينسب إلى أعضائها ترجمة الإنجيل من الإغريقية إلى لغة الجعز الوطنية ، بدليل وجود بعض الألفاظ السوربانية فى لغة الجعز ، أدخل هؤلاء الطقوس المتبعة فى الإسكندرية ، ومن أولئك التسعة الأب ألف (Alef) مؤسس دير بحزا والأب ميخائيل (Za-Michael)^(٣٥) مؤسس دير برادامو فى تيجرى وهكذا . . ، ويبدو أن كلا من أولئك الرهبان التسعة قد أسس ديراً شمالي الحبشة وجمع حوله طائفة من الرهبان .

والملاحظ أن الرهبانية التى انتشرت فى الحبشة كانت على النظام الباخومى المصرى. نسبة إلى الراهب باخوم (١٩٢-٣٤٦م) وهى الرهبانية الاجتماعية أو الديرية^(٣٦). وفى

(٣٤) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٣٠-٣١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٨-٣٠٩

(٣٥) انظر عابدين ص ١٤

(٣٦) Munier (H.): L'Egypte Byzantine (Précis de l'Hist. d'Egypte) T. II, pp. 14-18

النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وفد كثير من الرهبان الأقباط من مصر وأدخلوا في الحبشة عدة كتب دينية مثل كتاب الصلوات وأناجيل الحواريين . وهذه كلها ترجمت إلى لغة الجعز^(٣٧) .

هكذا كان دخول المسيحية وما تفرع عنها من نظم إلى الحبشة ، ولهذا أثره الكبير في تاريخ الحبشة الديني والسياسي ، إذ غدت الكنيسة الحبشية مرتبطة بكنيسة مصر منذ البداية ، وبكنيسة ييزنطة إلى حد ما ، نظرا لأن الامبراطورية البيزنطية تعد نفسها حامية للمسيحية ، ومعنى هذا ارتباط الحبشة المسيحية بالحضارة الإغريقية المنتشرة في حوض البحر الأبيض على نطاق أوسع مما كان عليه الأمر إبان وثنيتها . ومن جانب آخر ارتبطت الحبشة بالمسيحية في جنوب بلاد العرب بل أُنحت ثابثة عن ييزنطة في رعاية المسيحيين باليمن ونصرتهم عند الحاجة . غير أن ارتباطها بالإسكندرية كان بطبيعة الحال أقوى من صلتها بغيرها ، ولا سيما بعد اعتناق العرب في الجزيرة العربية للإسلام . وهناك الأثر الثقافي واللغوي ويتمثل الأخير في دخول بعض تحسينات على اللغة الحبشية القديمة ، وتسرب بعض الألفاظ السوربانية إليها^(٣٨) .

على أن البارز في أثر المسيحية في الحبشة ، هو تعصبها الشديد لمسيحياتها يقول المقرئى : « والحبشة يتشددون في دياناتهم تشددا زائدا ويمادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة ويمادون البطائفة الملكية (المملوكية) من النصارى^(٣٩) . ولعل مبعث هذا التعصب ضد الإسلام خاصة هو إحاطة الإسلام للحبشة من جميع الجهات تقريبا ونشاط الدعاية الإسلامية وازدياد الرقعة الإسلامية في البلاد الحبشية ، كما أن اختلاط الأهداف السياسية بالحماس الديني قد أدى إلى حدة هذا التعصب ،

Coulb. , pp. 168-170; Trim., pp. 22-23, 40; Budge, (٣٧) pp, 152-3 .

(٣٨) انظر عابدين ص ٢٠-٢١

(٣٩) الإلام ص ٣

وربما كانت الأهداف السياسية هي الباعث الأكبر على الحروب التي نشبت بين الحبشة والممالك الإسلامية التي جاورتها^(٤٠).

ومن حيث علاقة الحبشة ببلاد العرب قبل الإسلام ، فالملحظ أن هذه العلاقة قد بدأت تجارية ، فيذكر عن دولة أكسوم في أول بروزها أنها أخذت ترسل البعثات إلى الجهات المختلفة ومن بينها اليمن ، وحين بدأت توسعها الإقليمي ، عبرت البحر الأحمر ، وأول غزوها في اليمن كان في الفترة الواقعة بين عامي ٢٧٧، ٢٩٠م واستطاعت بالفعل أن تستولي على اليمن في الفترة ما بين ٣٠٠م ، ٣٧٨م واستولى الملك عيزانا على اليمن حوالي عام ٣٢٠م أو ٣٤٢م بدليل النقش الذي تركه مسجلا فتوحه^(٤١)؛ غير أن الحميريين (١١٥ ق م - ٥٢٥م) تمكنوا من طرد الحبشة التي ظلت تدعى سيادتها على اليمن . ولما كانت المسيحية قد انتشرت في جنوب بلاد العرب ، وكانت الامبراطورية البيزنطية تعتبر نفسها حامية للمسيحية ، وهناك ارتباط بين كنيسة الحبشة وبين بيزنطة ، فقد بدأ عامل جديد هو العامل الديني ، لحد دولة أكسوم على التدخل في اليمن لحماية المسيحية ، ويحتمل أن الغزو الحبشي تكرر على عهد الامبراطور البيزنطي زينو (٤٧٤ - ٤٩١م) أو أنسطاسي (٤٩١ - ٥١٨م) ، وخلال تلك الفترة أخذت اليهودية تزحف إلى اليمن من مستعمراتها بالحجاز في يثرب وخيبر، على عهد الامبراطور البيزنطي جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) ، وحينئذ ظهر أمير في اليمن هو ذونواس الحميري ، اعتنق اليهودية وحاول طرد الأحباش ، وعذب النصارى ، ويقال إن حملة الاضطهاد العنيفة التي شنها ضد النصارى في بلاده ، كانت ردا على ما لحق اليهود من اضطهاد في الامبراطورية البيزنطية^(٤٢). فضلا عن العامل الوطني، تدخل ملك الحبشة

(٤٠) انظر عابدين ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤١) انظر ما سبق .

(٤٢) Bury; p. 323

إلى أصبحه Ella Asbeha (٥١٤ - ٥٤٢ م) واستعاد سلطانه عام ٥١٩/٥٢٠ م . غير أن ذا نواس استطاع التغلب على الحبشة واسترد سلطته وأمعن في اضطهاد النصارى وتوجه إلى نجران عام ٥٢٣ م وطلب إلى أهلها اعتناق اليهودية فأبوا ، فقتلهم وعذبهم وحفر لهم أخدوداً ، وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم « قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . . . »^(٤٣) ثم أرسل ذو نواس إلى المنذر ملك الحيرة وحثه على أن يقضى على المسيحيين في بلاده ، وحين وصلت سفارته إلى المنذر وهو في معسكره بالرملة في يناير سنة ٥٢٤ م كان بحضرته سمعان رئيس المينوفيزيتيين في الامبراطورية الفارسية ، مرسلًا من قبل الامبراطور جستين الأول ليفاوض المنذر في الصلح ، فلما سمع ما فعله ذو نواس بنصارى نجران تملكه الفزع والرغبة في الانتقام ، وأسرع لإشاعة هذا الخبر بين المسيحيين المينوفيزيتيين في المدن الكبرى أمثال أنطاكية وطرسوس وغيرها^(٤٤) .

أرسل بطريق الإسكندرية المعاصر يومئذ وهو تيموش (Timothy) رسالة إلى ملك الحبشة لينهض للانتقام لضحايا نجران ، ويحتمل أن الامبراطور جستين الأول كان قد اتفق مع بطريق الإسكندرية على مخاطبة ملك الحبشة وهذا فضلاً عن استنجد نصارى نجران بملك أكسوم وكان رسولهم هو ذو ثعلبان الأصفر^(٤٥) ، ولما لم يكن لدى إل أصبحه سفن كافية للغزو طلب مدداً من الامبراطور جستين ، وهو يعلم حق العلم العداء الزمن بين بيزنطة وفارس ، وأن الحميريين قد حالفوا الفرس وأن ذا نواس لا يعدو أن يكون صنعة الفرس . بمعنى آخر إن نزاع الحبشة واليمن كان صدى للنزاع بين فارس والروم ، وسرعان ما استجاب امبراطور بيزنطة ، فقام ملك الحبشة على رأس جيشه وقضى على ذى نواس ٥٢٤ م / ٥٢٥ م الذي آثر أن يقتحم البحر بفرسه على ألا يقع أسيراً في يد الأحباش^(٤٦) .

(٤٣) سورة البروج آية ٤ وما يليها .

(٤٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ Bury, p. 234

(٤٥) ابن سعد الحميرى : منتخبات في تاريخ اليمن ص ١٥

(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٨ - ١٧٠

ثم عين على اليمن مسيحياً من حمير هو سميفع أشوع (Esimiphaaios) كملك تابع له (٤٧) .

كان هذا هو الوضع السياسى لليمن وأكسوم عند ما أرسل الامبراطور جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) رسوله جوليان عام ٥٣١ م إلى بلاط ملك الحبشة وبلاط ملك حمير المسيحي ليفاوض الدولتين في الاتحاد والتحالف ضد فارس ، وافق ملك الحبشة ووعد بحرب اقتصادية ضد فارس مؤداها قيام الحبشة بالقضاء على احتكار الفرس لتجارة الحرير ، وذلك بالعمل على نقل هذه السلعة على سفن حبشية رأساً من سيلان إلى موانئ البحر الأحمر ، وقد نجحت هذه السياسة وأفادت الحبشة مادياً . كذلك وافق ملك حمير باعتباره تابعاً لملك الحبشة . ولما كانت نجد في ذلك الوقت خاضعة لخمير وأميرها قيس كان قد فر هارباً لقتله أحد أقرباء ملك حمير ، فقد فكر جستينيان في استغلال هذه الحالة بأن يستصدر عفواً عن قيس ، على أن يقوم بمعاونة حمير حريياً ضد فارس ، غير أن حمير لم تستطع القيام بأى عمل حربي ضد فارس لبعد الشقة (٤٨) .

قامت بعد ذلك فتنة في اليمن انتهت بتدخل ملك الحبشة وهرب السميفع وتولية أبرهة (Ella Abreha) حاكماً على اليمن وأرباط حاكماً على حمير ، ولكن الأمور لم تلبث أن تعقدت بسبب تنافس أبرهة مع أرباط . تمكن أبرهة من قتل أرباط والاستقلال بحكم اليمن حوالى عام ٥٣١ م ، وقد جرح أبرهة خلال حربه ضد أرباط ومن أجل ذلك سمى الأشرم فقد شرم حاجباه وأنتفه وشفته ، ورفض أبرهة دفع الجزية إلى النجاشي إل أصبحه ، ولما فشل النجاشي في إقناعه ، وافق على جعله ملكاً على اليمن ، وعندئذ انتحل أبرهة لنفسه لقب « ملك الحبشة » . أما النجاشي فيذكر عنه أنه بعد عودته من اليمن ترهب وأرسل تاجه إلى بيت المقدس ليعلق بجوار قبر المسيح ، وربما كان النجاشي المعروف باسم « بيت إسرائيل » وهو ابن إل أصبحه هو الذى

(٤٧) عابدين ص ٥٧ ؛ Budge, pp. 261-263

(٤٨) Coulb., p. 183; Bury, pp. 325-7

اعترف بسلطة أبرهة باعتباره ملكاً على اليمن ، ثم حكم في الحبشة بعد بيت إسرائيل أخوه « جبره مسقل » (Gabra Maskal) أى عبد الصليب عام ٥٥٠ م وامتد حكمه حتى ٥٧٠ أو ٥٨٠ م^(٤٩) .

وخلال تلك الفترة كان أبرهة فى اليمن يعمل على التوسع لحسابه دون نظر إلى النجاشى وبنى كنيسة فى صنعاء المعروفة باسم القليس (Kalis) (أى كنيسة) وجعلها أروع تجميل ، وأرسل إلى ملك الحبشة ينبئه بأنه بنى له كنيسة رائعة ، وأنه يعزم على تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، كما أرسل إلى إمبراطور بيزنطة - جستنيان - ليساعده ، فأرسل له بعض قطع الرمر لزخرفة الكنيسة . ولما سمعت العرب بذلك ، قام رجل من كنانة واستطاع أن يدخل الكنيسة حيث عبث بمقدساتها ، فاستشاط أبرهة غضباً وصمم على هدم الكعبة ، وحشد جيشاً استخدم فيه الفيلة ، وهذه هى الحملة التى أرخ لها بعام الفيل حتى عام ٥٧١ م وأشير إليها فى القرآن الكريم « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . » وقد فشلت . وفى ذلك العام ولد النبىؐ صلى الله عليه وسلم .

توفى أبرهة بعد ذلك وخلفه ولداه يكسوم ومسروق ، وخلال حكم مسروق قامت ثورة وطنية باليمن تزعمها ذوزن ، ثم ابنه من بعده وهو سيف بن ذى يزن وابنه الآخر معديكرب ، انتهت هذه الثورة بطرد الأحباش من اليمن بمساعدة الفرس ، وأضحت اليمن تابعة للفرس منذ عام ٥٩٠ م خلال حكم الملك الفارسى خسرو الثانى (٥٩٠ - ٦٢٨ م) ، وظلت كذلك حتى فتحها المسلمون عام ١٣ هـ (٦٣٤ م)^(٥٠) ومنذ تلك الفترة بدأت دولة أكسوم الحبشية فى التدهور والانحلال^(٥١) .

(٤٩) Budge, pp. 263-265

(٥٠) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٦ ، ١٧٨ - ١٧٩ ؛ منتخبات فى تاريخ اليمن

ص ٥٥ ؛ الجواهر الحسان ص ١١

(٥١) Trim., p. 42; Budge, pp. 262-9

تلك صفحة من تاريخ الحبشة وعلاقتها ببلاد العرب حتى قبيل ظهور الإسلام
أى حتى مطلع القرن السابع الميلادى ، وهو القرن الذى شهد انتشار الإسلام
والفتوحات الإسلامية .

فلما ظهر الإسلام واشتد إيذاء قريش للنبي وأصحابه ، ورأى الرسول
ما يصيب أصحابه من البلاء وأن عمه أبا طالب لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من بلاء ،
قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى
أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »^(٥٢) . وتذكر المراجع العربية أن هذا
الملك الحبشى هو أسحمة ابن الحر أو ابن أبحر وتفسر كلمة أسحمة بكلمة (عطية)^(٥٣) .
وتكاد تتفق المراجع الأجنبية على هذا الاسم Ella Saham أو Ella Asham
وهو أبو أرماح (Armach)^(٥٤) الذى يعتبره Coulbeaux أنه الملك الحبشى
المعاصر للنبي^(٥٥) وقد أورد السيوطى عدة أسماء له كلها متشابهة منها : صحمه وصمحه
وأصحمه ومصحمه وأصخمه وأصحبه^(٥٦) .

ويرجح أن الرسول قد نصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة نظرا لمعرفة العرب
بأرض الحبشة خلال الاتصالات التجارية القديمة ، يقول الديار بكرى : « وكانت
أرض الحبشة متجرا لقريش »^(٧٥) كذلك كان نهوض الحبشة للأخذ بيد المسيحيين
المضطهدين باليمن أثر فى هذا الاتجاه الإفريقى ، وإلى هذا وذاك يضم تأثر ملك الحبشة
بتعاليم المسيحية والرهبة اللتين وفدتا إليه من مصر .

(٥٢) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٣٤٣ ؛ السهيلي : الروض الأثف
ج ١ ص ٢٠٤ .

(٥٣) تاريخ يعقوبى ج ٢ ص ٢٢ ؛ الروض الأثف ج ١ ص ٢٠١ ؛ صبح الأعشى ج ٥
ص ٣٢٢

(٥٤) Budge, pp. 271-3; Trim., p. 46

(٥٥) Coulb., pp. 205-7

(٥٦) السيوطى : رفع شأن الحبشان (مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ تيمور بدار الكتب)
ورقة ٢٨ ؛ انظر كذلك : تنوير النباش .

(٥٧) الديار بكرى : تاريخ الحميس فى أحوال أنفس قيس ج ١ ص ٢٨٨

خرج المهاجرون الأولون قاصدين الحبشة ، في رجب من السنة الخامسة من البعثة الثانية من إظهار الدعوة وذلك عام ٦١٥ م وعبروا البحر في مجموعات قليلة ، ويقال إنهم استأجروا سفينة بنصف دينار^(٥٨) ومن أوائل هذا نفر عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من بنى أمية ، ومن بنى عبد شمس : أبو حذيفة بن عتبة وامراته سهلة التي ولدت له بأرض الحبشة ابنه محمد ، ومن بنى أسد الزبير بن العوام ، ومن بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى عبد الدار مصعب بن عمر وغيرهم ؟ ثم خرج جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء ، وهذه ولدت له بالحبشة ابنه عبد الله وتتابع المسلمون ، حتى بلغ عدد المهاجرين نحو ٨٣ رجلا باستثناء أبنائهم الذين خرجوا معهم صفارا أو ولدوا بالحبشة^(٥٩) .

أمن المسلمون بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشي وعبد الله ، وأحسن النجاشي نجوارهم . تقول أم سلمة : لما نزلنا بأرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي : أمننا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا تؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه^(٦٠) .

وقد ذكر بصدد هذه الهجرة كثير من الشعر يصف ما كان يقاسيه المهاجرون من اضطهاد وما آل أمرهم إليه من إعزاز وتكريم ويتناول بعضه عتاب قريش وتقرعها على كفرها وموقفها . من ذلك قول أحد المهاجرين وهو عبد الله بن الحارث ابن قيس بن عدى :

كل امرئ من عباد الله مضطهدٌ يبطن مكة مقهور ومفتون
إنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والخزاة والهون

(٥٨) المصدر السابق .

(٥٩) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ - ٣٥٣ ؛ الروض الأثف ج ١ ص ٢٠٨ ؛ الخيس

ج ١ ص ٢٧٩ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٢٣

(٦٠) الروض الأثف ج ١ ص ٢١١ ؛ تنوير الغيش :

وقوله :

تلك قريش تجحد الله حقه كما جحدت عاد ومدين والحجر^(٦١) .
ولا زيد أن نستطرد في ذكر أمثال هجرات المضطهدين من أصحاب العقائد
والمذاهب فهذا أمر معروف في التاريخ ، فاضطهاد المسيحيين واضح على يد الأباطرة
الوثنيين مما كان من بين أسباب نشوء الرهبنة والديرية ، واضطهاد أصحاب المذاهب
المختلفة ، ثم ما عرف في فجر العصور الحديثة من اضطهاد أصحاب العقائد المخالفة مما
كان من بين نتائج نشوء بعض المستعمرات الإنجائزية على الساحل الشرقي لأمريكا ..
وهكذا ...

أما قريش ، فقد آلتها أن ترى أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم آمنين بأرض
الحبشة ، حيث أصابوا الدار والقرار ، فآتمرت بينها وقر رأيها على إيفاد سفارة إلى
النجاشي .. تطلب عودة المهاجرين ، وعضوا هذه السفارة رجالان جليدان هما : عمرو
ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ؛ جمعت لهما قريش الهدايا للنجاشي ورجال حاشيته ،
ولما علم أبو طالب بما استقر عليه عزم قريش ، بعث برسالة إلى النجاشي يوصيه بابنه
وصحبه ومما جاء في هذه الرسالة :

تعلم ، أبيتَ إلا أن ، أنك ماجد كريم فلا يشقى لديك المجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة وأسباب خير كلها بك لازب
وأنت فيض ذو سجال غزيرة ينال الأعادي نفعها والأقارب^(٦٢)
اقتضت خطة قريش أن تبدأ السفارة بتقديم الهدايا أولا إلى بطارقة النجاشي
قبل الاتصال به حتى تضمن معاونة هؤلاء البطارقة ، تقدم القاصدان إلى البطارقة
بقولها :

(٦١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٧ ؛ المصادر السابقة .

(٦٢) تاريخ يعقوب ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ ؛ الروض الأوفى ج ١ ص ٢١١ - ٢١٢ ؛

المخمس ج ١ ص ٢٨٩ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٧ ؛ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧

« إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردوهم إليهم ، فإذا كلنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم » (٦٣) .

وعد البطارقة بالإيجاب ؛ وفي حضرة الملك أعاد السفيران مقاتلتهما السابقة وأمن البطارقة على ما قالوا ، غير أن النجاشي غضب ، قائلا : « لا ها الله إذ لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألمهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون ، أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهم وأحسنتم جوارهم ما جاوروني » .

استدعى النجاشي المهاجرين وسألمهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ وهنا انبرى جعفر بن أبى طالب وتحدث عن المهاجرين مجيبا النجاشي :

« أيها الملك ! كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فدعا علينا قومنا فعدبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين

ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترنالك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ألا
نظم عندك أيها الملك» (٦٤).

ولما سأله النجاشي عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله ، قرأ عليه
صدرا من سورة مريم : كهيص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا . . فبكي النجاشي
كما بكي من حوله من أساقفة ثم عقب بقوله : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من
مشكاة واحدة والتفت لسفيري قريش رافضا ما طلبا بقوله . . أدفع إليكم قوما في
جوارى على دين الحق وأنتم على دين الباطل ؟ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا
يكادون (٦٥).

حينئذ أيقن السفيران بفشل ما سفرا فيه ، فقال عمرو لزميله : « والله لآتينه غدا
بما أستأصل به خضراءهم » وحاول زميله صرفه عما اعتزم القيام به بحجة أن لهم أرحاما
وإن كانوا قد خالفوا قومهم ، ولكن عمرو لم يعدل عن تصميمه ، وغدا على النجاشي
صبيحة اليوم التالي وقال له : « إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، إنهم يزعمون
أن المسيح عبد مملوك » حقيقة تغير قلب النجاشي ، لكنه لم يشأ أن يتخذ بشأنهم قرارا
حتى يناقشهم ، فاستقدمهم وسألهم عما يقولونه في عيسى ، فأجاب جعفر : تقول فيه
الذي جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاها إلى
المذراء البتول (٦٦) فضرب النجاشي الأرض بيده وأخذ منها عودا ثم قال : « والله ما عدا
عيسى بن مريم عما قلت هذا العود ! اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (أي آمنون) »
وكأنه أراد أن يقطع كل حديث ومحاولة بشأن المهاجرين ، فرد على قريش هداياها وقال :

(٦٤) اليعقوبي ج ٢ ص ٢١ ؛ الخميس ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٨ ؛
رفع شأن الحبشان ورقة ٢٤ - ٣٠

(٦٥) اليعقوبي ج ٢ ص ٢١ ؛ ابن الأثير ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ؛ الروض الأتق ج ١ ص ٢١٣

(٦٦) الخميس ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ؛ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٠

« لا حاجة لي بها ، فوالله ماأخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في قاطيعهم فيه » (٦٧) .

على هذا النحو كانت حماية النجاشي للمهاجرين الأولين من المسلمين أوائل القرن السابع الميلادي ولم يثن هؤلاء المسلمون عن رد صنيعة حتى لاحت الفرصة وكان ذلك عندما نشب نزاع بينه وبين منافس له على العرش — لعله من أبناء عمه — فخشي المسلمون أن ينتصر المنافس وهو لا يعرف من حق المهاجرين ما يعرفه النجاشي ومن ثم انضموا إليه في القتال حيث برز الزبير بن العوام وصحبه حتى انتصر صاحبهم (٦٨) .

ظل المهاجرون في أرض الحبشة ، وولد لهم الأولاد بل أن أولاد جعفر بن أبي طالب قد ولدوا بأرض الحبشة وقد عاد بعضهم على أثر ظهور أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة (٦٩) وفي عام ٦٢٧ م ، وهي السنة الخامسة للهجرة ، أرسل النبي صلى الله عليه وسلم للنجاشي رسولا من قبله هو عمرو بن أمية الضمري لإعادة المهاجرين (٧٠) ويقال إن عبيد الله بن جحش وهو من المهاجرين ظل بالحبشة وارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، وأخذ يغري المسلمين على الارتداد وتعتبر ردة هذه أول ردة في الإسلام (٧١) .

(٦٧) يشير النجاشي في إجابته هذه إلى قصة زوال الملك عنه ورجوعه إليه ، وتلخص في ثورة قامت بالحبشة ، انتهت بقتل أبيه وتولية عمه ، فعاش ابن القليل في رعاية عمه حتى غلب عليه أمره بحذقه ونبوغه ، وحينئذ خشي أنصار عمه من أن ينتهي الأمر بنقل الملك إليه ، فينتقم منهم لمقتل أبيه ، ولذلك سعوا فيه عند عمه حتى أذن لهم ببيعه ، فباعوه ، وفي ذلك الوقت قتل عمه بصاعقة ، ولم يكن هناك من أبناء ذلك العم من يصلح للملك ؟ ولنا أسرع الأحباش واسترجعوا من باعوه وولوه ملكا عليهم (الروض الأتق ج ١ ص ٢١٣ ؛ سيرة ابن هشام ص ٣٦٢ - ٣٦٣ ؛ الخميس ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ ؛ رفع شأن الحبشان ورقة ٤٩ - ٥٠) .

(٦٨) المراجع السابقة .

(٦٩) الخميس ج ١ ص ٢٩١

(٧٠) -الروض الأتق ج ١ ص ٢١٤ ؛ يعقوبي ج ٢ ص ٢٢

(٧١) الطراز المنقوش ورقة ٢٢-٢٤

أما عن إسلام النجاشي فقد جاء بصده أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل في عام ٦ هـ كتاباً إليه يدعو فيه إلى الإسلام ، ورسوله هو عمرو بن أمية ونص الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة - سلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرأً وتقرأ معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإني أدعوك وجنودك إلى الله ، فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي ، والسلام على من اتبع الهدى » (٧٢) .

أجاب النجاشي بهذه الرسالة التي أظهر فيها قبوله للإسلام ، ونصها : « بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمه - سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام . أما بعد ، فقد وصلني كتابك يا رسول الله ، فمأذكرت فيه من أمر عيسى بن مريم ، فو رب السماء والأرض أن عيسى ابن مريم لا يزيد على ما ذكرت تفروقا واحدا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وشهدنا بأنك رسول الله ، صادقا مصدقا ، وقد بايعتك بواسطة ابن عمك جعفر وأسلمت على يديه الله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبيجر ، فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فملت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقوله حق ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ... »

وعندما تسلم الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرسالة ، علق بقوله : « أتركوا الحبشة ما تركوكم » . ولما بلغه نبأ وفاة النجاشي عام ٥٩ (٦٣٠ م) قال : « توفي اليوم

(٧٢) ابن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٠١ ؛ ابن خلدون : تاريخه

ج ٢ ص ٣٦ - ٣٧ ؛ الطراز المنقوش ورقة ١٩

رجل صالح من الحبشة ، فلهما فصلوا عليه « (٧٣) . وهناك رسالة أخرى أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لخطبة أم حبيبة بنت أبي سفيان وهي التي ارتد زوجها عبد الله بن جحش فأجاب النجاشي ودفع لها الصداق وأرسلها محملة بالهدايا (٧٤) .

أما أن النجاشي أعلن قبوله للإسلام فهذا أمر يكاد يكون محققا إذ أجمعت عليه المراجع العربية تقريبا ، أما أنه اعتنق الإسلام فعلا وآمن وترك النصرانية ، فهذا ما لا يمكن التحقق منه إثباتا أو نقيا ، ويرى بعض المحدثين أن النجاشي أظهر الإسلام هو وأساقفته لهدف سياسي بحث لا بدافع العقيدة الدينية ، فقد رأى انتصارات الإسلام الساحقة داخل الجزيرة العربية ، وخشى من امتداد الفتوح الإسلامية إلى بلاده ، وهو في وضع لا يمكنه من الدفاع أو المقاومة كما أنه لا يجب أن يدخل في حرب تنجلي عن قتل كثير من رعاياه ومن ثم كانت دبلوماسية في إظهاره للإسلام وإرسال الهدايا وإنقاذ بلاده وحمايتها من التمرض للغزو والفتح . ويدعم صاحب هذا الرأي تفسيره بأن الحبشة ، من بين سائر بلاد الشرق الأوسط ، استطاعت أن تحتفظ بنصرايتها بعد حكم أرماع (٧٥) وعلى ذلك يمكن أن يؤرخ لدخول الإسلام في الحبشة بالهجرة الأولى وإظهار النجاشي أرماع (أحممة) للإسلام وكثر توافد المسلمين بعد ذلك للأهداف التجارية ، بعد أن دانت لهم بلاد العرب ، وأنصحوا يتحكمون في طرق القوافل داخل الجزيرة العربية ولا سيما بين عدن وصنعاء ، كما أسهموا بنشاط كبير في التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر . وعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل العربي للبحر الأحمر ، كما اخترق عدد من هؤلاء ، الحدود الحبشية وأسسوا

(٧٣) الطبري ج ٢ ص ٢٩٤ ؛ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٧ ؛ الجواهر الحسان ص ١٣-١٤ ؛

أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ رفع شان الحبشان ورقة ٥١ - ٥٤

(٧٤) الخميس ج ١ ص ١٤٢ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ ؛ السيوطي : أزهار العروش

في أخبار الحبش (مصور عن نسخة بالأسكوريال ميكروفلم رقم ٢٧ تاريخ بدار الكتب) - غير مرقم الصفحات .

Budge, p. 273 (٧٥)

لهم مراکز استقرار بالتدريج ، بل إن العرب المسلمين استطاعوا بنشاطهم أن يتحكموا في ميناء عدوليس (Adulis) وهو ثغر الحبشة ، فأدى ذلك إلى حرمان الحبشة منه ، وإلى قطع صلاتها بالعالم الخارجى إلا عن طريقهم ، فلم يعد هناك مخرج للمنتجات الحبشية ، مما أدى في نهاية الأمر إلى القضاء على تجارة الحبشة الخارجية ، وإلى قلة عدد التجار الأجانب من غير العرب بدولة أكسوم^(٧٦) فضعف العنصر الإغريق وزالت اللغة الإغريقية التي كانت لغة الثقافة بالعاصمة وذبلت بزوالها الحضارة الهلينية ويقال إن آخر كتاب ترجم عن اللغة الإغريقية إلى لغة الجعز هو كتاب المسائل الدينية وذلك عام ٦٧٨م كما تركت دراسة الآداب القديمة ، وقل بناء الكنائس ولم تعد تضرب عملة جديدة. وآخر عملة ضربت في أكسوم تحمل اسم جرسم (Gersem) وحاناز الثاني (Hataz) ويرجع تاريخ هذه العملة إلى الفترة بين بداية القرن الثامن والقرن العاشر الميلادى . اقترن هذا التدهور العام بضعف السلطة المركزية وقيام الحكام المحليين بمنافسة بعضهم البعض والتوسع على حساب جيرانهم؛ ويعتبر أولئك الحكام أتباعا أو أفضالا ، (Vassals) للملك لا يخضعون له إلا إذا كان قويا قادرا على بسط نفوذه عليهم . هذا وقد ضعف أمر العقيدة المسيحية نفسها برجوع كثير من سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية عن المسيحية والعودة إلى اعتناق الوثنية القديمة^(٧٧) .

وفي وسط هذه الغمرة التي انحطت فيها مملكة أكسوم كان الإسلام يسير بخطى واسعة من الساحل إلى الداخل وتكونت للمسلمين مراکز استقرار على طول الساحل الشرقى لإفريقية امتدت من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى مقدشو ومركا وبراقا وممبسا وزنبار وكلوه على المحيط الهندى .

امتزج المسلمون بالوطنيين وصاهروهم ، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيا ، واعتنقته

Ibid, p. 274 (٧٦)

Budge, p. 274; Trim., pp. 47-8 (٧٧)

عناصر الساهو والعفر شرق الحبشة ، كما أنه امتد إلى مناطق السيدامو وشوا الشرقية جنوب الحبشة ، وسرعان ما تأثرت به القبائل الصومالية بعد ذلك (٧٨) .

وربما كان أول احتلال رسمي لبعض المناطق الاستراتيجية في البحر الأحمر تجاه الساحل الإفريقي ما حدث عام ٨٨٣ (٧٠٢م) على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموي (٦٥ - ٨٦ = ٦٨٥ - ٧٠٥م) كان ذلك حين تعرضت سواحل جزيرة العرب وتجارة العرب لنهب القراصنة الأحباش ، فقد سطا هؤلاء على ميناء جدة واستباحوها في ذلك العام ، مما أدخل الرعب والفرع في قلوب سكان مكة ، وحينئذ اضطر الخليفة إلى العمل على الضرب على أيديهم بوسائل فعالة ، واستقر الرأي على احتلال مجموعة جزائر دهلوك تجاه ميناء مصوع ، وتتكون هذه المجموعة من عدة جزائر أهمها : دهل وحرات وكبارى ودركه ونوره ونقره وكمران ، والأخيرة أكبر هذه المجموعة (٧٩) . ورغم أن الاحتلال العربي الإسلامي قد تم فإن هذا لم يحل دون تكرار هجمات القراصنة من ذلك هجومهم على ثغر جدة عام ١٥٣هـ (٧٧٠م) فاضطر الخليفة أبو جعفر المنصور إلى إرسال جيش لتفريق شملهم (٨٠) ..

أما منطقة البجة ، فالمعروف أن أول اتصال بها كان يوم هادنهم عبيد الله بن الحبش السلولي، وكتب لهم كتابا فرض عليهم به جملا إذا نزلوا بريف مصر تجارا غير مقيمين كما اشترط عليهم ألا يقتلوا مسلما أو ذميا ؛ فكثر المسلمون في بلادهم وشجعهم على ذلك غنى منطقة البجة بمعادن الذهب والزمرد والفضة والنحاس والرصاص والحديد، امتزج المسلمون بالبجاويين وصاهروهم وكان من نتيجة هذا دخول كثير من أهل البجة في الإسلام ولو أن إسلامهم كان ضعيفا كما أنهم لم يكفوا أذاهم عن المسلمين وهذا ما حمل الخليفة عبد الله المأمون على إرسال جيش لتأديبهم ، قام هذا

(٧٨) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٥١ ؛ Trim., pp. 51, 60

(٧٩) الإلام ص ٢٢ ؛ بوصيلي ص ٧ - ٨ ؛ Trim. 46-7

(٨٠) الجواهر الحسان ص ١٥

الجيش بقيادة عبد الله بن الجهم وقمعهم ثم وادعهم بكتاب كتبه لملكهم كنون بن عبد العزيز المقيم في هجر وذلك عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) ومما جاء في هذا الكتاب ... «هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين .. لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان ... أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون.. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمر المؤمنين... وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام، على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار ..» ثم حذرهم من الاعتداء على المسلمين ، وإن دخل أحد من المسلمين تاجرا أو مقيا أو مجتازا أو حاجا فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم .. ولا تمنعوا أحدا من المسلمين الدخول في بلادكم للتجارة فيها برا وبحرا ... لا تهدموا شيئا من المساجد التي ابناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولا وعرضا .

غير أن غاراتهم لم تنقطع فتجددت على عهد المتوكل الذي أسرع بإرسال جيش بقيادة محمد بن الله القمي عام ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) قمعهم به وصالحهم وتضمن كتاب الصلح عدم التعرض لأحد من المسلمين يريد العمل في استغلال المعادن .

تزايد عدد المسلمين المهاجرين والقيمين في منطقة المعادن بالبجة وأشهر القبائل العربية التي استقرت بها قوم من ربيعة وقحطان إلا أن قبائل ربيعة كانت أقوى العناصر حتى سادت وغلبت على من جاورها من العرب القحطانيين بحيث لم يأت القرن الرابع الهجري إلا وكان صاحب مناجم الذهب وغيره من المعادن هو بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة وازدادت قوته حتى كان يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن (٨٢)

(٨١) القرظي : الخطط - ١ ص ١٩٤-١٩٥

(٨٢) مروج الذهب - ١ ص ١٨٩ ؛ صبح الأعشى - ٥ ص ٢٧٣-٢٧٤

ومن حيث العناصر البجاوية ومدى انتشار الإسلام بينها قالواضح أن العنصر السائد في منطقة هجر هو عنصر تقيس البجاوى ومن فروع تقيس الحدارب وهؤلاء الآخرون هم الذين أسلموا وعاونوا العرب المشتغلين بالمعادن. وهناك من يقول إن الحدارب من العرب ، وهم يتحكمون في سواكن ولهم اتصال بسلاطين مصر من المماليك ، ويعرف زعيم الحدارب لدى أولئك السلاطين باسم الحدربي^(٨٣) أما الفروع الأخرى لتقيس أمثال عماعر ومناسة ، والزناج ، فقد بقيت على الوثنية مع مسالتها للعرب^(٨٤) .

ومن المراكز الإسلامية التي تأسست في منطقة شوا الشرقية مملكة يحتمل أنها قامت حوالى نهاية القرن الثالث الهجرى ونهاية القرن التاسع الميلادى (٢٨٣-١٩٦) بزعامة أسرة عربية تنسب إلى قبيلة غزوم القرشية ، وهى التى ينسب إليها خالد بن الوليد ، يقال إن أسلاف هذه الأسرة هاجروا عبر البحر الأحمر على عهد خلافة عمر بن الخطاب^(٨٥) كذلك قامت مشيخات إسلامية أخرى في تلك المنطقة وما يليها شرقا في عدال (Adal) ومورا (Mora) وهوبات (Hobat) وجيدايا (Jidaya) غير أن هذه جميعا لم تعمر طويلا نظر للخلافات والتنافس فيما بينهما فضلا عن أن عنايتها كانت منصبه على شئون التجارة ولا سيما تجارة الرق، فسرعان ما طوتها أقوى الإمارات الإسلامية في الوطن الحبشى وهى أماره أوفات^(٨٦) .

ولعل الفترة البارزة في التوسع الإسلامى في إفريقية الشرقية ، تقع بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين ، فهذه فترة التوسع المنظم للإسلام دينا ودولة من ناحية نشر العقيدة الإسلامية وتدعيم سلطان الممالك الإسلامية ولوعلى حساب بعضها البعض،

(٨٣) صبح الأعشى - ٥ ص ٣٧٤

(٨٤) صروج الذهب - ١ ص ١٨١ ؛ اليعقوبى - ١ ص ١٥٥ ؛ خطط - ١ ص ١٩٦ -

١٩٧ ؛ Trim., pp. 50-51

(٨٥) Trim., p. 58

(٨٦) انظر ما يلى :

داخل الوطن الأثيوبي ، فثلاث تحولت منطقة جوبا إلى الإسلام حوالى عام ١١٠٨ م ، وامتد سلطان المسلمين حتى منطقة البحيرات العظمى^(٨٧) .

والملاحظ أن الرقعة الإسلامية بإفريقية الشرقية عامة، قد أحاطت بالحبشة من الناحية الشرقية « وتقابل اليمن في الجزيرة العربية ». ومن أجل هذا الوضع الجغرافى نعتها المؤرخون بمنطة « الطراز الإسلامى » لأنها على جانب البحر كالطراز له^(٨٨) .

اشتهر فى هذا الطراز إمارات سبع أو ممالك سبع وهى : أوفات، دوارو وأرايينى وهديه وشرخا وبالى وداره^(٨٩) وهذه عدا المشيخات الإسلامية الممتدة على الساحل مثل عوان ومقدشو وكلوه وغيرها .

وقبل أن تناول الحديث عن كل منها تفصيلا نقرر بعض الملاحظات الهامة : إن تكوين هذه الممالك قد اتسم بالطابع السلمى التجارى أو الاقتصادى بصفة عامة إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية^(٩٠) ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية « فى أول أمرها على الأقل » . ويرجع ذلك إلى أن الحبشة هى موطن الهجرة الإسلامية الأولى « حيث أصاب المسلمون الدار والقرار » فلم تكن دار جهاد .

ثم إن هذه الممالك ارتبطت بالعالم الإسلامى الخارجى وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ودمشق والقاهرة . وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز فهناك رواق أهل الزيلع بالمسجد الأموى بدمشق . « يقول ابن بطوطة » وفى شرق المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج

Trim., p.62 (٨٧)

(٨٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤

(٨٩) العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ١١-١٢ ، النسخة المخطوطة ج ٢ ق ٣ ورقه ١٨٤

(٩٠) بوصيلى ص ٨-٩

ماء وهي لطائفة الزيايلة السودان^(٩١) . وكذلك أفرد رواق لهؤلاء بالأزهر ، يعرف برواق الجبرية .

ورغم هذه الصلة والارتباط ، فإنها كانت فيما بينها مفككة الأوصال ، لم يجمع بينها سوى الرباط الروحي ، فكثرت المنافسات واشتد النزاع حتى في داخل الإمارة الواحدة مما أضعفها جميعا . . يقول عبد الله الزيلعي « لو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم قدروا على المدافعة أو التماسك ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وافتراق الكلمة ، بينهم تنافس ومنهم من يترامى إلى صاحب الأحرة ويميل إليه بالطباع^(٩٢) . وبجانب هذه المنازعات تعتبر إماراتهم فقيرة من حيث الموارد الطبيعية رغم تحكمها في التجارة » وفي هذا الصدد يقول المقرئ - « وكلها ممالك ضعيفة قليلة المتحصل »^(٩٣) .

أما الوضع السياسي لهذه الممالك فهي خاضعة لملك الحبشة ، ويعد المؤرخون أمراءها من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده ، وهو بهم تمام المائة . ورغم أن الملك في هذه الإمارات وراثي في أسر معينة^(٩٤) إلا أن أمراءها لا يتولون العرش إلا بأمر من الحطى وموافقته ، فإذا مات أحدهم وكان من أهل بيته من يصلح للملك ، توجه إلى الحطى متزلفا إليه ، ومن ثم فجميع أمراء هذه الممالك لا يخرجون عن كونهم نوابا له^(٩٥) .

وعلى هذه الممالك ضرائب معينة في كل سنة تدفع لملك الحبشة من القماش والحري والكتان مما يجلب إليها من مصر واليمن والعراق^(٩٦) ، وتنفرد إمارة هدية بجزية من

(٩١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٧٣

(٩٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٢ ق ٣

ورقه ٤٧٧

(٩٣) الإلام ص ٦

(٩٤) انظر سلطنة بالي .

(٩٥) الإلام ص ٨ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(٩٦) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

نوع خاص ، وهي تقديم بنت من بناتها المسلمات في كل سنة ينصرها الحطى لنفسه ، وقد جرت هذه العادة بمقتضى معاهدة . يقول أهل هدية : « وحكم علينا . . ونطيعه مخافة أن يقتلنا ويحرب مساجدنا ، وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ونفسلها ونكفها بثوب ونصلي عليها ونحسب أنها ميتة ، ونعطيها له ، فإننا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك »^(٩٧) وهذا رغم ما هو معروف عن هدية بأنها أكثر الإمارات الإسلامية خيلا ورجالا ، ولعل أرجح تفسير لهذا التقليد هو ما هم عليه من ضعف الدين^(٩٨) .

أما نظم الحكم ومظاهره في هذه الممالك فهي متشابهة من حيث إن الملوك يتصدون للحكم بأنفسهم وإن كان لديهم القضاة والعلماء ؛ وجرت العادة أن يجلس الملك على كرسي من حديد مطعم بالذهب وحوله أكبر الأمراء جلوس فوق مقاعد أقل ارتفاعا من مقعد الملك ، وبقية الأمراء وقوف ، ولهم مواكب تقدمها الحجاب والنقباء لإفساح الطريق ويدق بالطبول أمام الملك وهذه الطبول معلقة في أعناق الرجال وتسمى الواحدة منها بالوطواط وأعظم هؤلاء الملوك ملك أوقات . إذا مشى توكأ على يدي رجلين . ونظام الأعطيات للجند ، ليس كما هو في سلطنة المالك المعاصرة لهم ، من حيث الإقطاعات أو الجوامك أو نحوها . وإنما لجنود هذه الممالك دواب سائمة ، ومن شاء منهم الزراعة فليزرع واستغل الأرض دون اعتراض ، وجرت عادة الملك أن يوزع على جنوده وأمراء جيشه بقرأ في كل عام وأكثر ما يعطى للأمر الكبير ٢٠٠ بقرة »^(٩٩) .

ومن حيث زى هذه الممالك الإسلامية : جرت العادة أن يعصب الملك رأسه بعصائب من حرير تدور برأسه مع بقاء وسط رأسه مكشوقا ، أما الجنود والأمراء فلهم عصائب

(٩٧) عابدين ص ١٥٧-١٥٨

(٩٨) انظر ما يلي

(٩٩) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٤-٣٣٥ ، مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١

من قطن ، ويابس الفقهاء العائم ، ويلبس العوام الكوافى البيضاء ويركبون الخيول بغير سرج ، وإنما توضع قطع من الجلد على ظهورها وسلاحهم الحراب والنشاب^(١٠٠). وهذه الممالك عامة زراعية ، تعيش عيشة متوسطة ، ومساكنها متواضعة تبني من الطين والاحجار والخشب ؛ وربما لخص القرى مظاهر أمرائها بقوله : « لافخامة لأموالهم »^(١٠١) ومن ناحية أخرى نلاحظ أن أهلها يحافظون على دينهم وعندهم المساجد والجوامع حيث تقام الجمع والجماعات ؛ ومع وجود العلماء والفقهاء والزهاد فليس لديهم مدارس أو خانات أو ربط أو الزوايا على النحو المعروف في مصر المعاصرة . والمذهب السائد فيها جميعا هو المذهب الحنفى باستثناء أوقات فإن غالب أهلها على الشافعية مع وجود الأحناف^(١٠٢) .

أما التعامل في سائر هذه الممالك فهو بالمقايضة سوى أوقات التي تجرى فيها العملة المصرية ، ودوارو حيث يوجد نوع من العملة وحدتها قطعة من الحديد تسمى الحكنة وجمعها حكنات ، وهي كما يصفها العمري والقرىزى ، طول الإبرة في عرض ثلاث إبرات ويبلغ ثمن البقرة مثلا بهذه الحكنات من ٧٠٠ - ٥٠٠٠ حكنة ورأس الغنم بثلاثة آلاف وهكذا^(١٠٣) . وربما كانت الحكنة معروفة في سائر الممالك الإسلامية بالحبشة ومعترف بها إلا في أوقات^(١٠٤) . ووحدة الكيل مكيال يسمى الرابعة ويعادل الوية بالكيل المصرى كما وإن وحدة الموازين هي الرطل وزنته اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية عشرة دراهم وأسعارها بصفة عامة رخيصة حتى قيل إن باستطاعة الإنسان أن يشتري حمل بغل من الحنطة بدرهم ، وأما الشعير فلا قيمة له^(١٠٥) .

نعرض بعد ذلك لهذه السلطنات كل سلطنة على حدة^(١٠٦) :

(١٠٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣-٣٣٤

(١٠١) الإلام ص ٦

(١٠٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٤ ، الإلام ص ٧

(١٠٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١ ، الإلام ص ٧

(١٠٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٩١ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣١

(١٠٥) المصادر السابقة .

(١٠٦) انظر الخريطة .

سلطنة أوقات: تعتبر أقوى سلطنة إسلامية قامت في الحبشة، بسبب تحكمها في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع، وقد أسسها قوم من قريش من بني عبدالدار أو من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب، قدم أولهم من الحجاز واستوطن مدينة أوقات. أولوفات، وقد اشتهر قوم منهم بالصلاح، وظهر من بينهم رجل يسمى عمر ويلقب «ولشمع»؛ حكم مدينة أوقات وأعمالها واعترف بسلطان النجاشي الذي ولاه لما نبه ذكره؛ ظل على ذلك حتى قوى أمره؛ ومدينة أوقات هي جبرة أو جبرت من أكبر مدن الحبشة وتقع غربي زيلع.

ويبدو أن تاريخها لم يتضح إلا حوالي عام ٥٧٠٠ (١٣٠٠ م) حين أورث عمر هذه السلطة لأولاده الأربعة أو الخمسة الذين تولوا عرشها واحداً بعد آخر وذلك بموافقة ملك الحبشة. ومن هؤلاء الورثة وسلاتهم من بعدهم من خرج على طاعة الخطي، ومنهم من سار وفق إرادته وأوامره، وأول من خرج منهم على سلطان ملك الحبشة: علي، حفيد عمر ولشمع، لكنه لم يلبث أن عاد لطاعته حين عزت أنصاره. كما أن أول من استبد بالأمور وحارب ملك الحبشة فعلاً وأسر الكثير من عساكره وغنم من أمواله: حق الدين الذي استطاع أن يجمع حوله الناس وأن يهزم جيوش الملك الحبشي سيف أرعد (١٣٤٤ - ١٣٧٢ م). ثم إن حق الدين هذا أول من خرج على أهله وحاربهم فقد اشتهر في أول أمره بالصلاح والتقوى ثم ما لبث أن رأى انصراف جده على عنه، وكراهية عميه له وهما: ملا أصفح وأبو بكر. انتهى أمره بإخراجه من مدينة أوقات ليقوم بحماية الضرائب يعض النواحي التابعة لها، وهناك عمل على تدعيم قوته وتكوين عصبة قوية من الأتباع، استطاع بهذه العصبة أن يحارب عمه أبا بكر ويقتله، فاستنجد العم الآخر ملا أصفح بسيف أرعد لكنه انتصر عليه، وقتل هذا العم. وأخيراً هجر حق الدين مدينة أوقات العاصمة، وأمر الكثير من أهلها بالهجرة معه إلى عاصمة أخرى أسسها في منطقة شوا، ومماها وحل، حيث سكن وأسكن من

هاجر معه من أوقات ، ومنذ ذلك الوقت انحطت مدينة أوقات وتخربت ولم تعد دار ملك^(١٠٧) .

والمعروف أن مدينة أوقات هي جبره أوجبرت ، وغلب اسمها على المنطقة المحيطة بها ، فيقال أوقات أوجبرت^(١٠٨) ويقصد بذلك جميع المنطقة بما فيها ميناء زيلع^(١٠٩) ، وتعتبر هذه الإمارات أقرب الإمارات الإسلامية في الحبشة ، إلى السواحل المسامتة لليمن وإلى مصر . وسلطان هذه الإمارة أقوى السلاطين المسلمين المجاورين له ، فكانوا يدينون له بالإحترام والتقدير ، بل إن الجميع كما يقول القلقشندي : « منقادون إليه »^(١١٠) .

تبلغ قوة هذا السلطان العسكرية نحو ١٥ ألف فارس وأكثر من ٢٠ ألف راجل^(١١١) وتتبعه إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما : مورا (Mora) وعدال (Adal) . ورغم أنه ليس من المعروف بدقة ، الوقت الذي اعتنق فيه رعايا أوقات الإسلام ، إلا أنه من أوقات وماحققتها أخذ الإسلام يتسرب وينتشر في منطقة شوا المحاذية غربا^(١١٢) .

أما الأحوال العامة لهذه السلطنة ، فهي خصبة التربة موفرة الماء من المطر ولها نهر صغير يجري فيها ، ومن منتجاتها قصب السكر والفاكهة والخضروات والحبوب مثل الحنطة والشعير والذرة . وتعتبر من حيث الأسعار رخيصة حتى إن عرجون الموز الذي يضم نحو ١٠٠ موزة يباع بربع درهم ، كما يباع طابق اللحم بدرهم ونصف ، ووزنة الطابق ٣٠ رطلا^(١١٣) . وتجري المعاملة في أوقات بدنانير مصر ودراهمها الواصلة

(١٠٧) الإلام ص ٩ - ١١ ، ٢٦ ؛ مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٨ - ٤٨١

(١٠٨) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٥

(١٠٩) الإلام ص ٦

(١١٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(١١١) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ ؛ المصادر السابقة .

(١١٢) Trim. , p. 67

(١١٣) الإلام ص ٦

إليها صحبة التجار ، وكذلك تتعامل بالذهب الذي يجلب إليها من منطقتي دامت وسحام وتساوى الأوقية منه من ٨٠ - ١٢٠ درهما على قدر جودة الذهب . أى أنه ليس لأوقات سكة مضروبة ، لأنه لو ضربت إحدى هذه الإمارات سكة في بلادها لم ترج في بلاد غيرها ويتكلم أهل أوقات العربية والحبشية ودينهم الإسلام على المذهب الشافعى مع وجود بعض الأحناف بينهم^(١١٤) .

وسلطنة أوقات هي التي تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة ، ولو أنها خضت فترة من الزمن لملكة دامت الوثنية ، ولكن هذا الخضوع لم يدم طويلا ، إذ وقع في مطلع تكوينها على عهد مؤسسها ولشمع ، ثم لم تلبث أن استعادت سيادتها واستقلالها بل واستطاعت أن تستقل عن الحبشة^(١١٥) .

سلطنة بالي: جنوب سلطنة دارة ويحدها شمالا نهر وبي ومن الجنوب نهر جران إلى دوريا ، وبهذا الوضع الجغرافى تتحكم في وداى الصومال ، والعنصر الغالب في سكانها عنصر السيداما ويسكن جنوبه فريق من عنصر الجالا ، وتعتبر هذه السلطنة أكثر بلاد الزيلع خصوبة وتختلف عن شقيقاتها الإسلامية في أن الملك فيها لم يظل كغيرها ، محفوظا في أسرة معينة ، بل حدث في القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى أن انتقل الحكم إلى رجل ليس من بيوت الملك ، وذلك بمساعدة ملك الحبشة^(١١٦) . وفى بقية المظاهر، تقترب هذه السلطنة من السلطنات الإسلامية وتسير العاملة فيها بالتبادل ، وأهلها على المذهب الحنفى^(١١٧) .

(١١٤) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨١ ؛ الإلام ص ٧

(١١٥) Trim., p. 67

(١١٦) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ ، ٣٣٢

(١١٧) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ الإلام ص ٨ ؛ Trim., pp. 67-68

سلطنة هدية: تقع غرب السلطنات الإسلامية وتجاور أرايني ، وتشغل مساحة واسعة بين نهري حواش وجيبي وليست حدودها معروفة بدقة شأنها كشأن باقي الولايات الإسلامية وتتكون من ٨ مقاطعات^(١١٨)، ورغم أنها دون أوقات في المساحة والإمكانيات إلا أنها أقوى الممالك السبع وأكثرها خيلاً ورجالا ، فيقال إن عدة جنود سلطانها بلغت نحواً من ٤٠ ألف فارس سوى الرجال الذين يبلغون ضعف هذا العدد^(١١٩) تقريباً . ومع أن الطبقة الحاكمة فيها إسلامية ، إلا أن أغلب رعاياها على الوثنية ، وهؤلاء الرعايا من السيداما والجوارجي والشابو وهذا الأخير خليط من العنصرين الأولين^(١٢٠) وتقترب شهرة هدية بتجارة الخصيان الذين يجلبون إليها وهؤلاء يعرفون في مصر باسم الطواشية ، وقد حظر ملك الحبشة هذه العملية الوحشية ، غير أن اللصوص ما فتئوا يسطون على العبيد ويأتون بهم إلى بلدة وشلو القريبة من هدية وسكان وشلو هذه همج متبررون ، يخصى العبيد عندهم لدرايتهم بالخصى ، وهذا هام لتجار النخاسة ، إذ أن الخصى أرفع ثمناً من غيره ، وبعد إتمام عملية الخصى يحمل هؤلاء إلى هدية حيث يعالجون مرة أخرى حتى يبرأوا نظراً لأن مجرى البول يكون قد انسد بسبب القيح عند الخصى ، ولأهل هدية دراية بعملية العلاج والتطبيب ، ومع ذلك فإن العدد الذي يموت من الخصيان بسبب هذه العملية أكثر من الذي تكتب له الحياة لبيع مصدرأ من هدية^(١٢١) .

Beckingham and Huntingford, op. cit pp. LXIII-LXIV (١١٨)

(١١٩) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨

Trim., pp. 66 (١٢٠)

(١٢١) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ - ٤٨٣ ؛ الإلام ص ٧ - ٨ ؛ صبح

الأعشى ج ٥ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ أعلام الطراز المنقوش ورقة ٣ ؛ التعريف ص ٣٠

سلطنة دارة : تقع على حدود أوقات الغربية وشمالى شرقى هدية فى منطقة السيداما .
وتعتبر أضعف أخواتها حالاً وأقلها خيلاً ورجالاً ، ولكنها تستطيع أن تقيم جيشاً يعدل فى قوته جيش أوقات إذا عنت بهذه الناحية . ولا تختلف كثيراً عن غيرها من الإمارات الإسلامية ، فأهلها مسلمون على المذهب الحنفى ومعاملتها بالمبادلة (١٢٢) .

أما الإمارات الإسلامية الأخرى : دوارو وأرايينى وشرخة ، فهى إمارات صغيرة ، قليلة الأهمية ، ولم يذكر عنها سوى أن أهلها مسلمون أحناف ، وأن عدة عساكر الأولى تقرب من قوة أوقات فى الفارس والراجل وفرسان الثانية نحو عشرة آلاف غير الرجال ، بينما لا تتجاوز قوة الأخيرة ثلاثة آلاف فارس سوى الرجال (١٢٣) .

مشيخات الساحل : ويجوار هذه الإمارات ، نجد عدداً من المراكز والشيخات الإسلامية الساحلة للبحر الأحمر والمحيط الهندى منها : عوان المقابلة لتهامة (١٢٤) ومقدشو وبراو وسيو وبيت ولامو ومالندى وكيفى ومبسا وززبار ومافيا وكولة وموزمبيق وسوقالا آخرها وهذه كلها مطلة على المحيط الهندى . وكانت سوقالا زمن السعوى المركز الذى تنتهى إليه السفن العمانية فى بحر الزنج . كذلك قامت مراكز استقرار عربية إسلامية على ممر الزمن فى جزائر كومورو . وعلى طول الساحل الغربى لمدغشقر نفسها نشأ مثل هذه المراكز (١٢٥) .

(١٢٢) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٣ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٩ ؛ الإلام ص ٨ ، Trim., p. 67

(١٢٣) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٦ - ٣٢٨ ؛ الإلام ص ٧ - ٨ ؛ مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٨٢ - ٤٨٣

(١٢٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦

(١٢٥) ذكرت هذه المراكز مرتبة من الشمال إلى الجنوب ، وآخرها سوقالا فى أقصى الجنوب وتقع قرب مصب نهر ريفى جنوب نهر زميزى

Coupland (R.): East Africa and Its Invaders pp. 22-25

فأما مقدشو ، فهذه يرجع تأسيسها إلى قرامطة البحرين حوالى عام ٩٢٠م ويسكنها عنصر الجالا وقد ظلت فترة من الزمن أقوى مدن الساحل^(١٢٦) ، ويحكمها سلطان وراثى يرد نسبه إلى عرب القحطانية . زارها ابن بطوطة عام ١٣٣١م وسلطانها يومئذ أبو بكر بن الشيخ عمر من أصل صومالى يتكلم لغة مقدشية - أهلها صومالية - كما كان يعرف العربية ، ويلقب بالشيخ . وقاضيا المعاصر يومئذ ابن البرهان المصرى . وصفها ابن بطوطة بقوله : - « إن أهلها معروفون بالكرم وتشتهر بالثياب النسوبة إليها ، ولها نيل عظيم يشبه نيل مصر فى زيادته فى الصيف »^(١٢٧) وأما كلوه (Kilwa) فقد^(١٢٨) أسست بعد مقدشو على يد فريق من المهاجرين الجدد من ساحل الخليج الفارسى . وتقع مدينة كلوة جنوب جزيرة مافيا ، وسلطانها عند زيارة ابن بطوطة هو أبو المظفر حسن^(١٢٩) .

بهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى من خليج عدن حتى مدار الجدى وما بعده ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج^(١٣٠) .

واللاحظ^١ على هذه الشيخات الساحلة للبحر ، أنها كانت مراکز توسع على نحو ما كانت عليه صور قديما ، أوسنغافورة أو هونج كونج حديثا ، فقد عملت على توسيع رقعة نفوذها برّا وبحراً ، وكل مركز من هذه المراكز قد أقيم بحيث يستطيع أن

(١٢٦) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (ترجمة الدكتور حسن إبراهيم والدكتور عابدين والأستاذ النجراوى) ص ٢٨٧ ؛ Coupland, op. cit., pp. 22-23 ؛ Trim., p. 62
(١٢٧) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ الإلام ص ٢٥ ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٦

(١٢٨) انظر الخريطة .

(١٢٩) من أحرء كلوة : الحسن بن سليمان ، وسليمان بن الحسن ، وعلى بن الحسن .
(زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى - ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة الكاشف - ج ١ ص ١٣٨ ؛ الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ ؛ رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، Trim., p. 62)
(١٣٠) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٨٧ - ٢٨٨

يعد نفوذه ويحمي نفسه ، فكانت المدن مسورة محصنة ؛ وبنيت منازل العرب بها من الحجر . ومنذ تحول الساحل كله إلى الإسلام في القرن التاسع أو العاشر الميلادي ، صار لكل مدينة مساجدها الخاصة ، وزينت هذه المساجد أحيانا بالزخارف الفارسية الجميلة . واحتفظ المستعمرون في هذه المدن بعاداتهم وتقاليدهم في الحياة ، وأبرز ظاهرة ميزتهم ، ظاهرة النزاع الداخلي حول ولاية الحكم في هذه المدن ؛ إذ كانت كل مدينة عبارة عن دويلة قائمة بذاتها (City-State) تشبه في وضعها السياسي والإداري المدن الإغريقية القديمة ، هذا وهناك النزاع والتخاصم بين المدينة والأخرى حول السيادة التجارية أو السياسية ، ولم توضح لنا التآريخ المحلية لهذه المراكز تفصيلات عن الأسر الحاكمة ، وإنما أفاضت في النزاع بين المدن المختلفة وسيادة إحداها على الأخرى . أما اتحادها فيما يشبه إمبراطورية عربية ، فلم يتم شيء من هذا في ذلك الوقت . فمثلا استطاعت ممبسا أن تتحكم في جزء من الساحل خلال القرن الثاني عشر ، وكذلك سادت مشيخة بيت (Pate) فترة من الزمن وانتصرت مع ما جاورها من المشيخات الساحلية حوالي عام ١٣٣٥ م وبسطت نفوذها وسيادتها على طول الساحل من مدينة مالندي Malindi حتى كلوة باستثناء زنبار ؛ كما أن مقدشو Mogadishu وبمبا Pemba وزنبار ، تحكم كل منها في عدد من المدن الأخرى . غير أن أهم من هذا كله هو ما يتعلق بسيادة كلوة وبروزها في ميدان القوة وسعة النفوذ ، فقد تمكنت مشيختها من بسط سيادتها على طول الساحل والجزائر المحيطة به بما فيها جزر كومورو ؛ وعندما وصل البرتغاليون إلى إفريقيا الشرقية لأول مرة في نهاية القرن الخامس عشر ، كانت كلوة لا تزال المشيخة الحاكمة في تلك المنطقة ؛ وحينما وصل داجاما إلى موزمبيق ، كان بها ممثل لسلطان كلوة ، كذلك كانت سيادة كلوة مرسومة على المنطقة الساحلية في جنوب موزمبيق وبها من المدن أنجوش Angoche وكويليمين Quilimane وسوفالا Sofala . أما في شمالي كلوة ، فلم يكن لها من النفوذ الفعلي أو التحكم السياسي كما هو الشأن في جنوبها ، إلا أنه كان لها بعض النفوذ

والتأثير ، نظراً لارتباط الأسرتين الحاكمتين في كل من كلوه وممبسا ، إذ كان سلطان ممبسا متزوجاً من ابنة سلطان كلوه .

الخلاصة لم تكن هناك سيادة عامة مستمرة لإحدى تلك الشيخات الساحلية ، وإنما وجدت سيادات مؤقتة في بعض الفترات ، تحققت عن طريق القوة أو الدبلوماسية أو المصاهرات ؛ ويمكن القول أن الذي غلب على علاقة هذه الشيخات بعضها ببعض هو التنافس والنزاع ، ولعل أقوى ما وقع من خصام ونزاع هو ما كان بين ممبسا ومالندي ، وظل هذا حتى قدوم البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى ، يلاحظ أن المجتمع الذي نشأ ونما حول المستعمرات العربية في ساحل إفريقية الشرقى ، لم يكن عربياً بحتاً ، فقد ظل العرب كغيرهم من المستعمرين في إفريقية وغيرها من القارات ، يكوّنون طبقة أرستقراطية ، ويعيش بجوارهم الهنود ، لكنهم لا يشتركون معهم في الحكم ، والمعروف أن صلة الهنود بذلك الساحل صلة قديمة كصلة العرب أنفسهم ، ولهم نشاط ملحوظ في الأعمال المالية والتجارية^(١٣١) .

تكونت إذن عدة إمارات ومراكز إسلامية في الوطن الحبشى ، وهى مستقلة داخليا وتدفع الجزية أحيانا لملك الحبشة ، وتحاربه أحيانا كثيرة ، وكانت الكنيسة القبطية في مصر تكلف مبعوثيها في بعض الأوقات ، بمراعاة مصالح المسلمين في الحبشة . فمثلاً تدخل بدر الجمال وزير المستنصر الفاطمى (٤٢٧-٥٤٨٧هـ ١٠٣٥-١٠٩٤م) في تعيين أسقف معين للحبشة هو الأب ساويرس ، وذلك عام ٤٧٣هـ ١٠٨٠م) واشترط عليه رعاية جانب المسلمين والاهتمام ببناء المساجد والإكثار منها ، ولما نفذ الأسقف ما اتفق عليه مع بدر الجمالى ، ثار المسيحيون ضده بالحبشة ، فحاول تهدئة هذه الثورة بقوله : إن هذه المساجد لا لشيء سوى استعمال تجار العرب ، وإنها لا تضر في شيء . وإننى إذا رفضت البناء ربما أدى ذلك إلى اضطهاد الأقباط بمصر » ورغم هذا القول . فقد أمر ملك الحبشة بسجنه كما أمر بهدم المساجد السبعة التى تم بناؤها كما أصدر

عدة قيود على نشاط التجار المسلمين ، مما كان من بين نتائجه قطع العلاقة بين مصر والحبشة^(١٣٢) .

يتضح من هذا أن هناك عاملين قوين سيطرا على سياسة ملوك الحبشة هما : العامل السياسى والاقتصادى للحد من نشاط المسلمين التجارى والاستيلاء على بلادهم لتوسيع مملكتهم ، وثانيا العامل الدينى ، لكن ربما كان أساس النزاع سياسياً أكثر منه دينياً .

وليس هذا بغريب إذا علمنا أن الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون فى الحبشة تفوق فى مساحتها أرض مملكة الحبشة وأن هذه الرقعة الإسلامية كانت تحوطها من الجنوب والشرق ، فضلاً عن إحاطة الإسلام بها من ناحية السودان من الشمال والغرب ، وقد أدى هذا إلى عزل مملكة الحبشة عزلاً تاماً عن العالم الخارجى ولاسيما بعد استيلاء المسلمين على ميناء عدل قرب مصوع ، وهو ثغر دولة أكسوم ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر مما أدى إلى تدهور أحوال الحبشة . يقول جيبون (Gibbon) لقد رقت أثيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نسيهم .

غير أنه لما ولت الأسرة السلمانية عرش الحبشة عام ١٢٧٠م وأول ملوكها هو يكونو أملاك (Yekuno Amlak) ١٢٧٠-١٢٨٥^(١٣٣) ، اتخذت هذه الأسرة خطة حاسمة لتدعيم سلطان الحبشة وتوسيع ملكها على حساب جيرانها المسلمين ذلك أن السلمايين وجدوا المسلمين يسيطرون سيطرة تامة على التجارة كما أن الموانئ فى أيديهم

Trim., pp. 62,65 (١٣٢)

(١٣٣) ذكر كولبو Coulbeaux أن سنوات حكم هذا الملك هى من ١٢٦٨ إلى ١٢٨٣ ، وذكر بَدْج Budge فى اسم الملك أنه ليس اسماً وإنما هو جملة أو عبارة قصيرة معناها : سوف يسود أو سوف يحكم ، وأن هذه الجملة كانت تقال له أو عنه بواسطة بعض رجال الدين ، ويحتمل أن رجل الدين تكلاهايمانوت هو الذى قالها ، إذ كان معروفاً بالنبوءات ، أما اسمه الذى عرف به عند تعميده فهو : تاسفا لياسوس Tasfa lyasus ؛ ويقول البعض إن اسمه حنا . (Budge , p, 258 ; Coulb., pp . 284-286 , Trim., pp . 65,72 ; Encyclo, of Islam, Art : Hamites and East Africa)

مما جعل أثيوبيا وعلاقتها الخارجية تحت رحمة المسلمين فذبلت المدن الأثيوبية التي كانت مزدهرة ، ومنها مدينة أكسوم العاصمة التي فقدت أهميتها ، وحلت بالبلاد أزمات اقتصادية نتج عنها قحط^(١٣٤) .

اتخذ يكونو أملاك مدينة تجولات بمنطقة أحمره عاصمة له ، وأبقى على أكسوم لتكون عاصمة دينية حيث يتوج الملوك^(١٣٥) . ولما كانت مملكة الحبشة من غير أسقف منذ نهاية الأسرة الزغوية ، فقد استهل هذا الملك حكمه بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس في مصر عام ١٢٧٤/١٢٧٥ م ، وذلك عن طريق سلطان اليمن ، لكي يعمل بيبرس على تعيين أسقف للحبشة ، بشرط استيفاء هذا الأسقف لشروط النزاهة والتفرغ للشئون الروحية ، ولا يجعل هممه منصبا على جمع المال . ومما جاء في رسالة يكونو أملاك إلى بيبرس قوله : « أقل الممالك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر خلد الله ملكه... فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ، ونحن عبيده في رسم مولانا السلطان للبطريك أن يجهز لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما لا يجنى ذهباً ولا فضة .. ثم تمضي الرسالة وتشير من طرف خفي إلى معنى التهديد ... وعندى في عسكرى مائة ألف فارس مسلمين وأما النصارى فكثير لا يمحسون والكل غلمانك وتحت أمرك...^(١٣٦) وربما أراد الحطى أن يستحث بيبرس لإرسال المطران ، فأوضح له أن لديه عددا كبيرا من المسلمين تحت أمره يستطيع أن يوقع بهم إذا رفض طلبه ، ومن ناحية أخرى عبارات التزلف هذه لم تخف على المعاصرين والمؤرخين ، فيعلن القلقشندى بأنه إذا لم تكن لملك الحبشة حاجة إلى مطران يعينه بطريك الإسكندرية ، لما أظهر هذه العبودية^(١٣٧) .

(١٣٤) بوصيلي ص ١٠-١١

(١٣٥) Trim., pp. 65,72; Coulb., pp. 285-7

(١٣٦) صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩-١٢٠

(١٣٧) القرينى : السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر وتحقيق الدكتور زيادة - ج ١

ص ٦١٥-٦١٦ وحاشية ١ ؛ صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٩-١٢٠



الممالك الإسلامية ماكنه
" الطرق الإسلامية "
في المقسود الوسطى
لحدود التقسيمية للرقعة الإسلامية
التي يحددها الحدود
والحدود والمناطق الإسلامية

جرت مفاوضات بهذا الصدد ولكن سلطان الممالك رفض تعيين أسقف ، محتجا بعدم وصول رسول خاص من قبل ملك الحبشة ، ولعل السبب الحقيقي راجع إلى أن بيبرس يعلم حق العلم كراهية هذا الملك الشديدة نحو مسلمي الحبشة فضلا عن اتخاذ تدابير قاسية ضدهم ، دليلها قيامه بتحصين الحدود المتاخمة لهم^(١٣٨) ومما ورد في إجابة بيبرس « . . . فأما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب . . . وأما ما ذكره من كثرة عساكره وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام . . . »^(١٣٩) ويدل الشطر الأخير من هذه الرسالة على كياسة السلطان المملوك وأنه أجاب فعلا على ماتضمنه كتاب الخطي من تهديد^(١٤٠) ولكي يرد ملك الحبشة على صلة الممالك الإسلامية الحبشية بالعالم الإسلامي الخارجي ، اتصل بالامبراطورية البيزنطية وذلك بإرسال هدايا من الزراف إلى الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس (١٢٦١ - ١٢٨٢)^(١٤١) .

ولما كانت مملكة أوقات الإسلامية أقوى الممالك الإسلامية بالحبشة ، فقد تزعمت حركة الجهاد ضد الحبشة وانضوى تحت لوائها بعض الولايات الإسلامية المجاورة ، بل إن جميع ملوك هذه الممالك ، متفقون على تعظيم صاحب أوقات منقادون إليه ،

Trim., p. 69 (١٣٨)

(١٣٩) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٩

(١٤٠) رغم ما هو معروف عن الكراهة المتبادلة بين ملوك الحبشة وسلاطين الممالك ، فإن ذلك لم يحل دون تبادل عبارات التمجيد والصداقة ونحو ذلك مما هو مألوف عادة في العرف الدبلوماسي ، وذلك لأهداف سياسية غير خافية ، من ذلك أن مكاتبة سلاطين مصر إلى ملوك الحبشة ، كانت تصدر دائما بعبارة : « أطال الله بقاء الخطي . . . (أو) أطال الله بقاء الحضرة العالية الملك الجليل الهام الضرغام ، الأسد الغضنفر . . . العادل في مملكته ، النصف لرعيته . . . عز الله النصرانية . . . ركن الأمة العيسوية . . . حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحوارين والربانيين والقديسين ، معظم كنيسة صهيون ، أوحده ملوك اليعقوية ، صديق الملوك والسلاطين . . . » (صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٠ - ٤١ ؛ التعريف ص ٣١) .

Budge, p. 285 (١٤١)

وذلك على حد قول القلقشندي^(١٤٢). ومن ثم أخذت هذه المملكة تركز قوتها وتستعد لمقابلة الأخطار التي تهددها من جانب مملكة الحبشة .

برزت هذه الأخطار بشكل واضح على عهد خليفة يكونو أملاك وهو ابنه ياجبعاصيون (Yagbea Seyon) « ١٢٨٥-١٢٩٤ »^(١٤٣) بدأ هذا النجاشي بشن حملة حربية ناجحة ضد إمارة عدال (Adal)^(١٤٤) وهي تابعة لسلطنة أوفات . ويرجع سبب هذه الحملة المباشر إلى أن ياجبعاصيون كان قد أرسل مبعوثا دينيا إلى القدس ، حيث يوجد دير حبشي ترعاه مملكة الحبشة ، وخلال مرور هذا المبعوث الحبشي ببلاد عدال الإسلامية ، حاول سلطانها تحويله إلى الإسلام ، فلما أبى أجبره على الختان ، ويقال إن إمارتين إسلاميتين عاونتا ملك الحبشة في هذا الهجوم الظافر الذي انتهى بنهب عدال وعقد هدنة بين الطرفين ، أعيد بعد الهدنة فتح الحدود للتجار المسلمين لممارسة نشاطهم ، مما عمل من جانب آخر على إنعاش الحركة التجارية بالحبشة ذاتها^(١٤٥) .

حاول ياجبعاصيون إعادة الكرة في طلب أسقف مصرى ، فأرسل سفارة إلى السلطان قلاوون عام (٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م) أوضح فيها أنه لن يتخذ سياسة والده وقد نجحت السفارة وعين الأسقف^(١٤٦) .

على أن مملكة الحبشة قد مرت بعد ذلك في فترة اضطرب بسبب كثرة أبناء ياجبعاصيون وتنازعهم ، فضلا عن رغبة الملك نفسه قبيل وفاته في أن يدعم الأمور

(١٤٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٢

(١٤٣) يلاحظ كذلك في اسم هذا الملك ، أنه ليس علما ولكن جملة معناها: سوف يبعث

الله صهيون ؛ أما الاسم الذي عمد به فهو سليمان - Budge, p. 287

(١٤٤) مدينة عدال ثغر على رأس خليج تاجورا قرب جيبوتي الحالية (انظر الخريطة ؛

Encycl. of Islam, Art. «Adal»

Trim. pp. 69-70 (١٤٥)

(١٤٦) عابدين ص ١٧٤ ؛ Trim., p. 69

ينهم بحيث يجعل لكل واحد منهم نصيبا في الحكم ، ولذلك قرر أن يحكم أبناؤه الخمسة^(١٤٧) على التوالي بحيث يتولى كل منهم الحكم لمدة سنة واحدة ويليه الآخر وهكذا على أن يتمتع كل منهم خلال السنة التي يحكم فيها بكل معاني السلطة الحقيقية حكم الأربعة الأول السنوات الأربع المقررة لهم بحسب النظام الذي أقره أبوهم ، غير أن الخامس لم يطق أن يصبر حتى ينتهي أجل حكم الرابع ليتولى بعده ، فدير مؤامرة للقبض على الأخ الحاكم وإخوته الآخرين لينفرد بالحكم من بعدهم ، ولكن مؤامراته قد كشفت وانتهى الأمر بسجنه ومن والاه ، استغرقت هذه الفترة خمس سنوات من ١٢٩٤ إلى ١٢٩٩ م استطاع المسلمون خلالها تقوية أنفسهم وتدعيم سيطرتهم على الساحل الحبشي^(١٤٨) كما أنه حدث خلال تلك الفترة أن قام أحد المسلمين ويسمى الشيخ محمد أبو عبد الله وأعلن أنه قد أوحى إليه يجمع جيش جرار لفتح الحبشة والقضاء عليها ، فقام عام ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ - ١٢٩٩ م) وحشد حوله طائفة كبرى من عناصر الجالا والصومال وأعدهم للجهاد وغزا الحبشة فاضطر ملكها إلى التنازل للمسلمين عن بضع ولايات على الحدود وذلك بمقتضى معاهدة نظير اعتراف المسلمين بسيادة ملك الحبشة العليا ويبدو أن هذه الحادثة إحدى حلقات النزاع بين مملكة أوفات الإسلامية وأ غيرها من الإمارات وبين الحبشة^(١٤٩) وازدادت قوة المسلمين على عهد الملك ودم أرعد (Wedem Arad) (١٢٩٩ - ١٣١٤ م) الحبشي الذي لم يستطع أن يدفع هجماتهم أو يتخذ أى إجراء لدفاعتهم فقد وجد أن جميع الساحل الحبشي في قبضة العرب وهو عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من إمارات ومراكز إسلامية ، يحكمها خليط من العرب والزنوج مع وجود بعض الوثنيين . وحين تحققت سلطنة أوفات أو عدل من

(١٤٧) هؤلاء الأبناء الخمسة هم : سنفا أرعد Senfa Arad ؛ حزبه أسجد Hezba, Asgad ؛ قدمه أسجد Kedma' Asgad ؛ جين أسجد Djin' Asgad سابا أسجد Saba' Asgad (Budge, p. 287)
(١٤٨) Budge, p. 287

(١٤٩) الشاطر بوصيلي ص ١٢ ؛ Trim., p. 70

ضعف الملوك السليمانيين وعجزهم عن ملء مراكزهم رأيت أن الوقت قد حان للقيام بحركة جديدة لإعلان استقلالها وانفصالها عن السيادة الاسمية التي يفرضها ملوك الحبشة ووجدت هذه السلطنة تشجيعاً من جميع المسلمين ولاسيما من المهتمين بشئون التجارة البحرية الذين يهدفون إلى وضع أيديهم على موطن العاج والجلود والفيلة والصمغ والبهار والذهب ، فهم يعتقدون أن هذه السلع توجد بكميات لا تقدر في هضبة الحبشة ومن ثم بدأت هجمات المسلمين ضد الأحباش وقد استمرت هذه الهجمات نحو ثلاثة قرون بعد ذلك مما أدت في نهاية الأمر إلى تدمير مملكة الحبشة تقريباً . والمعروف عن ودم أرعد وهو ابن يكونو أملاك أنه بعث برسالة إلى البابا كليمنت الخامس في أفنيون بفرنسا ، ولكن ليس من المعروف هدف هذه الرسالة هل كانت لغرض روى بحث أو لطلب المساعدة المادية ضد المسلمين^(١٥٠) .

وإذا كانت مملكة الحبشة قد انحطت على عهد الملوك السليمانيين الأول فإنها لم تلبث أن قويت وازدهرت خلال حكم عمداصيون الأول (Amda Seyon I) (١٣١٣ / ١٣١٤ - ١٣٤٣ / ١٣٤٤) ويلقب بجبرامسقل (Gabra Maskal) أى عبدالصليب أو خادم الصليب وهو الاسم الملصق له لكنه كان يدعى دائماً عمداصيون بمعنى عموداً أودعامة صهيون^(١٥١) وهو ابن ودم أرعد ؛ ونظراً لما أحرزته مملكة الحبشة من قوة وازدهار على يديه ، فقد اعتبر في نظر المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة الحبشية^(١٥٢) .

(١٥٠) الشاطر بوصيلي ص ١٣ ؛ Budge, pp. 287-8

(١٥١) يقول القلقشندي قتيلاً عن العمري إن اسمه عمداصيون ، وكان هذا الملك يعاصر العمري ومعنى اسمه كما يشرح صاحب صبح الأعشى : ركن صهيون ، وصيون هذه بيعة قديمة بالإسكندرية معظمة عندهم . صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٢٢ Budge, p. 288

(١٥٢) يذكر عن عمداصيون أنه ارتكب جريمة الزنا مع محظيات أبيه ، وحتى مع أخته ، مما أدى إلى تحمس الأب هو نوريوس وحرمانه من الكنيسة ، فكانت النتيجة أن انقلب الملك ضد رجال الدين ، فشتت الرهبان ، وعذب هذا الأب في شوارع المدينة ، حتى سالت دماؤه على الأرض ، ولما اشتعلت النيران بالمدينة ، في أمسية ذلك اليوم ، اعتقد الملك أن رجال الدين هم الذين دبروا الحريق فازداد في اضطهادهم وتشيتهم حتى هرب الكثير منهم إلى أماكن نائية... (Budge, pp. 288-9)

لا يهمننا صدر حكمه الذى قضاه فى اللهو والفجور وما أدى إليه من انقسام تام ، بينه وبين الكنيسة ورجال الدين فى دولته وإتاما الذى يعنينا فقط هو علاقته مع المسلمين فى الوطن الحبشى وصدى هذا فى العلاقة مع مصر .

كان يعاصره فى مصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والمعروف أنه تسلم احتجاجاً شديداً للهجة من عمده صهيون فى عام ١٣٢٥ م ينعى على السلطان الناصر اضطهاده للأقباط فى مصر ويهدد باتخاذ إجراءات مماثلة ضد العرب المسلمين فى الحبشة وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء ليجيع مصر ، غير أن الناصر لم يعبأ بهذا الاحتجاج وطرده السفارة الحبشية^(١٥٣) .

بدأت أعمال عمده صهيون الحرية ضد الإمارات الإسلامية بالحبشة على أثر السياسة التى أنهجتها سلطنة أوقات الإسلامية للاستقلال عن الحبشة بل والتوسع فى أملاكها للاستيلاء على مواطن العاج والمنتجات الإفريقية ، فقد تقدم السلطان حق الدين وتوغل فى أملاك الحبشة فنزح الولايات المسيحية وأحرق كنائسها وأجبر المسيحيين على الدخول فى الإسلام ، كما قبض على سفير حبشى عائد من القاهرة ، ولم يفلح فى إقناعه لاعتناق الإسلام ذبحه ، فأثار بذلك نائرة عمداصيون ومن ثم خرج ملك الحبشة عام ١٣٢٨ م وهجم على مملكة أوقات من جميع جوانبها حتى فرق شمل الدفاع الإسلامى وأسر حق الدين ووضع يده على مملكته وكذلك مملكة فاتاجار الإسلامية وجعلها ولاية واحدة وعين عليها صبر الدين وهو أخو حق الدين بشرط الاعتراف بسيادة الحبشة^(١٥٤) .

غير أن صبر الدين لم يطق صبراً على هذه التبعية ، وكون حلفاء إسلاميا من إمارتى هدية ودوارو ، كما استعان باليهود من عنصر الأجاو فى مناطق : وجرا ودمبيا وبيجاندر وعهد إلى أولئك اليهود بالقيام بمناورات ضد الحبشة بينما يقوم المسلمون بهجومهم

Budge, pp. 70-71 ; Trim., pp. 70-17 (١٥٣)

Trim., p. 71 (١٥٤)

الكاسح^(١٥٥) تقدم صبر الدين وغزا الحبشة واستولى على كثير من الغنائم كما قتل الكثير ، وبدأ في نظر نفسه أنه كلك الحبشة حتى أخذ يعين الولاة والحكام على المناطق والمدن بل على أما كن لم يرها وأخذ يتهدد عمداصيون معلنا أنه سوف يذبح عبد الصليب ، وأنه سوف يستخدم مانجاشا زوجته في طحن الحبوب وصنع الخبز^(١٥٦) ولا سمع عمداصيون بهذه التهديدات خرج على رأس جيشه وهاجم الأحلاف منفردين مبتدئاً بمملكة هدية وحطمها قتلاً وأسرّاً ونهباً وأخرجها من الحلف وحمل ملكها أسيراً مع رعاياه إلى عاصمته ، ثم أرسل فرقة عنيفة من جيشه ، هي أقرب ما تكون إلى الفرق الانتحارية أو الفدائية ، وتسمى فرقة الذئاب ، وصلت هذه الفرقة إلى قصر صبر الدين ونهبته ، وكانت مقدمة لجيشه الذي تبعها ودمر المدينة ونهب معسكر المسلمين . تقدم عمداصيون إلى فاتاجار واستولى عليها وكذلك مملكة دوارو وملكها حيدرة ، ولما علم صبر الدين بهزيمة جيشه ، يقال إنه كتب رسالة إلى ملكة الحبشة ينبئها فيها أنه سوف يحضر بنفسه ويعلمن خضوعه للنجاشي ولما حضر انتهى الرأي فيه بالقتل بناء على رغبة الجيش الذي أوعز للملك بأنه ما جاء خاضعاً إلا لأنه آمن على نفسه بسبب الطلاسم والتعاويذ التي يحيط نفسه بها فيقال إن هذه التائم والتعاويذ والأحجية قد وجدت حول ذراعيه وفي وسطه^(١٥٧) .

ومعنى هذا انتهاء استقلال وسيادة الممالك الإسلامية في أوقات وهدية وفاتاجار ودوارو ، وجعل من الثلاث الأول مملكة واحدة ، أسند الحكم فيها إلى جلال الدين أخى صبر الدين إذ قبل أن يكون تابعاً لملك الحبشة وأن يدفع له الجزية فأتست مملكة الحبشة وأضيفت إليها ولايات جديدة ، وضعف أمر المسلمين ولا سيما بين عنصر السيداما الحديث عهد بالإسلام^(١٥٨) .

Ibid 1 (١٥٥)

Budge, p. 290 (١٥٦)

Budge, pp. 290-1 (١٥٧)

Trim., pp. 71-2 (١٥٨)

اجتمعت كلمة المسلمين في الفترة ما بين عامي ١٣٢٢ ، ١٣٣٨ م على إرسال سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد برئاسة عبد الله الزيلعي ، ليتدخل السلطان في الأمر لحماية مصالح المسلمين في الحبشة فطلب الناصر محمد من البطريق ، بالاسكندرية أن يكتب رسالة إلى ملك الحبشة في هذا الصدد (١٥٩) .

يقول القلقشندي ، « وقد كان الفقيه عبد الله الزيلعي قد سعى إلى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمخرا إلى مصر في تنجز كتاب البطريك إليه بكف أذيته عن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم وبرزت المراسيم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتاباً شافياً بليغافيه معنى الإنكار لهذه الأفعال وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها (١٦٠) . غير أن عمداصيون لم يكف عن مهاجمة المسلمين بالحبشة ، وهؤلاء لم يكفوا عن انتهاز الفرص للثأر منه ، من ذلك أن سكان أوقات انقضوا على الحامية الحبشية وأبادوها عن آخرها ، كما ثارت إمارة عدل ومورا فداهمهما عمداصيون بالذبح والنهب . حدث بعد ذلك أن كل رجال النجاشي من هذا الكفاح المتواصل واستأذنوه في العودة إلى بلادهم محتجين بأن موسم الأمطار قد حل بهم ، أبي عليهم ما طلبوا بحجة أن المسلمين ما فتئوا يهددونه وأمرهم ألا يفتأحوه في مثل هذا الأمر مرة أخرى . وحينئذ تكون حلف إسلامي قوى جمع شتات المسلمين تقريباً بالحبشة ، التأم هذا الحلف من : عدل ومورا وطيقو وباجوما ولبا كالا وراجا وحيلة . وجعل خطته القضاء على الحبشة وملكها وبدا بعمليات الكر والفر في جنح الظلام ، والملك لا يفتأ يطاردهم ويود إلى معسكره لكنه عند ما غسكر في مورا الإسلامية تقدمت إليه امرأة مسيحية وأفضت إليه بخطة المسلمين ضده وتلخص هذه الخطة في انتهاز فرصة هبوب العواصف العاتية التي تحتاج هذه المنطقة — وهي عواصف الهبوب — وفي حالة اضطراب المعسكر الحبشي ينقض المسلمون عليه ،

(١٥٩) مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٤٧٧ .

(١٦٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٣٣

وقد نفذ المسلمون هذه الخطة التي استعد لها ملك الحبشة وتمقب المسلمين حتى حدود مملكة عدل ، ولما اشتد الضيق بالمسلمين ، استعان امبرامورا وعدل باحد اشراف مكة وهو الشيخ صالح أو الإمام صالح وله نفوذ روحى كبير فى منطقة هرر ، كما اجتمع رجال الدين المسلمون مع أمراءهم على جهاد الحبشة ، ويقال بأن عدد أمراء المسلمين وحدهم بلغ نحو ٢٧٢٢ أميراً وبلغ عدد جيوشهم نحو ١٢٦٠٤٨ جنديا . وفى ذلك الوقت تار جمال الدين واتصل بأمير عدل ، ووجد جهود معه . وتذكر المراجع أن ملك الحبشة حين علم بهذه الجموع الزاخرة ، كان يعانى مرضاً نفسياً ، ومعظم فرقه القوية بعيدة عنه ، مثل فرقة «الذئاب» وفرقة «عيون الأبر» - لعلها فرقة الجواسيس وأن زوجته كانتا بجانبه تتضرعان له بالإقلاع عن الحرب وهو يجيبهما : «هل أموت كما تموت المرأة ؟ إني أعلم كيف أموت فى ساحة الوغى ؟ » وصلى إلى الله وصلى له رجال دينه ، والجميع يتضرعون طالبين النصر ، وعمدوه بماء مقدس فدبت فى نفسه الشجاعة والقوة .

وبينما هذا يجرى فى معسكر عمداصيون كانت جحافل المسلمين تتقدم ، وهى تسد الفضاء لكثرتها ، وتصورها المراجع تصويراً شعرياً ، بأن الوحوش كانت تفر أمامها لاجئة إلى معسكر ملك الحبشة وخرج عمداصيون فى حفنة قليلة من رجاله وقاتل بشجاعة حتى عاد إليه بقية رجاله الذين هربوا من هول النظر ودامت المعركة ست ساعات انتهت بانتصاره وقتل الشريف صالح وتفرقت جموع المهاجمين ، وتبع ذلك بالتقدم فى الأراضى الإسلامية ناهبا جميع المدن التى مر بها مثل تاراك ودابى وزاسى التى قتل حاكمها عبدالله ، إلى أن وصل إلى مدينة عدل حيث قبض على سلطانها وذبحه مع جميع رجاله فتقدم أولاد السلطان الثلاثة إلى ملك الحبشة مظهري خضوعهم ، وأرسلوا عدة رسائل إلى ملوك وحكام المسلمين الذين كانوا فى حلف مع أبيه ، وطلبوا إليهم الكف عن القتال وأن الأولى بهم الحضور لتقديم فروض الطاعة للنجاشى غير أنهم رفضوا ، فاستأنف النجاشى تخريبه وتدميره وقتاله فى بلاد المسلمين ، حيث دافعت النساء مع

الرجال وأمر بتدمير المساجد وحرق المدن الإسلامية ونهبها واستباحتها ، وعند وصوله إلى مدينة يكوثر الإسلامية هدد حاكمها وتوعده إن لم يسلم إليه من ترك المسيحية ودخل في الإسلام . فلما حضر هؤلاء إليه وكان من بينهم القسيس والثماس والجندى ، عذبهم الحطى ، وأعقب هذا بالقبض على حاكم المدينة المسلم ، وتابع تخريبه ومذابحه ، وتبدلت المذابح القاسية بين الطرفين وانتصر عمدا صيون ، لكن ليس معنى انتصاره أن الحرب قد وقفت رحاها أو أن المسلمين استكانوا لما أصابهم ، بل تجددت أكثر من مرة واستمرت سجالات . ونظراً لما اقترن به كفاح النجاشي من ظفر ، علاصيته ، وأضحى يحكم عدداً من الإمارات الإسلامية ، عليهاحكام وراثيون يوليهم بأمره . ويشبه عمدا صيون في رأى بعض الكتاب ، ما كان يقوم به القراعنة في حروبهم ، ورمسيس الثانى بصفة خاصة ، حين قاتل أولاً بحفنة قليلة من رجاله أمام قادش ، كما يشبه ملوك النبوة في نباتا ومروى^(١٦١) .

وفي عهد خليفته وابنه سيف أرعد الملقب بسفينة المسيح أو دعاء المسيح (١٣٤٣/ ١٣٤٤-١٣٧٢/١٣٧٣ م)^(١٦٢) حدث أن قبض على عدد من التجار المصريين والمسامين بالحبشة وأعدم بعضهم وأرغم البعض على اعتناق المسيحية وأرسل فرقة من رجاله لاعتراض طريق القوافل بين القاهرة والحبشة ، فأخّر بالتجارة بين مصر والحبشة ، برا وبحرا ، وكان هذا رد فعل لما قام به الأمير شيخو خلال سلطنة الناصر حسن (المتوفى عام ١٣٦١ م) نحو بطريق الاسكندرية مرقص إذ سجنه عام ١٣٥٢ م بسبب امتناع البطريق عن دفع الضرائب التى طلبها الأمير ، تدخل السلطان حسن بنفسه وأطلق سراح البطريق وطلب إليه التوسط لدى ملك الحبشة لإعادة طرق التجارة كما كانت ، فأرسل البطريق بعثة من الأساقفة إلى سيف أرعد الذى استبقى الأساقفة عنده^(١٦٣) .

(١٦١) Budge, pp. 291-8; Trim., p. 72; Kammerer, pp. 353-4

(١٦٢) يلقب سيف أرعد بعبارة Newaya Krestos ومعناها « تابع المسيح » (Budge, p. 298)

(١٦٣) Trim., pp. 73.4; Budge p. 299

وكانت سلطنة أوقات قد اتت بها بعض الفتن الداخلية ، بسبب النزاع بين أعضاء الأسرة الحاكمة وانتهى هذا النزاع بانفراد حق الدين الثانی وإعلان استقلاله عن الحبشة ، وحارب سيف أرعد^(١٦٤) وهزم جيوشه التي أرسلها ليساعد بها منافساً له على العرش^(١٦٥) ، وظل على خطة الجهاد ضد الحبشة على عهد خليفتي سيف أرعد وهما ولداه: ودم الملقب بتابع مريم^(١٦٦) (١٣٧٢-١٣٨٢م) وكذلك داود الأول (١٣٨٢-١٤١١ م) . ويذكر المقرئ أنه وقع بين حق الدين وداود الأول هذا بضع وعشرون وقعة في مدة ٩ سنوات آخرها أنه سار إلى الحبشة وهاجمها عام ٧٧٦ هـ (١٢٧٤ م) واستشهد في أرض شوه وضاعت جثته بين القتلى^(١٦٧) .

على أن أخاه سعد الدين وكنيته أبو البركات تولى زعامة حركة الجهاد من بعده وكان ذلك على عهد داود الأول الذي اتسمت الحرب خلال حكمه بطابع العنف والاستماتة من الجانبين ودحر سعد الدين الجيوش التي أرسلها ملك الحبشة تباعاً بقيادة أمن مرفى وزلن حسق وأسر وغنم ، ومن مغانمه من منطقة زلان ، ما بلغ سهمه شخصياً نحو ٤٠ ألف بقرة ، وزعها بين الفقراء والمساكين وكذلك العسكر حتى لم يجد ما يأكله ، وحصل لسليم بن عبان زوج ابنته ١٢ ألف بقرة ، فأمره أن يخرج زكاتها. يذكر المقرئ أن سليماً لم يمثل لأمر السلطان في تزكية سهمه من الغنيمة ، فسلط الله عليه الكفرة فأخذوه ومامعه ولم يفلت منهم سوى زوجته ابنة سعد الدين يحيله^(١٦٨) . استولى سعد الدين بعد ذلك على زمدوه وبالي وتوغل في أرض أمجرة ، وهي مملكة النجاشي وكان قد بدأ المعركة بالوضوء والصلاة مع رجاله ، وتكلم جهاده بالنصر ، ومن قواده البارزين أسد الذي دحر زلن حسق قائد ملك الحبشة^(١٦٩) . . .

(١٦٤) الإلمام ص ١١

(١٦٥) Budge, p. 299

(١٦٦) يلقب ودم أرعد بعبارة Newaya Maryam أي تابع مريم (Budge, p. 299)

(١٦٧) الإلمام ص ١٢

(١٦٨) الإلمام ص ١٢-١٣

(١٦٩) الإلمام ص ١٢-١٣ ؛ Budge, p. 300 : Trim., pp. 73-4

استمر النضال وخسر المسلمون أميراً منهم هو الأمير محمد الذي استشهد في القتال ومن معه ولم ينج سوى فارس واحد. وأرسل النجاشي داود على قائده باروا ، فتصدى له سعد الدين بنفسه وجمع معه الفقهاء والفقراء والفلاحين وجميع من قدر على حمل السلاح تحالفوا على الموت في سبيل النصر ، ووقعت الواقعة ، وقتل أكثر المسلمين ، وبلغ عدد القتلى من المشايخ الصلحاء ٤٠٠ شيخ ، فاضطر سعد الدين إلى الالتجاء إلى جزيرة زيلع حيث حوصر وقطع الماء عنه ، إلى أن دل أحد الخائنين انعدو على صبر الدين الذي قاتل فترة من الزمن حتى خر صريعاً ، وذلك عام ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) .

ويعتبر احتلال الأحباش لزيلع نهاية سلطنة أوقات فلم نعد نسمع شيئاً عن هذه السلطنة إذ ضعف أمر المسلمين وأمعن الأحباش في تخريب بلادهم وهدم المساجد وبناء الكنائس وظلوا على ذلك نحو ٢٠ عاماً يقتلون ويأسرون ويسبون ما لا حصر له من أهلها (١٧٠) .

تفرق أولاد سعد الدين وهم عشرة ، كان أكبرهم صبر الدين الثاني ، وهاجروا إلى بلاد العرب ، حيث نزلوا في جوار ملك اليمن الملك الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل فجارهم وجهازهم لاستئناف الجهاد والنضال ضد الحبشة ، فعاد هؤلاء إلى إفريقية واستقروا في موضع يقال له سيارة حيث انضم إليهم من بقي من جنود أبيهم الذين كانوا متفرقين فقوى أمرهم واستأنقوا الكفاح . والملاحظ أن أسرة ولشجع هذه لم تعد تعرف بهذا الاسم وإنما أخذت لنفسها تسمية جديدة هي « ملوك عدل » واختاروا العاصمة الجديدة مدينة داكار أو ذكرها لبعدها عن تهديد الحبشة ، وتقع جنوب شرقي هرر وأضحت مملكة أوقات تعرف منذ ذلك الوقت باسم صبر الدين أي أرض سعد الدين ، وذلك في ذكريات الحروب المقدسة (١٧١) .

(١٧٠) المصدر السابقة

(١٧١) الإسلام ص ١٤ ؛ Encyc. of Islam, Art. «Adal» ; Trim., p. 74

أما علاقة الحبشة بمصر في تلك الفترة فكانت ودية بدليل الهدايا التي أرسلها النجاشي داود الأول إلى السلطان برقوق بن أنص العثماني في عام ١٢٨٧م^(١٧٢) وخلف داود ولداه : ثيودور الأول الملقب بابن الأسد ، لكن هذا لم يطل حكمه ، والثاني يسحاق الملقب بعبد الصليب (١٤١٤-١٤٢٩ م) وخلال حكمه فتحت صفحة جديدة من صفحات الكفاح بين المسلمين والأحباش فاستعد يسحاق بتدريب جيشه واستعان ببعض المهاليك الجراكسة ممن كان يشغل وظيفة الزردكاش بمصر وقدم على يسحاق وعمل له زردخانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح من السيوف والرمح والزرديات وغيرها وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها ، - وذلك على حد قول المقريري^(١٧٣) . وفضلا عن ذلك ، فقد وفد مملوك آخر هو الطنبغا مفرق الذي نفي من مصر ، وعلم جيش النجاشي يسحاق كيفية استعمال النار الإغريقية^(١٧٤) وكيفية الرمي بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف فعرفت الحبشة وسائل الحرب الحديثة وقتئذ ذلك على حين كان بمملكة الحبشة قبطن مصري يعرف باسم نجر الدولة ، جاء إلى الحبشة ورتب له الملكة - وجي الأموال فصار ملكا له ساطان وديوان بعد ما كانت مملكته ومملكة آبائه همجا لاديوان لها ولا ترتيب ، ولا قانون ، فانضبطت عنده الأمور وتميز به عن رعيته باللباس الفاخرة بعد ما كان داود بن سيف أرعد يخرج عريانا وقد عصب رأسه بعصابة خضراء ، فصار يسحاق يمر في موكب جليل بشارة الملك^(١٧٥) .

وجاء استئناف النضال على أثر الانتصارات الساحقة التي أحرزها صبر الدين الثاني ، إذ أمعن في بلاد العدو واستولى على عدة بلاد منها : سرجان . وبينما كان

Trim., p. 75 ; Budge, p. 301 (١٧٢)

(١٧٣) الإمام ص ٤

(١٧٤) الطنبغا مفرق من أمراء دولة الجراكسة، ترقى حتى وصل إلى امرأة بعض بلاد الصعيد

وقد فر إلى الحطى ، وكان نائبة في أعمال القروسية (الإمام ص ٤)

(١٧٥) الإمام ص ٤-٥

صبر الدين يحرق الكنائس في بلاد عدوه ويفنم ، كان يسحاق يفعل مثل ذلك في رعاية المسلمين وجرد صبر الدين أكثر من جيش مرة بقيادة أخيه محمد ومرة بقيادة أمير يسمى عمرو ، وتبادل القتل والأسر والتخريب من الجانبين وحرق صبر الدين قصر النجاشي وحاول السلطان برسباي يومئذ (٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م) أن ينتقم من الأقباط في مصر ، غير أنه امتنع عن ذلك (١٧٦) .

وبعد وفاة صبر الدين الثاني عام ٨٢٥ هـ (١٤٢١-١٤٢٢ م) خلفه أخوه منصور (ت ٨٢٩ هـ = ١٤٢٥ م) وأهم ما يذكر عنه بصدد جهاده أنه هاجم جدايا الحبشة حيث وقع في قبضته نحو ٣٠ ألف أسير فخيرهم بين الإسلام أو العودة إلى قومهم فأسلم منهم نحو عشرة آلاف وعاد الباقي (١٧٧) ، كما أن عهد جمال الدين أخى منصور بارز من حيث إن حرب جيوش أحد قواد النجاشي قد أسلم وصار من أكابر قواد جمال الدين ، ويرجع الفضل إلى هذا القائد في قمع فتنة قام بها بعض رعايا جمال الدين ، كما انتصر على بالي والتقت جموع المسلمين مع جيش يسحاق الذى هزم ، ووزع جمال الدين أسراه على رعيته حتى خص كل فقير ثلاثة رؤوس من الرقيق ، ولكثرتهم كان الرقيق الواحد يباع بربطة ورق وخاتم (١٧٨) .

وخلال تلك الوقائع قتل يسحاق نجاشي الحبشة عام (١٤٣٠ م) واضطربت أحوال مملكته لكثرة ماوليها من ملوك بعده حكموا مايقرب من خمس سنوات وبسبب الطاعون الذى استمر نحو سنة (١٤٣٣-١٤٣٤ م) (١٧٩) .

(١٧٦) الإمام ص ١٤-١٥

(١٧٧) الإمام ص ١٥

(١٧٨) الإمام ص ١٦-١٧

(١٧٩) بعد مقتل يسحاق ، تولى ابنه أندراوس . وحكم نحو ستة شهور أوسبعة خلال عام ١٤٣٠ م ، ثم خلفه حزبانان الملقب بـ « نبات مريم » وهو ابن داود الأول ، حكم نحو ثلاث سنوات ، ومن بعده محركانان الملقب بـ « دعامة عيسى » ، وحكم هذا نحو من ثمانية شهور ، ثم يادل فان الذى لم تزد مدة حكمه عن حكم سالفه ، وتوفى عام ١٤٣٤ م (Budge, p. 303) الإمام ص ١٩ انظر جدول ملوك الأسرة السلجانية في: (Kammerer, op. cit. pp. 366-7)

بالعالم المسيحي الخارجي وذلك ليناهض اتصال الإمارات الإسلامية في الحبشة بالعالم الإسلامي الخارجي والمعروف أن يسحاق قد حاول هذه الخطوة قبله ، حين كتب إلى ملوك الفرنجة يحثهم على معاونته لإزالة دولة الإسلام^(١٨٣) .

وكان هناك تاجر فارسي يسمى الحاج نور الدين على يعمل واسطة بين يسحاق وبين ملوك الفرنجة خلال حملات المماليك على قبرص عام ١٤٢٥/١٤٢٦ م ٨٢٩ هـ ، كذلك كتب إلى الفونسو الخامس ملك أرغونة ١٤١٦-١٤٥٨ م يقترح عليه التحالف ضد المسلمين الذين ينتسب إليهم مسلمو عدال المهديين لملكته^(١٨٤) ... أجاب الفونسو مقترحا المصاهرة بين الأسرتين لتدعيم أواصر التحالف والصداقة ، ويستدل على وجود هذا التحالف من ذلك الخطاب الذي أرسله الفونسو إلى زرع يعقوب عام ١٤٥٠ م يشير فيه إلى العلاقات السابقة^(١٨٥) . أما هذا التجاشي فقد حملته الرغبة في القضاء على الخطر الإسلامي الذي يهدده في الحبشة إلى العمل على الاتفاق والارتباط بروما ، نظرا لاضطرار قوة المسلمين ورأى ربط كنيسة الحبشة بروما في نظير مساعدة البابا روميا ، ومساعدة بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية ماديا ، وقد وافق بطريق الإسكندرية على وجهة نظره ، ومن ثم قامت سفارتان من مصر إلى روما عام ١٤٤٠ م إحداها برئاسة الارشندريت -وظيفة كهنوتية - أندرو من دير القديس أنطون والأخرى برئاسة بطرس الشماس ، وفي نفس الوقت أرسل زرع يعقوب راهبين من الدير الحبشي بالقدس لحضور مجمع فلورنسة ١٤٣١-١٤٤٥ م المعقود برئاسة البابا ايوجين الرابع (Eugene VI) . ويقال إن زرع يعقوب أصدر قرارا بربط كنيسة الحبشية بكنيسة روما وإنه لهذا السبب سمح له البابا بإقامة دير حبشي في روما^(١٨٦) ومع أن الدلائل ليست كافية على وجود اتصالات قديمة بين البابا الإسكندر الثالث عام ١١٧٧ م وبين نجاشي الحبشة ،

(١٨٣) المصدر السابق ص ٥ ٤ Trim., p. 76

(١٨٤) Trim., p. 76

(١٨٥) المصدر السابق

(١٨٦) Trim., p. 76 ; Budge; p. 311 ; Coulb. II, pp. 19-24

أو أن هناك ملكين حبشيين أرسلوا رسائل إلى البابا عام ١٢٩٧ و١٣٠٥م مع قلة وجود الدليل القاطع على هذه الاتصالات القديمة فإنه يمكن القول أن النجاشي زرع يعقوب لم يكن الأول في الاتصال بروما (١٨٧) .

ومن جانب آخر ، عمل زرع يعقوب على مواءمة سلطان مصر يومئذ وهو جقمق العلاني الظاهري (٨٤٢-٨٥٧=١٤٣٨-١٤٥٣م) حتى لا يضطهد الأقباط في مصر ، فأرسل له كتابا باللغة العربية ومعه بعض الهدايا من الجوارى والرقيق وطشت وإبريق من ذهب مسقط ... ومما جاء في هذا الكتاب .

« المحب الصادق زرع يعقوب المكنى قنسطنطين من نسل سيف أرعد من بنى سليمان بن داود عليهما السلام ، ملك سلاطين الحبشة وصاحب النواب بالملكة النجاشية إلى الإمام الشريف العالي الأوحدي السلطاني الملك الظاهر جقمق سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام »

سيد الأنام ... أما بعد .. إنه قد اتصل إلينا جميل أخباركم ، وأنكم ، حفظكم الله تعالى ، أمرتم بإبطال المظالم من سائر العالم وردعتم القوم الظالمين ورفعتم أسباب المضرات من الرعايا بكل البلاد والأقاليم .. ولما بلغ إلينا ما أنتم عليه من الخير استنشقتنا منه عرفا طيباً .. وقصدنا تجديد ماسبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم ، اتباعاً لآثارهم المشكورة ... وآخر ذلك ما كان في أيام الشهيد الظاهر برقوق ونجده الناصر . . كانوا قائمين بالعدل خصوصاً إخواننا النصارى متوصيين ويرجعوا عنهم القوم الرائدین هدم كنائسهم والقتل على من كان فيها من الأقسسة والرهايين أو ذلك بما يحققون من مناصحتهم في خدمتهم ، ومن كان منهم يموت يدفن من غير تعرض أحد ، ومن كان لا وارث له وخلف شيئاً من الوجود يتولى أمره أبونا البطريك ليستعين به على كلف الواردين والنقطعين وقد بلغنا الآن هذه القواعد قد تغيرت وأنتم ، حفظكم الله .. عارفون ما يلزم الراعي من النظر في حال الرعية وأن الله يطالبه بذلك،

وأبونا البطريرك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتم الشريفة نقر قليل جداً ضعيف الحال مساكين فى كل الجهات ، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ، ونحن لهم وملوكهم ما لكون ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين ، ومن تقدم من آبائنا وأجدادنا لم يزالوا بهم متوصين ولأنفسهم وأموالهم حافظين ، سامعين لأقوالهم ، راضعين من يتعرض إليهم ونحن على ما كان عليه آباؤنا سالكون فى طريقهم غير متعرضين لإقامة مساجدهم ولا إلى أيام أعيادهم وأيام مواسمهم . وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب ، راكبون الخيول المسومة وعامتهم فى أسبابهم آمنون .. ولا نأخذ منهم جزية ولا شيئاً قليلاً ولا كثيراً . وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا . . ومن نقل إليكم غير ذلك فهو من الكاذبين الذين يقصدون رى الفتن التى هى أشد من القتل . وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا أما كن فوقانيه ينصرف فيها إلى أما كن أخرى قبل أن يجيء إليكم ، ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والشفقة على عباد الله ، وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى إعلامه فاعملوا أنتم بما يلزمكم .. ولم يبق لكم عذر تبدونه . . وليكن حبل المودة ممتداً بغير انصرام - وستعلمون صحة كلامنا ، واسألوا الجبرتية الذين هم يقيمون بالجامع الأزهر . كم لهم سلطان من المسلمين ... »

ورغم هذا فإن زرع يعقوب لم يكف عن اضطهاد المسلمين وحربهم وكان السلطان جقمق على علم تام يكذب ما فى هذا الكتاب من ادعاءات ، وما عند الأحباش وملوكهم من « الزور والبهتان ... » فضلاً عما هناك من تهديدات واضحة ، وذلك بجانب أن « نصارى الديار المصرية قد كثر تعديههم واستطالتهم بالمبالغة فى البناء والإحداث الكنائس ... » إزاء هذه الحقائق رفض السلطان ماجاء برسالة النجاشى وأجاب بكتاب وهدية أرسلهما على يد قاصد سلطاني هو يحيى بن أحمد بن شاد بك ،

غير أن زرع يعقوب لم يرتض هذا الجواب وعوق القاصد السلطاني بعض الوقت ، حتى أجهز على سلطان عدل ، شهاب الدين أحمد بدلاى ، وأرسل مندوب جقمق ليرى السلطان المقتول حتى يكون ذلك أنكى للمسلمين .

كانت إجابة جقمق على هذه الأحداث استدعاء البطريك وضربه وتهديده بقتل جميع النصارى لأنهم سبب ذلك ، وأمره بإرسال كتاب بخطه ومن قبله إلى النجاشى ليرد القاصد السلطاني مكرماً ، وعاد يحيى بن أحمد بعد مضي نحو أربع سنوات . . . (١٨٨)

وبوفاة الملك زرع يعقوب عام ١٤٦٨ م ، ينتهى الدور الأول فى تاريخ الأسرة السلمانية بالحبشة ، وهو دور الفتح والتوسع ، فقد اقترن عهد خلفائه المباشرين بتغيير جوهرى فى الأحوال الداخلية والأوضاع الخارجية .

أما الجانب الداخلى فهناك اضطرابات بعضها دينى وبعضها سياسى ؛ بل إن بواكر هذه الاضطرابات قد بدت أواخر عهد زرع يعقوب حين وفد على الحبشة عدد من الرهبان المصريين والسوريين بعد مجمع فلورنسة الدينى الذى انتهى عام ١٤٤٥ م ، وأخذوا ينشرون بعض الهرطقة التى تنكر تجسد المسيح ، فثار رجال الدين فى الحبشة وعقدوا مجلسا قرر بطلان مادعا إليه أولئك الهرطقون ، وهذا بجانب النزاع على العرش لكثرة أبناء زرع يعقوب ، ووقوع بعض المؤامرات (١٨٩) .

حقيقة استطاع ابنه بئيد مريم (Baed Mariam) ^١ ومعناه بيد مريم الذى ولى العرش ١٤٦٨ م (١٩٠) أن يحقق نوعا من الهدوء وأن ييسط سيادته على ملوك عدال فترة من الزمن ، إلا أن هذا لم يدم طويلا فسرعان ما تلاحقت هزائمه على يد المسلمين وأنسكاها ماوقع لجيشه عام ١٤٧٨ م حين أباده المسلمون ومزقوه شر ممزق ، حتى إن

(١٨٨) السخاوى : التبر المسبوك ص ٦٧-٧٢ ، عابدين ص ١٨٣-١٨٤

Budge, pp. 319-20 (١٨٩)

Kammerer, pp. 360-1 (١٩٠)

الخطي اعتقد أن نقمة السماء قد حلت به ، فوزع بعض الصدقات ، وتابع ابنه إسكندر (١٤٧٨-١٤٩٢م) الملقب بقنسطنطين الثاني ، سياسته وبالع في تدمير المساجد والمنازل في داكار وهي قاعدة ملوك عدال الإسلامية واستبقى كوفيلهام Covilham رسول جون الثاني ملك البرتغال ليعمل مستشارا له ، غير أن إسكندر لم يعمر طويلا فقد قتل عام ١٤٩٢ وخلفه ابنه الطفل عمدا صيون الثاني^(١٩١) ومات هذا الطفل بعد حكم دام نحو ٧ أو ٨ شهور وجاء بعده عمه ناؤود (Naod) أخو إسكندر ١٤٩٤-١٥٠٨ ولم يقصر فيما استنه أسلافه من مداومة الضرب على أيدي المسلمين بل استطاع أن يهزم جيش بالي الإسلامية ويرغم قائدها على المسيحية ويوليّه بالي من قبله ، إلا أن هذا القائد لم يلبث حتى انتقم لنفسه ولدينه وهرب أمام جيش الحبشة ، فانتقم له مجد ملك عدال وشتت جيوش الحبشة^(١٩٢) .

وعهد الخطي الملقب بلبنا دنجل (Lebna Dengel) أي بنحور العذراء أو لبان العذراء، عهد بارز في تاريخ العلاقات الحبشية الإسلامية لأنه هو العهد الذي بدأت فيه الأوضاع السياسية والعسكرية تتبدل فيما حوله وترجع فيه كفة المسلمين على الأحباش ومن والاهم^(١٩٣). ولذا يمكن أن يقال إن هذه الفترة التي تبدأ من عهد لبنا دنجل أو حتى منذ وفاة جده زراء يعقوب كانت فيما يتعلق بالجانب الإسلامي على النقيض من الفترة السابقة فبينما كانت الفترة السابقة فترة ضعف وتدهور تميزت الفترة اللاحقة ببروز قوة المسلمين وانتصارهم ، بل اتسعت رقعة الممالك الإسلامية في الحبشة بحيث أضحت تضم نحو ثلاثة أرباع مملكة الحبشة وفي نفس الوقت ازداد انتشار الإسلام بازدياد قوته السياسية وذلك بينما انحطت قوى الأحباش وتدهورت ولم يكن باستطاعتهم عمل شيء سوى التزام جانب الدفاع . .

ظهر في أفق هذه الفترة الجديدة التي يؤرخ لها بنهاية القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل السادس عشر عامل جديد يتمثل في ظهور الأتراك العثمانيين وقيام حركة

(١٩١) أخفت الملكة رمانه مقتل بئيد مريم' نحو ثلاث سنوات حتى لاتضطرب أمور الحبشة

Budge, pp. 320-8 (١٩٢)

Chronique du Regne de Menelik II, p.39 (١٩٣)

الكشف الجغرافى ، فتقدم العثمانيون والبرتغاليون ، كل يناصر الفريق الذى التمس العون منه ، كذلك دخلت أسلحة جديدة لم يعرفها مسلمو الحبشة أو الأحباش فى نضالهم السابق .

كشف البرتغاليون الطريق إلى الشرق أواخر القرن الخامس عشر الميلادى وضرب فاسكودى أجاما ميناء مقدشو الإسلامى بالدافع عام ١٤٩٩م كما أسس البرتغاليون عام ١٥٠٧م نقطة ارتكاز لهم فى جزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر . أدت هذه إلى اتحاد قوى الإسلام المحيطة بالبحر العربى لصد الخطر البرتغالى واشترك قانصوه الغورى سلطان المالك فى مصر بإرسال حملة بحرية فشلت مع أحلافها عام ١٥٠٩ أمام البرتغاليين عند جزيرة ديو على الساحل الغربى للهند. استمر البرتغاليون فى التوسع وتدعيم مراكزهم الشرقية الجديدة وإتلاف بعض الموانئ الإسلامية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن من ذلك مافله القائد البرتغالى لوب سوارز (Lope Suarez) حين أحرق ميناء زيلع عام ١٥١٧م ، كما أن قائدا برتغاليا آخر هو سالدانها (Saladanha) نهب ميناء بربرة (١٩٤) .

بهذا الوضع بدأ البرتغاليون يواجهون قوة إسلامية كبرى ، هى قوة العثمانيين . ومنذ فجر القرن السادس عشر الميلادى أخذ العثمانيون يسيطرون سيادتهم على بلاد الشرق الأدنى ، واستولوا على سواكن وجزيرة زيلع وأنشأوا علاقات مع المسلمين فى مصوع التى يحتلها البرتغاليون وأسسوا فى كل منهما ديوانا للجمارك لتنظيم تجارتهم ، وجاء استيلاء العثمانيين على هذه المناطق فى الساحل الإفريقى مصدر قلق وخطورة على المسلمين والأحباش على السواء ، فى أثيوبيا ، فقد عرفت القوتان المتناحرتان أن الغزاة الجدد يتسلحون بأسلحة نارية ومدافع لن تستطيع إحداها مقاومتهم ، غير أن المسلمين وجدوا عاملا هاما للارتباط مع الفاتحين الجدد ، وهو عامل الاتفاق فى الدين فضلا عن ترحيب العثمانيين بهذا الارتباط الدينى بجانب الأهداف التجارية ، ولدى المسلمين

بالحبشة معلومات وافية^(١٩٥) أما الحبشة فكان الأمر مختلفا بالنسبة إليها فهي مسيحية متعصبة لمسيحياتها وليس هناك أدنى احتمال لإمكان استعداد الأتراك على المسلمين الأعداء ، إذن لابد من محاربة مسلمي الحبشة وأحلافهم الجدد ، لكن أسلحة الأحباش لم تزل حتى ذلك الوقت هي القوس والنشاب والسيف والاعتماد على الشجاعة والفروسية ونحو ذلك ، وهذه لا تجدى فتىلا أمام الأسلحة الحديثة آتت ؛ إذن لابد من عون خارجي يتفق في التسليح والنظام مع العدو الأقوى كما يتفق مع الأحباش في العقيدة .

حينئذ رأت الملكة هيلانه أو إليني (Eleni) العجوز الوصية على لبنادنج (١٥٠٨-١٥٤٠)^(١٩٦) أن المخرج الوحيد هو الاستعانة بالدول الأوروبية استعانة جدية فعالة ، فحين سمعت بانتصارات البرتغال في المحيط الهندي ، طلبت مساعدتهم ، ومن ثم توالى البعثات الحبشية إلى أوروبا : منها ما كان للبرتغال ومنها ما كان للبابا في روما^(١٩٧) .

على هذا النحو أضفى النضال الإسلامي الحبشي داخل إفريقية صدى للنضال العثماني البرتغالي أو النضال العثماني الأوروبي في حوض البحر الأحمر ثم البحر الأبيض بعد ذلك ، أو قل إن نضال الممالك الإسلامية بالحبشة ضد الحبشة صورة من صور النضال المزمع بين الشرق والغرب ، وهو من جانب آخر امتداد لذلك النضال القديم بين فارس والروم وصداء داخل شبه الجزيرة العربية .

إبراهيم علي طرخانه

Budge, p. 330 ; Trim., p. 78 Coulb. II, pp. 97-123 (١٩٥)

Trim., pp. 82 Budge, pp. 319, 322, 326 . ١٨٨ (١٩٦) عابدين من

Kammerer, pp. 363-4

Bugde, pp. 330-332, Coulb. II. pp. 56-88 (١٩٧)

Trim., pp. 77-78 ؛ الشاطر بوصيلي من ١٣-١٥ .

امتداد الإسلام والعروبة إلى وادى النيل الأوسط

« مملكة علوة »

مملكة علوة هي إحدى الممالك النوبية الثلاث، التي قامت في شمال السودان ووسطه على أنقاض مملكة مروى التي أخذت في الانهيار منذ منتصف القرن الرابع الميلادي ذلك أن غزو مملكة أكسوم الحبشية لجهات حوض النيل الأوسط بقيادة الملك عيزانا أدى وقتذاك إلى انقسام مملكة مروى إلى إمارات صغيرة تحت حكم رؤساء وطنيين . وظلت هذه المملكة مدة قرنين على الأقل ، مسرحا للاضطرابات والحروب الداخلية ، حتى استطاع بعض أمرائها أن يتوسع على حساب البعض الآخر ، فنشأت على أثر ذلك ثلاث ممالك مستقلة بشئونها ، هي التي استقبلت الدعوة المسيحية رسميا ، في منتصف القرن السادس الميلادي . أما هذه الممالك النوبية المسيحية - حسبما ورد في المراجع السريانية^(١) - فأولاهم مملكة النوبادين Nobadae أي نوباديا Nobadia وعاصمتها بخراش « فرس » ، وتمتد من مدينة أسوان إلى قرية عكاشة ، جنوبي الشلال الثاني. وثانيها مملكة الماكوريين ، Makoritae ، أي مقرة ، وعاصمتها دنقلة ، وتمتد من قرية عكاشة إلى بلدة الأبواب (كبديشية الحالية) . وثالثها مملكة أطلق اليونانيون على سكانها اسم Alodiae وهي علوة ، تمتد جنوبي مقرة حتى بلدة القطينة على النيل الأبيض ، وعاصمتها سوبا. وتشمل هذه المملكة بعض جهات الأتبرا والنيل الأزرق شرقا حتى حدود الحبشة ، وبعض جهات كردفان ودار فور غربا^(٢) . وما بين سنتي ٥٨٠-٦٥٢م

(1) Cf. John of Ephesus : Ecclesiastical History, part II, tr. by R. Payne Smith, London 1860. p. 319.

(2) Villard, Ugo Monneret de : Storia della Nubia Cristiana, Roma 1938, p. 156.

اتحدت الملكتان الشماليتان - نوباديا ومقرة - في مملكة واحدة عرفت باسم مقرة أو النوبة كذلك . كما عرف جزؤها الشمالى « نوباديا » ، باسم مريس^(٣) .

ورثت هاتان الملكتان ما خلفته دولة مروي من مظاهر حضارية هي في الواقع مزيج من ثقافات مختلفة، مصرية ويونانية ورومانية (مصدرها مصر بطبيعة الحال) فضلا عن ثقافات حبشية سبئية، ولا سيما في ناحيتي الدين والفن وهي لا تخلو من آثار بدائية محلية. وعلى الرغم من استقلال هذه المنطقة سياسيا عن مصر في العصور الوسطى إلا أن المؤثرات الثقافية والبشرية، ظلت تشق طريقها من مصر إلى هذه المنطقة جميعها ولا سيما جزءها الشمالى «مقرة» وذلك لقربه من مصر. فالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية مثلا - شأنها شأن الحضارة المصرية القديمة - دخلت السودان من الشمال . هذا فضلا عن انتشار اللغة القبطية في النوبة الشمالية «مقرة»، واستخدامها في الوثائق الرسمية وفي كثير من الأغراض الدينية كذلك^(٤) .

ويتصف الدور المسيحى من تاريخ النوبة ، بطابع حضارى خاص، يبدو واضحا في نظمها السياسية والإدارية وحياة أهلها الاجتماعية والدينية . وإذا كانت معلوماتنا عن الحضارة النوبية في مملكة علوة ، قليلة - بالقياس إلى جارتها مقرة في الشمال - لضياح معظم آثار علوة ، إلا أن الكثير من مظاهر حضارتها - فيما يبدو - كانت تشبه - إلى حد بعيد - مظاهر الحضارة في مملكة مقرة. والواضح من دراسة النظم السياسية والإدارية ، في مملكة علوة ، أنها حكمت حكما ملكيا مطلقا . فكبيرها عرف باسم ملك علوة وعاصمته سويا . وهو الذي يملك الأرض ومن عليها. واتباع ملوك علوة نظام

(3) Cf. Kirwan, L.P. : Notes on the topography of the Christian Nubian Kingdoms. Jour. Egypt. An. XXI, 1934, p. 57.

(4) Griffith, F. Ll. : «Christian Documents from Nubia». Proc. British Academy XIV, 1928, pp. 17-18. Griffith, F. Ll. Oxford Ex. in Nubia. p. 53.

الأمومة في وراثة العرش^(٥). كما قضى نظام حكم الأقاليم، بتقسيم المملكة إلى ولايات أو ممالك صغيرة، على رأس كل منها ملك. ولعل ملك إقليم الأبواب، أعظم أولئك الملوك الإقليميين خطرا وأعلامهم مقاما، وهو الذى عرف باسم الرحراح^(٦).

وللمجتمع النوبى خصائص معينة انفرد بها. إذ أنه يشكل نوعا من الإقطاع، غريبا في تركيبه؛ ولم يعرف له نظير في الإقطاع الشرقى أو الغربى. فالأمر المالك وفروعها في الأقاليم، تمثل الطبقة الأرستقراطية، التى مارست وحدها حقوقا سياسية ودينية. أما الشعب كله، فيمثله طبقة العبيد الكادحة في الأرض، التى لا يملكون منها شيئا. إنما تملكهم عليها، تملك العبيد العاملين فيها لصالح سادتهم. فهم جميعا عبيد الملك، يباعون ويشترىون، ويهدى بهم ويقومون مقام العملة^(٧). وبين هاتين الطبقتين، قامت فئة الموظفين القليلة العدد، التى تولت معظم الوظائف الملكية في العاصمة والأقاليم.

وانجهت مملكة علوة في زعامتها الروحية، إلى الكنيسة المصرية، التى كانت تمدّها بالأساقفة المصريين. وظلت الطقوس الدينية في كنائس علوة، تؤدى باللغة اليونانية حتى القرن الثامن الميلادى، حين ترجمت هذه الطقوس إلى اللغة النوبية، التى لم تصبح لغة مدونة إلا في حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى^(٨).

تلك هى الأسس التى قامت عليها الملكية المسيحية في النوبة. ويلاحظ أن مملكة علوة، ظلت متمتعة باستقلالها في ظل هذه النظم ما يقرب من عشرة قرون. ومرجع ذلك في الغالب، أن الدولة الإسلامية في عز أيام توسعها، لم تنجح إلى ضم مملكتى النوبة عنوة إلى أملاكها. وإذا كان العرب - بعد فتح مصر - جردوا حملتين لغزو النوبة الشمالية « مقرة »، بقصد تأمين حدود مصر الجنوبية، وتأكيـ

(٥) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص ٥٦

(٦) المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ١٩٣ - طبعة بولاق .

(٧) المقرئى : نفس المصدر ص ١٩٣

(٨) Cf. Griffith, FLI. : Christian Documents from Nubia, p. 14

حقوقها التجارية في النوبة ، إلا أنهم لم يحتلوها بقواتهم ، على الرغم من النصر الحربي الذي أحرزوه في حملتهم الثانية عليها بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٦٥٢م ودخولهم دنقلة الماصمة . بل عقد القائد العربي لأهل مقرة عقدا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان على حدودهم من ناحية الجنوب ، وفتح النوبة للتجارة ، والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية ، وحفظ مصالح المسلمين وحريةهم الدينية فيها^(٩) . هذا ولم يتعرض المسلمون لمملكة علوة ولم يفكروا في احتلالها . ويبدو أن العرب أدركوا منذ البداية - أثر الاتصال البشري والثقافي الطبيعي بين مصر وهذه البلاد ، في تغذيتها بالدماء العربية ونشر الثقافة الإسلامية فيها . فلم يهتموا باحتلالها . فعلى الرغم مما نص عليه عقد عبد الله بن سعد لأهل مقرة من عدم السماح للمسلمين بالدخول إلى بلادهم إلا للتجارة . فإن الجماعات العربية بالصعيد الأعلى لم تتقيد بهذا الشرط . بل أخذت في التسرب التدريجي إلى بلاد النوبة السفلى « مريس »^(١٠) وظلت هذه المنطقة ، وما جاورها شرقا في أوطان البجة ، تستقبل كثيراً من القبائل العربية ، ولا سيما بعد أن فقد العرب نفوذهم القديم ، بقطع العطاء عنهم ، منذ عهد الخليفة المعتصم بالله العباسي ، وضغط الولاة الأتراك عليهم في مصر ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادي . واختلط العرب بالنوبيين والبجة ، واعتنق كثير منهم الإسلام ولم يعد لملوك النوبة « مقرة » في منطقة مريس سوى نفوذ إسمي ، ثم إن اشتراك كثير من القبائل العربية في مصر في الحملات المملوكية على مقرة ، لم يؤدي إلى إخضاعها للسلطنة المملوكية فحسب ، بل أدت إلى استقرار معظم هذه القبائل العربية في مقرة ، وعدم العودة إلى مصر صحبة الجيوش المملوكية^(١١) .

ومما لا شك فيه ، أنه كان لاستقرار كثير من القبائل العربية في مقرة الأصلية (Maqurra proper) بعد أن أضحى الطريق ممهدا لانسيابها جنوبى الشلال الثانى -

(٩) راجع عقد عبد الله بن سعد للنوبيين في المواعظ والاعتبار للمقرئى ج ١ ص ١٩٩

(١٠) المسعودى : مروج الذهب . نشر دى مينار ج ٣ ص ٤١

(١١) مصطفى مسعد : ممالك النوبة المسيحية - اضعلالها وسقوطها . رسالة لم تنشر ص ١٨٠

أثر واضح في صبح هذه البلاد وسكانها بصبغة عربية . ولعل بني كنز كانوا أقوى . هذه العناصر ، التي أتيج لها أن تشارك في حوادث هذه الدولة ، باشتراكهم في معظم هذه الحملات المملوكية على مقرة ، ثم مكنوا لأنفسهم فيها بمصاهرة البيت المالكي النوبي . في دققة . فادعى أميرهم بحقه في ملك مقرة ، عن طريق وراثة الأم^(١٢) . واستعان بنو كنز بالعرب المهاجرين والنوبيين المتوطنين فيها ، فانزع أميرهم كنز الدولة ، ملك مقرة ، وأعلن استقلاله عن السلطنة المملوكية سنة ١٣٢٣ م . ويبدو أن العرب كانوا من القوة والكثرة العددية ، بحيث تمكنوا من التغلب على بيوت الإمارة النوبية القديمة في مقرة ، فضلا عن تحدى السلطان المملوكي والاستقلال عنه . فما كان يفيد كنز الدولة في كثير أو قليل حقه المشروع في ملك مقرة - عن طريق وراثة الأم - لولا ما اجتمعت إليه من قوة العرب المهاجرين ، والنوبيين المتوطنين ، الذين تأثروا بهم ، وامتزجت دماؤهم بدمائهم . ولم يقتصر دور العرب الذين استقروا في مقرة ، على القضاء على البيت المالكي بها ، بل إن اختلاطهم بالنوبيين في مريس ، منذ القرن التاسع الميلادي ، ثم فيما يليها جنوبا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي على الأقل ، أدى إلى انتشار الإسلام بين النوبيين ، الذين يقول عنهم ابن خلدون « إن الجزية انقطعت . بإسلامهم^(١٣) ، ولم تشر المراجع إلى اسم ملك مسيحي لملكة مقرة ، بعد كنز الدولة ، والراجح أن خلفاءه جميعا ، إما أنهم كانوا عربا ، أو نوبيين مستعربين .

لم تستقر أحوال هذه المملكة ، بعد سقوطها في أيدي بني كنز . بل أضحت مسرحا للاضطرابات ، التي كانت من عمل بني كنز ، أو غيرهم من القبائل العربية ، التي استقرت في مملكة مقرة ، مثل بني جعد وبني عكرمة ، والحوارة ، وبني هلال وغيرها ، بسبب التنافس على السلطة^(١٤) . وفي القرن الخامس عشر الميلادي ، تم اختلاط هؤلاء

(١٢) النويري - نهاية الأرب في فنون الأدب - مخطوطة ج ٣٠ - ورقة ٩٥

المقريني - السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زياده ج ٢ - القسم الأول ص ١٦١

(١٣) ابن خلدون : العبر وديوان الابدأ والخبر - ج ٥ ص ٤٢٩

(١٤) Quatremère, E. : Memoires geog. et hist. sur l'Égypte et sur quelques Contreées voisins, II, pp. 120-122.

وأولئك جميعا بالنوبيين ، من أسوان حتى دنقلة . وانتشر الإسلام وتكونت المجموعات النوبية المستعربة ، التي لا تختلف في صفاتها الطبيعية وملاحمها عن النوبيين الحاليين وهم : الكنوز ، والفديجة ، والسكوت ، والمحس ، والداقلة .

لم يمض أقل من قرن على سقوط مملكة مقرة المسيحية ، حتى سقطت جارتها في الجنوب « علوة » . فقد كان لقطع العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية وكنائس علوة ، وتوقف إرسال الأساقفة المصريين إلى بلاد النوبة ، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي أثر خطير في حياة النوبيين الدينية ، فأهملت الطقوس الدينية ، وهجرت الكنائس النوبية وضرب معظمها . وقد حفظ قسيس برتغالي يدعى ألفارز ، الذي زار الحبشة بين سنتي ١٥٢٠-١٥٢٧ م ، صورة عن أحوال النوبيين (أهل علوة) الدينية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادي بقوله « ... إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم ، فلاحم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود . ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ، ولم تبق لهم عقيدة . ويأملون أن يكونوا مسيحيين » . ويبدو من قول ألفارز ، أن النوبيين فشلوا في الحصول على قساوسة من كنيسة الإسكندرية ، فبعثوا إلى نجاشي الحبشة سنة ١٥٢٢ م ، ليرسل إليهم من يرشدهم في دينهم . غير أن النجاشي اعتذر عن تلبية هذه الرغبة ، إذ أنه يعتمد على البطريك في بلاد المسلمين في إرسال « أبونا » ، فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره . ومما زاد في عزلتهم سقوط مملكة مقرة في الشمال ، واعتناق أهلها الإسلام . وذكر ألفارز نقلا عن بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف النوبة (علوة) من أمد بعيد ، لم يخلفه غيره ، بسبب الحروب بين القبائل العربية في بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . فتركت كنائسهم دون رعاية رجال الدين ، ففسدوا كل شيء عن المسيحية . وثم دليل على هجر النوبيين كنائسهم وتخريب معظمها ، ما ذكره ألفارز كذلك نقلا عن حنا السورى الذي زار علوة قبل ذلك بقليل حيث يقول « إنه كان بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء » (١٥).

(15: Father Francisco Alvarez : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia. p. 65, p. 352.

وهذا عدد قليل بالقياس إلى ما عرف عن عدد كنائس علوة ، حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، والتي بلغ عددها - على قول أبي صالح - حوالى ٤٠٠ كنيسة^(١٦) .

أما الروايات التاريخية الوطنية ، فأجمت على أن نهاية مملكة علوة وسقوطها ، أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) تم على يد جماعة من العرب والفونج . ويعنى هذا أن العرب وحلفاءهم ، استطاعوا أن يسقطوا هذه المملكة ، بفضل كثرتهم العددية ، أو أن أحوال هذه المملكة كانت اضمحلالية ، بحيث لم تقو على مواجهة ضغط هذه القبائل . وإذا سلمنا بصحة هذه الروايات التاريخية ، فيما يتعلق بدور العرب وحلفائهم ضد هذه المملكة المسيحية ، فإن هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه سبق سقوطها ، وصول جماعات عربية فى أعداد وفيرة ، حتى تسنى لها طبع هذه البلاد وسكانها المسيحيين بطابع مخالف ، هو الطابع العربى الإسلامى .

وإذ أشار المؤلفون المسلمون إلى هجرة بعض القبائل العربية ، من مصر ، إلى بلاد النوبة الشمالية (مقرة) ، وأوطان البجة ، فإن أحدا من أولئك المؤلفين - على ما نعلم - لم يشر إلى مثل هذه الهجرات العربية إلى بلاد علوة . بل إن أخبار هذه الهجرات ، واستقرار القبائل العربية وبطونها المختلفة فيها ، جاء من مصادر سودانية . وهى عبارة عن أوراق النسبة التى يحتفظ بها كثير من الأسرات السودانية فى الوقت الحاضر^(١٧) .

فضلا عن ذلك ، فإن بعض الروايات التاريخية ، تشير إلى هجرة بعض الجماعات العربية عبر البحر الأحمر ، سواء أكان هذا قبل الإسلام أو بعده ، على أثر وقوع أحداث هامة فى بلاد العرب . ومن بين هذه الأحداث ، تخريب سد مأرب ، واضطهاد قريش للمسلمين ، وحروب الردة ، والنزاع على الخلافة بين الأمويين

(١٦) أبو صالح - تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى - نشر ليفت . ص ١٢٠

(١٧) جمع ماك ميكل معظم أوراق النسبة العربية فى السودان ونشرها فى مؤلفه الضخم

المعروف باسم A History of the Arabs in the Sudan II.

والعلويين ، وسقوط الدولة الأموية كذلك . فالمعروف أن عدداً من المهاجر العربية استقرت في جهات متفرقة في منطقة النيل الأزرق والأتبرا والجبشة^(١٨) . وإذا كانت هذه الهجرات السابقة للإسلام، قليلة العدد ، محدودة الأثر ، فلا شك في أن أعدادها، زادت زيادة واضحة عقب الفتح العربي لمصر ، حتى سمح للعرب - المهاجرين أو المترددين على علوة للتجارة وغيرها - ببناء مسجد في سوبا^(١٩) .

وموضع الأهمية هنا، هل ظلت الجزيرة العربية، هي المصدر الوحيد لتلك الهجرات العربية الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط ، عبر البحر الأحمر مباشرة ، أو كانت هنالك مصادر أخرى شاركت، أو انفردت بتعريب هذا الجزء من حوض النيل ؟ إن ثم رأياً يقول : هناك ثلاثة أبواب ، دخلت منها الدماء العربية ، ومعها الثقافة العربية إلى السودان - فالباب الشرقي من السودان كان واحداً من هذه الأبواب والباب الثاني هو الباب الشمالي، في وسط السودان، الذي يفضي إلى مجرى النيل أما الباب الثالث فهو الطريق الشمالي الغربي، أو الطريق الليبي ولعل هذا الباب لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام^(٢٠) . ويعنى هذا أن كلا من الجزيرة العربية ومصر ، كانا مصدراً للهجرات العربية ، التي حملت معها الثقافة الإسلامية ، إلى حوض النيل الأوسط . ومع تسليم الدكتور محمد عوض محمد بأهمية مصر ، كمصدر للثقافة العربية في وادي النيل الأوسط ، إلا أنه لم يقلل ، من أهمية الجزيرة العربية ، كمصدر مباشر للهجرات العربية ، التي قامت بنصيبها في نشر العروبة في هذا الإقليم . غير أن هنالك من يرى أن الجزيرة العربية كمصدر مباشر للهجرات العربية، إلى حوض النيل الأوسط عبر البحر الأحمر مباشرة ، وبالتالي كمصدر للثقافة الإسلامية فيه كانت قليلة الأهمية ، ضعيفة الأثر ، بالقياس إلى المصدر الشمالي وهو مصر . فيقول

(١٨) انظر - ممالك النوبة المسيحية - اضمحلالها وسقوطها . ص ١١٣، ١٢٣

(١٩) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - ص ١٠٠

(٢٠) محمد عوض محمد - السودان الشمالي - سكانه وقبائله ص ١٥٩ - ١٦٠ الطبعة

الأولى .

الأستاذ عمار : إذا نحن استثنينا تلك الجماعات العربية القليلة التي وصلت إلى السودان رأسا ، عبر البحر الأحمر ، سواء أكان ذلك قبل الإسلام ، أم زمن التوسع الإسلامي أم كانت هجرات حديثة كالتى أوصلت قبائل الرشايدة ، إلى حيث ينزلون الآن ، في الشمال الشرقى للسودان ، فإن تعريب السودان في الواقع إنما تم عن طريق مصر - إذ لا يسجل التاريخ - في أى عهد من عهوده ، وصول موجات هامة ، أو هجرات عنيفة إلى السودان ، عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب^(٢١) ونجد للرأى الأخير تأييدا ، فيما ذكره ماك ميكل ، إذ يقول : إن بعض القبائل العربية في السودان تدعى أن أجدادها ، وصلوا من جزيرة العرب مباشرة ، إلى السودان ، عبر البحر الأحمر ، لتأييد دعواهم في الانتساب إلى أصل شريف ، أموى أو عباسى ، أو أنهم سلالة بعض صحابة رسول الله . ومع التسليم بوصول بعض الأمر العربية ، من حين إلى آخر ، عبر هذا الطريق ، إلى السودان ، إما للتجارة ، أو اتخاذه مكان هجرة ، أو بحثا عن المراعى كما فعلت قبيلة الرشايدة حديثا ، فإن التاريخ لم يسجل وصول هجرات واسعة ، عبر هذا الطريق ، مثلما سجل عن هجرة هذه القبائل العربية إلى مصر^(٢٢) .

وكيفما كان الأمر ، فالعروف ، أن كثيرا من الجماعات العربية انتقلت من مصر جنوبا ، حيث استقرت في بلاد النوبة الشمالية ، وأرض البجة ، عقب الفتح العربى لمصر واختلطت الجماعات بعضها ببعض ، اختلاطا كان يغذيه وصول القبائل وسكنها بين النوبيين والبجة ، حينما بعد حين ، ولا سيما بعد منتصف القرن التاسع الميلادى . وزادت جموع العرب المهاجرين ، من مصر جنوبا زيادة واضحة ، عقب قيام السلطنة المملوكية في مصر ، في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، ثم سقوط مملكة مقرة المسيحية ،

(٢١) عباس عمار : وحدة وادى النيل : أسسها الجغرافية ومظاهرها في التاريخ .

(٢٢) Hamilton, J. A. de C- ed : The Anglo Egyptian Sudan from Within. «The coming of the Arabs in the Sudan» by Mac-Michael pp. 46-47.

بعد ذلك في يد العرب ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادي . ومرجع ذلك في الغالب - على قول ماك ميكل - أن أولئك العرب لم يطب لهم المقام في مصر ، ولا سيما بعد أن فقدوا ميزاتهم القديمة . وأصبح ينظر إليهم كعنصر غير مرغوب في بقائه . فاستبدلوا بقوات حربية نظامية مدربة لأنهم لا يجيدون سوى شن الإغارات للحصول على الغنائم ، فضلا عن مماطلتهم في دفع الضرائب وإثارة القلاقل . وفي القرن الرابع عشر أصبح ينظر إليهم على أنهم خارجون على القانون . ثم إن رغبة العرب في العيش عيشة البداوة والحرية - التي تعودوها في بيئتهم الأصلية والبحث عن مراعي واسعة تناسب حياة الإبل والأغنام ، والتي لا يتوفر وجودها في مصر - دفعت بالعرب إلى الهجرة جنوبا ، حيث البيئة الرعوية، التي تشبه بعض جهاتها البيئة الأصلية في الجزيرة العربية هذا فضلا عن رغبتهم في الحصول على الرقيق^(٢٣) . ثم إن السلطنة المملوكية سمحت لأولئك العرب بالرحيل من مصر ، وأكثر من هذا ، أنها أمنت في مطاردتهم جنوبا مقرة ذاتها ، بدليل ما ذكره النويري أن حملة مملوكية جردها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦١٧ هـ (٣١٧ م) ، ضد العرب الذين يسكنون حول عيذاب ، لا اعتدائهم على بعثة أرسلها ملك اليمن بهدية إلى السلطان المملوكي . وأوغلت هذه الحملة جنوبا حتى سواكن ، واتجهت غربا إلى التاكة ، وإلى جهة الأبواب ، ثم عادت إلى مصر عن طريق دنقلة^(٢٤) .

والواضح تماما ، أن سقوط مملكة مقرة المسيحية أوائل القرن الرابع عشر للميلادي أدى إلى ازدياد موجة الهجرات العربية ، ولا سيما بعد أن بات السابقون من العرب في شغل بمنازعاتهم الداخلية عن المهاجرين الجدد . وربما كان أشد هذه الهجرات الجديدة عنفا هجرة جهينة التي أشار إليها ابن خلدون^(٢٥) ، وهي واحدة من خليط هائل من

(٢٣) Hamilton, ed : op. cit. 47-50.

(٢٤) النويري - نهاية الأرب مخطوطة ج ٣٠ - ص ٩٦-٩٧ - المقرئ : السلوك ج ٢

القسم الأول ص ١٦٢

(٢٥) ابن خلدون : العبر ج ٥ . ص ٤٢٩

القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلطة ، التي تجمعت في أنحاء النوبة الشمالية . ونشأت على أثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية . والراجح أن معاينة هذه الجماعات للمراعى الغنية ، ترامت أخبارها إلى ذويهم في الشمال ، فاندفعت جموعهم جنوبا ، ولا سيما أولئك الذين حافظوا على بداوتهم بعد أن ضاقت بهم مهاجرهم في النوبة الشمالية ، بسبب فقر بيئتها وندرة مراعيها^(٢٦) .

لكن كيف شق أولئك المهاجرون طريقهم نحو الجنوب ؟ هل اضطروا إلى شن الإغارات على الوطنيين ، والدخول في حرب ضد مملكة علوة المسيحية ؟ يقول ابن خلدون : « وانتشروا (أى جهينة) ، ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكثروا هنالك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وفرقوا كلتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأرهمقوهم إلى هذا العهد »^(٢٧) . والفهم من هذا ، أنه بعد سقوط دنقلة في يد العرب ، أضحت المنطقة الممتدة من حلفا الحالية إلى شمال غربي الحبشة مسرحا لأعمال النهب والتخريب مدة لا تقل عن ثلثمائة عام^(٢٨) . وأن العرب في تقدمهم جنوبا ، قتلوا كثيرا من النوبيين ، وأسروا بعضهم ، حتى اضطر كثير من النوبيين إلى الهجرة غربا إلى تلال نوبا في جنوب كردفان ، وجبل حرزا وكاجا وغيرها في شمال كردفان^(٢٩) . غير أنه يبدو أن العرب ، لم يقابلوا في تقدمهم جنوبا إلى جهات علوة وغيرها مقاومة عنيفة ، لعجز ملوكها عن دفعهم . وإذا كانوا اضطروا أحيانا إلى استخدام العنف ، فإن الطابع العام لهذه الهجرات ، كان طابعا سلميا . ونجحوا في تحقيق مآربهم ، لا بحد السيف بل بالاختلاط والتزاوج من بنات النوبيين وملوكهم . ويقول

Triminghn, J. s : Islam in the Sudan, p. 71. (٢٦)

(٢٧) ابن خلدون - نفس المصدر ج ٢ . ص ٢٤٧

Walkely, C. E. J. : «The story of Khartoum», Sudan Notes (٢٨) and Records. Part II, 1935, p. 124.

Sager, J. W. Notes on the history, religion, and customs (٢٩) of the Nuba. Sudan Notes and Records, V, part, III, p. 139

مالك ميكل « إن الدلائل تشير إلى أن النصر - باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبة حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول ، على حين يسكن الزنوج التلال - قد تم غالبا بالاتفاق والتزواج أكثر مما اكتسب بقوة السلاح . ويمكن القول إن الظاهرة الأساسية في التاريخ الجنسي لشمال السودان ووسطه ، منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، كانت ظاهرة الاندماج التدريجي بين العرب والسود»^(٣٠).

لاشك أن لهذا الرأي وجهته ، فهو يتفق وما ذكره ابن خلدون في صدد هجرة جهينة إلى بلاد النوبة (علوة) . فيقول ابن خلدون ، « ... ثم انتشرت أحياء العرب من جهينة في بلادهم ، واستوطنوها ، وملكوها ، وملئوها عبثا وفسادا . وذهب ملوك النوبة (في علوة) إلى مدافعتهم ، فعجزوا ، ثم صاروا إلى مصانعتهم بالمصاهرة^(٣١) » . أما عن اضطراب الأمن في بلاد النوبة وأوطان البجة حتى الحدود الحبشية ، فكان بسبب النزاع بين القبائل العربية ذاتها لسبب أو لآخر . وتشير بعض الروايات التاريخية ، إلى وجود مثل هذا النزاع ، بين قبيلتي جهينة ورفاعة أواخر القرن الثالث عشر الميلادي قرب عيذاب . ولعل في إشارة ابن خلدون إلى انقسام العرب على أنفسهم ، ما يزيد فهمنا لما صار إليه هذا الجزء من حوض النيل ، أوائل القرن الخامس عشر الميلادي . إذ يقول « واستولى أعراب جهينة على بلادهم (أي النوبيين في علوة) ، وليس في طريقه شيء من السياسة الملوكية ، للآفة التي تمنع انقياد بعضهم إلى بعض . فصاروا شيعا لهذا العهد^(٣٢) » . أما ما ذكره بعض المؤرخين من التجاء بعض العناصر النوبية إلى جبال جنوب ووسط كردفان ودارفور ، هربا من مذابح العرب ، فليس هنالك ما يؤيده . والراجح كما يقول مالك ميكل ، أن أولئك المهاجرين ، من بلاد النوبة الشمالية ، عقب سقوط دنقلة ، إلى جهات كردفان ودارفور ، لم يكونوا نوبيين خلصا ، بل كانوا يمثلون خليطا من العرب والنوبيين (النوبيين المستعربين) .

Hamilton, ed : op. cit. p. 59 (٣٠)

(٣١) ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ - ص ٤٢٩

(٣٢) المصدر السابق

ومن هؤلاء سكان جبل ميدوب في شمال دارفور والتنجور والبرقد كذلك^(٣٣) .
أما عن الطرق والمسالك التي سلكتها الجماعات العربية المختلفة ، إلى حوض
النيل الأوسط ، فمن بينها الطريق الذي يتجه جنوبا بشرق من أسوان وكرسكو عبر
أوطان البجة ، الموازية للبحر الأحمر . غير أن أهمية هذا الطريق ، محدودة بالقياس
إلى الطرق الأخرى ، لقلة الماء وفقر المرعى . والغالبية العظمى من العرب المهاجرين ،
من مصر إلى حوض النيل الأوسط سلكت الطريق الذي يتبع مجرى النهر إلى
منطقة دنقلة . وإذا كانت بعض القبائل آثرت أن تستقر على جوانب النهر ، فإن منها
من انتقل غربا بطريق وادي القعب ، ونزل الأراضي المحيطة به . وسلك الآخرون
الطريق الذي يبدأ من كورتى على طول وادي مقدم ، وعبر الدية على طول وادي الملك
إلى كردفان ، حيث تتفرع الهجرات على شكل المروحة . فمنها ما يتحرك إلى دارفور ،
وما يليها غربا وجنوبا ، ومنها ما يسير على جوانب النهر الأعظم ، وعبر صحراء بيوضة
وأعلا الأتبرا ، والنيل الأزرق في اتجاه جنوبي شرقي إلى حدود الحبشة^(٣٤) .

وثمة رأى آخر يقول : إن الجماعات العربية التي هاجرت من مصر جنوبا إلى
السودان ، بطريق النيل ، لم تلازم النهر في كل جزء منه . بل سلكت طريقاً يتابع
النهر من جنوب أسوان إلى كرسكو ، أو قبلها . ثم يحترق صحراء العثمور مباشرة إلى
أبو حمد ، حيث يتابع النهر مرة أخرى ويلزمه نحو الجنوب^(٣٥) . غير أن هذا
الطريق ، إذا صح وسلكته بعض الجماعات العربية ، فلا بد وأن يكون هذا حدث
قبل سقوط دنقلة ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، لمنع العرب أو غيرهم من غير
النوبيين ، التقدم جنوبي الشلال الثاني إلا للتجارة . وبسقوط دنقلة ، انفتح الباب

Mack Micheal, H. A. : «Nubian elements in Darfour», (٣٣)
Sudan Notes and Records, I, part, I, 1918, p.44.

Hamilton, ed. : op. cit. p. 55. (٣٤)

(٣٥) محمد عوض محمد - السودان الشمالي . ص ١٦٠-١٦١

أمام الجماعات العربية المختلفة للانسياب جنوباً على طول النهر ، الذى كان دائماً الطريق الطبيعى للهجرات منذ فجر التاريخ ، وذلك لإحاطته بصحراء قاحلة جرداء . على حين أن واديه الضيق يسمح بمرور القطعان ، حيث يوجد الماء والعشب كذلك (٣٦) .

اشتملت الجماعات العربية التى هاجرت إلى حوض النيل الأوسط على المجموعتين العربيتين : وهما مجموعتا العدنانيين والقحطانيين ، ويمثل العدنانيين فى الوقت الحاضر الكواهلة والمجموعة الجعلية ، وبعض القبائل الصغيرة الأخرى كالرشايدة . ويمثل القحطانيين ، المجموعة الجهنية . إذن متى دخلت هذه الجماعات العربية حوض النيل الأوسط . وكيف تم انتشارها على هذه الصورة ؟ إن أول إشارة إلى بنى كاهل وردت فى رحلة ابن بطوطة إلى عيذاب وسواكن ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٥٣ م) . فذكر أن أولاد كاهل يسكنون المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن . وهم مختلطون بالبجة عارفين بلسانهم (٣٧) . وليس من المعروف تماماً ، متى استقر أولاد كاهل بين البجة . والراجح أن هجرتهم إلى هذا الإقليم سابقة لهذا التاريخ (منتصف القرن الرابع عشر الميلادى) ، بدليل معرفتهم لغة البجة .

ويقال إن الكواهلة ينتسبون إلى كاهل بن أسد بن خزيمه . وأنهم جاءوا إلى السودان من جزيرة العرب مباشرة ، عبر البحر الأحمر ، واستقروا فى الإقليم الساحلى ، بين سواكن وعيذاب (٣٨) . غير أنه لا يوجد من الدلائل ما يؤيد هذه الصلة المباشرة بالجزيرة العربية . والأرجح أن هجرة أولاد كاهل كانت عن طريق مصر . إذ تقول روايات العباد ، أنهم ينتسبون إلى عباد من نسل الزير بن العوام . وأن جدّهم عباداً قدم من جزيرة العرب إلى مصر ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم مات ودُفن

Firth, C. M. : The Archaeological Survey of Nubia, (٣٦)
Report 1910-11. p. I.

(٣٧) ابن بطوطة - تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . ج ١ ص ١٥٤

(٣٨) محمد نعوض محمد - السودان الشمالى . ص ١٤٣

في وادي عباد قرب أدفو . وأن عباداً هذا جد كاهل^(٣٩) . ومن ذريته أولاد كاهل الذين أشار إليهم ابن بطوطة . واختلط أولاد كاهل بالبجة ، عن طريق المصاهرة ونالوا مراكز الزعامة فيهم . وعلى الرغم من أن كثيراً من الجماعات العربية اختلطت بالبجة ، وتصاهرت معهم ، منذ القرن التاسع الميلادي ، حتى اعتنق كثير منهم الإسلام ، فإن البشاريين والأمرار وبنى عامر ، ينتسبون كذلك إلى كاهل ، مما يدعونا إلى الاعتقاد ، أنه كان لبني كاهل الأثر الأكبر في نشر الإسلام والثقافة العربية فيهم^(٤٠) .

ومن المؤكد أن أولاد كاهل ، عاشوا زمناً في الأقاليم الساحلية الشرقية ، والمناطق التي تليها ، واشتغلوا بالتجارة وتنظيم القوافل ، بين النيل والبحر الأحمر . ثم انتشروا انتشاراً تدريجياً نحو الغرب ، وعرف هؤلاء جميعاً باسم الكواهلة . ويمكن تقسيم هذه الحركة كلها إلى مراحل ، تمثل الأولى منها نزولهم في الساحل واستقرارهم فيه في القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث رآهم ابن بطوطة ، مختلطين بالبجة في منتصف القرن الرابع عشر . وتمثل المرحلة الثانية ، انتقال شعب منهم إلى جهات أتبرا والنيل الأزرق ، في القرن الخامس عشر الميلادي ، واحتشدوا فيه . وتمثل المرحلة الثالثة ، انتقال جماعات منهم آتية من الشرق ، ونزحت إلى جهات النيل الأبيض ، ثم إلى كردفان في أزمنة متعاقبة . وبهذا أضحي للكواهلة أوطان ثلاثة : أولها في منطقة الأتبرا والنيل الأزرق ، والثانية في منطقة النيل الأبيض ، والثالثة في كردفان . والواضح أن معظم هذه الأوطان ، التي استقروا فيها ، منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، على الأقل ، كانت جزءاً من مملكة علوة المسيحية وعاصمتها سوبا . غير أنه لم يصلنا شيء عن تاريخ هذه المرحلة من تاريخهم . ومع هذا فإن القليل الذي عرف عن رواياتهم وقصصهم في وقت متأخر (القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد) — ولا سيما شعبة النيل الأبيض — يدل على أنهم استعملوا الحيلة أحياناً والحرب أحياناً أخرى ،

Hurray, G. W. : Sons of Ismail, p. 30. (٣٩)

(٤٠) محمد عوض محمد — السودان الشمالي . ص ١٤٤

لتوطيد أقدامهم . وتدل الأمثلة السائرة عند بعض شعبيهم ، أنهم اتبعوا سياسة يبدو أنها متأصلة في بني كاهل ، وهي أن ينزلوا غرباء ، ويدفعوا لأصحاب البلاد أجراً عن الأراضي التي يحتلونها . حتى إذا كثر عددهم ، ادعوا الحق فيها ، والتجأوا إلى القوة لإثبات حقهم^(٤١) .

أما المجموعة الجعلية ، فتركزت على النيل الأعظم ، من جنوب الخرطوم الحالية ، حتى دنقلة . وتمثل هذه الشقة من النهر المركز الرئيسي ، الذي انتشرت منه في شعب وفروع نحو البطانة ، والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، ونحو الغرب إلى كردفان . وفي الشمال حيث يعيش بعضهم ، مثل الجواربة والركابية وسط الجماعات النوبية .

وليس من المعروف تماماً ، متى بدأت هجرة هذه الجماعات ، إلى حوض النيل الأوسط ، ومن الجائز استناداً على بعض الروايات الوطنية ، أن تكون بدأت هجرتها من مصر ، إلى هذا الإقليم ، منذ حوالي أواخر القرن العاشر الميلادي^(٤٢) ، سالكة طريق العمور ، لتجنب مملكة مقرة المسيحية . ثم لحق بها عدد كبير في العهد المملوكي ، ولا سيما بعد سقوط دنقلة ، سالكين طريق النيل من الشمال إلى الجنوب ، حيث استقروا في أوطانهم الحالية ، على النيل الأعظم .

ويقال إن الجعليين ينتسبون إلى إبراهيم الملقب بجعل ، من نسل العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم . وترجع أسباب هذه التسمية إلى أن إبراهيم هذا ، كان جواداً مضيافاً . وأنه كان يقول للوطنيين وغيرهم من العرب « إنا جعلناكم منا^(٤٣) » ، أي أصبحتم منا .

(٤١) المصدر السابق ص ١٥٠ وانظر Reid, J. A. «Some Notes on the Tribes of White Nile Province» Sudan Notes and Records, XIII, part II, pp. 149-210

Mac. Michael, H.A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, (٤٢) II, p. 348.

Ibid : op. cit. I, p. 197. (٤٣)

وتدل هذه العبارة وكثرة ترديدها ، أن التوغل العربي في هذه المنطقة ، كان توغلا سلميا ، مبنيا على التودد إلى السكان الوطنيين . ويقول ما كايكل إن انضواء كثير من الجماعات العربية ، وغيرها من الوطنيين تحت لوائه ، جعل ذريتهم من هذا الخليط يدعون جميعا النسب إلى العباس^(٤٤) .

والراجع أن الجعليين ، لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة ، بل مجموعة قبائل ذات نسب متقارب . وهاجرت على دفعات وعلى مدى قرون ، وبسطت نفوذها على هذه الجهات قطرا بعد قطر ، إلى أن نشأت بينهم أسرة قوية ، تولت الزعامة ووحدت القبيلة ، فضلا عن إدماج المجموعة كلها بعضها في بعض ، وإدماج السكان الأصليين في المجموعة العربية^(٤٥) .

وتشتمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، منها الجعليون الأصليون الذين ليس لهم اسم آخر . وتمتد مواطنهم من خائق سبلوقة إلى الأتبرا - والميرقاب إلى شمال الأتبرا ، حول بربر - والرباطاب من بربر إلى أبو حمد - والناصر من أبو حمد إلى آخر الشلال الرابع - والشايقية ، من الشلال الرابع إلى إقليم الدبة - والجوابة (بنى جابر) ، بين الدناقلة والمحس - والركابية ، ويشك في نسبتهم إلى الجعليين ، وهم من العرب الشماليين ، ومواطنهم وسط بلاد المحس - والجموعية وأتباعهم شمال وجنوب أم درمان إلى حدود الكواهلة - والبديرية وبعضهم في النوبة والبعض الآخر في كردفان . هذا فضلا عن قبائل أخرى مبعثرة بين كردفان والنيل الأبيض والبطانة^(٤٦) .

وتمت ظاهرة توجب الالتفات ، وهي أن الإقليم الذي تحتله المجموعة الجعلية على النيل من جنوب الخرطوم حتى دنقلة ، غلبت عليه الصبغة العربية والثقافة العربية ،

Ibid. S. N. R. , I, 1918, p. 13. (٤٤)

(٤٥) محمد عوض محمد - نفس المصدر ص ٢١١

(٤٦) المصدر السابق ص ١٦٨

مما يدل على أن هذه الجماعات التي هاجرت إلى هذا الإقليم ، على مدى القرون ، كانت قوية كثيرة العدد ، حضرية لا تميل إلى حياة البداوة . ولهذا فضلت الاستقرار في مدن على طول النيل . على حين أن غيرها من الجماعات التي حافظت على بداوتها ، انتشرت غربا وشرقا وجنوبا في طلب حاجات الرعى .

والجموعة العربية الثانية - في حوض النيل الأوسط ، بعد الجعليين من حيث عدد القبائل والبطون - هي المجموعة الجهنية التي تدعى الانتساب إلى عبد الله الجهنى . وإذا كان يشك في صحة هذه النسبة ، فإن جميع الشواهد تدل على نسبتها إلى قبيلة جهينة القحطانية ، التي عاشت حول ينبع من حوالى ١٣٠٠ سنة . ومن هذا المركز توالى هجراتها إلى مصر . ثم توالى هجراتها جنوبا إلى بلاد النوبة ، وأوطان البجة ، منذ منتصف القرن التاسع الميلادى . وانتشرت جماعات من جهينة في أوطان البجة حتى وصلت سواكن في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . بدليل ما أشار إليه المقرئى ، من نشوب نزاع بينها وبين رفاعة سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) ، قرب سواكن^(٤٧) . ثم انتشروا جنوبا إلى أرض الحبشة . ولا بد أنها كانت من القوة بحيث يقول عنها ابن خلدون ، إنها حاربت الحبشة وأرهقتها حتى هذا الحين ، وهو أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الجماعات الجهنية التي انتقلت إلى أرض مقرة ، فإنها احتشدت فيها ، حتى إذا كان منتصف القرن الرابع عشر ، أخذت في الانتشار جنوبا متتبعة مواقع الفيث . ويدل هذا على أن جهينة سلكت في تقدمها جنوبا مسالك مختلفة ، أهمها الطريق الشرقى عبر أوطان البجة ، والآخر طريق النيل . ومنها احتلت أقاليم موزعة بين الأتبرا والنيل الأزرق شرقا ، إلى أقاصى دارفور غربا .

وتنقسم القبائل الجهنية في حوض النيل الأوسط إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى وتشمل رفاعة (ومعها أقرباؤها من القواسمة والعبداللاب والمركيين وغيرهم) -

واللحيين - والحلوين - والعوامرة - والحوالدة - والشكرية . ومواطنهم جميعا في أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى في النصف الشرقى من السودان . وتشتمل المجموعة الثانية على دار حامد - وبني جرار - والزيادية - والبزعة - والشنابلة - والمعاليا . ويطلق النسابون على هذه المجموعة اسم فزارة . ويعيشون في المنطقة الوسطى والشرقية من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتشتمل على الدويحية - والمسلمية - والبقارة - والمحاميد - والماهرية - والكبايش - والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) - والجر . وهم منتشرون في كردفان ودارفور^(٤٨) .

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى أن هذا الانتشار الواسع ، لم يتم دفعة واحدة ، بل استغرق عدة قرون . وأن هذه الجماعات استقرت على شكل مجموعات متفرقة تحت سلطان ملوك علوة ، محافظة على نظامها القبلى^(٤٩) . ثم اشتد ضغط أعراب جهينة ، على ملوك علوة الذين حاولوا دفعهم أو صدمهم - على قول ابن خلدون - ولما لم يستطيعوا لهم دفعا استمالوهم إليهم بالمصاهرة . فانتقل الملك إلى أبناء جهينة من بنات ملوك علوة ، حسبما يقضى به نظام الوراثة المعروف عند النوبيين جميعا ، « فافترق ملكهم حتى هذا العهد » : (أى القرن الخامس عشر الميلادى) .

والمعروف أن مملكة علوة المسيحية تألفت من عدة ممالك صغيرة خاضعة للملك الكبير فى سوبا . وهذه الممالك الصغيرة ، هى التى انتقل سلطانها - دون سلطان الملك الكبير - إلى أبناء جهينة . ويذكر الدمشقى (١٢٥٦ - ١٣٢٧ م) أن ملك علوة يسكن مدينة تسمى كدسة^(٥٠) ، لامدينة سوبا العاصمة القديمة . وليس من المستبعد أن يكون ملك علوة ، اضطر أمام ضغط الجماعات العربية المختلفة - ومن بينها جهينة - إلى نقل مقر ملكه ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، على الأقل ، إلى مدينة كدسة

(٤٨) محمد عوض محمد - نفس المصدر - ص ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥

(٤٩) Morie, L. G. : Histoire de l'Ethiopie, La Nubie, Tome 1ere, p. 413.

(٥٠) الدمشقى - كتاب نخبه الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢٦٨

في الغرب ، وأخذها عاصمة جديدة له . وبهذا تكون سوبا فقدت مركزها القديم
كعاصمة لملكة علوة . فاضمحل شأنها وخربت دورها .

وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا إلى كدسة ، واستيلاء القبائل العربية على معظم
أقاليم علوة ، فإن هذا لا يعنى سقوط تلك المملكة ، حتى القرن الخامس عشر الميلادي -
على الأقل . ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الأقاليم ،
لأسباب واضحة ، منها : « عدم انقياد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعا لهذا (٥١)
العهد » .

والواضح تماما أن قبائل جهينة لم تكن الوحيدة التي أفادت من تداعي مملكة
علوة وانحلالها . بل شاركتها القبائل العربية الأخرى ، التي استقرت في جهات متعددة
من مملكة علوة . وعلى هذا نشأت في جوفها عدة إمارات عربية مستقلة . ويذكر
القلقشندي أن من بين الإمارات التي نشأت في أوطان البجة حتى الحدود الحبشية ،
وبلاد النوبة كذلك ، ثمانى إمارات ، كان بين أمرائها والسلطنة المملوكية في مصر
مراسلات في القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) (٥٢) .
غير أنه ليس من الواضح تماما إن كانت هذه الإمارات ، يقع بعضها في إحدى جهات
علوة ، أو قريبا منها .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، على الأقل ،
ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية في حوض النيل الأوسط (٥٣) ، وكان لظهورها
أثر خطير في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال بعض
الأسس التي قامت عليها الملكية المسيحية في علوة . ذلك أن اختلاط العرب المهاجرين
بالسكان الوطنيين ، ساعد على إزالة بعض التقاليد الاجتماعية القديمة ، ولا سيما بعد
اختفاء معظم بيوت الإمارة القديمة . فنال الفرد حريته في ظل التقاليد القبلية العربية ،

(٥١) ابن خلدون - نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٩

(٥٢) القلقشندي - صبح الأعشى ج ٨ ص ٥ - ٦

(٥٣) نعوم شقير - تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . ج ٢ ص ١٠٣-١٠٧

وأُضحت الأرض ملكاً للجماعة القبلية، بعد أن كانت ملكاً خاصاً للملك. وصارت الأرض توزع على الجماعة؛ يقومون على استغلالها ودفع الضريبة عنها لشيخ القبيلة أو زعيم الدار. ويعنى هذا الدور من التطور - الانتقال من مرحلة الإقطاع المطلق، إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده.

وتم تطور آخر، طرأ على الحياة السياسية. وذلك أن الحكم أضحى وراثياً في بيت شيخ القبيلة أو الدار. وتكونت من مجموعات القبائل - في الإقليم الذى اتخذته داراً لها - زعامات إقليمية تولاها شيخ المشايخ. وهو عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة. وعرف باسم الملك أو المانجل^(٥٤). وبهذا اختفى نظام الوراثة القديم - أى نظام الأمومة.

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية في حوض النيل الأوسط، هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد. وذلك أنه لما رأت القلة التى بقيت على النصرانية أن لا أمل لها في قيام حركة للإصلاح في مجتمعاتهم، بسبب انقطاع علاقاتهم الدينية بكنيستهم الكبرى في الإسكندرية، كان من الطبيعى أن ينشدوا ما يسد رمقهم الروحى في الدين الإسلامى، الذى دل بين أتباعه منهم على قوة وحيوية. وعلى الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في هذا الجزء من وادى النيل، فإن هذا لم يؤد إلى استقرار الأحوال فيه، بسبب اختلال الأمن، والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعى من ناحية، وبين الوطنيين من ناحية أخرى^(٥٥) مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية. وزاد الأمور تعقيداً، تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر، واختلال سير القوافل بينهما، بسبب اضطراب الأحوال في منطقة النوبة الشمالية. ولهذا الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لهاشتى الجماعات والقبائل المتنازعة، لإقرار الأمن وحماية طرق التجارة القديمة، وتذكر

(٥٤) الشاطر بصيل عبد الجليل - معالم تاريخ السودان وادى النيل ص ٥١

(٥٥) نعوم شقير - نفس المصدر ج ٢ ص ٧٢

المراجع الوطنية ، أن عماره دوتقس زعيم الفونج ، جمع رجاله في جبل مويبا . ثم تحالف مع عبد الله جماع شيخ عرب القواصمة من جهينة وأصحابه الآخرين ، على إخضاع ملك الفنج وملك الغرب . ودارت في أريجي ، معركة . سنة ٩١٠هـ (١٥٠٥م) ، انتصر فيها الحليفان ، وفر الفنج إلى جبال فازوغي وكردفان ، ومن بقى منهم اختلط بالغزاة واعتنق الإسلام^(٥٦) .

أما الفونج ، فاختلف المؤرخون حول أصلهم . ورأى البعض أنهم شعبة من الشلك ، مستندين في هذا على ما ذكره بروس الرحالة الإسكتلندي الذي زار سنار سنة ١٧٧٢م^(٥٧) ، وقيل إنهم قوم أتوا من الغرب ، ويحتمل أن يكونوا فرعا من الأسرة المالكة في مملكة برنو^(٥٨) . وثم رأى ثالث يقول إنهم هجرة عربية دخلت السودان من الحبشة بطريق النيل الأزرق^(٥٩) . أما الفونج أنفسهم ، فيقولون إنهم من ذراري الأمويين ، الذين لجأوا إلى ملك الحبشة ، فرارا من بني العباس^(٦٠) .

وكيفما كان الطريق الذي سلكه الفونج إلى جزيرة النيل الأزرق ، أو درجة الصحة في انتابهم إلى العرب عامة ، أو بني أمية خاصة ، فوضع الأهمية في الواقع ، في هذه المرحلة من تاريخ الفونج ، أن أولئك القوم - سواء هبطوا أرض الجزيرة من الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب - عرضوا أنفسهم على قاعدة أنهم عرب ، ووافقهم الناس على نسبتهم هذه ، لاسيما وأنهم لم تكن لهم لغة سوى العربية ، أو يدينون بدين سوى الإسلام .

وتدل شروط الحلف بين الحليفين ، عمارة وعبدالله ، أيكون عمارة هو المقدم على زميله

(٥٦) أحمد كاتب الشونة - تاريخ ملوك السودان . ص ٢

(٥٧) Arkell, A. J. : «Fung Origins» SNR, XV, II, pp. 208-243

(٥٨) Arkell, A. J. : A Hist. of the Sudan, p. 206.

(٥٩) Chatway. J. O. P. : «Notes on the Hist. of the Fung». (٥٩)

SNR. XIII, II, pp. 247-257.

Mac. Michael. H. A. : A Hist. of the Arabs in the Sudan, (٦٠)

II, B. A., pp. 36-37

في الزعامة وحمل لقب ملك . وأن يحل عبد الله محله مدة غيابه . أى أنه كان بمثابة نائب ملك ، وحمل لقب شيخ . وظل هذا النظام ، الذى وضع أساسه الحليفان ، إلى أولادها من بعدها .

اتخذ عبد الله مدينه قري (قرب خائق سبلوكة) مقرانه ، واختط عمارة مدينة سنار ، لتصبح عاصمة مملكة الفونج ، التى امتدت مساحتها من سواكن شرقا إلى النيل الأبيض غربا ، ومن أقصى جبال فازوغلى جنوبا ، إلى الشلال الثالث شمالا أى أنها اشتملت على معظم النوبة العليا (علوة) وقسم كبير من بلاد النوبة الشمالية (مقرة) . وأضحت مدينة أريجى (قرب المسلمية) الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله ، الذى امتدت سلطته على جميع الوحدات القبلية حتى حنك (شمال دنقلة) على حين أن سلطة عمارة امتدت على مايلي هذه الأقاليم جنوبا . هذا ولم يباشر ملوك سنار ، أو حلفاؤهم في قري سلطاتهم على مملكة الفونج بصفة مباشرة . بل عن طريق المكوك (شيوخ القبائل) ، الذين تمتعوا بشيء من الاستقلال ، على أن يدفعوا الضرائب المقررة لخزانة الملك في سنار . واحتفظ ملوك سنار وحلفاؤهم في قري ، بحق تنصيب الملك أو المانجل ، من بين أفراد أسرة الملك المتوفى (٦١) .

وفي أيام عمارة ، امتد النفوذ العثماني إلى الشام ومصر . وقام العثمانيون بعملية تأمين الحدود الجنوبية ، على غرار ما فعل جميع السابقين . غير أن الامتداد العثماني ، اهتم بالناحية البحرية ، لأن استيلاء العثمانيين على مصر ، كان مختلطا في عوامله ودوافعه بما لمصر من سيطرة على تجارة البحر الأحمر . وكانت تلك التجارة مهددة تمام التهديد من ناحية البرتغاليين . وهذا هو تفسير اهتمام العثمانيين بالناحية الجنوبية ، مما جعلهم يقيمون قواعد في سواكن ومصوع سنة ١٥٢٠ م . وخشى عمارة من هذا الامتداد العثماني من ناحية البحر . فبعث إلى الباب العالي ، يذكر له أن دولته إسلامية ، وأن رعيته عرب بادية ، لا يملكون ما يصلح لدفع الجزية للسلطان . وعزز عمارة

هذه الرسالة بكتاب يحوى أنساب قبائل العرب في مملكته . جمعه له السمرقندى ، أحد علماء سنار . ويقال إن السلطان العثماني ، اقتنع بصحة ما تضمنته هذه الرسالة ، فعدل عن حرب سنار^(٦٢) .

هكذا تم ميلاد هذه الدولة الإسلامية ، أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، على أنقاض مملكة علوة المسيحية . غير أن المعروف أن هذه الدولة اشتملت على عناصر مختلفة ، عربية وحامية وشبه زنجية ، فضلا عن خليط منها جميعا . وهي ذات ثقافات مختلفة ومختلطة كذلك . ويصف صاحب الطبقات حال هؤلاء وأولئك جميعا ، عقب تأسيس مملكة الفونج بقوله : « اعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة ، وتغلبت عليها . أول القرن العاشر ، سنة عشر بعد التسعمائة (١٥٠٥ م) ، وخطت مدينة سنار ، ولم تشهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ، ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدة »^(٦٣)

تصور هذه الحالة ، التي وصفها صاحب الطبقات ، نوع الثقافة ، التي سادت جهات حوض النيل الأوسط ، أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وهي تدل دلالة واضحة ، على اختلاط الإسلام بالعقائد والعادات الوطنية فشارك المهاجرون أهل البلاد الأصليين ، في الجهل بقواعد الإسلام . ومرجع هذا في الغالب ، إلى أن الدعوة الإسلامية لم تكن تهتم حتى هذا الوقت بشرح تفاصيل الأسس التي يقوم عليها الإسلام بل كانت هذه الدعوة مجملة مبسطة ، ليسهل على دعايتها ، نشر عقيدتهم بين أهل البلاد من ناحية ، وبسط نفوذهم عليهم من ناحية أخرى . هذا والمعروف أن معظم أولئك المهاجرين ، كانوا على حاله من البداوة ، قنسوا الكثير من تعاليم الدين ، لبعد صلتهم بمواطن العلم والعلماء .

(٦٢) نعوم شقير - نفس المصدر - ج ٢ ص ٧٣ - ٧٤

(٦٣) محمد ضيف الله - طبقات ود ضيف الله - نشر إبراهيم صديق ص ٥

(٦٤) عبد المجيد عابدين - دراسات سودانية . ص ٣

غير أن بعض المصادر الوطنية تشير إلى وجود نوع من النشاط الثقافي ، في بلاد النوبة ، قبل قيام السلطنة السنارية . ومن الأمثلة على هذا ، ما تذكره إحدى الوثائق أن غلام الله بن عايد اليمنى الأصل ، هبط أرض دنقلة ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادي واستقر فيها ، لأنها كانت في غاية الضلالة والحيرة ، لافتقارها إلى العلم والعلماء . فعمل غلام الله المساجد ، وعلم أبناءه وتلاميذه من أبناء المسلمين تلاوة القرآن ، وعلمهم كذلك بعض العلوم الأخرى^(٦٥) . ثم ظهر في نواحي أبي حليمة على النيل الأزرق - قبل قيام السلطنة السنارية - أولاد عون السبعة ، وتولى أحدهم ويدعى الضير ، منصب القضاء في زمن الفنج . وليس من المستبعد أن يكون من أحفاد غلام الله من انتقل من دنقلة إلى جهات النيل الأزرق ، أواسط القرن الخامس عشر ، حيث أنشأوا المساجد للعبادة والتدريس .

وإذا استثنينا بعض الحالات التي استخدم فيها العنف لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية ، والقضاء على العادات القديمة ، فإن أساليب الدعوة الإسلامية زمن الفونج ، كانت سلمية خالصة^(٦٦) . وتميزت هذه المرحلة من تاريخ الدعوة ، بظهور طبقة من الفقهاء ورجال الصوفية الذين تعهدوها بأساليب جديدة ، قامت أساساً على شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس ، ونهيبهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام . والواضح مما ذكرته بعض المراجع السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية مصدرها مصر ، والحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها . ويرجع هذا في الغالب ، إلى هجرة أفراد أو أسر متقنة من هذه الدول الإسلامية ، إلى جهات وادي النيل الأوسط ، لينزلوا في كنف ملوكها رغبة في عطاياهم وإكرامهم ، أو ليعيشوا في خيراتها وأراضيها الواسعة ، أو لينشروا دين الله والعلم والتصوف ، أو ليتخذوه مأوى جديداً بعد أن ضاقت بهم أوطانهم^(٦٧)

Mac. Michael, H. A. : op. cit., 'll, manusc. B.A. p. 36 (٦٥)

Jackson, H. C. : op. cit. p. 210 (٦٦)

(٦٧) عبد العزيز عبد المجيد - الترية في السودان ج ١ ص ٥٥

وفضلاً عن هؤلاء فإن كثيراً من أبناء مملكة سنار، كانوا يرحلون إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر، ثم يعودون إلى بلادهم. ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام ويأخذ العلم عن أحد قهائها، أو يأخذ الطريقة عن أحد مشايخ الطرق في الحجاز. وهؤلاء وأولئك جميعاً كان لهم أثر واضح في نشر الثقافة الإسلامية في مملكة سنار.

ومن الأمثلة الدالة على هذا، ما تذكره المراجع بصدد هجرة السناريين إلى مصر لتلقي العلم أوائل القرن السادس عشر الميلادي. ومن بين هؤلاء محمود العركي، الذي أخذ العلم عن ناصر الدين اللقاني وأخيه شمس الدين. ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة، ما بين أليس (الكدة) والحسانية (توتى). ويعد محمود العركي أول من طبق أحكام الدين الإسلامي في هذه المنطقة بتفقيه الناس وأمرهم بالعدۃ^(٦٨).

وامتاز النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بازدهار الثقافة الإسلامية في مملكة سنار. إذ أن عدداً من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر. ومن بين هؤلاء أولاد جابر الأربعة. فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد، تفقه على الشيخ محمد البنوفري إمام المالكية في مصر، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو، ثم عاد إلى ترنج مسقط رأسه في أرض الشايقية. وكان أول من درس مختصر خليل في مملكة الفونج. « وتخرج على يديه أربعون إنساناً صاروا كلهم أولياء وأقطاباً ». ومن إخوة إبراهيم، عبد الرحمن الذي نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتعلم على الشيخ البنوفري. ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر، للاتصال بعلمائها كما فعل الأخ الثالث إسماعيل، الذي أجازه الشيخ البنوفري كذلك. وغدت بلاد الشايقية، مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة في مملكة الفونج في منتصف القرن السادس عشر الميلادي^(٦٩).

وحوالي سنة ٩٥٠ هـ (١٥٤٣ م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوى المصرى

(٦٨) طبقات ود ضيف الله. ص ٥، ١٦٣

(٦٩) طبقات ود ضيف الله ص ٦

الأزهري الثقافة ، تلميذ الشيخين سالم السهوري ، ويوسف بن عبد الباقي الزرقاني .
ودخل بربر وأربجي وسنار ، غير أنه فضل سكنى بربر ، وبني بها مسجداً لتدريس.
الرسالة والعقائد والنحو وسائر العلوم ، وولى القضاء فباشره بعفة ونزاهة . وتخرج
على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم ، منهم حفيده الشيخ الضوى المصرى ، والشيخ
محمد بن عيسى سوار الذهب من أهل دنقلة^(٧٠) .

ومن العلماء المصريين ، الذين قدموا إلى مملكة سنار فى النصف الثانى من القرن
العاشر الهجرى كذلك ، الشيخ محمد بن على بن قرم الكياني المصرى . وهو شافعى.
المذهب ، وتلميذ الخطيب الشريينى . فأقام فى بربر ودرس المذهب الشافعى فى بربر
وأربجي . ومن تلاميذه ابنة الشيخ الشكاك والقاضى دُشين قاضى أربجي ، فى عهد.
الشيخ عجيب المانجلك وغيرهم كثير^(٧١) .

ثم وفد من الحجاز أئمة الصوفية ، ويدعى تاج الدين البهارى البغدادى ، وهو
خليفة الطريقة القادرية الجيلانية . واستقر تاج الدين فى أرض الجزيرة سبع سنين.
تمكن فيها من إدخال الطريقة الجيلانية ، بعد تسليك خمسة من المريدين ، منهم
الشيخ محمد الهميم . ثم تولى هؤلاء تسليك غيرهم ، بعد عودة شيخهم إلى.
الحجاز^(٧٢) .

وفى هذا الوقت أيضاً (أى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى) قدم التلمسانى
المغربى ، على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم
الكلام ، وعلوم القرآن من تجويد وروايات ونحوها . وانتشر علم التجويد والتوحيد
فى مملكة سنار . وممن أخذ عنه عبد الله الأغيش من بربر^(٧٣) .

وتمتع أولئك المشايخ بنفوذ واسع فى مملكة سنار . فأقطعوا الإقطاعات الواسعة،

(٧٠) المصدر السابق ص ١٦٥

(٧١) المصدر السابق ص ١٦٩

(٧٢) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٥

(٧٣) المصدر السابق ص ٥

ولم يرد لهم طلب عند الحكام والملوك ، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان ، مما شجع أولئك المشايخ على الإقامة ونشر الدين والثقافة الإسلامية في هذه البلاد .

والواضح من دراسة حياة أولئك الرواد ، أن مصر هي المصدر الأساسي للثقافة الإسلامية ، التي ظهرت في مملكة سنار في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . ومن الملحوظ هنا أن الأثر المصري يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمي في معظمه . فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر « بالمباشرة أو الواسطة » ، اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد وغيرها من العلوم . على حين أن الطابع الصوفي ، أو الصوفي العلمي مما كان غالباً على تعليم الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية^(٧٤) .

ومن الملحوظ هنا كذلك ، أن الطابع العلمي الذي تأثر به السناريون ، اتجه إلى حصر الانتباه في العلوم النقليية ، التي سادت العالم الإسلامي منذ القرن العاشر الهجري ، بعد أن تغيرت أساليب التربية الإسلامية على يد الأتراك وغيرهم ، وانصرف العلماء إلى التأليف والتحرير ، لا إلى الاجتهاد والتخريج ، وميل معظم علماء هذا العصر إلى اختصار ينقصه الشرح والتعليق^(٧٥) .

أما عن المذاهب الدينية ، فالسناريون غلب عليهم مذهب مالك ، بسبب اتصالهم بأهل صعيد مصر ، الذين غلب عليهم هذا المذهب . وأما الدراسة العلمية لهذا المذهب ، فقد ظلت مزدهرة بالأزهر إلى جانب المذاهب الأخرى . وانتقلت دراستها إلى مملكة سنار على يد خريجي الأزهر سناريين ومصريين ، مثل الشيخ إبراهيم البولاد والشيخ محمد القناوى المصرى وغيرها .

وعلى الرغم من أن انتشار المذهب الشافعى كان محدوداً ، إلا أن القليل من علماء الشافعية الذين تخرجوا في الأزهر وتلاميذهم كان لهم أثر واضح في نشر تعاليم الإسلام .

(٧٤) عبد المجيد عابدين — تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٥٦ — ٥٧

(٧٥) عبد العزيز عبد المجيد — التربية في السودان . ج ١ ص ٥٢

ومن هؤلاء محمد بن قرم الكيماني المصري ، وتلاميذه عبد الله العركي والقاضي دشين الشافعي قاضي أربيجي وعبد الرحمن ولد حمدتو والشيخ إبراهيم الفرضي وغيرهم^(٧٦) .

وانتشرت علوم القرآن في مملكة سنار ، أواخر القرن العاشر الهجري . ويقال إن الشيخ محمد سوار الذهب من دنقلة ، تلقى علوم القرآن على التلمساني المغربي ، كما تلقاها من قبل ، على الشيخ محمد القناوي المصري في بربر . وليس من المعروف تماماً أيهما كان أقوى أثراً . غير أن انتشار قراءة ورش في دنقلة ، وأبي عمرو في معظم جهات مملكة سنار - وهما القراءتان الشائعتان في بلاد المغرب - يدل على تأثير السناريين ببلاد المغرب في علوم القرآن أكثر من تأثيرهم بمصر .

وإلى جانب الثقافة العلمية ، ظهرت في مملكة سنار ، منذ القرن العاشر الهجري ، بوادر ثقافة صوفية كذلك ، وهي الثقافة التي كانت شائعة ، ذلك الحين ، في بلاد العالم الإسلامي مثل الحجاز والعراق ومصر وبلاد المغرب . ومنها تسربت إلى مملكة سنار على يد بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها . وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز ، ولا سيما في موسم الحج ، لطلب العلم على علماء الحرمين . ثم إن بعض قادة الصوفية في الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار ، حيث طاب لهم فيها المقام ، لترحيب السناريين بهم وتشجيع ملوك الفونج لهم . ولقيت الطرق الصوفية في مملكة سنار منبثاً خصباً ، ويرجع هذا في الغالب ، إلى أن كثيراً من المشايخ أظهروا من الصفات ، ما جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذاً في ساعات الضيق والعسرة . كما أن الحروب والانقسامات الداخلية - التي سبقت عصر الفونج - أورثت في نفوس السناريين في هذا العهد ، رغبة شديدة في حياة مستقرة ، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ ، الذين ظهروا مع قيام مملكة الفونج للانتظام في سلك العبادة .

(٧٦) طبقات ود ضيف الله ، ص ١٦٩

ويقال إن الطريقة الشاذلية ، دخلت السودان قبل قيام مملكة الفونج ، على يد الشريف حمد أبي دنانة سنة ١٤٤٥ م . ثم رسخت دعائمها زمن الفونج ، على يد الشيخ خوجلي عبدالرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م ، والذي كان أول أمره قادرياً ثم تحول شاذلياً (٧٧) .

ويظهر أن هاتين الطريقتين ، عند ما دخلتا بلاد سنار ، لم يكن لهما هيئة مركزية منظمة ، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه ، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين في أنحاء البلاد ، مستقايين عن بعضهم ، إلا من حيث الرباط الروحي ، الذي يربطهم جميعاً باعتبارهم من أتباع طريقة واحدة . ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا في القرن التاسع عشر الميلادي .

ومن الملحوظ هنا ، أن بعض الفقهاء السناريين ، أصبحوا شيوخاً صوفية ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الله العركي . على أن أغلب رجال الصوفية - في هذا العهد - (القرن العاشر الهجري) كان من غير العلماء . ومن هؤلاء خليل بن علي الصاروي ، الذي كان في أول أمره خماراً شراباً (٧٨) . ومنهم الشيخ محمد الهميم ، الذي كان من أكبر قادة الصوفية في مملكة سنار ، « مع كونه أمياً لم يقرأ إلا لغاية الزلزلة » (٧٩) . وقد يكون بعض السبب في هذا راجعاً إلى أن الناس في هذا الوقت (القرن العاشر الهجري) ، كانوا لا يزالون في مستوى ثقافي لم يتوافر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية ، وتدبر أصول الدين ، مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وما هو بدعة ، فيسهل التأثير فيهم ، ويتملكهم كل شيء طريف غير مألوف ، كالتحدث بالغيب والكرامات ، وادعاء الطب الروحاني ، ولا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين .

وكيفما كان الأمر ، فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحاً في التقريب بين الجماعات

(٧٧) Trimingham, J. S. op. cit. pp. 196-197

(٧٨) طبقات ود ضيف الله، ص ٨٤

(٧٩) المصدر السابق ص ١٥٠

الجنسية ، لأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية ، وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة^(٨٠) . من ذلك أن التجمع الصوفي كان نواته شيخ الطريقة ، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة ، تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم .

وهكذا يمكن القول ، إن القرن السادس عشر الميلادي ، كان عهد انتقال من المسيحية التهدمة ، إلى الإسلام البدوي، على أيدي جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة ، أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين ، وإلى هؤلاء وأولئك جميعاً يرجع الفضل في وضع الأسس التي قامت عليها النهضة العلمية والصوفية ، التي ازدهرت في مملكة سنار منذ القرن السابع عشر الميلادي .

مصطفى محمد مسعد

(٨٠) محمد عوض محمد - السودان الشمالي ص ١٧-١٨

دولة حبشية في اليمن

دولة بنى نجاح

(٤١٢ - ٥٥٤ هـ) (١٠٢١ - ١١٥٩ م)

تواجه الحبشة الجزيرة العربية ولا يفصلهما إلا البحر الأحمر الهادئ الضيق ،
ويعمن في الضيق حتى ليكاد شاطئاه يلتقيان كلما اتجهنا نحو الجنوب ؛ فمن الطبيعي
أن تقوم العلاقات بينهما منذ أقدم الأزمنة . طالما عرف ساكنو الشواطئ الملاحة
البحرية وأتقنوها . وتذكر الأساطير الحبشية قيام حضارة في الحبشة تجمع بينها وبين
اليمن ونحن وإن كنا لا نستطيع تحقيق هذه الأساطير على وجه يبعث على الطمأنينة
إلا أنها تدل على قيام هذه العلاقة . وقد اتخذت هذه العلاقة مظاهر شتى مثل الغزو ،
والصدقة والتجارة والهجرة .

ولدينا من النقوش الكثيرة ما يسجل هذه الفترات والعهود التي كانت فيها بلاد
اليمن والحجاز عرضة لغزوات أثيوبية متوالية^(١) نقرأ خلالها لأول مرة اسم حبشان
الذين ربما يكون قد تسلسلوا من حبشة المذكورين في بعض النصوص الهيروغليفيه
ويبدو أنهم كانوا مستقرين في غرب اليمن قرب جبل حبشى . وكان شعبا قويا وربما
يكون هو الذى هاجر فيما بعد إلى الحبشة ونقل إليها لسانها وحضارتها .

كما يذكر لنا السائح البيزنطى كوزموس Cosmos أنه شاهد في أكسوم
في القرن الخامس الميلادى نقشا طويلا بالإغريقية محفورا على عرش من الحجر مهدى
إلى آلهة مدينة أدوليس يذكر فيه صاحبه أنه غزا شعوب الجزر والأحبار وغيرها
وكلها تقطن أجزاء جبلية صعبة ترويه مياه حارة . ثم أرسل جيشا آخر إلى أرحابيتس
Arrhabites التى تسكن الناحية الأخرى من البحر وأخضع ملوكهم وأرغمهم على

دفع الجزية . ولكنه ترك لهم أرضهم^(٢) كما ترك لهم حرية الملاحة وتسيير القوافل ومن أجل ذلك قدم الشكر إلى الإله العظيم أرس الذي وهبه النصر فجعله ينتصر بنفسه على الشعوب التي تسكن الغرب كما انتصر قواده بالحملات الأخرى التي أرسلها بواسطة البحر . ومن أجل هذه الحملات الأخيرة يقدم الشكر إلى الإله بوزيدون إله البحر الذي كتب لسفنه السلامة .

كما تدلنا النقوش التي عثرت عليها البعثة الألمانية في أكسوم سنة ١٩٠٥ على قيام الملك عيزانا في سنة ٣٢٥ م بحملاته المتعددة التي كان من نتائجها أن وصف هذا الملك نفسه بأنه (عيزانا ملك أكسوم وحير وريدان وأثيوبيا وسبأ وصالحين وسيامو وييجا وكاسو ، ملك الملوك وابن الإله غير المقهور أرس)^(٣) وكانت حملته إلى جزيرة العرب أولى هذه الحملات . وقد كتب هذا النقش باللغات الحبشية والإغريقية والسبائية . وكتابة النص بالحبشية طبيعي لغته ، والأغريقية تدل على اهتمامه بإيصال هذا النص إلى العالم الإغريقي الذي كان يتصل به عن طريق أدوليس التي كانت ميناءه على البحر الأحمر ويتردد عليها كثير من تجار الإغريق ، أما السبائية فهي تدل على كثرة رعاياه في الناحية الأخرى من البحر الأحمر وهم الذين يعنيه أن يقرأوا هذا النص كذلك . وإنهم كانوا يكوّنون جزءاً من رعاياه لا يقل من حيث الأهمية عن الجزء الحبشى . كما نجد النص السبائي يزيد عن النصين الحبشى والإغريق فقرة يلحن فيها الملك من يحطم ما أقامه ويبارك من يحترمها . كما يرجو من الناس أن يقصّوا أخبار ما فعله وكذلك أخبار عظمة أكسوم^(٤) .

ويبدو أن عيزانا هذا لم يكن مُهمّاً في التاريخ الأثيوبي بسبب هذه الغزوات وبسبب إدخاله الديانة المسيحية على المذهب السكندري إلى الحبشة مما جعل الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني يحاول تحويله عن هذا المذهب الأريوسي

(2) Ibid 116-118

(3) Budge; History of Ethiopia VI. p. 245

(4) Ibid p. 246

فأرسل إليه تيوفيل Theofile الهندي يحمل كتاباً يطلب منه هذا الطلب ويصف له
أثناسيوس Athenasius بطريرك الاسكندرية بأنه مفضل لا يجد له مكاناً يستقر فيه.
ولكن يبدو أن هذه المحاولة انتهت بالفشل ولم يتنازل غيزانا بالرد عليه ، ولكن هذا
لم يمنع قسطنطين من أن يحتفظ بعلاقاته الحسنة مع الحبشة بسبب موقعها من اليمين
ذات الأهمية الاستراتيجية بسبب الحروب الرومية الفارسية التي كانت ناشبة آنذاك.
وليس لدينا في هذا النقش ما يفيد إقامة حكم حبشى هناك يستند علىحكام
من الأحباش . بل كل ما عرفناه من هذا النص أن أجزاء من بلاد اليمين خضعت
للملوك أكسوم فكوئت جزءاً من امبراطوريته وإن لم تستمر خاضعة له إلا إلى أكثر
من سنة ٣٧٩م حين استطاع ملكي كرب أن يستقل باليمين بعيداً عن النفوذ الحبشى^(٥)
على أن الحكام الأحباش ظهروا في الغزوة الحبشية التالية التي قام بها الملك الأصيبها
في سنة ٥٢٤م ثم الغزوة التي تلتها أيضاً التي شنها الملك كالب لنصرة مسيحي نجران
حين اضطهدهم ذو نواس فقدم هذا الملك وهزم ذا نواس وأقام أبرهة نائباً عنه
وكان ذلك في بداية القرن السادس الميلادي^(٦) وقد ظل النفوذ الحبشى في اليمين
وظل الولاة الأحباش يحكمون هذا الجزء من الامبراطورية الحبشية إلى أن استنجد
اليمينيون بالفرس حين فشل الأحباش في غزو الحجاز فجاء الغزو الفارسي سنة ٥٧٥م
ووضع حداً للحكم الحبشى ، وقد أفاضت المصادر العربية في ذكر هذه الغزوة .
أما علاقات الصداقة فقد بدأت منذ أقدم الأزمنة أيضاً فقد أرسل الأمبراطور
جستنيان إلى كل من الملك كالب وأبرهة أمير النين مقترحاً تكوين حلف يقف أمام
الخطر الفارسي^(٧) وكان ذلك عشية ظهور الإسلام ، وعند ما ظهر الإسلام وأنزل
المشركون الأذى بالمسلمين نصح النبي أنصاره بالهجرة إلى الحبشة^(٨) لأن بها ملكاً

L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 245 (٥)

L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 464 (٦)

L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 164 (٧)

(٨) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٢٩

لا يظلم عنده أحد . وهاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتين قادما فيهما عثمان بن عفان وزوجته ابنتا رسول الله . ولقي المسلمون كل ترحيب من النجاشي الذي رفض تسليمهما في المرتين وإعادتهما^(٩) وإن احتواء وفدى الهجرة على عدد من النساء يدل على تأكد المسلمين من موافقة الرحلة لهم ولم يكن هذا التأكد إلا نتيجة تردد المسلمين على هذا الطريق أكثر من مرة ووثوقهم من شعور الصداقة والود الذي سوف يلقونه في الحبشة ساعة وصولهم . وكان هذا الشعور صحيحا إذ مكث المهاجرون في الحبشة يلقون كل ترحاب طيلة ست عشرة سنة . ومن أجل هذا ظلت العلاقات الحسنة تربط كلا من النجاشي والنبي طيلة حياتهما . فتبادلا الهدايا أكثر من مرة^(١٠) وكان النبي يحمل كثيراً من الود بل من الحب للأحباش ويؤكد أن من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله في بيته رزقا^(١١) .

وإذا كان المسلمون قد قاموا بعد ذلك وبدأوا حركة فتوحهم الكبرى فأطاحوا بعرش كسرى وقضوا على الامبراطورية الفارسية . واقتطعوا من الدولة الرومانية أجزاء كبيرة كالشام ومصر وشمال إفريقية حتى انتهوا إلى المحيط الأطلسي فإنهم لم يقربوا الحبشة غازين ولا فاتحين . رغم قرب هذه البلاد منهم ورغم ما بها من مظاهر الإغراء كالرعي الغني والتربة الخصبة والثروة الدافقة .

ولكن إذا كان المسلمون لم يقصدوا الحبشة غازين أو فاتحين فإنهم قصدوها ودخلوها دخولا سلميا حيث استقروا وعملوا وظهر في تاريخ الدولة الإسلامية الجديدة من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ما دفع بالمسلمين إلى هذه البلاد يتخذون منها مقاما ومستقرا . فقد أبت كثير من القبائل العربية غير القرشية أن تخضع لسيادة قريش عليها . ورأت في هذه الخلافة الإسلامية الجديدة مظهرا من مظاهر

(٩) ابن جرير الطبري ج ٢ ص

(١٠) الجواهر الحسان ص ٩٦

(١١) أعلام الطراز النقوش في محاسن الجوش ورقة ه - ١

هذه السيادة^(١٢) فأخذت طريقها نحو بلاد لا تكون خاضعة لهذه السلطة الجديدة التي حولتها قريش إلى مافيه عصبيتها ومنافعها. كما أبى الشيعة أن يخضعوا لسلطان الأمويين بعد أن أشاعت مذبحة كربلاء بينهم شعوراً بالفزع والهلوع^(١٣) كما أشاع الأمويون مثل هذا الشعور في أهل الحجاز بعد نجاحها في سحق ثورة ابن الزبير حين قتلوا أغلب من بقى فيه من المهاجرين والأنصار وانتهكوا حرمة الأماكن المقدسة^(١٤) ففر أهل المدينة لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية. كما كان إهمال الأمويين للحجاز ورميهم لأهله بكل طاغية جبار يعمى في إذلال القوم^(١٥) داعياً للإسراع الخراب إلى هذه البلاد^(١٦) التي كانت مهبطاً للوحى ومصدراً للنور. وسكن هؤلاء القادمون أقرب الأجزاء إلى بلادهم وهى الأجزاء الشرقية من الحبشة حتى كونوا على مدى الزمن شريطاً من البلاد الإسلامية يشتغل أهلها فيما يعود عليهم بالنفع والخير.

وإذا كان كثيرون من هؤلاء المهاجرين قد احترقوا الرعى كما كانوا يحترقونه في شبه الجزيرة أو أقبلوا على الاشتغال بالزراعة إلا أن أكثرهم قد أقبل على احتراف التجارة. ولم يكن هذا جديداً على هذا الركن من العالم. فقد كانت العلاقات التجارية بين جزيرة العرب والحبشة أو بين هذه الأخيرة والعالم الخارجى عن طريق شبه الجزيرة العربية منتعشة منذ القدم. فقد كانت بلاد بنت، بالنسبة لسكان مصر، الأرض المقدسة التي ترى أشجارها مرسومة على جدران هياكل مصر. كما كان البطالة يرسلون السفن الضخمة لتحمل الأفيال الحية من أجل احتفالاتهم في ممفيس. وظلت صناعة العاج صناعة نامية في الاسكندرية لمصور كثيرة قبل الميلاد واستوردتها منهم الدولة البيزنطية والعالم الهليني كله^(١٧) حتى إذا أنشئت مدينة أدوليس على الساحل جاءت

(١٢) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٣٧

(١٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٢١

(١٤) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٦

(١٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣

(١٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠٠

(١٧) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 100

جموع الأحباش يحملون تجارتهم من العاج والحنطة والجلود والقروء والرقيق يبادلون بها الملابس والأقمشة البيضاء والملونة التي يحملها إليها التجار العرب آتين من الشام وفارس. وكانت تجارة الرقيق تجدد سوقاً رائجة في الجزيرة العربية وكذلك في الدولتين الفارسية والرومية وأنحدر التجار جنوباً على طول الشاطئ الإفريقي حيث وجدوا خليجاً مملوءاً بالجزر كان يطلق على مدخله اسم باب إيزيس الذي أخذ يتحرف شيئاً فشيئاً حتى صار عصب^(١٨) وكانت قوافل العرب قبل الإسلام تسافر رحلتى الصيف والشتاء لتحمل إلى اليمن منتجات الشام من الحرير والملابس الحريرية والقطيفة المطرزة بالذهب وكذلك الرخام وتبادل بها منتجات اليمن والحبشة والهند من الزمرد والذهب والعاج والحبوب^(١٩) على أن أكثر مواد التجارة تداولا بين التجار المسلمين الذين سكنوا الحبشة بعد الإسلام كان الرقيق. فقد اتخذ هؤلاء التجار منه حرساً تقويفلهم خلال سفرها الطويل. ويبدو أن إقبال الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء على اقتناء الرقيق وصل حداً عالياً منذ قيام الدولة العباسية. فقد كان في بغداد شارع يسمى شارع الرقيق^(٢٠) وكان هذا الرقيق أنواعاً مختلفة منهم السود من السودان والحبشة ومنهم البيض من الأتراك والصقالبة^(٢١) ويبدو أن الإقبال على الحبشيات لم يكن ضعيفاً رغم ما عرف عنهن من عدم إتقانهن للرقص والغناء لأنهن كن قويات الخلق وموضع الثقة وأهلاً للاعتماد عليهن^(٢٢) ولكننا نقرأ أنه كان من بين هذا الرقيق رجال من الأحباش أسرف حكام هذه الأجزاء في طلبهم من أجل استخدامهم في القتال. فقد كوّن أحمد بن طولون كما كوّن محمد بن طنجج الأخشيدي في مصر فرقاً كاملة منهم. بل اتخذ أحدهم مؤدباً لولده لم يلبث أن أصبح

L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 103 (١٨)

Ibid p. 172 (١٩)

(٢٠) ضحى الإسلام ج ١ ص ٨٥

(٢١) نفس المصدر ص ٨٧

(٢٢) نفس المصدر ص ٨٨

صاحب الكلمة العليا في مصر كلها هو كافور الإخشيدي . وكذلك فعلت الدولة الفاطمية ولم يكن شأنهم في اليمن أقل من ذلك بل ربما كان أكثر فقد اتخذ منهم بنو زياد ولاية اليمن من قبل العباسيين جنداً اعتمدوا عليهم حين فتحوا حضرموت والشحر وعدن والتهائم وتحلاف جعفر والمافر وصنماء ونجران بل وصلت فتوحهم إلى الحجاز أيضاً^(٢٣) بل استطاعوا أن يكوّنوا دولة موطدة الأركان كان الجند الحبشي عدتها . ويبدو أن تجار الرقيق قد وزعوا أعمالهم توزيعاً عادلاً عاد عليهم بأكبر النفع فقد كانوا يتصيدون من الحبشة والسودان الرجال والنساء . فيرسلون بالأولين إلى اليمن^(٢٤) ومصر بينما يرسلون بالأخريات إلى أسواق بغداد . ووصل بعض الأولين إلى مراكز عالية . لما اشتهر عنهم من أمانة وشجاعة فائقة فقد قال فيهم الشاعر العربي :
لو لم يكن في الحسان الحبش نافلة إلا شجاعتهم والعزم والبأس
لكانت ذلك كاف في محبتهم فكيف ذاك وهم من أجمل الناس^(٢٥)

ولكن ليس معنى ذلك انعدام وجود النساء الحبشيات في اليمن أو الرجال في العراق بل كن قلة في اليمن ومصر بالقياس إلى الرجال وعكس ذلك في العراق . فقد اتخذ أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد . وزيراً له عبداً حبشياً يسمى رشيداً . حتى إذا مات أبو الجيش ترك ولداً صغيراً هو عبد الله تولت كفالته أخته هند وأشركت معها في تربيته رشيداً وزيراً أبيها . ولكن هذا الأخير لم يلبث أن مات فورثه في منصبه ابنه حسين وكان عفيفاً شهماً حسن السيرة تولى كثيراً من الأعمال في حياة أبيه^(٢٦) فظل موضع الثقة والتقدير من هند وأخيها حتى كان تصريف أمور الدولة كلها في يده فكان هو المدافع الوحيد عن مملكة بني زياد^(٢٧) فقاد الحملات إلى كل من خرج

(٢٣) تاريخ اليمن ص ٩٣

(٢٤) تاريخ اليمن ص ١١٦

(٢٥) أعلام الطراز النقوش ورقة ٥

(٢٦) اللطائف السنية ورقة ١١ ب

(٢٧) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧

عن طاعتهم حتى دانوا جميعا وحملوا إليهم الخراج . وإذ مات الحسين كان عبد الله ابن زياد قد مات أيضا وترك ولدا صغيرا كفلته عمته وأشرت معها في الحكم عبدا حبشيا آخر من عبيد الحسين هو مرجان ومن ذلك ندرك مبلغ ما وصل إليه الرقيق الأحباش في اليمن من مكانة وتقوذ حتى أصبح بقاء الدولة أواخرها بيدهم وحدهم .

وكان الشيعة من أنصار علي بن أبي طالب قد لقوا منذ أيام كربلاء من كل من الدولتين الأموية والعباسية كل اضطهاد فقد أمعن خلفاء كل من الدولتين في تتبعهم وإزالة الأذى بهم حتى لقد لجأوا إلى الفرار إلى الأقطار البعيدة فلقى شمال إفريقيا^(٢٨) كالكيت شواطئ شرق إفريقيا^(٢٩) واليمن^(٣٠) كثيرين منهم أخذوا في نشر مذهبهم والتف الناس حولهم في اليمن ينصرونهم . يدفعهم إلى ذلك إيمان بهذا المذهب من تأثير الثقافة الفارسية التي كانت منتشرة هناك منذ أيام الغزو الفارسي من ناحية . وشعورهم بإهمال الدولة الإسلامية لبلادهم واهتمام الخلفاء بجمع المال منهم^(٣١) أكثر من اهتمامهم بإنماء موارد البلاد والنظر إلى مافيه مصلحة الأهالي من ناحية أخرى . فظهر في اليمن أئمة كثيرون مثل القاسم بن علي الزيدى . وجعفر بن الإمام . ثم ابنه هلال بن جعفر . وكذلك قاسم بن حسين الزيدى . ثم محمد بن القاسم وأخوه الحسن بن القاسم وأخوه الآخر حسين بن القاسم . ويوسف بن يحيى . وكلهم يتخذ الدعاة ويدعو إلى نفسه في ناحية من نواحي اليمن مما أشاع في البلاد جوا من الاضطراب^(٣٢) وزاد من هذا الاضطراب ما كان عليه ولاية العباسيين من بني زياد من كبر السن والضعف . فقد استطال حكم إبراهيم بن محمد بن زياد إلى قرابة أربعين سنة كما استطال حكم ولده إسحق إلى أكثر من ثمانين سنة خرج في أثناءها الولاة على أسيادهم وانضموا إلى الشيعة كما فعل عبد الله

(٢٨) ابن خلدون ج ٦، ٧٤٦

(٢٩) الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٥

(٣٠) اللطائف السنية ورقة ١١ ب

(٣١) قرعة العيون ورقة ٣٨ - ١

(٣٢) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧٩ ١

ابن قحطان بن يعفر أمير صنعاء سنة ٣٧٩ هـ حتى إذا أرسل إليه أبو الجيش اسحق ابن إبراهيم جيشاً يرده إلى الطاعة أوقع به الهزيمة ثم دخل زيد حاضرة بني زياد وقطع الخطبة للخليفة العباسي وأقامها للعزير بالله الفاطمي^(٣٣) وبذلك أصبحت القوة السياسية تساند الدعوة الدينية . وأنصارها يزدادون عدداً ويقابل ذلك ازدياد نشاط دعاة الشيعة بعد أن زال عنهم التضيق الذي كانوا يلاقونه من بني زياد . فوجد الموالي من الأحباش أن الإغضاء على هذه الحالة فيه ضياع لسلطانهم خصوصاً وقد مات القائم من بني زياد وترك ولداً صغيراً كفلته عمه له يساعدها الوزير الحبشي مرجان وأصبحت صنعاء كالكرة بين اللاعبين يتداولها الولاة مما أسرع بخرابها فرحل سكانها وهجرت دورها ولم يبق بها سوى ألف دار ومائة مسجد واثني عشر حمّاماً بعد أن بلغت في أيام هارون الرشيد وابنه المأمون مائة وعشرين ألف دار^(٣٤) وغلبهم على عدن ولحج وحضرموت بنو معن وعلى التمكر والدملوه بنو الكريدي . وانقسم اليمن الأعلى بين آل يعفر وآل الضحّاك وآل أبي الفتوح وكلهم علويون^(٣٥) فلم يجد هذا الوزير بدءاً من أن يعمل فأغرى عبداً له يسمى نفيس فقبض على الأمير الطفل وعمته وقتلها وأعلن نفسه سلطاناً على زيد سنة ٤٠٧ هـ واتخذ مظاهر الملك . وأخذ في إخضاع البلاد . ولكنه كان غشوماً ظلوماً . فلم تلبث أن تكتلت معارضة قوية التفت حول زعيم حبشي آخر يسمى نجاح كان يحكم الأقاليم الشمالية فقدم إلى زيد بمجموع عظيمة ودارت بينهما الوقائع التي انتهت بقتل نفيس على باب زيد . ودخل نجاح منتصراً بعد أن قتل من الفريقين أكثر من خمسة آلاف وبدأ نجاح في سنة ٤١٢ هـ الدولة التي حملت اسمه ولقب بالمؤيد ناصر الدين . وبدأ عمله بأن قبض على الوزير مرجان وقتله .

ومن الطبيعي أن يكون أول عمل له هو القضاء على الأمراء الذين استقلوا بأجزاء اليمن المختلفة من أجل توطيد سلطته. ولم يكن هذا العمل سهلاً إذ قضي فيه أغلب مدته وقد طالت إلى أربعين سنة .

بدأ نجاح بأن أخضع أمراء تهامة شمالاً فوصل إلى عسير التي يبدو أنها كانت آخر حدود دولته شمالاً . ثم انحدر إلى صنعاء حيث كان بها بنو همدان ثم أمعن جنوباً حيث بنو معين في عدن ثم سار إلى الشرق حيث أخضع حضرموت وبذلك دانت له اليمن كلها . بل بلغ من سطوته أن اضطر دعاة الشيعة إلى التخفي . وأظهر له كبير دعاةهم سبأ بن أحمد الصليحي الطاعة . وأخذ يتوعد إليه بل أرسل له الهدايا^(٣٦) ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن عزمه وهو نشر الدعوة لأسياده من الشيعة . فقد كان المستنصر بالله الفاطمي يوالى إرسال المال له . ولكن يبدو أن نجاحاً كان به ميل إلى النساء ولهن تأثير شديد عليه إذ لم يتردد في قبولهن كهدايا رغم كبر سنهن الذي امتد إلى أكثر من ثمانين فكانت هذه الوسيلة هي التي لجأ إليها الصليحي للقضاء عليه فأهداه جارية دست له السم فمات سنة ٤٥٢ وترك ثلاثة أولاد وبنتين كلهم صغار فكان صاحب السلطة مولى حبشياً لهم يسمى كهلان ولذا لم يطل أمرهم أكثر من ثلاث سنوات أكمل فيها الصليحي عدته فسار إليهم في زيدهم فهربوا إلى دهلك^(٣٧) .

وكانت دهلك قد دخلت في حوزة الدولة العربية منذ أيام الأمويين واتخذوا منها قاعدة لمراقبة القرصان الذين كانوا يكثرون من الإغارة على شواطئ الحجاز وأيضاً لمراقبة الشيعة الذين هربوا إلى الحبشة وأخذوا يساعدون أولاد الزبير في ثورتهم حتى إذا انتهت ثورة الزبير ألحقت دهلك بإمارة اليمن فتركوها لأهلها على أن يدفعوا لوالى اليمن ضريبة سنوية هي ألف رقيق من الأحباش نصفهم من النساء^(٣٨)

(٣٦) المختار من تاريخ تفر عدن ص ١٢٧ ا

(٣٧) قرّة العيون ورقة ٤٠ ب

(٣٨) الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان ص ١٦

فكانوا يرسلون بأغلب النساء إلى بغداد ويحتفظون بالرجال ويتخذون منهم جندا .

وحكم الصليحي اليمين نائبا عن المستنصر بالله الفاطمي فعمل على إحياء المذهب الشيعي ونشر له الدعوة لا في اليمين فحسب بل في الحجاز أيضا حتى إذا توطد له الأمر هناك سافر للقيام بفريضة الحج سنة ٤٥٩ ومعه زوجته وجميع آل الصليحي^(٣٩) مستخافا ولده المكرم أحمد بن علي ، ولكنه لم يكد يعمد في رحلته شمالا حتى نزل سعيد الأحول أكبر أولاد نجاح في ساحل تهامة وتبعه إلى مكة ولحقه قبل أن يدخلها فدارت بينهما معركة انتهت بقتل الصليحي وكثير من أهله وأنصاره وأسر زوجته . فظلت في أسره ثمانية أشهر اتصلت خلالها بولدها المكرم وأثارته ليأخذ بثأر أبيه . فخرج إليه في ثلاثة آلاف فارس ونجح في هزيمة سعيد رغم ما كان معه من جيش كبير بلغ عشرين ألفا^(٤٠) وفر الأحول من جديد إلى دهلك . بينما عاد المكرم إلى صنعاء . ومعه والدته واستمر يحكم عشرين سنة كان سعيد وأخوه جياش في أثناءها يعيشون في دهلك يكملان ثقافتهما^(٤١) ولم يلبث سعيد أن بدأ يدبر المؤامرات ضد حاكم دهلك وجياش أخوه يمنع من ذلك حفظاً لحق الصداقة . وخرج سعيد مغضباً إلى زيد حيث عاش متنكراً يراقب الأحوال . حتى إذا تبين له أن الفرصة قد حانت كتب إلى أخيه ليلحق به .

وفي التاسع من ذي القعدة سنة ٤٧٣ أظهر سعيد وأخوه دعوتهم فأرسلت لهما والدة المكرم - بمعاونة أخيها أسعد بن شهاب أمير زيد قوة بلغت خمسة آلاف كلهم من الأحباش فتمكن سعيد من استمالتهم فاقبلوا على الصليحيين ودخل سعيد زيد وأرسل إلى دهلك يشتري من الرقيق الأحباش من يستريد بهم من قوته^(٤٢) .

(٣٩) اللطائف السنية ورقة ١٧ ب

(٤٠) اللطائف السنية ورقة ١٨ ب

Kay p. 81 (٤١)

Ibid p. 87. (٤٢)

ولكن المكرم ومعه أمه استطاعا أن يستردا عرشهما ويقتلا سعيدا وكان أنصاره قد بدأوا يتألبون عليه لما أظهره من التكبر والصلف فهرب جيش إلى الهند . ولكن غيبتة لم تطل وعاد بعد ستة أشهر وأقام متنكراً في عدن وينشر الإشاعات أنه قد مات في الهند ليعث الطمانينة في نفوس الصليحيين .

ويدو أن حكم الصليحيين لم يكن ناجحاً فقد غلبهم كثير من دعاة الشيعة واستقلوا بأجزاء كثيرة من اليمن كما فعل الشريف الفاضل وأخوه الأمين الملقب بذي الشرفين حين نزلا حصن شهارة وشنا الحرب وحاصرا صنعاء حتى أضعفوا أعوان الصليحي واستقلوا بصعدة . ثم سارا إلى الحوف سنة ٤٦٨ وخضع لها أهلها ولما مات الشريف الفاضل استقل أخوه بالأمر وفتح عدن وأدب أهلها وظل يحكمها دون منازعة من الصليحيين حتى سنة ٤٦٩ حين مات وورثه ابنه محمد بن جعفر . كما لم يهتم الصليحيون بالنظر في أحوال البلاد من أجل تحسينها رغم استمرار حكمهم مدة استطالت إلى عشرين سنة فقد كان المكرم مريضاً فلم يباشر الأمور بنفسه بل تركها إلى زوجته سيدة التي لقبت بالسيدة الملكة الصليحية^(٤٣) فكان يدعى لها على المنابر بعد اسم زوجها^(٤٤) كما عكف المكرم رغم مرضه على اللذات ينتهبها أينما وجدت فأحاط نفسه بجميع أسباب الرفاهية حتى إنه حين سافر إلى مكة حاجاً أخذ معه خمسمائة نجيب عليها مراكب الفضة وخمسين هجينا عليها أكوار الذهب مما أشاع السخط بين أنصاره وأقاربه . كما لم يكن حكم المقاطعات للأكفاء بل كان يعطى لمن يدفع فيها أغلى ثمن^(٤٥) ولا بد أن نتيجة هذا كله لم تكن سوى إجحاف الولاة بالشعب ليستردوا ما دفعوا فليس بغريب أن ينتشر السخط بين الناس وخاصة الجند^(٤٦) حتى إذا عاد جيش من الهند أدرك سخط الناس من حكم الصليحيين

(٤٣) المختار من تاريخ نجر عدن ورقة ٤٢

(٤٤) نفس المصدر ورقة ١٤٠

(٤٥) نفس المصدر ورقة ١٣٨

(٤٦) نفس المصدر ورقة ٢٥٨

فاتصل بعلي بن القم الذي كان وزيراً للأسعد بن شهاب ومنه عرف سوء الحال . واستعداد هذا الأخير لمناصرته فكشف له عن شخصيته واتفقا على الوثوب على الصليبيين بعد أن أعلمه باستعداد الأحباش لنصرته وأنه قد أعد منهم خمسة آلاف محارب حول زبيد^(٤٧) وخمسة آلاف دينار للصرف على قضيته وأنه كاتب إمبراطور الحبشة فأمدّه بقوة أخرى^(٤٨) . ولم يطل الأمر فقام جيش ودعا الناس لنصرته بضرب الطبول ونفخ الأبواق فثارت معه عامة أهل المدينة وكاهنهم ساخط على الصليبيين بل انضم إليه كل قادر على حمل السلاح فبلغوا عشرين ألفاً فلم يسع أسعد بن شهاب سوى التسليم فاستقام الأمر لجيش ولقب بنصير الدولة وبذلك عادت دولة آل نجاح سنة ٤٨١ بعد أن غابت عشرين سنة ومات المكرم في ذي جيلة سنة ٤٨٤ فورثه ابنه وكان صغيراً فنارعه ابن عمه سبأ بن أحمد مما فت في عضد أحزاب الشيعة فانضم حمزة بن ذي الشرفين إلى آل نجاح حين دارت الحرب . وكانت تهامة سرحها . وتداولها الفريقان أكثر من مرة ولكن لم يلبث سبأ أن مات سنة ٤٩٢ فاستقام الأمر لجيش . وكان شجاعاً^(٤٩) فعرف كيف يسوس الأمور في حزم وشجاعة فقد كان الموقف يستلزم هذا النوع من الرجال لإخضاع الزعماء الذين طال بهم الاستقلال من جراء ضعف الصليبيين . فانهز فرصة اختلاف بني ذريع وقصد ملكوا عدن فأخضعهم^(٥٠) وأبقاهم فيها معترفين برئاسته عليهم كما أخضع بني القم في صنعاء وأبقى لسيدة ، والدّة المكرم الصليحي منطقة تعز فظلت تحكمها معترفة بسلطة آل نجاح إلى أن ماتت سنة ٥٣٢^(٥١)

ومات جيش في ذي الحجة سنة ٤٩٨ بعد أن حكم اثنين وثلاثين سنة وطد فيها

(٤٧) اللطائف السنية ورقة ٢٠ ب

(٤٨) L'Empire du Prêtre Jean. V. I p. 20.

(٤٩) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٦٣

(٥٠) اللطائف السنية ورقة ٢١ (٥١) قرة العيون ورقة ٤٣ ا

أركان دولته إلا أن أولاده عبد الواحد وفاتك وإبراهيم اختلفوا ولكن لم يطل اختلافهم فقد ظفر فاتك وهرب عبد الواحد بينما خضع إبراهيم وعاش مع أخيه مخلصاً له .

وإذا ما انفرد فاتك بن جيش بالأمراء أكمل عمل أبيه في إخضاع الأمراء فاستكثر من الجند الأحباش وأسبغ عليهم . وتمتع فاتك بحكم هادئ آمن فيه الناس على أموالهم وحياتهم لما اشتهر به من علم وعدل وتقريب للعلماء وتشجيع لهم^(٥٢) حتى مات سنة ٥٠٣ تاركا ولداً صغيراً يدعى منصوراً . فانهز إبراهيم الفرصة وقدم يريد الظفر بالعرش ونجح في ذلك فاتجه منصور إلى الفضل بن أبي البركات الحميري صاحب التعكر والسيدة الحرة الصليحية فأكرما مثواه وبذلا له المساعدة لقاء أن يترك لهما ربع ما يجنيه^(٥٣) . كما التف حوله عبيد أبيه من الأحباش وتمكنوا جميعاً من استرداد العرش سنة ٥٠٤ هـ

وفي أيامه اشتدت الدعوة الشيعية وظهر كثير من دعايتها وتقبلها كثيرون وكانت أقاليم صعدة ونجران والحواف أسرع الأقاليم استجابة لهؤلاء الدعاة وربما كان ذلك لبعدها في الشمال . إلا أن السلطان عرف كيف يتغلب عليهم منتهزاً فرصة اختلافهما وعدم إجماعهم على إمام واحد وتفرق الناس بين الأئمة المختلفين فقد كانت الحروب التي دارت بينهم أكثر من الحروب التي دارت مع السلطان .

وخلف منصوراً ولده فاتك الثاني فدانت له البلاد فظل يحكمها على أحسن ما يكون الحكم متتبهاً سياسة أبيه في تتبع دعاة الشيعة والقضاء عليهم حتى سنة ٥٣١ ففضى على الشريف غانم السليمانى وقد ثار في المهجم كما قضى على عمه محمد بن فاتك بن جيش حين ثار في زبيد منتهزاً فرصة خلوها من الجند وسحق الداعي سبأ بن أبي السعود . وكان من جراء هذه الحروب الكثيرة المتوالية أن اضطر إلى الإكثار من الجند من الأحباش فزاد نفوذهم حتى أصبحوا أصحاب السيادة في الدولة . فإذا مات

السلطان دون أن يترك ولداً أجمع رؤساء الجند على اختيار ابن عمه فاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جياش وكان ضعيف العزم قليل النظر في السياسة منهمكا في اللهو واللعب والفساد فكان الأمر كله في يد الجند يسرونه وفق أهوائهم فكانوا هم الذين يولون الوزراء ويعزلونهم^(٥٤) وفي سنة ٥٣١ أجمع الجند على أن يجعلوا في الوزارة قائدهم سرور وكان عبداً حبشياً أمهرياً تربى في قصر السلطان وما زال يرتفع حتى أصبح صاحب الكلمة العليا في القصر . فكان — وإلى جانبه الملك الضعيف المنصرف إلى اللهو — صاحب السلطة الفعلية لعشرين سنة قبض فيها على البلاد بيد من حديد . فكان من جراء هذه الشدة أن انكش دعاة الشيعة في أسفل الوادي . ولم يعودوا يزاولون نشاطهم إلا معتمدين على نسكرهم وتمسكهم بالعبادة . كما كان يفعل السيد علي بن المهدي وأبوه حين أقاما في قرية تسمى العنبرة بأسفل وادي زبيد^(٥٥) مسالمين فوثق بهم سرور وترك لها خراجا مكنهما من البذل وشراء الأنصار^(٥٦) . وحاول الثورة في سنة ٥٤٠ حين اجتمع له أكثر من أربعين ألفا . وهجم على حصن الكورا وبها مرزوق السحري من قبل آل نجاح إلا أنه هزم . فانسحب عائداً إلى حيث كان وقد أيقن أن طريق الشدة لن يجديه نفعا فلجأ إلى المؤامرات يدبرها من أجل قتل سرور إذ أيقن أن طريق الإمارة مسدود أمامه بل أمام جميع الثائرين طالما هذا القوي يهيمن على الأمور ويدبرها . فتمكن من الاتصال بواحد من أنصاره يسمى محرما وأغراه بالمال فأنهز هذا الأخير فرصة سجود الوزير وهو يصلي فانقض عليه وقتله وقبض على القاتل وقتل في ساعته .

وبقتل سرور ضعف أمر الأحباش إذ اختلفوا وانقسموا أحزابا يلتف كل فريق حول زعيم وكان سخط الناس قد بلغ الذروة من جراء هذا التطاحن . ومن جراء ما كان يأتيه السلطان من فجور فاق كل حد . ومن الطبيعي أن يكون هذا سبباً

(٦٤) قرّة العيون ورقة ٤٥ ب (٥٥) نفس المصدر ورقة ٤٧ أ

(٥٦) اللطائف السنية ورقة ٢٣ ب

في تفكير الناس في الخروج عن طاعة هذه الأسرة خصوصا إذا قورن ما كان يأتيه السلطان بما كان يمارسه زعماء الشيعة وعلى رأسهم علي بن مهدي من نسك وتعبد . فاغتنم الفرصة ابن مهدي وهبط من الجبال سنة ٥٥٢ وزحف بجنوده على زبيد وتفرق الناس عن آل نجاح ومواليهم من الأحباش حتى إذا أتى زبيداً وحاصرها قاومه أهلها مقاومة عنيفة ضرب بها الثل فصدوا هجمات ابن مهدي وقد بلغت اثنتين وسبعين هجمة وصبروا على الضر حتى أكلوا الميتة^(٥٧) . واستنجد أهلها بالإمام أحمد بن سليمان المهدي صاحب سعدة فأجدهم طمعا في الملك بعد أن اشترط عليهم قتل سلطانهم فقتلوه . ولكنه عجز عن نصرته فارتد قبل أن تدور الدائرة عليه . وأخيرا عمل طول الحصار - وقد امتد قرابة العام - عمله في الأهالي فاستسلموا في الرابع عشر من رجب سنة ٥٥٤ فكانت نهاية دولة بني نجاح بعد أن دامت قرنا ونصف قرن . وانتهى بانتهائها نفوذ الحبشة في اليمن .

ولاشك أنها كانت دولة حبشية بكل ما تعنى هذه الكلمة من معان . حبشية بسلاطينها . حبشية بوزرائها . حبشية بجنودها وعدتها . حبشية بنظمها وتقاليدها فيمكننا أن نعتها استمرارا للدويلات الحبشية التي قامت في اليمن فيما سبق من الزمن والتي كان آخرها دولة أبرهة التي أقامها كالب في القرن السادس الميلادي . ولا تختلف عنها إلا في كونها دولة إسلامية بينما كانت الدويلات الحبشية السابقة وثنية أو مسيحية . وهي في هذه الناحية تشبه تلك التي قامت في نفس الوقت في شرق هضبة الحبشة وهي دولة شوا الإسلامية التي قامت في القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي واستمرت حتى نهاية السابع الهجري وأواخر الثالث عشر الميلادي^(٥٨) ولكنها تختلف عنها في أنها كانت سنية بينما كانت أختها في الحبشة شيعية ولذا لم تقم بينهما علاقة رغم تجاورهما . ولكن ربما كان هؤلاء الدعاة الشيعيون الذين ظهروا في اليمن خلال حكم آل نجاح مرسلين من قبل آل مخزوم في الحبشة من أجل القضاء على النفوذ السني فيها وضمها إلى بلادهم . وهذا رأى مازال محتاجا إلى تحقيق .

نظام الحكم: ما إن تولى السلطة نجاح بعد أن قتل نفيس وتغلب على مرجان حتى كاتب الخليفة العباسي وبذل الطاعة فقوض له النظر في أمر الجزيرة اليمنية^(٥٩). وبذلك أصبح السلطان صاحب السلطة العليا في البلاد باعتباره نائباً عن الخليفة في حكم اليمن. بل قلده الخليفة حق تقليد القضاة وهو أمر كان بيد الخليفة وحده باعتباره صاحب السلطة الدينية وأمير المؤمنين. ونزول الخليفة عن هذا الحق للسلطان جعل السلطان يملك القوتين المدنية والدينية. وبذلك أصبح السلطان مطلق التصرف في جميع أمور البلاد. فهو الذى يعين الوزراء، وأمراء الجيش وولاة الأقاليم والقضاة ويعزلهم، ويقتلهم إذا خرجوا عليه أو خلعوا يمين الطاعة^(٦٠). وكان إلى جانبه مجلس ينزل عند حكمه^(٦١) ولا نعرف تماماً كيف يتكون هذا المجلس ولا مدى سلطته. ولكن يبدو - على أغلب الظن - أنه كان يتكون من العلماء الذين يطلق عليهم اسم الاستاذون^(٦٢) وهم علماء المذاهب السنية المختلفة. ولا بد أن مهمتهم كانت - على الأقل - فحص أوامر السلطان وتحقيق مدى انطباقها على الشريعة، وربما كانوا يستشارون في الأمور الكبيرة مثل تعيين الوزراء وذوى المناصب الهامة في الدولة^(٦٣).

وقد جرت عادة السلطان على تقسيم البلاد إلى أجزاء ثم إعطاء كل قسم إلى أمير أو زعيم يحكمه لقاء ما يحمله هذا الأمير إليه كل عام من الخراج والأموال^(٦٤) بل كان لا بد له أن يدفع مقدماً بعض الأموال التى يقدرها السلطان وفق ما يرى^(٦٥).

وإذا كان سلاطين آل نجاح قد رضوا بهذه التبعية للخلافة في بغداد إلا أنها في الواقع كانت تبعية اسمية فلم يكن هناك من مال يحمله السلطان إلى الخليفة بعكس

(٦٠) نفس المصدر ورقة ١٤٤

(٥٩) قررة العيون ورقة ١٤٠

(٦٢) قررة العيون ص ٤٦

(٦١) Kay p. 96

(٦٤) اللطائف السنية ورقة ١١ ب

(٦٣) نفس المصدر والصفحة .

(٦٥) المختار من تاريخ ثغر عدن ص ١٣٨

ما كان الحال أيام بني زياد الذين حرصوا على أن يحملوا إلى الخليفة العباسي كل عام الأموال والهدايا النفيسة^(٦٦). بل تمتع السلاطين من آل نجاح بكل مظاهر الاستقلال كالركوب بالمظلة - وكانت مظهرًا من مظاهر الخلافة - وكذلك سك العملة باسمهم^(٦٧) وذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة^(٦٨) بل اتخذ سلاطين اليمن تقليدا لم يجر العمل به في أية ولاية من الولايات التابعة للعباسيين وهو تعيين الوزير فقد كان هذا المنصب خاصا بالخلافة في بغداد ، وربما كان هذا أثرا فارسيا بقي في اليمن منذ احتلال بلادهم بواسطة الفرس قبيل الإسلام . وكان من حق السلطان أيضا أن يحتفظ بأبناء بعض الولاة أو أقاربهم ليعيشوا في قصره ضمانا لولاء الولاة . بل كان إذا خرج للحج أخذهم معه . وكان يأخذ أيضا بعض الولاة ممن كان يشك في إخلاصهم^(٦٩) وهذا تقليد حبشي حمله آل نجاح معهم من بلادهم^(٧٠) .

ويعيش السلطان في قصر هو في نفس الوقت قلعته^(٧١) التي يتحصن فيها وكان يبني على مشارف الجبال ليشرف على كل شيء في الوادي . ويعج القصر بالنساء^(٧٢) وكلهن جوار وإماء . ولكن بينهن واحدة هي أم ولي العهد ويطلق عليها اسم السيدة الحرة^(٧٣) ويحيط بالسلطان حرسه الخاص وهو صاحب الأمر فيهم وهو مكوّن من العبيد الذين اشتراهم وسلّحهم^(٧٤) .

ولي منصب السلطان في الترتيب منصب الوزير وكان السلطان هو الذي يعينه فيصبح صاحب السلطة الفعلية في تدبير أمور الدولة بعد الرجوع إلى السلطان . وكانت الوزارة في الواقع وزارة تقليدية تمتد سلطة الوزير إلى كل فروع الإدارة^(٧٥) ماعدا الجيش ولكن قد يغلب قواد الجيش السلطان في تعيين الوزير^(٧٦) . وقد ظل منصب الوزارة طول

- | | |
|------------------------------|----------------------------|
| (٦٦) قرّة العيون ورقة ١٣٨ | (٦٧) نفس المصدر ورقة ٤٠ |
| (٦٨) اللطائف السنية ورقة ١١٢ | (٦٩) تاريخ اليمن ص ٩٥ |
| (٧٠) سيرة الحبشة ص ٦٢ | (٧١) قرّة العيون ورقة ٤٦ |
| (٧٢) نفس المصدر ورقة ٤٤ | (٧٣) نفس المصدر ورقة ٤٣ |
| (٧٤) نفس المصدر والصفحة . | (٧٥) قرّة العيون ورقة ٤٣ ب |
| (٧٦) تاريخ اليمن ص ١٠٧ | |

حكم بنى نجاح محصوراً في الأحباش ولم يخرج من يدهم أبداً. فقد كان مرجان وزيراً لنفيس الذى قتل آخر سلاطين بنى زياد . وإذا ما نجح فاتك في استرداد عرش أبيه استوزر أباً سعيد خلف بن أبى الطاهر الذى شاركه أيام محنته (٧٧) وحارب معه حتى استرد عرشه . ويعود أكبر الفضل في نجاحهما إلى جهاده مع مولاة . ثم أطلقت يده في كل أمور الدولة حتى لقد سمى قسيم الملك ، ونجحاً معاً في إرساء قواعدها .

وإذا ما تولى العرش فاتك بن جياش استوزر أنيسا الفاتكي واستبد هذا الأخير بالأمر حتى لقد قلد مولاة الركوب بالمظلة وضرب السكة باسمه . مما أوغر عليه قلب سيده فما زال به حتى قتله وصادر كل ممتلكاته (٧٨) واستوزر بعده أباً الفضل من الله الفاتكي الذى تقول المصادر عنه إنه كان أكرم الناس وأكثرهم شجاعة . وكان له الفضل الأكبر في إرساء قواعد الدولة بعد أن عصفت بها ثورة نجيب الدولة بعد أن هجم على زييد وكاد يستولى عليها . ولم تتحقق هزيمته إلا بعد أن قتل من أصحابه ثمانمائة في أواخر سنة ٥١٨ هـ . ويبدو أن أباً الفضل قد أصبح صاحب السلطة العليا . بل جاوزت سلطته سلطة السلطان فعمل الأخير على أن يدفع بآخرين كي يزاحموه فما كان منه إلا أن قضى على هؤلاء المزاحمين بل قضى على السلطان نفسه حين شعر بتعصيده لهم . وقد استعان الوزير في مؤامراته بجارية السلطان وزوجته وكان ثمن هذه المساعدة إجلال ابنها فاتك على العرش بدلا من أبيه وكان صغيراً

وكان ترأس الوزير لهذه السلسلة من المؤامرات ونجاحه فيها سبباً في ازدياد نفوذه حتى أصبح لا يقف أمامه شيء مطلقاً. فأمن في التجبر فوصل إلى جد الفجور حتى تآقت نفسه إلى معاشرة بنات مواليه الأبنكار فتآمرن عليه ومعهن زوجة مولاة الأول ووالدة السلطان الجديد ونجحن في قتله (٧٩) .

وكان خلفه في منصب الوزارة حبشياً أيضاً هو رزيق الفاتكي إلا أنه كان ضعيفاً

(٧٧) اللطائف السنية ورقة ٢٠ ١ (٧٨) قرّة العيون ورقة ٤٤ ١

(٧٩) قرّة العيون ورقة ٤٤ ١

فغلبه على أمره رجال من الأحباش آخرون أكثر قوة منه وأقرب إلى قلب السلطان ووالدته فلم يجد الوزير بدءاً من ترك منصبه قبل أن يقتل . وكان خليفته ضعيفاً مثله فلم يستمر طويلاً وغلبه إقبال الفاتكي الذي نجح في قتل السلطان فحقد عليه قواد الجيش فعزلوه وولوا مكانه قائد الجيش سرورا الفاتكي .

وبذلك أصبح منصب الوزارة موضع التنافس بين الأنصار ولم يعد التنافس يدور حول منصب السلطان .

ولعل هذه الحالة تشبه إلى حد كبير ما حدث في مصر في نهاية الدولة الفاطمية في هذا الوقت حين غلب الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤) (١١٣٠ - ١١٤٩) الوزير أحمد ابن الأفضل بن بدر الجمالي^(٨٠) فدبر الخليفة قتله ونجح وقلد الوزارة لبهرام الأرمني الذي طنى كسلفه فثار عليه رضوان بن الوخشي وطرده . ولم يكن ابن الوخشي أقل من سلفه تجبراً فلم يملك الحافظ إلا أن يستقدم بهرام من جديد ليقتل ابن الوخشي بعد حرب طويلة . وتكررت الصورة في عهد الظافر^(٨١) حين دارت الحرب بين ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وكانت نتيجة هذه المنافسة قتل الظافر نفسه . وإذا ما قدم طلائع بن رزيق لينجد الفاطميين في أيام الفائز دبرت ضده المؤامرات ونجحت في قتله وبذلك كان الخلاف حول منصب الوزارة في اليمن سبباً في زوال سلطة آل نجاح كما كان سبباً في إزالة سلطان الفاطميين في مصر .

ويبدو أن أكبر ما أهل سرورا لمركز الوزارة - إلى جانب شجاعته في الحرب - هو إخلاصه الشديد لوالدة السلطان وتركه مقاليد الأمور إليها - وله في الظاهر - لتتصرف فيها وفق ما تريد .

وإلى سرور يعود الفضل كل الفضل في إعادة حكام الأقاليم إلى الولاء لآل نجاح بعد أن خرج أغلبهم ، كحاتم بن أحمد صاحب همدان الذي سار إلى صنعاء ودخلها في سبعمائة فارس ، والإمام أحمد بن سليمان صاحب صعدة ، وعلي بن مهدي الحميري بالعبدة

(٨١) مصر في العصور الوسطى ص ١٢٣

(٨٠) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٩

في أسفل وادي زبيد كما تحصن الوزير السابق مفلح في قلعة الكرش وشن الغارات على تهامة . واجتمع إليه عالم كثير بلغ أربعين ألفاً ، فخرج إليهم سرور ومازال ينفرد بكل منهم واحداً بعد الآخر حتى أخضعهم جميعاً وأعاد لسلطين بنى نجاح هيتهم ومكانتهم^(٨٢) وكانت آخر الثورات ثورة محمد بن فاتك بن جياش اخو السلطان حين انتهز فرصة خروج سرور لإخضاع الشريف غانم السليمانى الذى انضم إلى مفلح ودخل إلى زبيد واستولى على دارالإمارة وأعلن نفسه سلطاناً فلم يملك السلطان سوى التحصن في إحدى حجرات القصر فما إن عرف سرور بذلك حتى ترك المهمة التى نذب إليها وأسرع عائداً إلى زبيد واقتحمها وتسلى إلى القصر بالحبال . وكان ظهوره في القلعة بمثابة الطلسم الذى حول الجنود فانضموا إليه ومعهم بقية الحاشية فلبسوا الدروع والسيوف وما إن رأهم حراس الأبواب حتى فتحوها لهم فهجموا على محمد وأنصاره . وما زال يطاردهم حتى قتل منهم مقتلة كبيرة واسترد للسلطان عرشه المفقود . وشعر السلطان ووالدته بفضل سرور فأحلوه مكاناً مرموقاً حتى كانت أم السلطان تنزل عن سريرها لتستقبله^(٨٣) وظل سرور قائماً على حراسة الدولة مخلصاً لآل نجاح . فلا غرابة إذا شعر الراغبون في الثورة إن هذا الرجل لو أزيح عن طريقهم لانهارت الدولة من أساسها وكان هذا ما حدث فعلاً فقد دس له ابن مهدي من قتله وهو يصلى في مسجد كان قد بناه في مدينة زبيد . فكان هذا إيذاناً بظهور التنافس بين موالى بنى نجاح كل منهم يريد أن يحظى بمركز الوزارة^(٨٤) الذى هو مركز السلطة الحقيقية وأخيراً فاز ابن مهدي وكان في ذلك القضاء الأخير على دولة بنى نجاح .

وبلى منصب الوزارة في الأهمية منصب قائد الجيش وهو الذى يتولى حماية السلطان^(٨٥) والنذب عن الدولة والقضاء على الثورات . وهو لم يزد عن كونه مملوكاً اشتراه السلطان ولذا كان اسم السلطان يضاف دائماً

(٨٣) قررة العيون ورقة ٤٦ ب

(٨٥) تاريخ اليمن ص ١١٧

(٨٢) اللطائف السنية ورقة ١٢٥

(٨٤) قررة العيون ورقة ١٤٨ .

إلى اسم القائد ليدل على أنه هو الذى اشتراء ورباه . ولا بد أن الشجاعة والولاء للسلطان كانا الوسيلتين للترقى فى سلك الخدمة العسكرية . وكان ولاء سرور الفاتكى للسلطان ووالدته هو الذى أهله لأن يكون صاحب أكبر قوة فى الدولة . ولا بد أن رئاسته للجند كانت تعطى صاحب هذا المنصب قوة تجعله الرجل الثانى فى الدولة بعد الوزير . وقد يجمع قائد الجيش بين منصبه ومنصب الوزير إذا رفعه بقية القواد إلى هذا المنصب^(٨٦) وفى هذه الحالة لن تقف قوة أمامه خصوصاً إذا قرن ذلك بالولاء للسلطان .

ولا بد أن صاحب هذا المنصب هو الذى كان يتولى شراء العبيد وضمهم إلى الجيش وتزويدهم بالسلاح والملابس وتعيين من يدرّبهم على الحرب . ولا بد أن إدارة كبرى للجيش كانت تحت إدارته مهمتها شراء العبيد وتجهيز الجيش وشراء الخيول وتدريبها وإعدادها بكل ما يلزمها . وأخيراً هناك قواد دونه فى الرتبة يتولون قيادة الألوية الصغيرة التى يتألف منها الجيش المحارب ويبدو أن أغلبهم كان من الفرسان .

مركز المرأة : لم يكن من التقاليد الإسلامية أن تبرز المرأة لتساهم فى الأمور العامة . فلم تظهر أيام الخلفاء الراشدين أو بنى أمية أو بنى العباس واحدة ذات مكانة فى المجتمع أو أسهمت برأى وخاصة فى الأمور السياسية . كما كان الأمر كذلك فى اليمى . ولكننا نجد الأمر مختلفاً عن ذلك أيام بنى زياد وبنى نجاح . وإذا عرفنا أن دولة بنى زياد كانت عربية السلطان ، حبشية فىمن اعتمدت عليهم من الوزراء ورجال الجيش ، أمكننا أن نقول إن بداية للتقاليد الحبشية ظهرت ممثلة فى ظهور المرأة على مسرح الحوادث وإصرارها على أن تلعب دوراً مهماً فيه . فقد مات أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم بن زياد سنة ٣٩١ وترك ولداً صغيراً اسمه عبد الله كفله أخته هند بنت أبي الجيش . ولم يكن دورها يقف عند حد الكفالة إذ يحدثنا نفس المصدر أن الحسين

ابن سلامة كان وزيرا لولد أبي الجيش وأخته . مما يقطع أنها كانت صاحبة سلطة حقيقية في دولة بني زياد^(٨٧) وإذا ما مات السلطان انتقل الأمر إلى طفل آخر من بني زياد كفلته عمه له . وإذا ما قام أنيس بالقضاء على دولة بني زياد لم يكتف بقتل السلطان بل قتل أيضا عمته الكافلة^(٨٨) مما يدل على خوفه من أن يتجمع أنصار بني زياد حولها ويكونون سبباً في فشل محاولته . كل هذا يدل على أن المرأة كانت تلعب دورا هاما في الحياة السياسية خلال حكم دولة بني زياد . ومرد هذا الأمر لم يكن تقاليد عربية مرعية إنما هي تقاليد حبشية حملها إلى اليمن هؤلاء الذين كانوا عصب الدولة وعدتها .

وقد عني جميع المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ اليمن بذكر السيدة الحرة سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي التي كانت مثقفة . تقول الشعر وتروى التاريخ^(٨٩) وقد تربت في حجر أسماء زوجة أسعد بن شهاب ثم تزوجت المكرم بن علي بن محمد الصليحي فكانت هي المدبرة الحقيقية لجميع أمور الدولة . بعد أن انصرف زوجها إلى انتهاب اللذات . فدعى لها على المنابر بعد زوجها وهي التي خرجت على رأس جيش إلى ذي جبلة لاستردادها بعد أن استولى عليها سعيد ابن الأحول . بل هي التي دبرت قتل هذا الأخير^(٩٠) وإذا ما مات زوجها أرسل إليها الخليفة الفاطمي هدايا كثيرة يحملها وفد يلح عليها في أن تزوج داعيته سبأ بن أحمد بعد أن رفضته فخاطبها الوفد بألقاب الملك^(٩١) .

والدولة الصليحية وإن كانت عربية إلا أنها كانت كذلك بالاسم فقط إذ كانت حبشية فعلا لقيام هؤلاء بكل أمورها . فظهور المرأة لم يكن إلا تقليدا حبشيا نشأ وانتشر بظهور الأحباش على مسرح السياسة اليمنية وتصريفهم جميع الأمور فيها .

(٨٧) اللطائف السنية ورقة ١١١ . (٨٨) قرّة العيون ورقة ٣٩ ب

(٨٩) Kay, yamen p. 39 (٩٠) Kay, yamen p. 41

(٩١) قرّة العيون ١٤٥

وإذا ما قامت دولة بنى نجاح ظهرت المرأة على مسرح الحوادث ظهوراً لم يسبق له مثيل في دولة إسلامية أخرى . اللهم إلا في دولة بنى مخزوم التي قامت في شوا في نفس الوقت (٩٢) .

فإذا ما تولى منصور ابن جياش . كانت زوجته علم صاحبة الأمر كله . بل ظلت كذلك ستاً وعشرين سنة . فكان التقرب إليها هو وسيلة السلطة وكانت هي التي تعين الوزراء أو تعزلهم . وكان غضبها على وزيرها مفلح الفاتكي حين منعها من الحج كافياً لإثارة نفوس الأقباش جميعاً على هذا الوزير . ولم تهدأ نفوسهم إلا حين عزل الوزير وسارت هي إلى الحج مجهزة بالمال والرجال . وكان الناس ينتهزون فرصة حجها ليسيروا في ركابها ليأمنوا على أنفسهم (٩٣) .

وكانت هي التي عينت رزيق الفاتكي ثم سرورا قائداً للجند ثم وزيراً (٩٤) . وكان يخرج للغزو ثم يعود فيقدم لها فروض الطاعة والولاء . ويعفر خده بين يديها في الأرض (٩٥) ولا يرفع رأسه إلا إذا أمرته . بل كان يحرص على لقائها كل يوم ليستشيرها في كل أمر من أمور الدولة (٩٦) . وكتب إليها ابن مهدي يستعطفها ويطلب منها الصفح فوهبته إياه رغم نصيحة جميع رجالها برفضه ولكنها إذا أمرت به ارتضى . الجميع حكمها (٩٧) . بل وهبته خراج أرضه رغبة في استمالته فأقسم لها يمين الولاء بدوره . ولكن بموتها سنة ٥٤٥ رأى نفسه وقد تحلل من هذا اليمين . فثار للمرة الثانية ونجح في ثورته . وربما يعود بعض نجاحه لا إلى قوته فحسب بل إلى موت الحرة علم ، التي كانت بمثابة اللواء يجتمع حوله الأنصار دفاعاً عن دولتهم ، حتى إذا فقدوه لم يجدوا أمامهم ما يستحق الدفاع . فتخاذلوا وهزموا .

(٩٢) Cesulli, Rassegne V. I (٩٣) قررة العيون ورقة ٤٤ ١

(٩٤) نفس المصدر ورقة ٤٤ ب (٩٥) نفس المصدر ورقة ٤٦

(٩٦) تاريخ اليمين ص ١٢٠ (٩٧) قررة العيون ورقة ٤٧ ب

الحالة الاقتصادية: لم تذكر لنا المصادر على وجه صريح شيئاً عن حرفة الأهالي وحالة البلاد الاقتصادية ولكن طبيعة البلاد ومطرها الموسمي يؤهل أهلها لاختراف الزراعة في الوديان^(٩٨) وكان المطر وسيلة ربيهم. حتى إذا انتهى لجأوا إلى الآبار^(٩٩). وقد اخزن القدماء ماء المطر في خزانات حفروها في سفوح الجبال بالقرب من القمة. أو وراء سدود أقاموها في بعض الوديان، وكان أشهرها سد مأرب وما زالت بقايا هذه الخزانات موجودة حتى الآن ويستعمل اليمنيون الحاليون بعضها.

وقد أُنعت الزراعة وانتعشت لنشاط اليمنيين وكان الحكام يجمعون منها خراج الأرض^(١٠٠) وكان كثيراً. سمح لأحد الحكام أن يحمل إلى السلطان كل سنة ستة ألف ألف دينار بعد المؤن اللازمة^(١٠١) وكان غانم السليمانى صاحب مغلّاف طرف يحمل إلى سيده كل عام ستين ألف دينار^(١٠٢) وكذلك الوزير سرور كان يحمل إلى بيت مال مولاه مثل هذا القدر^(١٠٣) وإذا ما قتل سعيد بن الأحول بن نجاح على الصليحي غنم منه ألفي فرس بعددها وثلاثة ألف جمل بعددها^(١٠٤).

ويبدو أن السلاطين قد تركوا لهؤلاء الحكام أمر فرض الضرائب وجبايتها على أن يصرفوا منها على ولاياتهم وعمارتها ما شاءوا ويحملوا الباقي إليهم. فيصبح مالهم الخاص يصرفونه وفق ما يريدون. وقد أتاح لهم هذا أن ينعموا بوافر الثراء. حتى إذا تجهز الصليحي للحج سار في أبهة عظيمة وبين يديه خمسمائة فرس بالسروج الذهب^(١٠٥) كما ترك منصور بن فاتك حين توفي ألف سرية^(١٠٦)

-
- | | |
|------------------------------|---------------------------------|
| (٩٨) تاريخ اليمن ص ٦٣ | (٩٩) قرّة العيون ورقة ٣٨ ب |
| (١٠٠) نفس المصدر ورقة ٤٧ ب | (١٠١) اللطائف السنية ورقة ١١٧ |
| (١٠٢) قرّة العيون ورقة ٤٥ ب | (١٠٣) تاريخ اليمن ١١٩ |
| (١٠٤) نفس المصدر ص ٩٦ | (١٠٥) اللطائف السنية ورقة ١٧ ب. |
| (١٠٦) قرّة العيون ورقة ٤٤ ب. | |

كما سارت الحرة علم، إلى الحج بعد أن جهزت نفسها بثلاثين ألف دينار^(١٠٧) بل سمح لهم أيضاً أن يبتنوا (الحصون الباذخة والماعل النبعة والمساكن الرفيعة)^(١٠٨) وكذلك الجوامع الكبار والمنابر الطوال فقد بنى الحسين بن سلامة ستين جامعاً على طول المسافة بين حضرموت ومكة في كل مرحلة جامع^(١٠٩). بل كان كل منهم يكثر من العبيد والأتباع حتى وصلت قوة الواحد إلى عشرة آلاف بل عشرين ألف محارب كامل العدد^(١١٠). وإذا ما أراد الخليفة الفاطمي أن يرغم الحرة سيدة بنت أحمد على أن تزوج من داعيته سباً، عين لها مهراً قدره مائة ألف دينار نقداً وخمسين ألفاً من الهدايا والمطور^(١١١) وكان هذا الخراج يجبي مرتين كل عام^(١١٢).

ولكن هذا النشاط الزراعي لا يقاس شيئاً إلى جانب نشاطهم التجاري فقد كانت تجارتهم برية وبحرية. تسير الأولى إلى الحجاز والعراق كما تسير الثانية إلى دهلوك والحبشة والهند. وقد هرب أولاد نجاح إلى دهلوك لأنها كانت مركز تجارة الرقيق فحسب بل لأن الرحلة إليها كانت سهلة ميسورة. كما هرب جيش إلى الهند لنفس السبب. وكان قصر مدة إقامته بالهند دليلاً كذلك على كثرة السفن التي كانت تتردد على موانئ البلدين. وقد أقام جيش متكرراً بنى جبلة في زى فقبر هندي^(١١٣) مما يجزم إنه كانت هناك جالية هندية كبيرة تعيش في هذا المركز حتى إن ظهوره في زيههم ومظهرهم لا يثير ريبة أحد ولا بد أن ذي جبلة هذه كانت - علاوة على كونها مركزاً حصيناً - مركزاً تجارياً للتجارة الهندية يتردد عليها التجار الهنود يقيمون فيها مراكزهم التجارية وهذا يؤيد ما ذكره Kameron^(١١٤) من أن اليمنيين والحضارمة كانوا للمحيط الهندي مثلما كان البنادقة والجنويون للبحر المتوسط وكان هؤلاء التجار يدفعون عن تجارتهم المكوس سواء سافروا بطريق البر أو البحر^(١١٥).

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| (١٠٧) نفس المصدر ورقة ١٤٥ . | (١٠٨) نفس المصدر ورقة ٣٧ ب |
| (١٠٩) نفس المصدر ورقة ٣٨ ب | (١١٠) Kay, p.92. |
| (١١١) Ibid p. 47. | (١١٢) اللطائف السنية ورقة ٢١ أ |
| (١١٣) قرّة العيون ورقة ١٤١ . | (١١٤) Kameron Tom II, p. 297 |
| (١١٥) قرّة العيون ورقة ١٤٤ | |

وكانت الرياح الموسمية المنتظمة تساعد سفنهم على السير في أمان. وكانت وحدة العقيدة بينهم وبين القرصان الذين كانوا يعملون في البحر الأحمر تسهل عليهم مهمتهم. أو تسهل عليهم الاتفاق على مبلغ معين يدفعونه إليهم لقاء عدم التعرض لسفنهم. وكانت سفنهم تسير إلى زيلع أو إلى عيذاب وقد زار ابن جبير المدينة الأخيرة في هذه المدة. فقال عنها إنها من أحفل مراسي الدنيا^(١١٦). عاش فيها كثير من اليمنيين. يحترفون نقل التجارة بالجمال^(١١٧) بل كان منهم كثيرون في قفط^(١١٨) التي كانت هي الأخرى من أنشط مدن مصر تجارة مع اليمن.

وكان هؤلاء التجار يحملون إلى مصر التوابل من الهند والجواهر من سيلان. والقرنفل وخشب الصندل من الصين الهندية. والفلفل من ملبار. والنحاس من كلبانا والمسك والكشمير من السند والحريز من الصين واللبان والبخور وسن الفيل من الحبشة.

وقد اشتهرت اليمن في ذلك الوقت بالصناعة أيضا وكانت أكثر الصناعات رواجًا. مستلزمات الرحلات البحرية من سفن وحبال وأشرعة، أو الرحلات البرية. فقد ذكر ابن جبير أيضا: «أن أحسن ما يستعمل عليها - الإبل - الشقاديث وهي أشباه المحامل. وأحسن أنواعها اليمانية لأنها مجلدة متسعة. يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة وتوضع على البعير. ولها أذرع قد حفت بأركانها. يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله في كن من لفح الهاجرة».

وكان للأحباش عامة ولرجال دولة بني نجاح خاصة أثرهم في انتشار العمران ومظاهر الثقافة الإسلامية والعربية في اليمن. فقد بنى حسن بن سلامة وزير الصليحيين كثيرا من الجوامع الكبار. كما جدد جامع عدن^(١١٩) وأكثر من هذا اختط مدينة الكوراء^(١٢٠) التي أصبحت مدينة كبيرة بين مدن اليمن. كما بنى أنيس الفاتكي داره

(١١٦) رحلة ابن جبير ص ٤٢ (١١٧) نفس المصدر ص ٣٩

(١١٨) نفس المصدر ص ٣٧ (١١٩) قرعة العيون ورقة ٣٨ ب

(١٢٠) اللطائف السنية ورقة ١١ ب

عظيمة عرض كل قاعة منها ثلاثون ذراعا^(١٢١) حين استأثر بالأموال . ولم يقتصر على دار واحدة بل ابنتى عددا من القصور العظيمة الواسعة^(١٢٢) ولم يكن سرور آخر وزراء بنى نجاح أقل من غيره التفاتا إلى بناء المساجد والقصور^(١٢٣) رغم الحروب الطويلة التى انهمك فيها من أجل المحافظة على سلامة الدولة وكان أشهرها جامع زبيد الذى قتل فيه .

واشتهر سلاطين الدولة ووزراؤها بثقافتهم الواسعة وتعمقهم فى الدرس وتشجيعهم وإجلالهم للعلم والعلماء . فقد كان جياش بن نجاح متصفا بالعلم فقد عكف عليه حتى برع فيه^(١٢٤) وكان له شعر رائق^(١٢٥) وقد شاهد عمارة اليمى ديوان هذا الوزير ضخما مجلدا . كما شاهد مؤلفاته فى تاريخ ملوك زبيد^(١٢٦) ولا بد أن تدوين مثل هذا المجلد الضخم استلزم عددا من النساخ . كان السلطان يستخدمهم ويصرف عليهم ، لا فى نسخ مؤلفاته فحسب بل فى نسخ مؤلفات بقية العلماء الذين أسبغ عليهم السلطان عطفه وتشجيعه^(١٢٧) وعنى جياش بتعليم أولاده فكان يخصص لهم العلماء والمؤدين وكان يشرف على تربيتهم بنفسه ويسأل المؤدين عن أولاده ويوجههم بإشاراته التى تدل لاعلى اهتمامه فحسب بل على تحديد أهدافه من وراء هذا التعليم^(١٢٨) . وابنتى المنصور ابن فاتك فى زبيد مدارس كثيرة . كما كان أبو الفضل من الله الفاتكى وزير منصور ابن فاتك يجلس الشعراء ويجيزهم ويأتنس برأيهم . بل كان فقهاء المذاهب موضع الرعاية منه ، فكان لاينى عن بذل العطاء لهم كي يعيشوا فى بحبوحة من العيش^(١٢٩) . كما كان مفلح الفاتكى من أهل الخبرة فى الفقه والأدب حتى كان الناس يقولون عنه أنه لو جمع إلى ذلك نسبا قرشيا لاستحق الخلافة^(١٣٠) وكان مسرور إذا عاد من الحرب

(١٢٢) قرعة العيون ورقة ٤٣ ب

(١٢٤) تاريخ اليمى ص ٩٢

(١٢٦) تاريخ اليمى ص ٣٥

(١٢٨) نفس المصدر ورقة ٤٢ ا

(١٣٠) نفس المصدر ص ١٠٧

(١٢١) تاريخ اليمى ص ١٠٢

(١٢٣) نفس المصدر ورقة ٤٦ ب

(١٢٥) قرعة العيون ورقة ١٤٢ .

(١٢٧) قرعة العيون ورقة ٤٢ ب

(١٢٩) تاريخ اليمى ص ١٠٣

خرج الناس لاستقباله فيحيهم وهو راكب جواده ، إلا إذا وصل إلى الفقهاء ترجل لهم . ولم يكن يترجل لغيرهم^(١٣١) وكان يصرف عليهم ألف دينار كل شهر^(١٣٢) .

ولم تكن هذه الثقافة ولا هذا التعليم أو تشجيع العلماء المتوالى سواء من السلاطين أو الوزراء إلا نتيجة سياسة مستقرة ثابتة ترمي إلى الإكثار من المدارس والمكتبات ودور العلم التي يقبل عليها الطلاب من أجل التعلم والتثقف على يد أساتذة تخصصوا في هذه العلوم ولقوا من وراء اشتغالهم بالعلم كل رعاية من الدولة . ولم تقف الثقافة عند حد الرجال بل كانت أسماء بنت شهاب مثقفة . وهي التي تولت تربية سيدة بنت أحمد حتى جعلتها تجيد الشعر ورواية التاريخ^(١٣٣) . ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن ثقافة الحرمة علم ولكن إجلالها للعلماء وتقدير رجال الدولة لها ، وقبضها على أزمة الأمور تديرها طيلة ست وعشرين سنة ينم ولا ريب عن ثقافة واسعة وبعد نظر بل عن تفهم دقيق لمقتضيات الظروف والأحوال .

وإذا كان انتهاء دولة بني نجاح يشبه إلى حد كبير انتهاء دولة الفاطميين في مصر من حيث ازدياد سلطة الوزراء وتكالب القواد على هذا المنصب حتى أدى الأمر إلى انتهاء أمرهم . إلا أنها تشبه في مظاهر أخرى كثيرة دولة المماليك التي قامت في مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي فقد كان القائمون بالأمر فيهما من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم بالمال من أسواق الرقيق من أجل اتخاذهم سنداً لهم ، ودربوهم على القتال . وانتهى بهم الأمر إلى تأمرهم على هذه الدولة التي جلبتهم حين سنحت الفرصة المناسبة . وكان كل منهم أجنبياً عن البلد الذي أتى إليه يتكلم لغة أجنبية ويعتق ديانة مخالفة . ولكنهم تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الدين الإسلامي . وأخلص كل منهما لهذه اللغة وهذا الدين بل تحمس كل منهم لهما حماسة أدت بهم إلى العمل على

(١٣٢) نفس المصدر ص ١١٩

(١٣١) نفس المصدر ص ١١٨

(١٣٣) Kay p. 93

اتخاذ هذه اللغة وهذا الدين أساس للحكم في وطنهم الجديد وعملوا على نشر الثقافة العربية وخدمة الدين الإسلامي ببناء المساجد وفتح المدارس وتشجيع العلم الإسلامي والعلماء المسلمين وعمل رجال كل من الدولتين أيضا على المحافظة على وحدة البلاد وإعلاء كلمتها .

زاهر رياض

بعض معالم عهد شارلمان

بعد سقوط روما في يد المتبربرين سنة ٤٧٦م ، أصبح أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للأباطرة الرومان في الغرب ، فاعتبروا شبه جزيرة إيطاليا من أملاكهم ، ورابطت جنودهم في البندقية واستريا و نابولي وصقلية وكالابريا ورافنا ، وكان للامبراطور البيزنطي نائب (أرخون) في رافنا وممثل في روما ذاتها .

على أن سيادة بيزنطة في هذه الجهات تعرضت للنزاع من قبل قوى وسلطات أخرى ، منها اللومبارديون ، وهم آخر موجه من الموجات الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية الرومانية ، وقد استغلوا ما حل بالقوط الشرقيين في إيطاليا من كارثة خطيرة ، وما أصاب البلاد من الخراب ، نتيجة حروب جستنيان ، فتوغلوا بقيادة ملكهم البوين في إيطاليا ، ولم يلبثوا أن استقروا بها سنة ٥٦٨ وامتد ملكهم إلى جنوبها . واعتنق هؤلاء اللومبارديون المسيحية على المذهب الأريوسي شأنهم في ذلك شأن معظم المتبربرين ، واشتهروا بمحدهم على الكنيسة الرومانية ، وكرهية الخضوع لسلطانها ، فضلا عن نزعتهم العلمانية وشدة تماسكهم وتجانسهم في أصولهم ومصالحهم .

أما القوة الثانية فتمثل في الرومان بجنوب إيطاليا (كالابريا) ، الذين حرصوا على أن يحافظوا على استقلالهم ، بما أنشبهوه من نضال ضد اللومبارديين ، وبما تلقوه من مساعدة من قبل الدولة البيزنطية على حين أن البابوات الذين صار إليهم حكومة دوقية روما ، أسهموا في التعلق بطيف السلطة الإمبراطورية ، فأرخوا واثقهم بسنوات حكم الامبراطور البيزنطي ، واعتبروا نائب الامبراطور في رافنا وليا لهم ونصيرا ، وبلغ من شدة تعلقهم به ، أنهم ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم ، إلا إذا أقر انتخابهم .

ثم حدث في القرن الثامن الميلادي ما أدى إلى انفصال العنصر اليوناني ، عن العنصرين اللاتيني والجرماني . فحدث أول الأمر الانشقاق الديني نتيجة ما جرى

في القسطنطينية من ظهور حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة Iconoclasm ، التي لم تجد قبولا في روما أو عند البابا. يضاف إلى ذلك أن نياية رافنا أضحت فريسة سهلة للملك اللومباردى في باثيا . غير أن ما حدث من إيمان الملك اللومباردى ايستواف في التوسع على حساب بيزنطة وروما ، أدى إلى أن يستنجد البابا (زكريا) بملك الفرنجة بين القصير ، فبادر بين باسترداد المدن التي استولى عليها الملك اللومباردى ، غير أنه بدلا من أن يعيدها إلا الامبراطورية البيزنطية ، أعطاه هبة ومنحة للبابا. وترتب على ذلك أن منحه البابا لقب بطريق الذي لا يمنحه سوى الامبراطور ، وبذلك تعرضت العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والبابوية للانهيـار .

وإذ أنقذت هذه الحوادث روما والبابوية من الخضوع والإذعان لأية سلطة بشرية ، صار لزاما عليهما أن يقوموا بتوجيه غرب أوربا فيما يقع من المشاكل العامة . فإلى جانب ما اشتهرت به روما قديما من الأجداد ، مثل نشر السلام الروماني ، وبسط السيادة على البحر المتوسط ، وأنها مثوى القديس بطرس ، وأنها أسهمت في نشر المسيحية في سائر أنحاء أوربا ، ازداد سلطانها بفضل أسطورة قنسطنطين والبابا سلفستر ، وبمقتضى هبة قنسطنطين ، انتقل للبابا ما للامبراطور من زعامة وسيادة على إيطاليا والغرب ، وليس لأية سلطة علمانية أو كنسية أن تقوم في الغرب إلا بموافقة جمهورية روما التي يمثلها البابا ورجال الدين وأهل روما . وكانت هذه النظرية من من أقوى العوامل في العلاقات السياسية في القرن الثامن الميلادي .

والواقع أن سنة ٧٥٠م تعتبر خاتمة مرحلة طويلة من مراحل الحياـد ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل النضال في سبيل الوصول إلى السيادة . ويعتبر البابا هو المسئول عن هذا التغيير . إذ تدخل الكارولنجيون لنصرة البابا ، فأسهـموا بذلك في قيام الإمارة البابوية .

أما مملكة الفرنجة فإنها تألفت في القرن الثامن الميلادي من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف . وهذه الممالك هي استراسيا ، التي اشتملت

على وادى نهر الميز والجزء الأدنى من إقليم الراين ، ثم نوستريا ، ويحكم ملكها ما هو معروف باسم جزيرة فرنسا Ile de France و نرمنديا ، ولم تكن سلطته على ا كيتانية قوية . والمملكة الثالثة ، وهى برجنديا تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب . ولم تكن الحدود بين هذه الممالك ثابتة . واحتفظت كل مملكة ببلاط يعتبر مركز حكومة إدارية بسيطة . وارتبطت طبقة النبلاء فى كل منها بروابط المصاهرة ووحدة المصالح ، وبالكراهية لكل دخيل أجنبى .

وارتقى بيت أرنولف الذى ينتمى إليه الكارولنجيون إلى السلطة فى استراسيا ، حينما أضفى بين لاندن حاجبا لبلاط استراسيا ، بعد أن اتحدت مع نوستريا زمن لوثير الثانى ملك الفرنجة ، وذلك سنة ٦١٤ . وظلت سلالته تتولى الحجابة للميروفنجيين ، وتتصرف فى كل أمور البلاد ، لما بلغه ملوك الفرنجة من الضعف الشديد ، إلى أن حانت الفرصة سنة ٧٥٢ ، بعد نهوض بين لمساعدة البابا زكريا ضد اللومبارديين ، إذ أرسل بين يسأل البابا عما إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكما رسميا كذلك ؟ ولما كانت البابوية حريصة على الحصول على مساعدة الفرنجة ضد بيزنطة واللومبارديين ، وكان لبين أثره فى إصلاح كنيسة غاله وتنظيم الكنيسة الجرمانية ، فإن البابا زكريا أفتى بأنه يصح له شرعا أن يخضع للميروفنجيين وأن يتخذ التاج لنفسه . وعمل بين بتلك الفتوى ، وتوجه المبشر الانجليزى بونيفاس ملكا على الفرنجة فى كاتدرائية سواسون سنة ٧٥١ م ؛ ثم قام البابا نفسه ، بتتويجه مرة أخرى ، مع ولديه شارل (الكبير) و كارلومان ، فى يولييه ٧٥٤ وأشار إلى أن الكرسى الرسولى أمر جميع الأمة بالألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف الأمر . وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية ، بعد أن مضى على ولادة شارل عشر سنوات ، وقبل أن يتولى الحكم بستة عشرة سنة .

ومنذ سنة ٧٥٤ التى تم فيها تتويج بين ، دخلت عوامل جديدة فى السياسة

الكارولنجية ، فما أنكره بيت أرنولف من أفكار تيوتونية ، لأنها استترت في ثوب
نوستري ، لم تلبث أن لقيت قبولا ، حينما تقدمت بها روما والبابوية . ولم يعد البيت
الكارولنجي جرمانيا خالصا في كل ما يجرى في الحياة اليومية ، وفي تفاصيل العمل
الإداري ، والمحافظة على التقاليد القديمة ، إذ أصبح للدولة القبيلية مطامع ضخمة ،
وآمال مسيحية استعمارية ، فاستمدت من كل ذلك حياة جديدة . وترتب على ذلك
أن الفرنجة بدأوا منذ سنة ٧٥٤ يلعبون دوراً ملحوظاً في تاريخ العالم ، فالتزموا بأن
ينشروا في أوروبا حضارة اتحدت فيها المؤثرات القبيلية القديمة بالعوامل الجديدة ،
فقهرروا أوروبا وحكموها بوسائل تشبه من جهة ما يجرى في بيزنطة وما يشتهر به
أباطرتها من المهارة السياسية ، وتتصل من جهة أخرى بكلوئيس وسياسته الدينية ،
وما عند التيوتون من قوانين قبيلية ، وأمدتهم الكنيسة بمخاوف جديدة ، فبفضل
نفوذ المبشرين ونفوذ البابا ، توافرت القوة المحركة التي تجعل الارستقراطية الفرنجية
تنزّه عن المطامع الشخصية وتؤيد شارلمان . على أنه يصح أن نضيف عاملا جديدا
سخر كل هذه القوى ، ووجهها وفق ما يريد ، وهذا العامل يتمثل في شارلمان ذاته .

شارلمان : والواقع أنه كلما أمعنا النظر في دراسة حياة شارلمان ، كلما ازداد
إدراكنا لتلك السياسة التي اتخذها . فلم ينكر شارلمان ما لأبيه من أثر في توجيه
سياسته ، فكان يصرح بأن الامبراطورية إنما ترتكز على الأسس والقواعد التي
وضعها بين . وما كان يفتقر إليه بين هو الروح الملهبة والشخصية القوية التي
أكسبت شارلمان ما حدث من تعلق قومه به ، بل تعلق الشعوب المغلوبة على أمرها
به أيضاً .

أحب شارلمان ما للفرنجة من الملابس ، واحتقر كل ما هو أجنبي عنها ، وتعلق
بلغة إقليمه استراسيا وأناشيده ؛ واشتهر شارلمان بالنشاط الوافر ، والإرادة الحديدية ،
والتمسك الشديد بالنظام والعدالة ، والشعور الديني العميق . أنكر عليه بعض
معاصريه شدة صلابته ، على حين أنه كلما ازدادت معرفة الناس به ، كلما ازداد حبه له .

وليس ثمت ما هو أقوى وأشد من حكم السكسون الذين توافر لديهم من الأسباب ما يكفي لكرهيته ، ومع ذلك فإن شارل كان عندهم خير الرجال على وجه الأرض ، وأشجعهم ، إذ أقام العدالة والإيمان وحافظ عليهما .

ومن الواضح أن شارلمان أفاد من البابوية والكنيسة أكبر فائدة في سياسته الخارجية . فما قام به من الحملات ضد اللومبارديين والباثاريين والسكسون ، وما ترتب عليها من تنظيمات كنسية ومرسومات ، إنما يتضح فيها أثر توجيه البابوية والكنيسة القومية . وطالما أدركنا من شارلمان الشعور العام بالمسؤولية ، باعتباره قيماً على مجتمع مسيحي كبير ، وهذا الشعور إنما استمده من البابا هادريان ، الذي كتب إليه يحضه على الفتح والتبشير والإصلاح . وعلى الرغم من أنه قلما رجع إلى رأى البابا فيما قام به من تنظيم الكنيسة القومية ، فإنه أفاد من البابوية في أمرين : الأول ما يتعلق بنحلة التبنى التي نبتت في أسبانيا ، التي تجعل المسيح مخلوقاً انبثق من الأب ، فهو بذلك أدنى منه مرتبة ، فتقرر استنكارها بموافقة البابا . أما الأمر الثاني فيتعلق بعبادة الصور التي أعادها مجمع نيقية سنة ٧٩٢ ، فعلى الرغم من أنها لا تختلف كثيراً عما هو معروف في كنيسة روما ، فإن شارلمان ومستشاره الكوين ، اعتبرها أنها ليست إلا عبادة للأوثان والأصنام ، ويرى بعض المؤرخين « دولنجر » أن ما اتخذ شارلمان من قرار إنما يهدف به إلى اتخاذ اللقب الإمبراطوري ، وأبدى البابا استعداده لمهاجمة قسطنطين (السادس) وأمه أيرين والخط من قدرها لأنهما حازا دون سند شرعى أملاً كاتبة للقديس بطرس (البابوية) .

فكرة الإمبراطورية : يؤكد اينهارت أن ما حدث سنة ٨٠٠ من تنويع شارلمان إمبراطوراً ، إنما جاء مفاجأة للشخص الذي لا يهم الأمر سواه . فيشير إلى أن شارل كان منذ أول الأمر راغباً عن اتخاذ اللقب الإمبراطوري ، وأصر على أنه لو علم بنية البابا (ليو الثالث) ، ما دخل الكنيسة في ذلك اليوم ، على الرغم من أنه من الأعياد الكبيرة .

والواقع أن تتويج شارلمان إنما جاء نتيجة لما وقع من الحوادث والمؤامرات والمنازعات في روما والقسطنطينية ، التي لا ترجع في تاريخها إلى أبعد من سنة ٧٩٨ ذلك أنه حينما مات البابا هادريان سنة ٧٩٥ ، تقرر اختيار ليو مكانه . والمعروف أن ليو خدم بالدار البابوية زمنا طويلا ، واشتهر بالدهاء السياسي . ولعل هذه الصفة الأخيرة هي التي جعلت رجال الدين وأهل روما ينتخبونه ، لما لمسوا فيه من القدرة على المحافظة على دوقية روما والمقر الرسولي ، على أن ما اشتهر به ليو من سوء الخلق ، وما جرى اتهامه به من السيمونية والحنث بالإيمان والتزوير والزنا ، كان مادة خصبة استغلها في مهاجمته أعداؤه بروما ، ومنهم جماعة من أسرة هادريان تتطلع إلى أن يتولى البابوية رجل يمثل مصالحهم . يضاف إلى ذلك أن ما لجأ إليه ليو من التدخل في إدارة المدينة أدى إلى سخط الناس وتذمرهم . واشتد قلق الناس حينما لم يُسفر تحقيق هذه الاتهامات عن نتيجة حاسمة . فأخذوا يتساءلون ماذا تكون النتيجة لو تبين أن البابا مذنب ، من ذا الذي يستطيع شرعا أن يعزل البابا ؟ وإذا تم عزل البابا ، فما أثر ذلك على هذا المنصب ؟ وإلى من يتوجه المسيحيون ليهديهم ؟ أليس ثمة سلطة أخرى تُصلح تلك التي ثبت أنها ليست معصومة من الخطأ ؟ وأخذ الاعتقاد يرسخ ، بأن ما حصلت عليه البابوية من استقلال ، وما نعمت به من عدم المسئولية ، لم يؤد إلا إلى ما حل بالعالم المسيحي في الغرب من فوضى الديانة والتفكك .

أيرين وقسطنطين : لو أن الأحوال كانت عادية ، لكان الحل الواضح أن يعود الإمبراطور إلى سابق مكانته من الزعامة ، فعلى الرغم من أن قسطنطين نبت من أسرة مكروهة ، فإنه ما زال شابا صغير السن فإذا تحرر من وصاية أمه أيرين ، فإنه ربما عاد إلى الطريق المستقيم ، وإذا رجع إلى الصواب ، صار له الحق في أن يشرف على البابا في الغرب . غير أن الاقتراض جاء متأخرا ، لأن قسطنطين السادس وقع فعلا ضحية طموح أمه التي لم تتردد ، في سبيل تحقيق رغبتها في الانفراد بالحكم ، في تخريض الجند على مهاجمته والقبض عليه وسمل عينيه وذلك في سنة ٧٩٧ ، فظل في الحبس حتى قضى نحبه .

والنتيجة التي ترتبت على ذلك ، أن العرش أضحي شاغرا . وعلى الرغم من أن رعايا الملعب هلكوا الأيرين التي صارت امبراطورة ، فإن عملها لقي سخطا شديدا في الأقاليم . وعند العقلاء من الرجال .

أما أثر الجريمة في الغرب ، فإن شارل لم يعلم بخبرها إلا أواخر سنة ٧٩٧ ، حينما جاءت رسل إيرين إلى آخن ، ولم تلبث أخبارها أن ذاعت في أنحاء الغرب بعد طرد البابا ليو من روما سنة ٧٩٧ . وكان الحادثين وقعا في وقت واحد ، وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة . فالبابوية والامبراطورية هويتا سويا ، وإذا تطلخت سمعة البابوية بالعار ، حل بالامبراطورية الدمار .

لم يقبل الفرنجة مطلقا أن يتولى عرش الأباطرة امرأة ، تعتبر زعيمة التهرطقين . لم يرد في المراجع ما يشير إلى رد شارلمان على رسالة إيرين ، غير أن رعاياه اعتقدوا أن البيزنطيين فقدوا ما كان لهم من حق قديم في الانتخاب ؛ وأن ماجرى من الحوادث ليس إلا نذيرا ودليلا على غضب الله . واستبد اليأس بالناس في مستقبل الكنيسة ، وتفككت عرى السلطان ، وتهدد العالم المسيحي الانحلال .

خاف الناس أن يحل ببيزنطة الدمار ، وأن تقع غنيمة في يد المسلمين ، فكل أوروبا كانت وقتذاك تتحدث عن شهرة هارون الرشيد ونخامة بلاطه في بغداد ، وأنه لم يعد ثمة ما يحول دون توغل جيوشه في أوروبا لتلتقي بالجيش الأموي من قرطبة ، فيتم بذلك سحق الأمم الغربية . وأحس الناس في آسيا الصغرى بشيء من هذا الخوف . أما بطريرك بيت المقدس ، فإنه فقد كل أمل في أن تتولى القسطنطينية حمايته ، فدعا شارل لينهض إلى مساعدته ، وأرسل رهبانه إلى إيطاليا بمفاتيح القبر المقدس .

كتب الكوين : أن تمت ثلاث قوى في العالم (المسيحي) : البابا والامبراطور والملك : وإذا أصاب البابا والامبراطور الفشل ، فلا بد أن يضطلع بأعبائهما أقوى الملوك . ورأى شارل أن تسوية هذه الأزمة المزدوجة إنما تتم باتخاذ إجراءين : الأول : هو أن يعيد الثقة في البابوية ، والأمر الثاني ، هو أن المحافظة على هذه الثقة مستقبلا

تتطلب إعادة الامبراطورية . وعلى الرغم من أنه لم يرَ ما يدعوا إلى أن يتخذ مباشرة للقب الامبراطورى ، وأنه توقع مقاومة عنيفة من قبل البيزنطيين ، وأنه تشكك في شرعية العمل الذى اقترحه ، فإنه أعدَّ نفسه لأن يتخذ عاجلاً أو آجلاً الخطوة الحاسمة . قدم شارل إلى روما فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٠٠ ، ثم أخذ يشرح فى المجلس الذى عقده بعد ثمانية أيام من وصوله الأسباب التى جاء من أجلها ، وتآلف هذا المجلس من رجال الدين من الفرنجة والرومان ، وبعد أن استعرض كل الأدلة والأسانيد ، تبين له براءة ليو من التهم الموجهة إليه ، واطمأن رجال الدين إلى سلامة موقف البابا . انتهى من هذا القرار فى ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٠^(١)

وبعد يومين ، أى فى ٢٥ ديسمبر ، ازدحم بكنيسة القديس بطرس بروما حشد كبير من الفرنجة والرومان لغرض مختلف تمام الاختلاف ، كان ذلك يوم عيد الميلاد . وبينما كان شارلمان ينهض من ركعته ، بعد اختتام الصلاة ، تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الامبراطورى على رأسه ، فהל المصلون ، وهتفوا بشارل أغسطس ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور المعظم ، المحب للسلام ، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر ، ثم ارتفع دعاء الحاضرين فى صوت جهورى يطلبون من القديسين أن ينصروا الإمبراطور الجديد وأبناءه ورعاياه « وهكذا بُعثت الامبراطورية ، وصار لغرب أوروبا امبراطور رومانى مرة أخرى .

على أن مظاهره بلغت ما بلغت من هذه الدقة والنظام ، من العسير أن تحدث دون أن يكون ثمة اتفاق سابق . لم يكن شارل فيما يبدو قد أخذ على غرة ، كما يزعم انهارت لأنه قبل فى هدوء وأناة وصبر ، أن يجرى إلباسه العباءة الامبراطورية . ويروى لنا مؤرخ بيزنطى ما كر ، أنه جرى مسح شارل بالزيت المقدس من قمة رأسه

(١) فى نفس اليوم وصل إلى روما راهبان من قبل بطريرك بيت المقدس ، يحملان مفاتيح وعلم القبر المقدس ، وجبل الجحمة calvaire ومفاتيح المدينة المقدسة ذاتها . ولعل هذا الإجراء قد جرى تديره ليرفع ، قبيل الاحتفال بعيد الميلاد ، من شأن الملك الذى يتطلع الجميع إلى أن يتخذ لقب زعيم المسيحية

إلى أخص قدمه ، ولم تكن هذه الطقوس غير مألوفة في تنصيب الأباطرة ، وتشير رواية أخرى إلى ما حدث من مراعاة كل الرسوم التقليدية في تنصيب الامبراطور ، وفي نفس الوقت ، تم أيضا تنصيب الابن الأكبر كما يخالف أباه في مملكة الفرنجة .

والواضح أن التنصيب قام به جماعة ، فلا نستطيع أن نتصور أن ليو يسير على غير هدى فلا بد أنه كان متأكدا من حضور هذا الجمع ، وأن البطريق (شارلمان) سوف يكون حاضرا . وتفترق حوليات لورث عن رواية إينهارت في الإشارة إلى أن ليو استشار في ذلك رجال الدين وأعيان الفرنجة وأهل روما ، فوافقوه على أن يتخذ شارل لقب أمبراطور ، لأنه لم يعد بالقسطنطينية امبراطور . وتضيف الرواية ، أن شارل تلقى هذا القرار بما يليق به من التواضع والرضى . وأعقب ذلك إجراء التنصيب .

اعتبر شارل نفسه ، كما اعتبره رعاياه ، الوريث الشرعي لقسطنطين السادس الذي خلعه أمه عن العرش ، ولم يكن من رأى شارلمان وجود امبراطوريتين رومانية وبيزنطية ، إذ يعتبر الأمبراطورية وحدة غير قابلة للانقسام ، أما البيزنطيون فاعتبروه مقتصبا للحكم ولم يعترفوا به امبراطورا . على أن شارل أدرك ما في موقفه من نواحي الضعف ، فحرص على أن يصل إلى اتفاق مع بيزنطة ، وقامت فكرته على أن يتزوج من ايرين ، غير أن ذلك المشروع لم يتم ، لسخط الشعب البيزنطي وعزل ايرين . ولما تولى نقفور الحكم سنة ٨٠٢م عرض شارل عقد اتفاق مع أخيه نقفور مثلاً حدث زمن دقلديانوس ، بأن تبقى الامبراطورية ممتدة من حيث الفكرة ، على أن يحكمها أكثر من امبراطور . ولما لم تلق عروضه استجابة من قبل بيزنطة ، استولى على دالماتيا والبندقية التابعتين للدولة البيزنطية . ومع ذلك لم يحصل على اعتراف الحكومة البيزنطية بلقب الأمبراطور . إلا بعد حربين وبعد أن تنازل عن بعض أملاكه ، وبعد مفاوضات طويلة ، وبعد أن تعرضت الامبراطورية البيزنطية لهزيمة ساحقة على يد البلغار ، لقي فيها نقفور مصرعه . والواقع أن شارل لم يكسب امبراطوريته إلا بفضل ما حل بالدولة البيزنطية من كوارث ، وهذا هو الذي حدث فعلا حين قدم في ٤ أبريل

سنة ٨١٢ إلى آخن رسل من قبل الامبراطور ميخائيل الأول لإجراء تسوية ، فخطبوا شارل بالامبراطور الباسيليوس . والمعروف أن شارل أرسل إلى الامبراطور ميخائيل رسالة يشير فيها إلى سروره لما حدث من الاتفاق بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ، غير أنه لم تجر في المفاوضات أية إشارة إلى الامبراطورية الغربية ، فعنى ذلك أن ما آتخذه شارل من لقب امبراطور إنما هو لقب شخصي ، ولا يرتبط بأنه امبراطور على إقليم من الأقاليم ، أو على أقل تقدير أنه لم يكن امبراطورا رومانيا . ومن الملاحظ أن شارل منذ هذا التاريخ أسقط من لقبه عبارة « الذى يحكم الامبراطورية الرومانية » ولعل ذلك يعتبر جانبا من الثمن الذى دفعه للوصول إلى هذا الاتفاق . ويشير بعض المؤرخين إلى أن سنة ٨١٢ لا ٨٠٠ تعتبر تاريخا هاما ، بسبب ما حدث من انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية وبذلك يظل تاريخ الامبراطورية الغربية مستمرا على أن ذلك ليس هو المقصود بالاتفاق ، لأن أحدا من الكارولنجيين ، باستثناء لويس الثانى ، لم يفكر فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » لأنه ليس من حقهم ، وليست الامبراطورية الرومانية من ممتلكاتهم ، فالمقصود هو الامبراطورية البيزنطية والأباطرة البيزنطيون الذين اتخذوا لقب أباطرة الرومان .

ثم أقدم شارل فى سنة ٨١٣ على اتخاذ خطوة جديدة ، إذ رشح ابنه لويس ليكون قسما له فى الحكم ، غير أن ذلك لم يتحقق أيضا لأن شارل مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ . والخلاصة أن الناس لم يجمعوا على اعتبار شارل امبراطورا ، ولم يترتب على اتخاذ لقب الامبراطور الرومانى نتيجة من النتائج ، فلم يصبح شارلمان بسببه صاحب سلطان فى أسبانيا أو بريطانيا أو أفريقيا التى كانت كلها ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية فى الزمن الغابر ، بل لم يجلب اللقب الامبراطورى إلى شارلمان شبرا من أرض لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلا .

ومع ذلك فإن شارلمان نظر إلى امبراطوريته على أنها دولة مقدسة ، وأحس أن

العناية الإلهية نصبتة حاكما على المسيحيين ، واعتقد أنه أقام مدينة الله التي يقصدها أغسطين ، على أنها نظام دنيوى لسد حاجات الناس الدنيوية بما يرضى الله ، ولإصلاح الحياة الدنيا وتهيئة الناس إلى حياة أفضل فى العالم الآخر . على أن أغسطين رأى أن المظهر المادى لمدينة الله إنما يتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية . ولم يجد شارلمان فى ذلك تناقضا ، إذ اعتبر نفسه على رأس النظامين الكنسى والدنيوى ، وأن امبراطوريته تطابق ما لكنيسة الله من مملكة على الأرض .

وكان شارل نقل إلى حكومة الفرنجة فكرة الحكومة التيقراطية التى أضحت جاملا هاما فى تاريخ غرب أوربا ، غير أنه فى الوقت ذاته تسبب فيما سوف يقع من نزاع بين الامبراطورية والبابوية .

العلاقات بين شارلمان والمسلمين : تنتقل إلى مناقشة موضوع العلاقات بين شارلمان والمسلمين ، فالمعروف أن الأوضاع السياسية فى العالمين الإسلامى والمسيحى وقتذاك هى التى أدت إلى قيام هذه العلاقات . وهذه الأوضاع تتمثل فيما يلى :

أولا - العداء المستحكم بين بيت أرنولف (الكارولنجيين) وبين الأمويين فى الأندلس .

ثانيا - النضال بين الأمويين والعباسيين فى الشرق ، وامتداده إلى الأندلس ، ومحاولة العباسيين انتزاع الأندلس من أيدي الأمويين .

ثالثا - الحروب المستمرة بين العباسيين والبيزنطيين .

رابعا - العداء بين البابوية والامبراطورية البيزنطية .

تعرض الأمويون ، عقب قيام الخلافة العباسية ، إلى الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، فهلك منهم عدد كبير ، ومن نجا منهم التمس طريقا للاختفاء أو الهرب ، ومن الذين فروا من هذا الاضطهاد عبد الرحمن الأموى من سلالة هشام بن عبد الملك ابن مروان ، حيث لجأ إلى أسبانيا . واستطاع عبد الرحمن ، بفضل اليمنيين أن يقيم له ملكا فى أسبانيا على أنه حدث فى السنوات السابقة على قدوم عبد الرحمن ، أن أعلن

أحد القرشيين وهو عامر بن عمرو نفسه واليا على أسبانيا من قبل الخليفة المنصور وذلك سنة ٧٥٣ . وفي تلك الأثناء تطلع والي برشلونة إلى بين ليساعده ضد اليمنيين ، فنشأت بذلك العلاقة بين بين والمسلمين في أسبانيا ، ووقع في تلك الأثناء أيضا من الثورات في شمال إفريقيا مادعا العباسيين إلى أن يرسلوا حملات انتهت بالاستيلاء على القيروان سنة ٧٦١ وفي شمال البرانس حدث من الأحوال ما يماثل ذلك ، إذ لم تهدأ ثائرة جنوب غاله منذ أن نهض بالحكم حجاب البلاط ، وذلك لتغلب العنصر الروماني بهذه الجهات ، ولما تمتع به الكونتات من استقلال يكاد يكون كاملا - وترتب على ذلك أن حاكم اkitania المعروف باسم كونت أود Eudes ، حينما أحس بما يتعرض له من تهديد من قبل حجاب البلاط ، عمل على تأمين نفسه ضد شارل مارتل ، فزوج ابنته من والي الثغر المعروف باسم عثمان سنة ٧٣٠ ، بينما تنازل موروونتوس Maurontus كونت مرسلية للأمير أربونة (ناريون) عن آرل وأفينيون ومدن أخرى . ولما مات أود سنة ٧٣٥ ، انتقض شارل مارتل على اkitania ، فاحتل مدنها ، غير أنه لم يلبث أن ترك السلطة في أيدي أمرائه ومقطعيه ، ولم يهاجم المسلمين الذين سيطروا وقتذاك على ساحل خليج ليون . وما وجهه شارل مارتل سنة ٧٣٩ من حملة حربية لم يقصد بها المسلمين ، بل وجهها ضد موروونتوس الذي لاذ بالهرب . ثم ازداد العداء ضد دوقات الجنوب ، بعد أن تم عزل شلدريك الثالث آخر ملوك الفرنجة ، وتولية الملك بين سنة ٧٥١ ، وعندئذ وجد عبد الرحمن الأموي في وايفز دوق اkitania حليفا قويا ضد خصمه الفرنجي ، على أن سقط أربونة سنة ٧٥٩ في يد بين أدى إلى أن تصبح أطراف مملكته مصابة لأمالك المسلمين (والي برشلونة) .

وما حدث في السنوات الواقعة بين ٧٦٠ ، ٧٦٨ من هزيمة وايفر ، وتطور التحالف بين البابا والفرنجة لمقاومة الدولة البيزنطية ، يعتبر عاملا هاما في تطور العلاقات بين الفرنجة والمسلمين . ذلك أن سياسة البابوية كانت ترمي وقتذاك إلى منع قيام تحالف بين ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس الامبراطور البيزنطي .

ثم وقع من الحوادث ما جعل بين يبعث بسفارة إلى بغداد وجدت ترحيبا من قبل الخليفة العباسي (النصور) ، إذ أن العلاء بن المغيث الذي أرسله المنصور سنة ٧٦٣ لاسترداد الأندلس من الأمويين ، حلت به هزيمة ساحقة أدت إلى فشل سياسة المنصور ، ولعل هذا الفشل هو الذي جعله يستقبل سفارة بين ، يضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية^(١) يعتبر أيضا من العوامل التي جعلت بين يسعى إلى أن يلتصق صداقة الخليفة العباسي ، عدو الإمبراطور البيزنطي ، ففي سنة ٧٦٥ أرسل بين سفارة إلى بغداد ، مكثت بها ثلاث سنوات ، ثم عادت يصحبها رسل من قبل الخليفة المنصور يحملون الهدايا إلى بين ، فاستقبلهم بين بالحفاوة ثم عادوا بطريق البحر إلى بغداد ، وقد حملوا معهم هدايا بين ، ولم يكن المقصود بسفارة بين سوى إقامة حلقة من المحالفات ضد أموي الأندلس^(٢) والإمبراطور البيزنطي .

مات بين سنة ٧٦٨ ، وخلفه على الحكم ولده شارل وكارلومان ، وتولى هادريان البابوية سنة ٧٧٢ ، فبدأ التحالف بين شارل والبابوية . وفي السنوات الخمس التالية ، التي أمضاها شارل في قتال السكسون واللومبارديين ، تعرض مركز عبد الرحمن الأموي للخطر ، نتيجة ارتباط الحزب العباسي بالأندلس بثورة قام بها البربر في وسط اسبانيا ، وهذه الثورة أعدها ودبرها ثلاثة ولاة : والي برشلونة ، سليمان بن يقطان العربي ، وعبد الرحمن بن حبيب الذي اشتهرت أسرته بعداوتها للأمويين ، وأبو الأسود

(١) أشاع البسابا في سنة ٧٦٠ أن الإمبراطور البيزنطي أرسل أسطولا مؤلفا من ثلاثمائة سفينة لمهاجمة روما وفرنسا ، وحرص البابا على أن يقدم بين إلى إيطاليا لمقاومته ؛ انظر :

Pierenne : Muhammad ad & Charlemagne p. 227 .

(٢) رفض بين إجراء محالفة مع أمير برشلونة . ورأى أن يتحالف مع العباسيين أعداء الأمويين بعد أن أخضع اkitانيا ومد أطراف ملكة نحو الجنوب ؛ إذ كان يطمح في مواصلة التوسع جنوبا انظر : (Cambridge Medieval History II. 604.)

يوسف (الحسين بن يحيى) الذى أمر عبد الرحمن الأموى بحبس أبيه ، وتضمنت خططهم حشد قوات من البربر بإفريقية وقطع طريق الاتصال بين عبد الرحمن والبحر المتوسط ، ولتدعيم مركزهم فى الشمال توجه سليمان وابنه يوسف إلى شارل فى بادربورن ، وعرضاً عليه حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ، مقابل الحصول على مواضع فى شمال أسبانيا . على أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى دفع شارلمان للقيام بمغامرته فى أسبانيا . لم يشر اينهارت إلا عرضاً إلى أن شارل كان يأمل فى الاستيلاء على بعض المدن الأسبانية . غير أن ما ورد فى قصة تيرين المزعوم التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى من أن القديس جيمس الرسول ، الذى يقع مشهده فى Compostela بشمال غربى أسبانيا ، تراءى لشارل أثناء النوم ودعاه للنهوض لاستخلاص جليقية من يد المسلمين ، وهى التى يقع بها قبره . هذه الرواية إنما تدل على ما يكنه المسيحيون وقتذاك من الكراهية للمسلمين الذين استولوا على بلادهم ، ومن الدليل على ذلك أن ملوك أستوريس وأساقفة طليطلة ظلوا على اتصال مستمر بالمسيحيين فى مختلف البلاد ، فأثاروا عندهم الشعور العدائى ضد المسلمين . أما رجال الكنيسة فصاروا يترقبون الساعة التى ينبغى أن تعود فيها قرطاجنة القديس أغسطين إلى حظيرة الصليب ، وأن تقوم المجمع الكنسية بوضع قوانين اسبانيا على نحو ما حدث فى الزمن الغابر . يضاف إلى ذلك أن شارلمان تلقى من البابا هادريان أن فكرة الحرب ضد الوثنيين هى رسالته التى اختص بها ، فأعد شارل نفسه لخدمة الكنيسة سواء على نهر الألب أو على نهر الإيرو . وربما رأى شارل أنه من الخير أن يقوم بتقوية الأطراف الأكتانية ، وأن يعين فى تخويف الغاليين باستعراض جيشه الضخم من الفرنجة ، وأن يجعل لهم عدواً آخر من غير الفرنجة يحاربونه . والواقع أن شارل كان يهدف إلى أن يجعل سلطانه يمتد إلى أقصى طرف ، يتفق مع استقرار الأمور ، وأن ينشر داخل تلك الحدود تلك الصورة من الإيمان والحضارة التى أعدها فى نطاق كنيسة الفرنجة .

وكيفما كان الدافع ، فإن شارل سار بجيوشه فى ربيع سنة ٧٧٨ ، فعبّر جبال

البرانس مجتازاً مضيق روتسيفال، وفي بامبلونا أعلن البشكنس الخضوع له، ثم توجه إلى سرقسطة، وكان ابن العربي قد أشار بأن سرقسطة سوف تفتح له أبوابها، غير أن ذلك لم يتحقق، إذ امتنعت المدينة على شارل على الرغم من طول حصارها. ولما بلغ شارل نبأ اندلاع الثورة في سكسونيا، أمر برفع الحصار عن سرقسطة وانسحب بجيشه راجعاً إلى غالة، وخرّب أثناء مسيره أسوار بامبلونا. غير أنه أثناء اجتيازه مضيق روتسيفال، تعرضت مؤخرة جيشه للهجوم من قبل البشكنس، فأزلوا القتل والنهب بجند شارل، وفي هذه الحركة لقي رولان مصرعه، وهذه الحركة خلّدتها قصيدة رولان، التي سوف نتحدث عنها فيما بعد.

وما حدث لشرلمان من الهزيمة في روتسيفال جعلته يفكر في إقامة إمارة مستقلة في داخل مملكة الفرنجة، وهي مملكة اكيثانيا، وجعل مهمتها الأساسية ملاحظة نشاط المسلمين في منطقة الحدود، ونصب على هذه المملكة ابنه لويس، الذي تعلم من أبيه أن يعتبر المسلمين في أسبانيا عدوه الطبيعي، وأن نهر الإبرو هو الحد الطبيعي لمملكته، ووجد في الدوق وليم أمير تولوز قائداً كفأ لتنفيذ سياسة حازمة على الحدود. على أن ما حدث من الحروب بين قوات الفرنجة والقوات الأموية كان في صالح الأمويين حتى سنة ٨٠١، حين سقطت برشلونة في يد الفرنجة، ثم استولى لويس سنة ٨١١ على طرطوشة، وأعقب ذلك عقد هدنة مع الحكم استمرت قاعة حتى وفاة شارلمان. على أن الطرف الأسباني لم يمتد إلى نهر الإبرو، إنما وصل إلى خط يمتد شمالاً، وشمال شرق برشلونة ويسير موازياً لجبال البرانس. وفي سنة ٧٩٩ خضعت جزر البليار لحماية الفرنجة.

وما جرى في الشرق من الأحداث، إنما يدل على ما أحرزته الجيوش العباسية من انتصارات على البيزنطيين في آسيا الصغرى زمن المنصور والمهدي ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٥، ٧٨١، فطلبت ايرين الصلح مقابل دفع الجزية.

ثم ازداد مركز ايرين حرجاً بسبب افتقارها إلى التأييد من داخل البلاد،
(١٠ - المجلة التاريخية)

وما تعرضت له من عداوة الغرب، فحاولت أن تعقد محالفة مع شارل يزيد لها قوة ومثانة. الاقتراح بزواج ابنتها قنسطنطين من ابنة شارلمان روتود ، وأحبت أن تجتذب البابا إلى جانبها فأعادت عبادة الصور المقدسة . غير أن البابا هادريان كان حريصاً على منع التحالف بين بيزنطة وآخن ، فعمد إلى إخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين إيرين والعباسيين ، وإلى ما يقوم به البيزنطيون من التآمر في إيطاليا ولاسيا بين الأمراء المقطعين من اللومبارديين في الجنوب . ففي سنة ٧٨٧ أرسلت إيرين إلى أريفيس دوق بنينقنتو خلية البطريركية ، على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وعلم شارل بذلك من البابا ، غير أن جريموالد الذي خلفه في الدوقية لم يقبل عروض إيرين وابنها قنسطنطين السادس . فتعرضت بنينقنتو للهجوم من قبل الحاكم البيزنطي في صقلية ، فهض شارلمان لمساعدته ، وأنزل الهزيمة بحاكم صقلية والبيزنطيين ، واستولى على أستريا ، غير أنه حدث من الأمور ما جعل شارل يسير شمالاً لمواصلة الحرب مع الآفار والسكسون فأغفل أمور الشرق .

وتعرضت أملاك البيزنطيين لغارات شديدة برا وبحرا من قبل العباسيين ، وأشد هذه الحروب وأخطرها تلك التي وقعت سنة ٧٩٦ ، حين أوغل الرشيد بجيوشه في آسيا الصغرى ، وفرض الصلح على إيرين ، مقابل دفع جزية كبيرة ، وفي نفس السنة أرسلت إلى شارل تعلن تنازلها عن دعاويها في بنيفنتو وأستريا ، والراجح أنها احتاجت إلى مساعدته ضد الأحزاب البيزنطية وهرون الرشيد ، وترتب على ذلك أن قبل شارل استئناف العلاقات الودية مع إيرين .

يشير بكرر إلى أن فكرة التحالف بين هرون الرشيد وشارل إنما ترجع إلى مادبره البيزنطيون من مؤامرات في جنوب إيطاليا ، وإلى ما وقع من التخاصم بين أفراد البيت الأموي في الأندلس على الحكم ، والاستنجد بشارل للتدخل في تسوية المشاكل الأسبانية . فتألفت سفارة شارل إلى هارون الرشيد من سبسموند ولتفرد ، ومن يهودى اسمه إسحاق ليتولى الترجمة . ويبدو أن السفارة أرتحلت حوالى سنة ٧٩٧

ومكثت ثلاث سنوات ، مات أثناءها سجسموند ولتفرد . والراجح أنهما ماتا بعده
أن أنجزا مهمتهما ، لأن هارون أرسل مبعوثين ردا على هذه السفارة . ويزعم بكر أن
أغراض السفارة اشتملت على السعى لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الآتية :
وضع شارل في أسبانيا وغرب البحر المتوسط باعتباره مسئولا عن مصالح العباسيين في
هذه الجهات . الهدف الثاني التحالف مع الرشيد وما يترتب على ذلك من التعاون
المشترك ضد الأمويين بأسبانيا وضد البيزنطيين ، أما الهدف الثالث فينطوي على تيسير
قدوم الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة . ويشير إلى أن ما اتبعه شارل من
سياسة هجومية في أسبانيا أرضت الخليفة العباسي ، فاستولى على برشونة ووشقة وبامبلونا ،
وأقام حكومة الطرف الأسباني ، ورد هجوم العرب على جزائر البليارس سنة ٨٠٧ . وما
حدث من هجوم في البحر المتوسط من قبل الأغلبة بشمال إفريقيا الذين يعترفون بالتبعية
للرشيد ، يعتبر تأييدا من قبل حكومة بغداد لنشاط ثرلمان . ففي سنة ٨١٠ ، ٨١٢ هاجم الأغلبة
جزر قورسيقة وسردينية وصقلية ، وأعقب هذا الهجوم النزول بإيطاليا ذاتها سنة ٨١٣ ،
ولعل كل ذلك هو الذي أرغم كلا من الإمبراطورين نقفور وميخائيل على تسوية
الأمور بشأن تنويجه إمبراطورا .

أما مسألة الحجاج المسيحيين ، فالمعروف أن المسيحيين لم يتعرضوا لمعاملة سيئة من
قبل المسلمين ، وأن عددا كبيرا منهم دخل في خدمة الحكومة العباسية . غير أن
الحركة المناهضة لعبادة الصور في بيزنطة وظهور نحلة التبنى في الغرب ، أدت إلى أن
ينفصل عن القسطنطينية لا الغرب فحسب ، بل الكراسي الرسولية الأخرى روما ،
والإسكندرية ، وبيت المقدس وانطاكية . وما أورده إينهارت من الإشارة أن
هارون الرشيد قبل أن يكون لشارل السلطة والإشراف على الأماكن المقدسة ، ربما
كان المقصود من ذلك التخلص من النفوذ البيزنطي في بيت المقدس . وتشير الحوليات
الملكية وهي المصدر الوحيد المعاصر ، والذي نقل عنه إينهارت هذه الرواية ، إلى ما قام
به بطريرك بيت المقدس من إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارل في ٢٣ ديسمبر

سنة ٨٠٠ وماحدث سنة ٨٠٨ يدل على كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين في
بيزنطة ، إذ أن رهبان جبل الزيتون طلبوا إلى البابا أنهم يأملون في حماية ملك الفرنج .
مناقس نقفور وحليف هارون الرشيد ، من ظلم البيزنطيين المتغطرسين .

الواقع أنه من العسير أن تتصور أن البطريك والخليفة (الذي لم يرد له
ذكر في المصادر) اعترفا بشرلمان حاميا على الأماكن المقدسة . والراجح أن مفاتيح
القبر المقدس وموضع صلب المسيح لم تكن إلا كالمفاتيح الصغيرة لكنيسة القديس
بطرس بروما ، التي يهديها البابوات إلى كبار الشخصيات ، أو كالشارات والتعاويذ ،
وكذلك كان شأن مفاتيح المدينة وجبل صهيون ومدينة داود ، حيث حفلت
الكنيسة الكبيرة بكثير من الذكريات المثيرة كالحلقة والعمود الذي صلب عليه المسيح ،
والموضع الذي هبط فيه الروح القدس على المسيح ، والموضع الذي به قبر العذراء
مريم ، والحجر الذي تحجر عنده القديس إيتين . أما العلم فلم يكن إلا الصليب ذاته ،
وجرت تسميته بهذا الاسم لأنه يشبه اللواء الذي انتصر به المسيح ، وهو عبارة عن
قطعة من المعدن المذهب ، اشتملت على قطعة صغيرة من صليب الصلبوت . هذه المقدسات
لم تكن لها أهمية سياسية ، وليست إلا شاهدا على ما يقدمه رجال الدين في بيت المقدس
من الشكر لشارلمان ، أما البطريك فاعتبرها من مظاهر التبريك .

إنما هل كان ثمة ما يدعو البطريك لأن يبذل الولاء لشرلمان ؟ حدث في شهر يونيه
سنة ٨٠١ أن استقبل الامبراطور أثناء عودته من إيطاليا إلى فرنسا ، رسولين أحدهما
من قبل هارون الرشيد والآخر من قبل إبراهيم بن الأغلب ، فأخبراه بأن السفارة
التي أرسلها سنة ٧٩٧ إلى الرشيد نجحت في مهمتها ، ووصل إسحاق سنة ٨٠٢
بهديه الرشيد ، ومن بينها الفيل الذي اغتبروه من الغرائب .

وما أرسله أميرا آسيا وإفريقيا إلى شرلمان من الهدايا إنما ترمز إلى ما يربطهما من
علاقات المودة مع شارل . والراجح أنه لم يكن ثمة من التحالف الدبلوماسي بين
هارون وشارل إلا ما كان من انقطاع الحروب بينهما . وفيما يتعلق بالأراضي المقدسة

لا تخرج المسألة عن أن ما بدا من مظاهر النبل والشرف من قبل خليفة اشهر بالتسامح وكفل الأمن والطمأنينة للمسيحيين في بلاده ، وأتبع ذلك بما أرسله من هدايا نالت تقدير شارلمان ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما في حاجة إلى أن يتنازل هارون الرشيد عن جانب من أراضيه أو سيادته إلى شارلمان . ويضاف إلى ذلك أن هدايا هارون الرشيد إلى شارلمان . التي أرسلها مع سفارته سنة ٨٠٧ لا تقل في أهميتها عن الهدايا التي جاء بها من قبل ، فمنها منسوجات رفيعة رائعة الجمال ، ومنسوجات حريرية وعطور وشمعدانات ، وساعة من البرونز المطلى بالذهب ، تدق الساعات ، وحين تدق ساعة الظهيرة ، يخرج من وجهها اثنا عشر فارسا من اثنتي عشرة نافذة ، تغلق خلفهم .

هذه العلاقة الودية بين الملكين ترتب عليها نتائج طيبة للمسيحيين الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، وورد ذكرها في بعض الوثائق التي ترجع إلى ما بعد وفاة شارلمان مثل رحلة الراهب الفرنجي برنارد التي قام بها إلى فلسطين ووفقا لهذه الشواهد ، ازداد اهتمام شارلمان بما في بيت المقدس من أديرة وخانات ، يأوى إليها الحجاج القادمون من مملكته ، ففي جنوب كنيسة بيت القيامة شيد شارلمان خاناً اختص بالنزول فيه المسافرون الذين يتحدثون اللغة الرومانية ، وأهدى شارلمان كنيسة العذراء مكتبة ضخمة ، ووقف عليها بعض الحدائق والبساتين وشيد أيضا ديرا يتسع لسبعة عشر راهبا .

استمرت العلاقات بين الأمبراطور وبطريك بيت المقدس ، ففي سنة ٨٠٩ بعث البطريك إلى البابا ليو الثالث يطلب إليه التوسط عند الامبراطور للاهتمام بأمر اثنين من حجاج الفرنجة . وحوالي هذا الوقت تعرض الرهبان الفرنجة بدير جبل الزيتون للإهانة والرمي بالزندقة من قبل الرهبان اليونانيين بدير القديس سابا ، لأنهم اعترفوا بنحلة التبني ، واشتد قلق هؤلاء الرهبان من الفرنجة ، لأنهم اعتبروا أنفسهم غرباء في فلسطين ، وأرسلوا بشكواهم إلى البابا الذي رفعها إلى الامبراطور ، وهذا دليل على أن شارل لم تكن له السيادة على هذه الجهات .

يضاف إلى ذلك ما أورده اينهارت عن سياسة شارلمان إزاء المسيحيين ، إنما يدل على أن ما يقوم به شارل من العطف على المسيحيين في سائر الجهات : في مصر وتونس والإسكندرية وقرطاجنة ، إنما يتطلب إنشاء علاقات ودية مع الأمراء المسلمين الذين يعيش في بلادهم عدد كبير من المسيحيين .

والخلاصة أن حماية شارلمان للأراضي المقدسة ليست إلا أسطورة ، يرتبط تفسيرها بالعلاقات بين شارلمان وهرون الرشيد . ففي أثناء حكم شارلمان لم يعلم الناس شيئاً عما للأباطور من سلطان وسيادة : أيّاً كان هذا السلطان ، على الأراضي المقدسة . وظل الحال على هذا النحو مدة ٧٥ سنة أي حتى سنة ٨٨٣ ، ٨٨٧ ، أي حين ظهرت ملاحم شارلمان لراهب دير القديس جال ، وهذا الراهب الذي اشتهر بسعة اطلاعه ، رأى في سبيل تعظيم بطله أو رغبة في إثارة خيال الناس ، أن يضيف إلى ما تلقاه شارلمان فعلاً من الهدايا الواردة في كتاب اينهارت والحوليات الملكية ، كل منتجات الشرق ، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك ، فاخترع محادثة جرت بين الخليفة ورسول الفرنجة حيث صرح لهم الخليفة بأنه على استعداد أن يكون نائباً عن شارل في حكم الأرض المقدسة ، لأن أخاه شارل ليس في استطاعته أن يجتاز البحر لحماية هذه الأراضي من التبربرين .

ثم حدث في سنة ٩٢٥ أن ظهرت قصة أخرى يشير مؤلفها وهو أحد الرهبان إلى أن ما في دير من قطرات الدم المقدس إنما هي من دماء المسيح ، جاء بها أحد المسلمين .

شارل والقصص : ما ألفه الفرنسيون من القصص عن شارلمان يفوق بكثير ما ألفه الألمان. ولا بد أن نرجع إلى الشعر الفرنسي كما نتعرف إلى قصص رولان وتبرين ومارسيلا ومانيلون والرحلة إلى بيت المقدس ، والاثنى عشر فارساً ، والحروب مع المسلمين بكل جهات أوروبا . على أن الحقيقة تبدو غريبة على الذين يظنون أن المانيا ، وليست فرنسا ، هي التي تدين بوجودها إلى شارلمان . والواقع أن ذلك لم يكن أمراً

تغريباً ، لو أدركنا أن شارل أول ما ظهر عند الجرمان ، ظهر على أنه محارب شديد القسوة مجرد من الرحمة ، دمر ما يعتر به الجرمان من الاتفرادية والذاتية . وأهم ما تذكره من أعماله ، ما قام به من الاتقضاظ على أطراف بلادهم ، وقع ثورتهم وانتزاع شبابهم وقذفهم في الحروب في جهات نائية . بينما يعتبر شارل عند غاله منقذاً وحامياً إذ رد عنها المسلمين والدانين . واستمتعت غاله بهدوء نسبي ، على الرغم من الحروب المستمرة ، التي لم تنشب إلا من أجل مصالح غاله ، ونبقت من أفكار لم تتردد غاله في قبولها .

على أن أصول أسطورة شارلمان ظلت مضطربة . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها على وجه التحقيق أن أسسها ترجع إلى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن قصصاً لا حصر له عن بيت أرنولف انتشر وذاع في أنحاء فرنسا ، واتخذ الشعراء المنشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا وهزيمة روتسيفالا ، وألفوا منها مقطوعات قصيرة مثيرة ، اعتبرها السامعون لها موجزاً لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان مثل اجبهارد الصنجيل ووليم دوق تولوز ، وأريك ذوق قريولى .

على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسيج خيالهم ، أو من قصص تتعلق بالأبطال المتقدمين ، فجرت واية القصص القديمة بأسماء جديدة ، وبذلك تطورت المأثورات الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية . فالأناشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الإلمام بتواريخ البلاط ، والإلمام بكتاب اينهارت يوقفنا على حياة شارلمان .

على أن ما استمدته هذه الأناشيد والأغاني من هذه المصادر من المعلومات تعتبر بالغة الغموض والشيوع ، إذ تناولها من التعبير والتحوير ما جعلها تتناسب مع حاجات الشعر ومقتضياته .

على أن أعظم هذه القصائد وأشهرها ، هي أنشودة رولان . والأصل التاريخي كما

أورده اينهارت في ترجمته لحياة شارلمان (حوالي سنة ٨٣٠) والذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن روتسيفال ، إنما يتلخص في أن مؤخرة جيش شارلمان تعرضت عند اجتيازها مضيق روتسيفال لحياة البشكنس الذين نصبوا كميناً في الغابات الكثيفة التي تغطي جانبي المضيق ، ثم انقضوا على مؤخرة الجيش فقتلوا على كل رجالها ، ونهبوا ما معهم من الأمتعة ، وتفرقوا في جنح الظلام ، فلم يعثر لهم على أثر . ويختتم اينهارت قوله : وفي هذا الحادث لقي مصرعه اجيهارد صنجيل الملك ، وأنسلم حاجب القصر ، ورولان دوق بريتاني ، وآخرون . وفي مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع وردت مرثية بالشعر اللاتيني في اجيهارد . وما زال شاهداً قبرى رولان واجيهارد قائمين ، وأهميتهما ترجع إلى الإشارة إلى تاريخ المعركة ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ ، وهذا الحادث أشار إليه مؤرخ آخر في سنة ٨٤٠ ، إذ لخص رواية اينهارت وأضاف إلى ذلك أنه لا داعي لتكرار أسماء القتلى في كتابه نظراً لأنها معروفة وقد جرى تسجيلها .

ثم ظلت قصة روتسيفال مطوية نحو مائتي سنة ، حتى إذا ظهرت من جديد طراً عليها من التغيير ما يصح أن تدهش له ، لولا أننا نعلم أن هذا التغيير أمر مألوف في هذا النوع من القصص . وترتب على ذلك أن الحادث التاريخي البسيط تضخم حتى أصبح ملحمة حافلة بأعمال البطولة ، وأضحى لها دلالة مثالية قوية . ذلك أن شارلمان الذي لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، عند قيامه بالحملة على أسبانيا ، أضحى رجلاً وقوراً من رجال الدين ، يبلغ من العمر مائتي سنة ، صار ملكاً ذا لحية في بياض الثلج ، امبراطوراً مقدساً ، بطل العالم المسيحي ضد المسلمين ، القائد المظفر الذي امتدت فتوحه في أنحاء العالم المتمدين ، أضحى الحملة ذاتها حلقة كبيرة من حلقات النضال بين المسيحيين والمسلمين ، وتحول البشكنس الغيرون ، وتضاعف عددهم حتى أصبحوا جيشاً كبيراً من المسلمين ، يبلغ عدده آلافاً من الجند ، واختبى اسم كل من اجيهارد وأنسلم

من مؤخرة الجيش ، ولم يبق إلا رولان ، الذي أصبح ابن أخى الامبراطور ومساعدته .
الأيمن ، وأعظم يحارب فى العالم .

جاز قوة خارقة ، وصار بطلا قام بأعمال مجيدة لاحصر لها . صحبه صديقه الجيم
أوليفر ، ورفاقه العشرة المختارون ، وهم فئة مختارة من أشجع الفرسان ، يعتبرون زهرة
الفروسية الفرنسية . أما السكين الذى أدى إلى مصرعهم فلا زال يعتبر نتيجة لخيانة من قبل
الفرنجية ، إنما أصبح مؤامرة محكمة اشترك فيها مارسيليون ملك المسلمين وكونت جانيلون .
أحد نبلاء فرنسا ، زوج والدة رولان . والغرض من كل المؤامرة هو القضاء على رولان
ورفاقه الفرسان . وهذه المؤامرة إنما نشأت بسبب ما يكرهه جانيلون من الكراهية
لرولان ، وبالحلابة أن ما بدأ بهزيمة بسيطة لا تختلف عما يجرى فى التاريخ من الهزائم .
صار بعد مائتى سنة ملحمة من أروع الملاحم ، وهى قصيدة رولان .

وهذه القصيدة اتخذت صورتها النهائية ، فيما يبدو ، حوالى نهاية القرن الحادى .
عشر ، وليس من العسير أن ندرك السبب الذى جعل الملحمة تتخذ صورتها التى
انتهت إليها ، وأنها نالت ما نالته من الذبوع والانتشار . فالمعروف أن النضال اشتد
بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وفى نفس
الوقت ذاعت أساطير وأغانى البطولة والفروسية فى أنحاء أوروبا على امتداد طرق التجارة
والحجاج ، وهذه الأساطير ارتبطت بأسماء الأبطال المحليين ، وارتبطت أيضا بالمدن
والأديرة الهامة الواقعة على هذه الطرق . فطريق الحجاج المؤدى إلى مشهد القديس
جيمس الرسول فى كومبوستيلا يمر بنفس المضيق الذى اجتازته مؤخرة جيش
شارلمان ، وحلت به الهزيمة . فمن الطبيعى أن يتغنى المسافرون بصورة مجيدة لما حدث
بهذا الموقع من مأساة . وشهد القرن العاشر أيضا ازدهار النظام الإقطاعى وتطور
قانون الفروسية الذى ألزم التابع بأن يؤدى خدمات لسيده ، يضاف إلى ذلك أن الدعوة
إلى الحرب الصليبية الأولى ألهمت حماس العالم المسيحى للحرب المقدسة ضد المسلمين .
ليس لدينا دليل واضح على أن قصيدة رولان ترجع إلى أعقاب الحرب الصليبية

الأولى كما يشير بعض الكتاب. والراجح أن هذه القصيدة التي نعتبرها أيضا أسطورة، بدأت في وقت أكثر تبكيرا ، يجعلها بعضهم ترجع إلى الفترة بين الفتح الترمندى لـ ١٠٦٦ ، وبين الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ ، وذلك أن الشاعر في مستهل قصيدته يفترض أن سامعيه يعلمون كل شيء عن شرلمان وأمرائه ، وعن صداقة رولاند وأوليغر ، وعن جانيلون ، أى أنه يروى قصة وعثها أفئدة الناس وعقولهم . والواقع أن دراسة هذه القصيدة تتطلب اهتماما خاصا للتعرف إلى المراحل التي تحول فيها التاريخ إلى أسطورة ، وتحولت الأسطورة إلى ملحمة . فرولان دوق بريتانى لا بد أنه كان رجلا هاما ، غير أنه لم ترد عنه سوى إشارة تاريخية عابرة . ولماذا جرى اختياره ليكون بطلا دون غيره من الذين حاربوا معه ولقوا بختفهم مثله ؟ كيف تطورت القصة ؟ وفي أى صورة ؟

تعتبر قصيدة رولان أقدم الملاحم المدونة بالفرنسية القديمة والمعروفة بملاحم المآثر، فهي قصيدة قصيرة لا تزيد على ٤ آلاف بيت . جرى فيها نعت شرلمان بعدد من الصفات الأسطورية المرتبطة بمكانته على أنه إمبراطور. فما أحاط المنصب الإمبراطورى من قداسة ، انتقلت إلى شارلمان من قسطنطين وجستنيان ، وجعلت الأسطورة عمره مديداً لا حد له .. وما اتصف به من لحية في بياض الثلج، وقوة لم تنل منها السنوات العديدة ، إنما ترمزان إلى القداسة والأبوة . فهو يمثل الإله ، ومنشئ العالم المسيحى وتتحدث الملائكة مع شرلمان ...

ومن تحت هذه الشخصية التي تعبر في ضخامتها أكبر من الحياة ذاتها ، نلاحظ شيئا آخر . نلاحظ صورة السلطان المثالى ، الذى اشتهر بالعدالة والحكمة والعظمة والإخلاص . وبذل الشاعر جهده فى أن يصف لنا فى شرلمان فكرة العصور الوسطى عن الملك ، بأنه لم يكن عجولا فى الرد ، ولم يبادر بالقيام بعمل إلا بناء على نصيحة مجلسه ، وله الحق فى الاعتراض على كل اقتراح قبل أن يُعرض للتصويت ، غير أنه إذا حاز الموافقة من المجلس ، تحتم تنفيذه . سواء أقر هو هذا الاقتراح أو رفضه ،

ويقابل هذا بما يسلكه الأمراء الآخرون الواردة أسماؤهم في الملحمة من انفرادهم بالعمل .

ثم يصف السلوك الشخصي لشارلمان ، من حيث مكانته ، ودمائه وإقدامه ، وقوته ، وشعوره الديني المتأصل ، وصداقته ومحبة الزائدة لابن أخيه رولان وأقرانه ، وللشبان الذين يعتبرهم أبناءه ، فهو يركب ويحارب بين باورناته على أنه أعظم هؤلاء البارونات . على أن الشعراء المتأخرين ازداد نزوعهم إلى تطوير هذه الأغراض على حساب الشخصية الأساسية (البطل) ، ومن هنا حدث في فترة الحروب الصليبية أن دخلت الملحمة الأسطورية في مرحلة جديدة من التطور ، إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية ، واستغل الشعراء هذه الناحية ، فأخرجوا ترجمة جديدة لحياة أول امبراطور غربي ، صوروه في هيئة محارب صليبي ، ليست حياته الأولى إلا عبارة عن حروب متصلة ضد الكفار ، وأحكموا ابتداء قصة رحلة ، قام بها شارلمان إلى بيت المقدس ، وإلى القسطنطينية ، وعمدوا إلى تشويه الأناشيد القديمة التي تشير إلى الحروب القومية ضد الفرنجة في إكيتانيا وبريتاني وسكسونيا ولومبارديا ، وأقحموا اسم المسلمين في كل موضع من هذه المواضع .

السير البار العريش

مفهوم الصحة العقلية في التاريخ

لعله من الملائم أن نبدأ هذا البحث عن الصحة العقلية وعن مدلولها في التاريخ بإيضاح لا غنى عنه ، وهو أن الصحة العقلية كتعبير اصطلاحى في مفهومها اليوم وفي معناها الشائع بيننا إنما هي فكرة حديثة العهد ، قريبة الاستنباط ، ولعل أول ذكر للصحة العقلية في مضمونها الذى يشمل فكرة قد تقرب مما تتضمنه اليوم من معان ، جاء في كتاب لوامع الإشرافى المعروف بأخلاق جلالى لجلال الدين محمد بن أسعد المتوفى عام ٩٠٨ هـ . ولذا سوف نجد من الضرورة تتبع هذه الفكرة واستقصاءها داخل نطاق الطب كجزء لا يتجزأ منه ، إذ أنها لم يكن لها وجود مستقل بذاته ، هكذا كان الاتجاه قديما ولعله سوف يكون كذلك ، إلى حد ما في المستقبل أيضا ، كما تشير الاتجاهات المعاصرة . ونسبة لذلك فهناك ما يبرر تاريخيا وواقعا استعمال هذين التعبيرين أى : الطب والصحة العقلية كترادفين لأغراض البحث وفي مضمونهما ، إن لم يكن في مجالهما .

كذلك لا بد من إيضاح آخر ، وهو أنه وإن كان البحث سوف ينساق كما نأمل في تسلسل تاريخى جغرافى ، بيد أن الناحية الاجتماعية لمكانتها من الأهمية قد تضطرننا أحيانا - لكي نتقصى أصولها ومقوماتها ونتأبجها - لأن نسلك مسلكا فنيا بحثا لا صلة له بالزمن ، بل بالفكرة ذاتها ، زد على ذلك أن الصحة العقلية ، وكذلك المرض ، لا تنشأ بطبيعتها على أساس سبب واحد بل على جملة من الأسباب لا تقوم في الأصل على صلات زمنية مقررة ، بل على تكامل أحداث وتجارب متفرقة تكون آخرها كالقشة التى قصمت ظهر البعير . وآمل ألا تدعو هذه الضرورة في النهج إلى خلط قد يؤدي إلى الغموض .

ونعود فنستهل بتقرير حقيقة أخرى ، وهي أن الفكرة التاريخية ضرورة لازمة .

لكل بحث اجتماعي . قال تشرشل :

The longer you can look backward, the further you can see forward

أى « كلما أطلت بصرك إمعانا فى الماضى ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل »
والحق أن فلسفة التاريخ قد تسدى معونة صادقة فى جلى الحقائق وإدراكها ، وخلا
ذلك فإنه للإلمام بفن التاريخ ومذاهبه ، ضرورة للطبيب ، لأن لمهنة الطب صلة تاريخية
لازمة . فالمرض ظاهرة حية لها كيان تاريخى ينبغى تتبعه واستقصاؤه وفقاً لمنهج
تاريخى سليم ، فالأطباء الذين يسلكون منهجا إخباريا فى التدوين ربما تفوتهم بعض
الحقائق الهامة ، كذلك الذين ينصبون على تقصى الظواهر المرضية ، على أنها ظواهر
منفصلة لها نشوء طبيعى يمكن قياسه دون اعتبار للمؤثرات السيكولوجية والاجتماعية ،
أولئك وهؤلاء مثلهم كمثل الباحث فى التاريخ الذى لا يستنفذ جميع ما لديه من مصادر .

وقد أسدى التاريخ فى مناهجه خدمات جليلة للطلب وخاصة المدرسة الحديثة التى
كان من روادها الأوائل الفيلسوف الإيطالى بندتو كروشيّة Benedetto Croce
والمؤرخ الإنجليزى كلنجوود Callingwood التى تقول إن مهمة التاريخ لا تنحصر
فى سرده وتفصيله للحوادث ولا فى تسلسله لها على نمط زمنى . كذلك لن تكون
مهمته كاملة مستوفاة لأغراضه ، إلا إذا استطاع المؤرخ استيعاب الحوادث والوقائع ،
 وتمثيلها حتى تصبح جزءا من خبرته وتجاربه ، بل من كيانه الفسبرى . لأن التاريخ
فى تدوينه لا يقوم على جمع الحوادث وتوليّفها ، ولكنه يقوم على نمط : من التجارب
العميقة التى يستلهمها المؤرخ والتى يعيش فى خضمها الزاخر على كونها صدى لتجربته .
وهذا فى رأى أبلغ ما أسداه التاريخ إلى المنهج الطبى ، لأن الطبيب الذى لا يستطيع
أن يخلق من إدراكه للمرض تجربة شخصية له لا يستطيع قياس المرض . وقد وصف
أبو الحسن أحمد بن محمد الطبرى فى القرن الرابع الهجرى فى كتابه المسمى بالمعالجات
الأبقراتية ، وصف نوعين من الأطباء : « الطبيب الذى بفيلسوف » « والطبيب الذى
ليس بفيلسوف » . فقال : إن الطبيب الذى ليس بفيلسوف هو الذى يقتصر عمله واهتمامه

على علاج الداء مع قلة المعرفة والبعد عن الفلسفة ، وأنه يأخذ المعرفة عن طريق التقليد - أما الطبيب الذي بفيلسوف فهو الذى يرتفع بعلمه وإدراكه إلى طلب الغاية، ولم يقتصر من كل صناعة على أقل ما يمكن ». والمقالة الأولى من الكتاب التى تحوى أصولاً فى الفلسفة والتاريخ ، قال إنها لاغنى عنها للطبيب الذى بفيلسوف. وقال القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء عام ١٢٢٧م : ينبغى للأطباء أن يتفلسفوا فإنها (أى المهنة) لا يجب تعاطيها إلا لمن كان على سيرة اسقليبيوس Asculapius . واسقليبيوس إله الطب عند اليونان ، كان أبوه أبولو إلهاً للشفاء وطيبياً لآلهة الأولمب . وفى الأساطير أن أبولو وتوأمة ارتيميس وهبا شطرا من علمهما الواسع إلى قنطروس زحل ، فأصبح بفضل الآلهة ذا نباهة فى الموسيقى ودراية فى الجراحة ومعرفة تامة بأساطير الأولين فأوكل إليه أبولو أن يكون رائدا لأسقليبيوس . وأشاد ابن خلدون بفضل التاريخ ، وكان للمنهج الذى جادت به عبقريته فضل فى بحث التاريخ داخل الإطار الاجتماعى ، ومن ثم صار المجتمع عنصراً هاماً فى أى بحث علمى .

مصر القديمة : والطب ، كؤسسة إنسانية ، له ماض طويل . بيد أن تاريخه قصير ورغم ذلك نستطيع أن نتبين فى مصر الطلائع الأولى لمهنة الطب . وهنا تنبغى الإشارة إلى أن الطب كغيره من المؤسسات الاجتماعية لا يقوم بذاته فجأة وإنما يتطور وينمو مع غيره من المؤسسات الأخرى وفق قوانين اجتماعية ثابتة ، وفى مصر القديمة نشأت العوامل التى تمهد لقيام مهنة الطب ففهيما استيقظ الضمير الإنسانى لأول وهلة ، وفيها قامت الشرائع الأولى ، وفيها مُجِّد الإنسان ، وفى أرضها نشأت الحكمة ، ومن ثم انبثق ضوء العلوم والمعارف ومن بينها الطب^(١) . وعلى هذا فيصبح للطب صفة اجتماعية ذات طابع ديناميكى (أى متحول) ، وسنرى تبعا لذلك كيف يتبع الطب المجتمع كالظل للسارى . وفى مجال

(١) وقد رفع المصريون أحتب طيب الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة إلى مصاف الآلهة وقامت عبادته فى سقارة تقديساً للمهنة وتدعياً لمكانتها فى المجتمع لأن القدرة العلاجية للطبيب لا تقوم على كفاءته فحسب بل على كرامة مهنته وعلى مكانته المرموقة فى المجتمع .

الصحة العقلية في مصر ، نستطيع تبيين مايلي : أولا - أشار هرودوتس إلى أن الطب في مصر القديمة يمارس على مبدأ الاختصاص فالطبيب هناك يعالج مرضا واحدا لا جملة أمراض (هذا هو النص) . وأقول إن هنالك ما يدعو إلى الظن بأنه ربما قصد أن الطبيب يعالج عضوا واحدا لا مرضا واحدا كما سوف يتضح من بقية الحديث . واستطرد هرودوتس يقول إن بعض الأطباء لأمراض الرأس ، وبعضهم للعيون ، وبعضهم للأسنان . ثم قال إن بعضهم للأمراض المجهولة التي ليس لها مكان معين (تاريخ هرودوتس الجزء الثاني ترجمة رولنسون) . والفقرة الأخيرة التي تشير إلى الأمراض المجهولة التي ليس لها مكان معين فقرة بالغة الأهمية لأنها تتفق مع ما أسماه العرب بالأمراض العامة المتنقلة أي التي تنتقل من عضو إلى عضو ، ومن مكان في الجسم إلى مكان آخر ، والتي ينطبق عليها وصف الكثير من العلل التي تنشأ من أثر العوامل النفسية وقد أطلق جانيه على هذه الظاهرة « Equivalence » . ونستطيع إذا ، على ضوء ما سبق ، أن نفسر القول بأنه كان في مصر القديمة أطباء يختصون بعلاج العلل النفسية . وهذا أول ذكر في التاريخ لهذه الطائفة من الأطباء . ومن المؤسف أن هذه الحقيقة لم تسجل لمصر في كتب تاريخ الطب لقصورها عن تفسير هذه العبارة . وثانيا نجد حقيقة أخرى لا تقل أهمية عما سبق ، وذلك أن مرض الهستيريا قد عرف في مصر القديمة قبل أن يصفه أبوقراط بعشرة قرون . وهذا النوع من الاضطراب أي الهستيريا يتألف من مجموعة متباينة من الأعراض ليس لها طابع شكلي أو وظيفي مقرر وقد أوحى هذا التباين لأبوقراط نظريته التي زعمت أن هذه الحالات تنشأ على أساس اضطراب في الرحم قد يؤدي إلى التوائه ، وإلى ازدياد حركته أي أن الرحم قد ينطلق من عقاله . وهذا هو أساس تسميتها بالكلمة المستعملة إلى اليوم هستيريا والتي اشتقت من أصل يوناني معناه الرحم . هذه الفكرة عرفت في مصر القديمة قبل عام ١٥٥٠ قبل الميلاد . نقول ذلك لأننا نجد في بردية كاهون Kahun أكثر من ثلاثين وصفة لجملة من الأعراض والاضطرابات المختلفة التي تصيب الجسم ، والتي عزاها الكاتب إلى ميل

في الرحم . ومن المعلوم أن أبوقراط زار مصر وعاش فيها فترة من الزمن تزود فيها بالمعرفة بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع قبل الميلاد عند ما كانت مدينة الإسكندرية منارة العلم والمعرفة ، وكان يؤمها الطلاب من كل فج عميق . ولربما قامت النظرية على ملاحظات تشريحية لأن أطباء الإسكندرية وجدوا في كنف البطالسة ما يمنع عنهم الأذى والعدوان لمن يقدم على تشريح الموتى ، حتى استطاع علماءهم أن يسبقوا غيرهم إلى وصف بعض النواحي التشريحية والفسولوجية ، أمثال هروفليس وأريز استراتوس . ولكن أشهرهم كان جالينوس ، ومن المؤكد أن جالينوس قد استمد من تجاربه بمعهد الإسكندرية أكثر ما حوته كتبه في التشريح التي فقدت بعض أصولها وحفظتها الترجمة العربية . وعلى هذا فالمصريون هم الذين أنشأوا نظرية الهستيريا ، وليس أبوقراط الذي ما زالت تعزى إليه إلى اليوم . ثم نجد ذكر الأدوية المفرحة في مصر القديمة . فقد جاء في الألياذة « وصبت هيلين قطرات من طيب مذهب للأحزان في كأس تليماك وكأس صاحبه ، لا يجد من يذوقها إلى الأسى من سبيل ، وهي قطرات عجيبة أهدتها الأميرة المصرية بولانداما » (ترجمة دريني خشبة) . ولهذه الأدوية تاريخ طويل عند العرب . وتوجد وصفات متعددة للأدوية المفرحة في اقرباذين نجيب الدين السمرقندي المتوفى عام ٦١٧ هـ . وقد بُعثت دراستها بطريقة جديدة عام ١٩٣٥ على يد جوتمان . وقيمتها العلاجية لاشك فيها في بعض الحالات ، وخاصة في بعث الخواطر وتداعيتها في مجال الفحص والتحليل النفسي .

وأخيراً ، نجد أن المصريين القدماء أدركوا أن النفس البشرية في ظاهر اضطرابها وتباين حالاتها وتقلباتها لا بد أن تحوى عناصر مختلفة في جوهرها، متضاربة في غاياتها . ولا شك أن المتصفح للقصص التي جاءت في أوراق البردي ، يدرك أن تقسيم النفس إلى « خات » التي ترمز للجسد الفاني ، وإلى « با » التي ترمز للروح ، وإلى « كا » ويرمز لها بذراعين قويين ، يدرك أن هذا لا بد أن يدعو للاهتمام . ولا يتسع المجال

لذكر التفسيات الأخرى التي لها أهمية في السحر وغيره مثل « رن » و « خيت » و « ساه » وغيرها . وقد وصفت الكا على أنها تعنى القرين Double . هكذا قال ماسبيرو ، وتبعه كذلك إيرمان . غير أن والس بدج يقول إنه من الصعب تقرير ما هي هذه « الكا » ، وما طبيعتها ، لأنه مراراً ما يستنتج من صياغة النصوص أنها قد ترمز لأشياء مختلفة ، مثل الطابع الشخصي ، أو الخلق ، أو العقل . غير أننا عند ما نتصفح مثلاً قصة الرجل المكتئب الذي يلتمس الانتحار، التي جاءت في بردية برلين ، والتي نشرها ماسبيرو عام ١٨٧٤ ، ومن بعده إيرمان ، نقول عند ما نتصفح هذه القصة ، يتضح لنا عن طريق « المناجاة » في القصة أن « البا » الذي يمثله الطائر المعروف بالأيبس Ibis يرمز لما نستطيع أن نسميه اليوم بالجزء من الانا Ego الذي يعرف عند يونج Jung وأتباعه بالبرسونا Persona . وهو الجزء الاجتماعي « للانا » الذي تتمركز فيه وظيفة الشعور ، كما أن « الكا » نجدها تمثل مخلوقاً عنيماً في طبيعته . « فالكا » تطلق اسماً للثور عموماً ، وترمز كذلك للإله حورس الذي يمثّل أحياناً في صور العجل^(١) . كذلك نجد أن لفظة « كات » ، من الباحية اللغوية ، تعنى العمل . واشتق منها كذلك اسم السحر « حكا »^(٢) . ولذا فإن الكا قد يرمز للقوى الغريزية للعقل الباطن . ومما يؤيد ذلك أن « البا » في هذه القصة كانت تغرى اليائس بالحياة ، وتبث فيه الأمل . وتمنيه بالسعادة ، وتحذره من عواقب الطيش ، ومن غضب الإله إذا ما انتحر . فكانت تمثل « البرسونا » . وربما تضمنت جزءاً من الأنا العليا المعروف بـ Super Ego . كما أن « الكا » في عنقه وبطشه واستهتاره يمثّل جانباً

(١) من المدهش أن الثور الذي يرمز لحورس في مصر القديمة كثير الشبه بالفصيلة البقرية التي تستعمل اليوم في أسبانيا لأغراض المصارعة ، والتي تمتاز بالضراوة والشراسة ، وهم يرجعونها إلى أصول أفريقية Taurus Africanus

(٢) وحرف الحاء في اللغة المصرية القديمة يكتب على هيئة جبل فيه ثلاث عقد ولذا فإن « حكا » أى السحر معناها قوة العقد وصلة السحر بالجبل والعقد « والربط » معروفة .

من نزوات « الاد » Id أى العقل اللاشعورى . هذه القصة من أروع ما يقرأ .
وهى تدل رغم بساطتها على عمق التأمل الفطرى فى تلك العصور السحيقة .
وقال حنين بن إسحق فى تاريخه (نقلا عن ابن النديم فى مقالته السابعة فى ابتداء
الطب فى كتاب الفهرست) قال إن قوماً قالوا إن أهل مصر استخرجوا الطب ،
والسبب فى ذلك أن امرأة كانت بمصر ، وكانت شديدة الحزن والهم ، مبتلاة بالغىظ ،
والدرد ، ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة ، وصدرها مملوءاً أخلاطاً رديئة ، وكان حيضها
محتبسا ، فاتفق أن أكلت « الراسن » شهوة منها له فذهب عنها جميع ما كان بها .
ورجعت إليها صحتها وجميع من كان به شىء مما كان بها استعمله فبرأ . واستعمل
الناس التجربة على سائر الأوجاع . وأهمية هذه القصة ، التى لا تخلو من خرافة ،
تنحصر فى أنها أول قصة وصلتنا سجّلت سيرة المرض (هكذا قال حنين) . والمريضة
ينطبق مرضها على وصف المالنخولية ، كذلك لأن استعمالها « للراسن » وله خصائص
التفريح فى أمراض الكآبة- ذكره ابن البيطار فى كتابه- أذهب جميع ما بها . وأخيراً
فإن هذا النص يشير إلى بداية التجربة فى الطب . ونقول ، على سبيل الاستطراد ،
إن حنين بن إسحاق شيخ تراجمة القرن الثالث الهجرى ، كان يرى قيام الطب فجأة .
وهذا بلا شك رأى له ما يبرره فى ذلك الزمن ، لأن المجتمع لم يتبين بعد حقيقته وكنهه
وبقيت كذلك إلى حين عصر ابن خلدون . ولهذا النقطة أهمية عملية . لأن وسائل
العلاج ، وخاصة فى الصحة العقلية ، بدأت تقوم على أساس المجتمع . والطابع الجماعى
يُميز العلاج الدينى وأساليب السحر منذ أقدم عصور التاريخ . أما فى الطب ، فلم تبرز
أهمية المجتمع ، ولم تستغل عملياً لغرض العلاج ، والتأهيل ، إلا منذ عهد قريب .
وقد مهد لذلك انحلال النظام الطبقي التقليدى وقيام « الطبقات الوسطى » الذى كان
نتيجة حتمية لانتشار الفلسفة الاشتراكية .

وكان الطب (والصحة العقلية ضمناً) فرعاً من فروع الدين . وهنا لا بد من
إيضاح ، وهو أننا عندما نقول « الدين » . يجب ألا يتبادر إلى الذهن جُلُوهذا المعنى

من وسائل أخرى تمت إلى السحر وإلى الوسائل التجريبية الطبية ، لأن الإشارة تقتصر بالضرورة إلى الطابع الغالب. على أننا لازلنا إلى اليوم نجد اتصالا وثيقا متبادلا بين الطب « وبين الدين والسحر » كما أن الدين مازال يستخدم في وسائله بعض الطب وبعض الوسائل الغيبية ، وكذا نجد السحر متصل وظيفته اتصالا وثيقا بالعلاج وبمظاهر العقيدة الدينية . وقد ذكر اسحق بن عمران ، الذي عاش بالقيروان في القرن التاسع الهجري خلال حكم الأغالبة ، في مؤلفه المعروف بـ « المالنخوليه » (داء السوداء) أن بعضا ممن اختاروا المقام داخل الأربطة والزوايا والتكايا واستأثروا بالوحدة وانفردوا طلبا للتأمل والعبادة ، كانوا سوداويين في الأصل والواقع يؤكد ذلك. والحقيقة أن بعض الأمراض قد تختفي طبيعتها المرضية تحت ستار بعض الظواهر الاجتماعية وقد لا يستطيع الباحث إدراك حقيقتها الأصلية إذا كان اتجاهه شكليا (يبحث عن العرض دون الجوهر) وقد أدركت مما سمعته من الباحثة Dr. Fields عند لقائي بها في الكونغرس عام ١٩٥٧ كيف أن بعض أنواع المالنخوليه ظلت مستترة تحت مظاهر السحر Witchcraft أمدا طويلا .

وقد عرف الكهنة في مصر القديمة الكثير من القيم النفسية في العلاج وأدركوا مدى الطاقة السيكولوجية الكامنة في العقار فضلا عن قوته الطبيعية . وكانوا يرددون الأناشيد التي تدخل الطمأنينة على النفس وتقوى العزم قبل مباشرة العلاج ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن عملية العلاج الناجحة تعتمد في وظيفتها على انتهاء الفرص الحاسمة ، لا على التطبيق على أساس عشوائي دون اعتبار لظرف الزمان ولصلة ذلك كله بنفسية المريض . ومن ضمن هذه الأناشيد ما جاء في بردية أبر Eber (ترجمة إبل Ebell إلى الإنجليزية) : لقد أتيت من مدينة الشمس ومعى شيوخ المعبد المالكون للشفاء والواهبون للأبدية ، أتيت من صايص في ركاب الأم المنجبة للآلهة الذين منحوني حماهم ، أتيت وفي حقيقتي وصفات من الإله الأكبر تشفى من كل داء عضال أرادته الآلهة

أو الآلهات وتق من كل سوء سببته أرواح الموتى . وبلاغة هذه الانشودة وأثرها
السيكولوجى فى النفس لا يحتاج لتدليل .

ونستخلص مما تقدم أنهم كانوا يعتقدون أن المرض ينشأ إيمان غضب الآلهة أو
من تأثير أرواح الموتى ومن الشاهد ان الفكرة الشيطانية Demonology لم تنبعث
فى مصر إلى عصور متأخرة ولم تكن ذات أهمية واسعة لأن اعتقاداتهم فيما يتعلق
بأرواح الموتى قد فسرت كل شيء ، وبالتالي أغنتهم عن تلمس نظريات تفسر لهم ما
هم فى حاجة لتفسيره .

ولهذه النظرية آثار اجتماعية بعيدة المدى ، نذكر على سبيل المثال الطقوس
الجنائزية التى كان من بعض أغراضها حماية الأحياء ، والتى نشأت نتيجة للرغبة القوية
التي تثيرها أرواح الموتى ، لدرجة أنهم نقلوا مقابر موتاهم عبر النيل إلى الضفة الغربية .
وكانت أسس العلاج على صلة وثيقة بهذه النظرية التى تبين « الأسباب للمرض » ولذا
اتجه العلاج اتجاهها روحانيا يقوم على مبدأ حيوية المادة Animism . هذه الرابطة بين
نظرية المرض وبين صفة العلاج لها أهمية كبرى لأننا نجد دواما وفى كل عصور
التاريخ ، فيما بعد ، أن سببية المرض تكيف طبيعة العلاج . وأكرر أن هذه الصلة
صلة أساسية للغاية . وعندما نعلم النظر فى أوراق البردى الطبية نجد أن الكاهن
كان المستنبط لسببية المرض ، وكان المؤلف لأسلوب العلاج على السواء ، كذلك نجد
أن بعض الظواهر النفسية المرضية المتولفة الأعراض : Symptom Complexes ،
التي تظهر لما ثم تختفى ، كانت واسعة الانتشار كاتششار المستيريا اليوم وفى هذه
الحالات نجد أدلة لا يتطرق إليها الشك ، أن الكهنة كانوا يتمتعون بكفاية وجدارة فى
علاجها ومن العجيب أن حالات المستيريا اليوم بين بعض طبقات المرضى لا تكاد
تختلف فى تعبيرها عما كانت عليه منذ آلاف السنين ، كذلك نجد أن توليف هذه
الأعراض وقيامها كان من وحى هؤلاء الكهنة وإنشائهم ويمكننا القول تلخيصا لما
سبق أن نظرية المرض لها أهمية فى تكيف العلاج وتقرير طبيعته ، وسوف نرى أن

لهذه النظريات أثرا لا ينحصر في العلاج فقط بل في نشوب المرض أيضا لأن لها حدين كالسيف ورغم ذلك فقيام النظريات أمر ضروري من العسير رفضه ويكفي أن جاليليو في كتابه المسمى « بالحوار » عندما وضع الأسس التجريبية للبحث العلمى بدأ بالنظريات ثم مهد عن طريقها للوصول إلى النتائج ، فصار ذلك دستورا للمنهج العلمى فى الأبحاث ونجد أن التعبير اليونانى latrogeny الذى يتضمن معناه أن الطبيب قد يصبح أداة لا شعورية لبث المرض عن طريق قوة إيمائه اللاشعورى ، نجد أن هذا يعكس حقيقة واقعة وقد استطعنا فى دراسة قمت بها وزميلي الدكتور طه بعشر بالخرطوم استطعنا أن نعثر بين بعض « مدمنى شكوى المرض » المعروفين بالـ Hypochondriacs ، استطعنا أن نعثر بينهم على طبقات متراكمة من الأعراض لها نشوء تاريخى فى طوبوغرافية المرض ، أمكننا تتبع بدئها ونشأتها واستطعنا كذلك إرجاع هذه الطبقات المرضية إلى بواعث تمت إلى نظم المعالجة ، وإلى انطباعات لها صلة بفلسفة الطبيب الداوى ، وإلى اتجاهاته المهنية والعامة ، وهذه أمثلة لقوى إيجاء الآراء والأفكار Potency of ideas وهى ظاهرة لم تدرك قوتها على حقيقتها بعد بيننا معشر الأطباء لأن فلسفة التعليم الطبى لا تزال تقوم على توطيد الفكرة المادية دون إبراز أثر المجتمع فى الصحة والمرض ، ولعل بعض الأمثلة فى هذا الصدد توضح ما نحن بصددده فقد كنا نعتقد إلى عهد قريب ، بل نغالى فى اعتقادنا ، بأن العادة السرية قد تؤدى إلى أضرار جسيمة بالصحة وتنتج عن هذا الاعتقاد الخاطيء أن كثيرا من المراهقين قد دفعهم الخوف من عاقبة ممارستهم لهذه العادة إلى برأثن الوهم والمرض ، ولكن بعد تبين افتراء هذه النظرية التى قامت على أساس « دوافع خلقية » بعد أن تبين لهم ذلك نتيجة للأبحاث التى نشرها كينزى Kinzy ، لم نعد نرى منهم إلا العدد القليل ، وانتشار الوهم بالسرطان بين الماكفين على التدخين على نطاق متزايد دليل جديد على أثر الإيجاء . ونتيجة لهذا ولما سوف يجيء تاليا ، يمكننا القول بأن « القوة الفعالة » فى حدوث المرض النفسى قد تقوم على أسباب تتصل بقوة الفكرة

وإيجائها دون تدخل أى عامل يمكن تفسيره عضويا . وإذا كانت هذه طبيعة المرض فما هى طبيعة العلاج النفسى ؟ ما كنهه وما أصوله ؟ هل تقوم كفايته على حقائق نستطيع تحليلها عن طريق العلم ؟ هل هو ظاهرة تخضع لأصول اجتماعية ؟ هل له صفة علمية مقررّة لازمة لنجاحه ؟ هل من المحتم أن نجد التعليل العلمى المنطقى لكل نتيجة ؟ وهل فى ذلك ضرورة للإقناع ؟ هل ينبغى أن تكون نظرتنا لكل شىء علمية بحتة لا أكثر ولا أقل ؟ إن هذه الأسئلة تُكوّن مشكلة كبرى إذ أننا نستطيع أن نجزم بأن العلاج النفسى الناجع استطاع أن يقوم به فى كل حقبة التاريخ رجال الدين ، وقام به السحرة والمدعون والتجرون والمخرقون والبلهاء وغير العقلاء فضلا عن الأطباء ، وذلك لا يحتاج برهانه إلى أدلة تاريخية لأننا لا نزال نشاهده اليوم بيننا دون أن يكون فى ذلك تحقير لشأن العلم لأن العلم أداة نافعة من أراد استعمالها حملها . ويمكننا أن نمثل المرضى من الناحية الاجتماعية فى قطاع يتألف من طبقات تمثل درجات متفاوتة من التطور الاجتماعى كما هو الحال فى واقع المجتمع اليوم ، يقابلها نظم من العلاج تمثل أطوارا من تجارب المجتمع فى تاريخه كله ، وتلائم كل منها ، اجتماعيا وثقافيا ، مع طبقة من المجتمع تماثلها من الناحية التطورية . ورغم أن هذا وصف تقريبي فإننا نجسده حقا . مثال ذلك أن الطبيب الماهر المتخصص فى العلاج النفسى قد لا يستطيع أن يشفى مريضة قد يشفيها النبال أو عابر السبيل^(١) مثلا . وهذا يذكرنا بالكلمة البليغة التى قالها أدولف ماير « إذا ما اتفق الطبيب والريض على كنه المرض وسببه بدأ التحسن فورا قبل مباشرة العلاج » . على ضوء هذه الحقائق يمكن القول بأن طبيعة العلاج النفسى وفعاليتها لا تقوم على مبادئ ثابتة لها قوانين تخضع للأساليب العلمية النوعية ، ولكن ربما تقوم أركانها وطبيعته على مايل :

(١) ليست هذه دعوة للنكوص ولكن لابد من فهم الأمور على حقيقتها . ومعنى أن « الجاهل لأصول المهنة » قد يزيل مرضا لا يعنى بالتالى صلاحيته لممارسة المهنة لأن القدرة على الإشعار مهما كانت وسائلها لا تنفى وحدها بالاشتراطات التى تحمى المجتمع : ولو طبقت مثل هذه القاعدة لاختلت النظم المهنية وحلت الفوضى فى كل مكان .

أولاً - قيام نظرية توضح سببية المرض يشر بها الطبيب ، ويقبلها المريض والمجتمع ثم قيام نظرية علاجية تحمل في مضمونها نظرية السببية . ويمكننا حصر هذا في ظاهرة واحدة هي قوة إيجاء الأفكار أى أثر الآراء المحكمة ذات الطابع التقليدى التى عبر عنها اسباينوزا Spinoza « بالآراء السديدة » Adequate Ideas . وعلى هذا ندرك لماذا كانت وما زالت تنجح أساليب العلم ووسائل الدين وطرق السحر والدجل . ولماذا نجد أمثلة لمعجزات كبرى فى بطون التاريخ . كذلك ندرك لماذا تنجح على السواء طرق فرويد وادلر ويونج رغم تباينها فى الوسائل بين شيعتهم . وقد ذكر « تانزى » Tanzi العالم الإيطالى فى صدد وصفه للبرانويا (ذهان التعاظم) فى القرن الماضى ، كيف أن بعضاً من هؤلاء المرضى ، فضلا عن ادعائهم للنبوات والألوهية ، قد حققوا معجزات صادقة فى العلاج . وكيف أن بعضهم قد قامت نبوته أصلا على معجزاته فى العلاج . وعلى هذا فليس هناك حاجة ماسة للبحث فى جدلنا عن أصول أولية أو نهايات أزلية للعلاج النفسى . ومما يزيد ذلك توكيدا أننا وجدنا فى جنوب هذا الوادى أن بعضاً من المصابين بالقلق وغيره من الاضطرابات النفسية قد ينتكسون عند ما يصبح فيضان نهر النيل وشيكا . وهذه حقيقة معروفة أصبحت مضرب الأمثال . وقد قت بتقصى هذه الظاهرة التى أثبتت تجاربنا صحتها ولم نجد تعليلا لها يقوم على طبيعة من المرض أو على احتمال يمت إلى أسباب ترتبط بعوامل أخرى ، واستبان فى النهاية أن هؤلاء المتكسين يمانون من الخوف من النكسة عند ما يصبح الفيضان وشيكا لاعتقادهم فى خرافات قديمة . وجلية الأمر أن هذا الخوف من الانتكاس قد يصبح سببا للانتكاس . ولا غرابة فى ذلك لأن النيل - حعب - إله . ولا تزال بعض طقوس عبادته القوية متفشية بيننا . وليس من شك أنه من أقدم آلهة وادى النيل ونجد طابع القدم فى الأناشيد التى تشير إلى منبعه من « كرتاى » وهى مدينة كورتى الحالية بشمال السودان . وهذا مما يطابق وصف الجيولوجيين لنهر النيل القديم Protonile قبل اتصاله ببحيرة السد التى كانت قديما تنتهى فى « السبلوقة » شمال الخرطوم . وهناك طقوس عديدة يتقربون بها إليه ، لا جلبا لنعمته ولكن دفعا لنقمته ،

لا تزال لها قوة سيكولوجية . وكان النيل يمثل في شخص رجل له ثديان Gynecomast ،
يرمز ان إلى نعمته وإخصابه . ورغم هذا فإنهم كانوا يتقربون إليه بإلقاء كعب حسناء .
يحتضنها بين أمواجه . وكان يوصف النيل بأنه « أب للآلهة » . وأنه « خالق لكل
شيء » . ويرجعون أصله إلى المستنقع الأزلي « نو » الذي تم فيه خلق « رع » كبير
الآلهة . وذكر ماسبيرو أن رع بعد خلقه للكون قام بخلق المصريين ثم الليبيين
من بعدهم ، وبعد أن فرغ من ذلك لم يجد ما يكفيه لخلق بشر جديد فاستمنى الإله
الأكبر وخلق السودانيين ، فالسودانيون من نسل الآلهة . وتجب الإشارة إلى أهمية
الطقوس المتصلة بالنيل في الزار . وفي مخطوط معزو إلى الإمام جلال الدين السيوطي .
يسمى « مجموع الكواكب البهية في نيل مصر الزهية » نجد خارطة تشبه ملاحظاتها .
ما تخيله الجيولوجيون قديما كبخيرة السد . والقوة السيكلوجية لهذا النهر الخالد
في نفوس أبنائه لا يزال لها بالغ الأثر . وربما تفسر لنا صعوبة المشاكل التي ترتبت على
مياه النيل من الناحية الدولية والتي كان الوصول إلى حل لها معجزة .

ونسوق أمثلة أخرى لقوة الوهم في نشوء المرض وفي علاجه أيضا . ففي دراسة
مقارنة قننا بها لبحث العوامل الاجتماعية العامة لمعرفة مدى إسهامها في خلق المشاكل
والاضطرابات التي تصاحب معاقررة الخمر وإدمانها ، مستثنين حالات الإدمان المرضي .
التي تقوم على عوامل نفسية واضحة المعالم بالنسبة للمدمن ذاته ، أمكن في النهاية
وضع النتائج في قطاع منحدر الوظيفة يمثل أبعاداً ثلاثة من الشرب تختلف اختلافاً
ظاهراً في مدى الآثار المترتبة على الشراب .

البعد الأول - يمثل الشرب بين بعض القبائل الإفريقية ، حيث يعتبر أن المشروب .
الكحولى غذاء أساسى ويمارس فعلا على أساس ذلك ، وحيث نجد أن الشراب في بعض
أوجهه وظيفة اجتماعية جماعية لها شعائر وطقوس وإلزام . وقد وجدنا أن هذا النوع
من الشرب لا يؤدي إلى مضاعفات على الإطلاق ، رغم أنه من الاستطاعة أن نجد بين
هؤلاء من يبلغ إفراطه حداً يمكن اعتباره إدمانا حقيقيا ، ولكن حتى هؤلاء لا نجدهم

يعانون آثارا نفسية شديدة بالنسبة لما يعانیه مدمنو الشراب في المجتمعات الأخرى ،
لأن النظام الاجتماعي يقر أو يحتمل الكثير من أنواع هذا الشذوذ، بل لأن الدم
لا يحس، ولا المجتمع كذلك يحس بأن الإدمان رذيلة اجتماعية ضارة فالخمر غذاء نافع .
وقد دفعتنا الضرورة لتبسيط هذه المسألة ولكن رغم ذلك فهي تمثل الحقيقة الواقعة .
وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن الذين لا يعاقرونها على الإطلاق في تلك المجتمعات
ربما يكون بعضهم من طبقات الشواذ ، وتوضيحا لذلك أعيد ملاحظة سبق نشرها في
بحث آخر ، وهي أننا وجدنا في السودان وبين قبائل البدو الرحل خاصة أن الطفل الذي
يسرق من داخل داره يغلب أن يكون مجرما أكثر من الطفل الذي يسرق خارج
داره . لأن السرقة خارج الدار من رواسب العادات القبلية التي كانت تمجد هذا الصنيع
من الناحية الاجتماعية في الماضي ، ولكن السرقة من الدار كانت فسادا خلقيا وهذا
ما لا ينطق على المجتمعات ذات الذاتية الجغرافية . ودراسة الصعاليك والصعلكة عند
العرب قد تساعد على فهم طبيعة هذه المشكلة . هذا والطفل الذي يسرق خارج الدار
يعيد في تاريخه القصير تاريخ قبيلته الطويل كما يقول الببدأ البيولوجي المشهور
Ontogeny Repeats Phylogeny وقديما كان الشاب الذي لا يجروء على قطع
الطريق يعد خائرا الشكيمة ولا يجسر على مخالطة الفتيات في قبيلته - والطفل الذي لا
يسرق في تلك المجتمعات لا يتمتع بالعوامل النفسية التي تسهم في تكامله تكاملا تاما
حسب المقياس القبلي للصحة العقلية . وعودا على بدء ، نقول إن الذي لا يشرب في تلك
المجتمعات الإفريقية هو الشاذ .

والطرف الآخر لدراسة الخمر يمثل شرب الخفاء . يمثل الذين يعاقرونها سرا في
المجتمعات التي تحرمها أديانها وتقاليدها والتي لا يزال الحكم الأخلاقي فيها قائما على
أسس دينية - ففي السودان مثلا - حصلنا على أمثلة من هذا النوع . ومما أدهشنا أن
المضاعفات السيكولوجية التي تلازمها لا يمكن تفسيرها من حيث حديثها إلا على أساس
ظاهرة اجتماعية . ومن العجيب أن فرض إجهار الشرب لا مندوحة منه في هذه

الحالات لكي ينجع العلاج ، وتلازم أكثر هذه الحالات شكاوى وأعراض تشبه الأعراض التي نراها بين مدمني المرض Hypochondriasis . وبعض هؤلاء المدمنين قد ينجون من إدمان الشراب باللجوء إلى « التدين » حتى يصبحوا مدمنين بالفعل ، وطابع تدينهم ينحصر في العبادات لا المعاملات ، وهؤلاء يدفعون ثمناباهظا للنجاة من براثن الخمر وبعضهم يلجأ لإدمان المخدرات ، لأنهم في تدينهم قد يحددون أنفسهم بتشككهم في تحريم المخدر لعدم وجود النصوص الصريحة . والتحول من إدمان إلى إدمان ظاهرة طبيعية نسبة إلى قيام هذه الظواهر جميعها على أساس سيكولوجي واحد . وقد يحل بعض أنواع الإدمان مشكلة أكبر من طبيعته ، كما وجدنا في التدخين ؛ وقد يوقع الإقلاع من إدمان إلى نوع من الإدمان أشد أثرا ، كما وجدنا في بعض أنواع القمار . وفي حالات قليلة قد يكون إدمان الخمر علاجاً لمشكلة أشد خطراً . وقد يكون محاولة يائسة للاحتفاظ بالبقية الباقية من أتران العقل . والمشاكل الاجتماعية التي تدمن ويستمضى حلها تقود إلى الخمر مثلاً . وقد ذكر لين أن انتشار الدخان قد خفف من استعمال الناس للمسكرات . وقد وجدنا أن بعض هؤلاء الذين يشربون في الخفاء والذين لم تنجح فيهم أنواع العلاج التقليدي ، وجدنا أن بعضهم قد أطلع أثر تجربة دينية عميقة صادقة - ولدينا ثلاثة حوادث شفى أصحابها بعد قيامهم بشعائر الحج . والمعروف الآن أن علاج إدمان الخمر قد ينجع فيه العلاج بالأساليب الجماعية التي يقوم بها المصابون أنفسهم ممن أفلحوا عن الخمر . وتاريخ الحركة التي ظهرت في أمريكا تحت اسم Alcoholic Anonymous وتنتائجها التي تفوقت فيها على نتائج العلاج الطبي ، خير دليل على ذلك . أما النوع الثالث فهو الشراب الاجتماعي الذي نراه متفشياً في المجتمعات الغربية الذي لا يحرمه الدين ولا ينكره المجتمع مادام في حدود الاعتدال . ولكن نسبة لعوامل كثيرة ، نشأت في هذا العصر الآلى دفعت إلى تغيير نظام المجتمع ، أصبح الشراب مشكلة كبرى بالنسبة للعمل ولعامل الوقت وبالنسبة لازدحام الحياة ولشاكل المرور - ولذا أصبح مشكلة طابعها اجتماعي أكثر منه فردى . ونجد أن

مشاكل الخمر السيكولوجية في هذه المجتمعات قد زادت بالفعل مع زيادة المشاكل الاجتماعية للشارب وخاصة بالنسبة لقيادة السيارات . في هذه الأبعاد الثلاثة ، نجد أن مدى الأعراض يختلف باختلاف الموقف الاجتماعي الذي يُكوّنُ عاملاً مهماً في نشوئها وحدتها . ومن تجارب أمريكا قبل إلغاء الحظر على المسكرات ، نجد أنه بالرغم من أن الإدمان قليل فإن التسمم الحاد كان أكثر انتشاراً لأن الشارب ينتهز مثل هذه الفرص ليرضى نزعته المحرومة . وقد وجدنا أن هذه الوظيفة الانحدارية Gradient Function قد تساعدنا على فهم مشاكل المخدرات أيضاً وعلى تحديد الآثار السيكولوجية المترتبة على موقف المجتمع من المدمن . ففي الحشيش مثلاً تتوفر الأدلة لدينا أنه كلما ازدادت صرامة العقوبة والتأديب كلما ازدادت حدة المشاكل النفسية بين العاكفين عليه . ولربما كان للعامل الاقتصادي (ارتفاع الأسعار) بين الطبقات المحدودة الدخل أثر ثانوي . وفي بعض الجهات الاستوائية حيث يزرع الحشيش وحيث ينتشر استعماله وحيث لا نجد مشاكل اجتماعية بصدده نرى أن أضرار الإفراط قليلة جداً . ثم في بعض جهات الشرق الأوسط ، حيث تنتشر نسبياً عادة تدخينه وحيث تكون العقوبة معتدلة ، نجد أن الأضرار السيكولوجية أخف بكثير مما نراه في البلدان التي يتخذ القانون فيها مواقف أشد صرامة - والحقائق التاريخية تؤيد ذلك . وقد ذكر « بل » Bell صياد الفيلة المشهور في كتابه Wanderings of an Explant Hunter أنه في إحدى جولاته قبل الحرب العالمية الأولى للصيد في جهات بحيرة رودلف انقطع مورده من الدخان ، فطلب من رئيس قبيلة أن يمدّه بالدخان الذي يستعملونه ، ولما أمدوه بالدخان أعجب به كثيراً وذكر أنه استعمله سبعة أشهر ووصفه بأنه أحسن دخان استمتع به . ولكنه قال إن له تأثيراً يشبه تأثير العقار . ولم يكن يجول بخاطرهم أبداً أنه كان يدخن الحشيش طول إقامته هناك ولو علم ذلك حتى بعد الانتهاء منه فليس لدينا من الشك من أن هذا الإدراك قد يؤدي إلى وهم ربما نشأت عنه مخاوف قد تصل إلى حدود المرض . ولكن « بل » كان يتمتع بشخصية ناضجة متكاملة .

زد على ذلك أن كتابه لا يفصح عن السجایا الخفية للاستعداد للإدمان وهي في أقل مراتبها تتمثل في النمط الروتيني في السلوك وفي النزوع إلى التكرار ، وفي ضيق الهوايات وغيرها . وأخيراً فإن طابع الإدمان يتنافى مع حياة الرحالين النشطة . ويمكننا إنصافاً لأنفسنا معشر البشر الكادحين ، أن نقول إن حاجتنا إلى المنبه أصبحت كحاجتنا للضروريات في الحياة سواء كان من الشاي أو القهوة أو الدخان أو غيرها . واختيار المنبه يقوم على عوامل جغرافية أو سيكولوجية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عشوائية في بعض الأحيان . على أن طبيعة الشعوب ، وخاصة فيما يتعلق بالمخدرات ، لها وزن وأهمية . فقد يصلح الأفيون مثلاً لشعب له طابع فكري خاص . ولذا قد لا ينتشر على مدى واسع رغم توفر الظروف الحسنة . كما قد ينتشر مخدر آخر ، ولهذا فلا مندوحة من القول أن للحشيش طابعا عقليا خاصا وللأفيون كذلك وللقات أيضا ولغيره ، كما أن بعض الشعوب قد لا تكون بطبيعتها وتجاربها المكتسبة عرضة للإدمان . وهذا ما لا يمكن تحليله في حدود ضيقة على أساس البنية فحسب لأن الإدمان كظاهرة سيكولوجية لها أصول متعددة يرتبط بعضها ببعض . ولربما تسعفنا فكرة التاريخ فنجد مثلاً أن بعض شعوب الشرق القديم الضارين في البحار المتجشمين الأخطار في سبيل التجارة قد لا يحتمل أن تكون عرضة للإدمان ، ولكن ربما تستهويها فكرة الاتجار فيها . كذلك نجد أن بعض الشعوب في كفاحها الطويل وفي اجتراحها لآلامها ، قد تعثر فجأة على عقار مستجلب قد تلجأ إليه في بحثها عن سعادة وهمية . وهنا يكمن الخطر . ولدينا من الأدلة ما يؤيد أن تدخين الحشيش كان منتشراً على مدى واسع في عام ٩٢٤ هـ كما ذكر بن إلياس في « بدائع الزهور في وقائع الدهور » . كذلك نجد إشارات عديدة إلى تحريمه في فتاوى ابن تيمية (توفي عام ٦١٧ هـ في قلعة دمشق) والزر كشي والناوى وغيره من رجال الأزهر الشريف ؛ وقد أشار لين Lane إلى أن عادة الأفيون قد لا تتفق تماماً مع طبائع بعض الشعوب وأشار الدكتور كلوت بك إلى أن الحشيش منتشر بين بعض طبقات الشعب وخاصة التي تزرع تحت

ظل الفقر والفاقة وقال أن الأفيون كان نادرا استعماله بين هذه الطبقات ولكنه كان شائعا بين الحكام الأجانب في ذلك الوقت « الذين يميلون إلى التخدير به وهو في الحقيقة أليق بهم بالنظر إلى ما فطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل » أما الحشيش فأميل إليه من جبل على حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل إلى كل مدهش أو مستغرب ، وهذا صحيح لأن الفرد يبحث في المخدر عما يلائم سجاياه وعن نوع من التجربة تتفق مع أغراض نواذعه وميوله . ومن الصعب أن نفسر فعل العقار على أساس الأثر الظاهر من سلوك العاكف عليه ولكن هناك اتجاهات سلوكية عامة تميز فعل العقاقير المختلفة تبديها القصة المعروفة عن الثلاثة (صاحب الخمر وصاحب الحشيش وصاحب الأفيون) الذين أرادوا دخول اصفهان ليلا وكانت أبوابها مغلقة قال صاحب الخمر لنحطم الباب ولندخل عنوة . وقال صاحب الأفيون لنضطجع إلى أن يصبح الصباح وتفتح الأبواب . وقال صاحب الحشيش لندخل من خرم الباب^(١)

وربما يمدنا تاريخ دخول القهوة إلى مصر وكذلك دخول التبغ عن معلومات نافعة في هذا الصدر ، وخاصة في بعض قصص الباهلة بين الشيخ على الأجهوري والشيخ إبراهيم اللقاني ، والتي وصل صداها إلى السودان في ذلك الحين (قرب نهاية القرن العاشر الهجري) وأسهم فيها الشيخ أدريس بن الأرباب المتصوف السوداني المشهور ووقف إلى جانب الشيخ على الأجهوري مؤيدا وجهة نظره وكانت بينهما مراسلات ودية أشار إليها المؤرخ السوداني ابن ضيف الله المتوفى أوائل القرن الهجري الماضي . وهي تؤكد ما قاله الإسحاق في تاريخه من أن التبغ بدأ ينتشر استعماله في العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري . وقد ترك العالم المصري محمد قناوي في أواخر القرن الهجري الماضي رسالة في أضرار القهوة والدخان والحشيش

(١) نوجه الأنظار إلى الدراسات القيمة عن مشكلة المخدرات التي قام بها صديقنا العلامة

« نصيحة الإخوان في اجتناب القهوة والدخان » وتحدث في رسالة أخرى عن القات. « شاي العرب » وبالرغم من هذا فيجب إدراك أن الشعوب في حركة دائبة من التطور ، وأن العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية لا تخلو من تبديل. نفسية الشعب وتغير أوضاعها التي يقوم عليها الإدمان وغيرها من المشاكل وقد أدى ذلك بالفعل في بعض بلاد الشرق الأقصى إلى انتشار أنواع جديدة من العقار المخدر المستنبط عن طريق التوليف الكيماوي Synthesis مما كان له أثر في خلق مشاكل خطيرة بين طبقات المراهقين من الشباب على الأخص وهذه ناحية تنبغى دراستها والعناية باتخاذ سبل الوقاية منها في هذا الإقليم لأن بعض هذه العقاقير قد تغنى عن الحشيش بفرض نوع من الإدمان أشد خطرا من الناحية الصحية والاقتصادية. وقد أدركنا أن النفوس البشرية ، وخاصة في صلاتها الجماعية ، لا يمكن وضع حدود لإمكاناتها الخارقة وهذا ما حدا إلى قيام العلاقات الجماعية العلاجية في الصحة العقلية. وقد علمتنا تجاربنا أن للنفس البشرية طاقة لا حدود لها إذا استطاع الطبيب أن يدرکها وأن يلتمسها في العلاج . وكثيرا ما اختفت الأعراض واضمحلت الداء في سر كأن لم يكن. كذلك للكثير منا ملكات يمكن تسخيرها للعلاج، نحن أقل الناس دراية بها وإدراكا لقيمتها ولربما يموت الكثيرون دون إدراك ملكاتهم العظيمة الأخرى . وتقول بحكمة أدلنى : اعرف نفسك : ومعرفة النفس أساس لكل أنواع المعرفة وتجد أن في فترات الثورات من تاريخ الشعوب يستطيع القادة النابهون خلق المعجزات ، لأن الطاقة البشرية تهب من أعماق النفوس ويتجاوب صداها في ظل القيادة الرشيدة ونستطيع أن ندرك ذلك من طبيعة سيكولوجية الجماعات الثورية. وفي الثورات نجد أصلح الأزمنة لوضع الأسس الجديدة لكل شيء وخاصة للصحة العقلية. التي - نسبة لمضمونها - ربما لا تقوم تشعباتها الاجتماعية في فترات الهدوء والكساد لأن البناء قد يضطر للهدم . وهنالك سؤال لا بد منه لكل عامل في حقل الصحة العقلية العامة : مثلا عندما كنت في خدمة مواطني في جنوب هذا الوادي

كنت أسائل نفسي دواما كيف وعلى أى وضع يقوم مجتمعنا؟ لأن فى قيامه ضرورة لقيام الصحة ، لأن الصحة تنبع أصولها من المجتمع ويتطور جوهرها معه تحت ظل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دون أن تفقد نواتها الأولى . ثم إن الصحة العقلية فى أى بلد لا تقوم إلا على أساس حضارته وماضيه وتجاربته وتاريخه وكفاحه وآلامه وآماله ، والصحة العقلية فى الغرب تقوم على أسس تختلف فى جوهرها ، وهذا طبيعى لأن الناس يختلفون فى كل شىء حتى فى القيم والمبادئ ، دع عنك البيئة . وتبعاً لذلك فإن الصحة العقلية لن تقوم لها مقومات إلا على أساس مجتمع عربى فى كل بلد عربى . وفى هذه الناحية يجب أن أقول إن الخدمات التى تسديها الهيئات الدولية لها مغزى كبير لأنها فى عملها فى حقل الصحة قد تخلق الروابط والأهداف الموحدة بين بلاد الإقليم التى تساهم حتماً فى وحدة المجتمع بين أقطاره . وتتطرق الآن إلى الحديث عن السحر . نجد أن الطب فى بابل أضحى فرما من فروع السحر [وسحر بابل مازال مضرب الأمثال] ولا بد من الإيماء إلى أن صنوف الكهانة والعرافة وأساليب السحر لها أهمية بالغة لأنها كانت طليعة الطب النفسى ، ولأن آثارها العلاجية لها أصول سيكولوجية محققة يستطيع التأمل أن يتبين فيها النواة الأولى للتحليل النفسى والمسرح العلاجى وصنوف الإثارة والتفريغ Abreaction . ولصلة السحر كذلك بالعقاير نسبة إلى أن ظواهر السحر فى بعض مظاهرها تشبه ظواهر وأعراض بعض العقاقير ، ولأن السحرة كانوا بالفعل يستعملون الأدوية فى سحرهم وخاصة المخدر منها كالحشيش والمسكالين Mescaline والأثروبين . ومن بين ما استعمل فى السحر أدوية اتضح للعلم قيمتها العلاجية . كذلك كان لإلمام السحرة بنفسية الجماعة الفضل فى استغلال الموسيقى والحركات الإيقاعية من فروسية ورقص وغيرها من الحركات المضطربة التى تشبه نوبات الصرع لقصد العلاج ، وجميعها وسائل لإفراق فى جوهرها بينها وبين ما تمارسه اليوم سوى اختلاف الأساليب والطرائق والنظريات . والأثر السيكلونجى للسحر قوى نافذ فيمن يؤمنون به وقد لمست

من مشاهداتي نفاذه وقدرته على قلب الأحوال النفسية بين طبقات خاصة . وقد وصلت إلينا حالات من التهيجات العنيفة نتيجة لاستعمال خواتيم السحر المستقاة من شمس الأنوار^١ للتلسماني ومن شمس المعارف الكبرى للبوني - وكان المصابون في حالات من الهياج والعنف واضمحلال الوعي نتيجة للخوف مما يشبه ما وصفه «ميرا» Mira في كتابه عن الخوف الذي جمع فيه تجاربه خلال الحرب الأهلية بأسبانيا ، ولا غرو في الحروب الأهلية نجد أن الصلات العميقة بين المحاربين قد تؤثر في مفهوم الشجاعة والجن والنصر والهزيمة مما يجعل الأمر مختلفا عما هو مشاهد في الحروب العالمية . ومن المهم أن نقول إنه قد وجدنا في السحر بعض الأفكار التي تنبع أصولها من العقل الباطن مباشرة وفي وضوح تام دون أن يعترى مضمونها أي تبديل لذاته . ونسبة لأسباب لا محل لذكرها نجد أن في مضمون ذلك ما يؤيد نظرية يونج Jung القائلة بأن العقل الباطن هو مصدر الأشباح والأفكار الشيطانية .

وقد ساعدتنا النماذج الشبحية Archetypes في السحر وما ترمز إليه قواها وما تعبر عنه طبيعتها من نزوات غريزية إلى الوصول إلى نتائج جديدة لا تتأتى عن طريق نبذ دراسة السحر والوقوف منه موقفا أخلاقيا يهدف إلى تحقير جدارته بالبحث ؛ لأنه ليس في نطاق الحياة والعلم ما لا يجدر تحقيقه على الإطلاق . وفي الزار مثلا ، توصلنا بدراسة هذه النماذج التي تعرف «بالمشاخ» إلى نتائج لها صفة تحليلية هامة في التشخيص والعلاج - أغنت عن تفسير الأحلام - لقدرتها على التعبير المباشر لنزوات النفس وحاجياتها الفطرية والمكتسبة . ووجدنا أن كل نماذجه أو جلها تعبر عن حاجيات نفسية نوعية وتحكي أيضا عن سنة تطور هذه الحاجيات والرغبات تمشيا مع تطورات الحياة . ويبدو أن الخوف من السحر ومن السحرة إنما هو الخوف من العقل الباطن ، وربما أن الحذر من أطباء الأمراض العقلية يرجع إلى هذا بعض الشيء . والذين يقولون إن الزار نشأ منذ القدم لاشك مخطئون ، لأن للزار خصائص نوعية انفرد بها (١٢ - المجلة التاريخية)

رغم مشابهته لبعض أنواع السحر . والزار أثيوبي الأصل وكلمة زار تعني بالأمهرية الأرواح والأشباح وأول من وصفه بلاودن Plowden في كتابه Travels in Abyssinta and Galla Country الذي نشر عام ١٨٦٨ بعد وفاته وقال عنه بلاودن إنه أشبه برقصة التم تم Tom-Tom مما ينطبق على « الروك أندرول الحديث » . كما أشار إلى حالات التقمص .

ومات بلاودن في مدينة غندار وقد رأيت قبره في العام الماضي عند زيارتي لأثيوبيا - ثم أشار إليه إشارات عابرة عدد من الرحالة الفرنسيين الذين زاروا أثيوبيا . ومن بعدهم العالم الهولندي Hergrogni في عام ١٨٨٨ في كتابه عن مكة الذي ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٣٧ . واستطاع هرجروجني أن يرجع أصول الزار إلى أثيوبيا . ثم وصفه الأمريكي Mc. Donald في كتابه Aspects of Islam عام ١٩١١ وأشار إلى رسالة كتبها مدام رشدي عام ١٨٨٤ لم نثر عليها^(١) . ولم يصفه « لين » مع دقته وغزارة علمه ، ورغم أنه خصص فصولا للسحر والشعوذة . وقد وصل الزار إلى السودان عام ١٩٠٥ ودراسة النماذج النفسية فيه تؤكد مصدره الأثيوبي . وطبيعة الزار تقوم على ظاهرة التنويم المغناطيسي ونستطيع إدراك حقيقتها التنويمية بالاطلاع على ما كتبه مسمار Mesmer عن المغناطيسية الحيوانية ، وكذلك شاركو Charcot عن حوادث الهستيريا الكبرى Grand Histeria وكذلك بيرجانيه Pierre Janet وبرنهايم وليبو Bernheim; Liebault في وصفهما للإيحاء والإقناع ولكن أهم المصادر هو كتاب العالم الأمريكي مورتن برنس Morton Prince المسمى تعدد الشخصية Multiple Personalities . وفي حلقات الزار وسائل من الترفيه فهو مسرح غنائى راقص وناد ومطعم وقديماً دعت إليه حالة المرأة الاجتماعية ولا تزال تدعو إليه حالات المرأة بين بعض طبقات المجتمع - ولا تزال تتخذ النساء من كافة الطبقات نوعاً من الترفيه

(١) لأنه لما يسرنا جدا أن المؤرخ الكبير أستاذنا الدكتور محمد شفيق غربال استطاع أن يدلنا على موضع هذه الرسالة فله منا جزيل الشكر والتناء .

وقد يلجأ إليه اليائس من يأسه . وقد ترك مورتن برنس في كتابه المذكور وصفا دقيقا للحالات المتعددة التي كانت تتقمصها مريضته « سالى » Sally والتي هي أشبه بحالات الزار . وقد وصفت هذه الحالات فيما بعد على أنها جميعها من خلق « برنس » وإيحائه في مريضته التي كانت تمثل لا شعوريا ما يوحى إليها وأنها لم تكن ظواهر طبيعية . كذلك وصف جلوسي Gillespie حالات الهستيريا الكبرى التي اختفت بعد وفاة شاركو على أنها من صنعه His Pygmalion .

الإسلام : وفي عصور الإسلام نجد أن المجتمع أصبح العامل الأساسى فى الصحة . وكان لتدعيمه للأسرة وفرضه لحسن الجوار وبثه للمبادئ القويمة لربط المجتمع فضل وأى فضل . وقد حث الإسلام على المساواة ودعا لمكارم الأخلاق وهدى الفرد إلى القيم الإيجابية للمجتمع ، مما لا يمكن تفصيله فى هذه العجالة . كذلك نجد فى العصر الأموى ، وفى العصر العباسى أيضا ، أن الطب أضحى فرعا من فروع المعرفة العامة وخاصة الأدب . وكان بين الأطباء من هم وزراء وكتاب - وقد أسدى المؤرخون الجغرافيون والرحالة والكتاب وأصحاب المعاجم يدا جليلة وخاصة فى الصيدلة . ولا نريد الإسهاب فى أثر الأدب والشعر وغيرها من الفنون فى رفع المهمة وإيقاظ العزيمة وبث الوعي فى المجتمع وفى بعث الأمل فى النفوس اليائسة التى ملت كفاح الحياة . وقد وصف ابن جزله طيب المقتدى بالله الخليفة العباسى فى كتابه تقويم الأبدان ، أثر الموسيقى فى النفس فى حالتى الصحة والعلاج ، مشيرا إلى أثرها الوقائى فى الصحة بقوله « والموسيقى من الأدوات النافعة فى حفظ الصحة وردّها وتختلف بحسب اختلاف طباع الأمم وقدما وضعت هذه الصناعة لحث النفوس إلى السنن الصحيحة ثم استعملها الأطباء فى شفاء الأبدان المريضة . فوقع الألحان من النفوس السقيمة موقع الأدوية من الأبدان المريضة وأفعالها فى النفوس ظاهرة من مشى الجمال عند الحداء ، وشرب الخيل عند الصغير ، ومرح الأطفال لسماع الغناء . وهو يحدث أريجية ولنة ويعين على طول الصلاة والدراسة . والأطباء يستعملونه فى تخفيف الآلام على مثال ما يستعمله الجاهلون

لتخفيف الأثقال » . وفي تذكرة السامع للمتكلم يقول ابن جماعة: « بقدره طلب العلم على الإشفاء » . وقد أصبح العلاج بالفنون أمراً لاغنى عنه ، لما يترتب عليه من أثر عاطفي فعال له فضل في تدعيم العلاج وفي بعض الحالات المرضية نجد أن الفنون إذا كان اختيارها موفقاً ربما تنقذ المريض من شعوره بتفاهة الحياة مما قد يؤدي للانتحار . ولكن المريض الذي لا يتذوق الفنون ربما كان فرضها عليه مدعاة للملل والسأم بل النكسة فيجب تقصى ذلك . والفولكلور أقوى أثراً في حالات المرض من الفنون الكلاسيكية نظراً لأصولها الاجتماعية العميقة . ولذا كان واجب الأدباء والفنانين كبيراً في توجيه إنتاجهم لخدمة المجتمع . وفي القرن الرابع الهجري ، بدأت تباشير عهد التأليف ، وصار للطب شخصية اعتبارية . وكان طابعه يتأرجح بين الأدب والفلسفة لقدرتها على التعبير عن الحياة كما كان الدين في مصر القديمة والسحر في بابل . ولعل الرازي قد بز معاصريه في إدراكه لأهمية العوامل النفسية في المرض ، وهناك قصص عديدة تدل على اتجاهه في هذا الشأن أشار إليها التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » . وذلك رغم أن وسائله تبدو أقل كرامة من غاياته إذا ماقيست بالقيم العليا ، ولكنها في الواقع أكثر كرامة مما هو متفش بيننا اليوم . كذلك برزت قدرته واضحة في كتابه المسمى « برء الساعة » الذي يقول فيه الرازي « إن من العلل ما تجتمع في أيام وتبرأ في ساعة ، ووصفها ينطبق على الاضطرابات النفسية » . وقد وردت في أقواله حكم كثيرة تؤيد ذلك كقوله : ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجيه بها وإن كان غير واثق بذلك فزاج الجسم تابع لأخلاق النفس . الأطباء الأميون والمقلدون والأحداث الذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهوته قتالون الخ .

وكان الرازي واقعياً لا يؤمن بالنظرات العقيمة ولا يحتمل السفسطة . وكانت فلسفته تتجه إلى تقييم التجربة والملاحظة وقد ترك قصصاً أكلينيكية رائعة توضح هذا الاتجاه العملي من بينها قصة عبد الله بن سودة المصاب بحمى الملاريا . ولعل

هذا الاتجاه المستمد من صميم فلسفته العملية المنطقية Rationalistic ما دعا صاعدا الأندلسي في كتابه « طبقات الأمم » لوصف الرازي بأنه توغل في العلم الإلهي وما فهم غرضه الأقصى فاضطرب لذلك رأيه وتقلد آراء سخرفة . وكتب ابن سينا في علم النفس : ولكنه لم يهتم بتطبيق ما كتبه عمليا لخوضه في الفلسفة النظرية ولا اتجاهه الفكرى العام المؤيد لذلك . وقد توسع في وصف العشق كعلة نفسانية . ولعله استمد أكثر ما وصف في هذا الصدد من أبقراط ومن جالينوس الذى يشابهه في الخلق والسجيا . وقد وصف ابن سينا تشخيص الحب عن طريق جس النبض وهى قصة بدأها جالينوس ووصلت إلى قمتها عند رشيد الدين أبى خليفة الطبيب المصرى (مولده عام ٥١٩ هـ) الذى كان يستطيع معرفة شخص الملك الكامل بجس نبضه متخفيا بين الناس . وذكر الراغب الأصفهاني قصة مشابهة عزاه إلى سلمويه طبيب المعتصم - ووصف ابن سينا تدبير العشاق بالتنويم والتغذية وبإيقاعهم في خصومات وأشغال ومنازعات وبالجملة أمور شاغلة Diversion وقال إن ذلك ربما أنساهم ، أو يحوّل بتعشيقهم غير العشوق أو باشتراء الجوارى والإكثار من مجامعتهن . وقد اختصر صاحب « كتاب طب أبقراط وجالينوس وأفلاطون الثالث بالحكمة » آراء ابن سينا ومن تقدمه ومن تبعه في هذا الصدد . ومن المهم أن الرازي في رسائله الفلسفية أعرب عن رأيه الخلقى قائلا بأن : « المخنثون من الرجال والغزلون والفراغ والمترفون والمؤثرون للشهوات لا يكادون يتخلصون من هذه البلية (الحب) » .

ولعل موسى بن ميمون القرطبي (ولد عام ١١٣٥ م) طبيب الملك العادل صلاح الدين الأيوبي ، وطبيب ابنه الملك الأفضل من بعده ، كان أعمق إدراكا من غيره في ذلك العهد في معرفته للحالات النفسية المختلفة كالغضب والحزن والسرور وفي مدى أثرها في الصحة والمرض ، وإلى علاجها برياضة النفس وتقويمها بممارسة الأخلاق مما جعل اتجاهه أشبه باتجاهات Paul Dubois السويسرى في القرن الماضى وترجع فلسفته إلى ما قاساه في صدر حياته بالأندلس تحت حكم الموحدين قبل نزوحه إلى مصر .

والرسالة الأفضلية التي بعث بها للملك الأفضل « تلبية لأمره » من أهم الرسائل في الطب « النفس البدني » وكان الملك الأفضل « كثير الأسقام عصبي المزاج منقبض النفس » وتدل هذه الرسالة على أن موسى بن ميمون كان عالما نفسانيا محنكا وقد اشتهر بذلك فعلا . فقد جاء في أبيات مدحه فيها القاضي سعيد شاعر صلاح الدين ، وشاعر الأفضل من بعده :

أرى طب جالينوس للجسم وحده وطب أبي عمران للعقل والجسم
وقد نشرت هذه الرسالة الهامة بمصر عام ١٩٠٨ تحت عنوان خاطي^(١) مع
تحريف اسم المؤلف وأشار إلى أهميتها ولفنسون في كتابه عن موسى بن ميمون .
ونرى في القرن التاسع الهجري إشارات هامة للمالنخولية . ففي شرح « كتاب
الأسباب والعلامات » لنفيس بن حكيم الكرمانى (٨٢٠ هجرية) الذى كتب متنه
في الأصل نجيب الدين السمرقندى الذى مات قتيلا في سمرقند عندما افتتحها جنكيزخان .
نجد في هذا الشرح وصفا دقيقا لهذا الداء يشمل بحث أسبابه الاجتماعية وربما كان هذا
البحث أقيم بحث إلى مستهل هذا القرن . وقد أشار الكرمانى إلى جملة من العلماء
الذين تفردوا بأنفسهم وتركوا فجائية الناس فاحترقت أخلاطهم وحدث بهم إلى
المنخولية وقال أن الإفراط من سبيل التردى . وقد سبقه إلى مثل هذا القول الطبرى
في المعالجات الأبقراطية وقد أشار إلى ذلك الكرمانى . ورغم أنه لا يسمح لنا المجال
لبحث الصلة بين العبقرية والاضطراب النفسى ، فإننا يجب أن ندرك أن القلق والتوتر
النفسى قد يكونان علامة للصحة إذا ما توفرت أسبابها الفعلية - والصحة لا تعنى
الخلو المطلق من الهم أو القلق في جميع الأحوال ، بل قد يكون الخلو من القلق أو
الهم عندما تتوفر دواعيه من العلامات غير الطبيعية وقد قال المتنبي : وربما صحت الأجسام
بالعلل .

(١) نشرت عام ١٩٠٨ تحت عنوان « الطب القديم » لموسى بن عبد الله القرطبي ، وأعيد
طبعتها عام ١٩٣٢ ، وقد قام بجمعها وتصحيحها وطبعها عوض واصف (مطبعة المحيط) الفجالة .

ثم أصبحت الصحة فرعاً من الأخلاق والتصوف - وقام مبدأ تعريفها على قول أرسطاطاليس « الصحة هي الفضيلة » ونجد في كتب المتصوفة تفسيراً للصحة باعتبار أنها فضيلة تابعة لأخلاق النفس تنبعث أصولها من الدين. وقد حدا هذا ببعضهم إلى ادعاء الطب وإلى تأليف الكناشات الطبية ومن ضمن الكتب الهامة في التصوف والأخلاق التي توضح هذا النهج إحياء علوم الدين للغزالي ، والفتوحات المكية لابن عربي ، وكشف المحجوب للهجویری ، والذريعة في مكارم الأخلاق والشریعة للراغب الاصفهانی والأخلاق لابن مسكويه والرسالة القشيرية ، والطبقات الكبرى والصغرى للشعرانی. ورغم ذلك فقد استطاع هؤلاء المتصوفين إدراك الكثير من الحقائق السيكولوجية للنفس كحالات « القبض والبسط والرجاء والخوف والعزل والوجد والصحو والسكر » الخ... ولا شك أن من أقيم الكتب التي تنير الطريق لمعرفة بعض الأحوال النفسية هو كتاب « لطائف المنن » للشعرانی ، لأنه يحكي فيه عن تجارب شخصية عميقة. ويقول القشيري في صدد القبض والبسط « وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف (والمستأنف هو المريد عند بدء سلوكه) والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف وهذا قول يؤيده كارل ابراهام Karl Abraham حينما قال بصلة القلق مع الكتابة ، والخوف مع الحزن والأحوال الصوفية تجارب تحليلية Analytic في الأصل. يتضح ذلك من وصف الصوفية « للأحوال والمقامات » التي تنطبق على وصف درجات التعمق النفسي الذي يصل إليه السالك في سلوكه وصلة ذلك بالتجربة الوجدانية . وقد وجدنا بالفعل أن العواطف التي تنطلق من التجارب الصوفية تنطلق من طبقات نفسية مختلفة الأنوار تزداد عمقا مع توغل السالك في طريق السلوك أشبه بمراتب التحليل النفسي في بعض أوجهه . والتجربة الصوفية قد تؤدي إلى تغيير حاسم لا ينحصر أثره على ظاهرة محدودة فحسب ، بل على الاتجاه والسلوك الشخصي جملة وتفصيلا ، بل قد يكون مولدا لنمط جديد من الحياة . وقد كتب سارجنت Sargant عما يسمى

بغسل المخ Brain Washing . وتنطبق بعض نواحي سيكولوجيته على بعض ما رأيناه في هذا الصدد . وقد تحمل التجارب الصوفية فجأة ودون سابق إنذار ظاهراً كما هو معروف في حياة بعض المتصوفة كفريد الدين العطار مثلاً . ورغم ذلك فإن لها أصول خفية يمكن تقصي نموها قبل انطلاقها . وحالات الوجد التي تميز بعض التجارب الصوفية قد تكون حاسمة في بعض أنواع العلاج لمن لهم نزعة التصوف وقوتها ظاهرة في حالات القبض والسكر مثلاً . ويمكن تقريب فهم هذه الأحوال على أساس المقارنة بينها وبين ظواهر التحليل النفسي التي هي فصيلة منها تختلف عنها في نوع التجربة وطابعها وغايتها القصوى وفي كمها وكيفها الوجداني وفي انفصامها عن حيز الزمان والمكان . وتعاريف الصوفية لمصطلحاتهم هامة ويجب معرفتها لأهميتها في تعميق فهمنا لسيكولوجية النفس . ويجد القارئ الكثير منها في كتاب « اصطلاحات الصوفية لكمال الدين الكاشي ، وفي منازل السائرين لأبي إسماعيل الأنصاري ، وفي الفتوحات المكية لابن عربي ، وفي غيرها . ونجد فيما كتبه المستشرقون شروحات وافية كشرح المستشرق نيكلسون Nicholson لديوان ترجمان الأشواق لابن عربي ، الذي يذلل كثيراً من صعوبات فهمها . وقد لا يكون من اللائم أن يترك هذا البحث دون أن نشير إلى المعجزات والكرامات وعمما هي وعن طبيعتها وعن أثرها في الطب والمعالجة ، وتوجد كثير من الأمثلة لهذه الظاهرة في كتب الشعرائي والنهائي وكذلك في كتب الغزالي وابن عربي وغيرهم .. وقد حاول الباقلاني في كتاب البيان أن يفرق بين المعجزات والكرامات ، وبين الحيل والكهانة ، والسحر والنارنجات ، كما حاول الشعرائي بعده في كتابه « أسرار العبودية » التفريق بين الوحي والرؤية والإلهام . وبعض العلماء المعاصرين يعتقدون أن الكرامات ظاهرة أزلية وصك من صكوك الألوهية تعريفاً لقدرة خالق هذا الكون الذي بعثه ، وأن حصول الكرامات ظاهرة تؤيدها النظرية الداروينية Darwinism (نسبة إلى دارون) التي تقول بتطور الكون من النقص إلى الكمال . ويقولون إن المعجزة عمل من عمل الخالق في تطويره دوماً

لخاوقاته . ونشحدث باختصار عن الرؤية ما حقيقة تفسيرها وما قيمتها العلاجية . وأود قبل أن استهل الموضوع ، أود الإشارة إلى ابن سيرين وإلى القيمة العلمية التي لا تقدر لكتابه في التعبير . والحق أن ابن سيرين قد سبق فرويد وقد برزه عبقرية وعلمها . ويتضح لنا ذلك مما قاله عن آداب العبر وعن تعبير الرؤية ومعرفة أصولها التي جمع فيها أصول التعبير التي وصل إلى بعضها فرويد في كتابه الذي نشره في آخر القرن الماضي وقد وصفها ابن سيرين وصفا يكاد يشكك الذي لا يعرف عبقرية فرويد في أنه نقلها عن ابن سيرين . وقد ارتفعت عبقرية ابن سيرين إلى أوجها في تحقيقه لرموز الرؤيا تحقيقا لم يصل إليه أحد بعد وبوضوح لا يسمح بحال للشك في صدقها . وقد كان لكتابه أثر كبير فيمن تبعه من المبرزين كالظاهري والناقلي وابن الوردى وغيرهم . والحقيقة أن سر تعبير الأحلام لا يدرك إلا على أساس معرفة قوية لعلم البلاغة لأن الخواطر الأولى التي تبعث الأحلام والتي تتجسم في رؤى الحالم ، تقوم على أساليب الإدماج والكناية والمطابقة والمبالغة والاستعارة وغيرها من أساليب البلاغة . ولذا فإن كتب البديع ككتاب ابن المعتز ، وكتاب الكناية والتعريض للشعالبي ، وكنائيات الأدباء وإشارات البلغاء للجرجاني ، ومفتاح العلوم للسكاكي ، والبديعية للصفدي ، من أهم الكتب التي لا يستغنى المبر اليوم عن معرفتها . وربما نستطيع أن ندرك قيمة كتاب الناقلي في تفسير الأحلام عندما نحس بقدرته البديعية في قصيدته التي مدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم السمة « بنفحات الأزهار على نسبات الأشعار » . وقيمة الأحلام أنها تساعد على فهم المريض ومشكلته التي هي أول خطوات العلاج كذلك لما لها من أثر سيكولوجي عميق في النفس . والمقام لا يسمح بذكر بعض الظواهر الهامة جدا في الأحلام وخاصة الرؤيا الصادقة . ونجد وصفا رائعا للمستشفيات وعما وصلت إليه تلك العصور في كتاب فقيد العروبة الدكتور أحمد عيسى (البيمارستانات في الإسلام) ، نجد فيه أن وسائل العلاج السيكلوجية في المستشفيات العامة حينئذ . وكان يطلق عليها البيمارستانات : بيار = مريض واستان = محل بالفارسية وكانت تطلق

على المستشفيات العامة ولكن مدلولها تغير فيما بعد لأسباب لا محل لذكرها - نجد أن وسائل العلاج والترفيه كانت تعكس في مداها وتنوعها معرفة عميقة بالأصول السيكولوجية للعلاج . وفي القرن الماضي بدأ عهد جديد بإنشاء أول مدرسة طبية على النظم الحديثة عام ١٨٢٧ بمصر وقد ألحقت بالمستشفى العسكرى « بأبو زعبل » ومن العبرة لنا الرجوع إلى كتاب كلوت بك لندرى كيف أن الترجمة من الفرنسية إلى العربية التى كانت لغة التعليم لم تكن مشكلة كبرى إلا فى اختيار الوسائل لا فى اللغة ذاتها . وقد تصفحت أكثر من خمسين كتابا نشرت بيولاى بين عام ١٨٤٦ إلى عام ١٩٠٠ كانت لغتها سليمة وتعايرها جيدة ونصوصها مفهومة . ومن بين هذه الكتب كتاب المنحة فى سياسة حفظ الصحة ترجمه الحابى من الفرنسية وصححه محمد الهروى عام ١٢٤٩ وهو ثالث كتاب يترجم . ولا الكتاب اتجاه عسكرى يبحث فى المشاكل الصحية للجنود من ضمنها مشكلة « العزوبة » و « الأحوال النفسانية لرجال البحريين والأوصاف النفسية للمجرمين » ومنها « وسائل الابتهاج فى الطب والعلاج » تأليف سالم سالم بك مدرس الأمراض الباطنية ، وقد تخرج فى ألمانيا عام ١٨٥٣ بعد نيله للدكتوراه . قال فى مقدمته « ليس كلمة أضر بالعلم من قولهم ماترك الأول للآخر شيئا » وفى كتاب « كنوز الصحة » ١٢٦١ هـ للدكتور محمد الشافى إشارات للعقل و « التولعات النفسانية » وإلى أثر هذه التولعات فى الصحة . وقد كتب من بعده ابنه الدكتور أحمد بك ابن محمد الشافى كتابه المسمى « ببلوغ الأمانة للحصون الصحية » وهو كتاب هام لأنه يتحدث فى إسهاب عن جغرافية المرض وعن تاريخه . كذلك اهتم يبحث واجبات المجالس البلدية والحكومات فيما يتعلق بالصحة - كذلك الدكتور عبد الرحمن إسماعيل فى كتابه المعروف « بطب الركّة » جزء أول ١٣١٠ هـ - جزء ثانى ١٨٩٤ بحث أنواع السحر وأساليبه المستعملة فى الصحة فى عصره كالزار والمشاهرة والنزىل ومؤاخذة الجن والقرين وضرب الودع والمربوط الخ . . . مما يجعل للكتاب من الناحية الانثروبولوجية قيمة لا تقدر . ولكن أهم هذه الكتب

على الإطلاق هو كتاب « أسلوب الطبيب في فن المجازيب » قام بكتابته الدكتور سليمان نجاتي مدرس الأمراض العقلية ، ومدرس ثانی الأمراض الباطنية بمدرسة الطب الخديوية ، وحكيم ثانی الأمراض الباطنية بمستشفى القصر العيني عام ١٣٠٩ هـ ، والدكتور سليمان نجاتي خريج مدرسة الطب بمصر وجامعة باريس ، وهو أول من درس الأمراض العقلية وتخصص فيها بمصر ، قال « إن هذا الفن لم يطرق لمصر باباً وقد هزنتي أريحية الغيرة الوطنية على أن أكون أول من اشتغل من المصريين بهذا الفرع ، فصرفت في الحصول عليه أنفوس أوقات الشبوية » ، وتحدث عن رجوعه إلى مصر فقال « وما لبثت بإدارة الصحة العمومية غير قليل إلا وجرى بي إلى مدرسة الطب مدرسا للأمراض العقلية » . وأشار إلى عدم تدريس الأمراض العقلية قبله ، وإلى إصراره على إعطاء دروسه للطلبة بالمستشفى بيولاقي (ورشة الجوخ) ، وفق منهج عملي ؛ والكتاب فيه الكثير من خبرة هذا الرائد الأول . ونسبة لأهميته فقد عرّضت وزميلاي الدكتور أحمد وجدي والدكتور صبري جرجس على الكتابة عن هذا الرائد العظيم تعريفاً به وتشريفاً له وليكون ذلك مساهمة منا للاحتفالات هذه السنة بحلول العام الدولي للصحة العقلية .

وقبل أن نختتم ، أرى أن البعض سوف يسأل ما هي الصحة العقلية إذاً ؟ ونقول إنه من الضروري أن ندرك إدراكاً تاماً أن الصحة العقلية ليست مفهوماً طبياً محضاً ، بل إن بعض جوانبها الهامة تمت إلى الانطباعات الأولى في الأسرة وإلى وسائل التربية والتدريب ، وإلى ظروف العمل والكسب ، وإلى الحياة الزوجية ، وإلى المجتمع في مبادئه ونظمه وتاريخه وفلسفته وعقائده ، وإلى ظروف اقتصادياته ، وإلى صحة البدن . ولهذا الناحية (أي الصحة البدنية) وظيفة كبرى تدخل في تعريف النظم العلاجية النفسية في المجتمع ، وفي تقييمها حسب الاتجاهات الحديثة التي تتجه نحو وحدة العقل والبدن . كل هذه وغيرها تدخل في مفهوم الصحة العقلية . وقد تختلف مقوماتها باختلاف الزمان والمكان . ولذا فلا مندوحة من أن تفسرها تبعاً للظروف الزمانية

والمكانية . وللصحة العقلية جوانب لا يسمح الوقت بالتطرق إليها خاصة في المجال
الدولي .

ونختتم بقول جبران في كتاب « النبي » :
كيف أستطيع يا صاح أن أجلب السكينة إلى نفوسكم القلقة .
كيف أستطيع تبديد ما بها من نفور وشقاق .
قل لي بربك ، كيف أستطيع ذلك إن لم تكونوا أنتم حريصين على ذلك .
بل إن لم تكونوا محبين لذاتكم ولعناصركم جميعها .

دكتور
التجاني الماصي

الخطوط الرئيسية لسياسة إنجلترا تجاه الدولة العثمانية

في القرن الثامن عشر

في الإمكان دراسة السياسة الإنجليزية تجاه الدولة العثمانية من خلال تطور وضع السفارة البريطانية في القسطنطينية . وقد كان السفير الإنجليزي منذ إنشاء هذه السفارة في عام ١٥٣٨ عميلا لشركة الليفانت . وكانت مهامه الرئيسية تتمثل في حماية مصالح الشركة التجارية ، والعمل على تطبيق نصوص معاهدة الامتيازات والسعى للحصول على مزايا تجارية للرعايا الإنجليز . وكان السفير يتقاضى مرتبه من الشركة التي تقوم بتعيينه في منصبه . أما الصفة الدبلوماسية التي منحت للسفير فقد قصد بها فقط وضعه في مركز يمكنه من الوقوف أمام المناورات الفرنسية في البلاط العثماني . وهكذا كان السفير الإنجليزي من الناحية الرسمية يمثل بلاط جلالة الملك بينما لم يكن من الناحية الفعلية أكثر من موظف في شركة الليفانت^(١) .

ومن هنا جاءت الصفة المزدوجة لمنصب السفير الإنجليزي في القسطنطينية . وخلال القرن الثامن عشر وبتطور الاهتمام السياسي البريطاني بمشاكل الدولة العثمانية ، أخذ الجانب الدبلوماسي من عمل السفير يزداد أهمية ، كما أخذ تدخل الحكومة البريطانية يتزايد بالتالي في تعيين سفراء بريطانيا لدى الباب العالي . والحقيقة أن منصب السفير البريطاني لدى البلاط العثماني كان من المناصب التي يشتد النزاحم عليها من جانب الدبلوماسيين البريطانيين . ولا يرجع ذلك إلى أهمية المنصب من الناحية السياسية بل لما يدره من مكاسب مالية على صاحبه . فمرتب السفير البريطاني كان كبيرا بدرجة ملحوظة ،

(1) A. C. Wood, English Hist. Rev. Vol XL. 1925.

« The English Embassy of Constantinople 1660-1762 ».

هذا إلى جانب مصادر أخرى لدخل السفير كييع البراءات^(٢) وغيرها من أنواع الحماية إلى جانب المبالغ التي كان يدفعها الباب العالي لممثلي الدول الأجنبية .

ولم يكن الجانب السياسى من عمل السفير أكثر من التوسط لدى الدولة العثمانية من ناحية وروسيا أو النمسا من ناحية أخرى وهى وساطة كان الهدف منها كسب سمعة طيبة للسفارة البريطانية وبالتالي تسهيل مطالب السفارة . ومنذ فجر القرن الثامن عشر بدأ الجانب الدبلوماسى من عمل السفير يطنى على الجانب التجارى تدريجيا . وانعكس ذلك بشكل واضح فى وضع السفارة ، فى سنة ١٦٩١ استطاعت الحكومة الإنجليزية أن تأخذ من شركة الليفانت حق تعيين السفراء فى القسطنطينية وإن بقيت الشركة تدفع لهؤلاء السفراء مرتباتهم . ومنذ سنة ١٨٠٣ أصبحت السفارة تابعة تبعية تامة لوزارة الخارجية البريطانية .

وهذا التطور فى وضع السفارة البريطانية حدث على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى من سنة ١٦٨٨ حتى سنة ١٧٨٠ ، والثانية من ١٧٨٠ حتى سنة ١٧٩٨ ، والثالثة من سنة ١٧٩٨ حتى سنة ١٨٠٣ . أما المرحلة الأخيرة فهى فترة الحملة الفرنسية على مصر التى أدت إلى التحالف البريطانى - التركى (١٧٩٩) ووضعت السياسة البريطانية تجاه الدولة العثمانية فى خطوط مستقرة ظلت تسير عليها طوال القرن التاسع عشر . وقد تناول المؤرخون هذا الجانب بالدراسة المستفيضة^(٣) .

أما فيما يتعلق بالمرحلة الأولى (١٦٨٨ - ١٧٨٠) فيلاحظ أن بريطانيا لم تكن لها سياسة ذاتية محددة تجاه الدولة العثمانية . فقد كان اهتمام بريطانيا بالدولة العثمانية يأتى من زاوية الموقف الأوروبى نفسه - فى الفترة ما بين ١٦٨٩ ، ١٦٩٧ كانت إنجلترا

(٢) البراءة : هى الصك الذى تمنحه بعض السفارات فى القسطنطينية لأحد رعاياها ليتمتع بالامتيازات .

(٣) M. Ghorbal: The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali. London 1928.

وكذلك محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو والحملة الفرنسية . القاهرة ١٩٥٢

في حرب مع فرنسا حول موضوع الحلف الكبير (Grand Alliance) ، وكان وليم الثالث ملك إنجلترا حريصا على عقد صلح بين الباب العالي والإمبراطور (النمسا) حتى يتفرغ الأخير تماما لمواجهة فرنسا . فتشب الصراع بين السفيرين البريطاني والفرنسي في القسطنطينية وكان لا بد أن تفشل مساعي Trumbull السفير البريطاني بالنظر إلى نفوذ فرنسا التقليدي لدى البلاط العثماني ^(٤) فأصدرت الحكومة البريطانية أوامرها إلى لورد باجت Paget السفير البريطاني في فينا بالتوجه إلى القسطنطينية لبذل قصارى جهده للتوسط بين النمسا والدولة العثمانية . ولم يقدر للورد باجت أن يلعب سوى دور محدود جدا في صلح كارلوفتز (١٦٩٨) .

هكذا دخلت الدولة العثمانية في إطار السياسة البريطانية . ولكنه كان دخولا غير مباشر ومرتبطا بتزايد اهتمام إنجلترا بمشا كل القارة الأوروبية ، فلم تكن مشا كل الدولة العثمانية هم إنجلترا لذاتها وإنما باعتبارها تابعة للمشا كل الأوروبية الأكثر أهمية من وجهة النظر البريطانية .

وفي سنة ١٧١٦ عادت إنجلترا مرة أخرى تسمى لعقد صلح بين الباب العالي والإمبراطور حتى يتفرغ الأخير للأزمة التي نشبت في إيطاليا بين الإمبراطورية وفيليب الخامس ملك أسبانيا ^(٥) . كذلك أصدرت Pitt رئيس الوزارة البريطانية إبان حرب السبع سنوات تعليماته إلى السفير البريطاني في القسطنطينية ليعمل على إقامة تحالف هجومي ودفاعي بين بروسيا والباب العالي . وقد فشلت المحاولتان البريطانيتان .

والعامل الأساسي في هذا الفشل يرجع إلى طبيعة السياسة البريطانية إزاء الدولة العثمانية ، فهذه السياسة كانت تتحدد بعلاقات إنجلترا ببحرान الدولة العثمانية عدائية كانت أم ودية . أما بقاء الدولة العثمانية أو زوالها في حد ذاته فلم يكن يدخل على وجه التحديد في إطار هذه السياسة الانجليزية . لم يحدث هذا إلا في القرن التاسع عشر

(4) State papers, Foreign, Turkey, 20. Trumbull to shrewsbury, 1 July 1690. & Brit. Mus. Add. MSS. 8880, F.O. 66.

(5) A. Wood, op- cit. pp. 549-550.

وكنتيجة للحملة الفرنسية على مصر ، حين نمت المصالح البريطانية في الشرق الأدنى وفي الهند . والحقيقة أنه لما كانت السياسة البريطانية الدولية والأوروبية تقوم بصفة أساسية على العداء لفرنسا والتأييد للامبراطورية فقد كان لا بد أن تجيء مواقف إنجلترا واتجاهاتها - في شكلها الرئيسى - معادية للباب العالى الذى يعتبر فرنسا الصديق التقليدى له والامبراطورية العدو التقليدى .

ومن ناحية أخرى كانت إنجلترا - بصفة عامة تؤيد روسيا بسبب تجارتها في البلطيق . ففي الوقت الذى كانت تجارة البلطيق آخذة في الازدهار طوال القرن الثامن عشر ، كانت تجارة الليفانت في تدهور متزايد . ولما كانت التجارة المحرك الرئيسى للسياسة البريطانية فقد كان من الطبيعى أن تقف بريطانيا إلى جانب روسيا ضد الدولة العثمانية . فإبان الحرب التركية والروسية (١٧٦٩ - ١٧٧٤) كان الأسطول البريطانى - الذى كاد أن يستولى على القسطنطينية - تحت قيادة ضباط انجليز^(٦) . ومن المعروف أن Dydale, Truvenan, Greig, Elphinston هم الذين أنشأوا البحرية الروسية في عهد كاترين . وكان مدير بنك البلاط إسكتلنديا يدعى Sutherland وطبيب كاترين الخاص انجليزيا يدعى Rogerson ، كما كانت Maria Guthrie مديرة للدير الامبراطورى الذى يقوم بتعليم الارستقراطية الروسية^(٧) . وقبيل توقيع معاهدة كتشك قينارجة التى أنهت هذه الحرب ، أسرع فرجين الوزير الفرنسى إلى التشاور مع بريطانيا وعرض مشروعا للتدخل المشترك من جانب بريطانيا وفرنسا لوقف استيلاء الروس على القرم . ويشير فوكس Fox إلى هذا الحادث بقوله فيما بعد « لقد كنت أحد وزراء جلالة الملك في ذلك الوقت . وكانت الإجابة التى نصحت

(6) W. Miller, the Ottoman Empire and its successors 1801-1927. Cambridge 1927. p. 14 .

(7) G.B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. London 1908 p. 166.

بها أن جلالة الملك لن يقدم أى احتجاج على هذا الموضوع أو يضع صعوبة في طريق الأمبراطورة (كاترين)»^(٨). وتمثل الفترة ما بين ١٧٨٠ و ١٧٩٨ مرحلة انتقال بين السياسة الإنجليزية المتسمة بطابع عدم الاهتمام بل العداء للدولة العثمانية وبين سياسة بريطانيا القائمة على تمامية الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر .

فحتى عام ١٧٨٣ كانت الامبراطورية البريطانية أنجلوسكسونية في أغلب بقاعها ، واستعمارية في جوهرها ، بينما كان مركز الثقل في الامبراطورية فيما وراء البحار يتركز في أمريكا . وفي عام ١٧٨٣ تغير ميزان الاهتمام والقوة داخل الامبراطورية ، فانتقل نحو الشرق وفي البنغال بالذات بينما لم يعد لأمجلترا من مستعمرات أنجلوسكسونية سوى جزر الهند الغربية ونوفاسكوتيا ونيوفوندلاند . وبانتقال مركز الجاذبية في الامبراطورية نحو الشرق أصبحت تجارة بريطانيا ومسئولياتها السياسية في آسيا شاغلها الأول فيما وراء البحار فكانت مسائل الهند على الدوام أمام البرلمان والرأى العام ، وأصبحت المحافظة على طرق المواصلات بين أمجلترا وممتلكاتها في آسيا المشكلة الرئيسية للبحرية البريطانية ، كما أصبحت المهمة العسكرية الرئيسية المحافظة على هذه الممتلكات الآسيوية .

هذا الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية هو الذى أدخل الشرق الأدنى في إطار الاهتمام السياسى لبريطانيا . وفيما بين عام ١٧٨٨ و ١٧٩٢ اختفت فرنسا كمنافس عنيد لأمجلترا في ميدان التوسع الاستعماري بسبب الثورة الفرنسية وتدهور البحرية الفرنسية في عهد الثورة ، وبدأت روسيا كمنافس خطر بتحكمها في طرق المواصلات البرية في وسط آسيا . وفي الوقت الذى عجزت فيه فرنسا عن أن تقدم أى مساعدة جدية لتيبو صاحب التأثير في جنوب الهند ضد النفوذ البريطانى ، كانت

(8) Hansard's parliamentary history Vol. 29, 1791-92 p. 63.

كأثرين تنظر بعين الاعتبار لمشروع إرسال قوات مسلحة عن طريق بحر قزوين لمهاجمة البريطانيين في البنغال^(٩) .

ولقد كان حزب التوري في إنجلترا أكثر إدراكا لحقائق الوضع الجديد للامبراطورية البريطانية وبالتالي لمستلزمات السياسة الخارجية لإنجلترا - بينما ظل حزب الهويج ، بسبب الحركة الأنجليكية ، شديد العداء لتركيا - وإلى جانب هذا ظلت تجارة البلطيق تجذب بشدة السياسة الأنجليزية لتأييد روسيا . وهكذا كانت السياسة البريطانية عام ١٧٨٣ تتجاذبها عوامل متضاربة - من ناحية كانت هناك المستلزمات السياسية للموقف الجديد للامبراطورية البريطانية تحتم تأييد وحماية الدولة العثمانية ، ومن ناحية أخرى كانت المصالح التجارية الضيقة تشير إلى ضرورة الاصرار على صداقة روسيا .

وتعكس مشكلة أوكزا كوف (١٧٩١) وموقف بريطانيا هذا التضارب العنيف في السياسة البريطانية؛ فلقد انقسم كل من الرأي العام والحكومة في بريطانيا حول هذه الأزمة انقسامًا حادًا .

في ١٧٨٧ نشبت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية - وفي أواخر ١٧٨٨ استولى الروس على قلعة أوكزا كوف وأصبح قلب الامبراطورية العثمانية مفتوحا أمام الغزاة . ولكن سياسة التحالف الثلاثي كانت تنادى ببقاء الوضع الراهن للموقف في الشرق الأدنى . وكان هذا يعني بطبيعة الحال عودة الوضع كما كان عليه في شرق أوروبا دون أن تستولى روسيا على أوكزا كوف . وفي مارس ١٧٩١ أرسلت الحكومة البريطانية إنذارا إلى روسيا تطالبها بإرجاع كافة الممتلكات التي استولت عليها - باستثناء القرم إلى الباب العالي . وكان بت في رئاسة الوزارة وهو ينتمي إلى حزب التوري ، بينما وقف حزب الهويج بصحافته ونوابه موقف المعارضة العنيدة التي نجحت آخر الأمر في أن ترحز بت عن سياسته الموالية للدولة العثمانية .

(9) Cambridge History of the British Empire Vol. II. p. 48.

وواضح من المناقشات التي دارت في مجلس العموم ومما كتبتة الصحافة المعاصرة أنه كانت هناك ثلاثة عوامل حددت موقف بت ووزارته ونوابه في معارضة التوسع الروسى . أولا - أن التقدم الروسى فى البحرين الأسود والأبيض سيفتح الطريق أمام التجارة لعملاء جدد وأن هذه البحار ستخضع للقوانين الروسية فى الملاحة. وكانت جريدة « The Public Advisor » (حزب التورى) أشد قلقا على توازن القوى فى أوربا والبحر الأبيض . فكتبت فى ١٢ يناير ١٧٩١ تقول عن روسيا « إنها تستطيع وتقوم فعلا بتهديد كل أوربا ، إنها دولة إذا لم يوقف تقدمها الحالى ضد الأتراك ستحصل فى السنوات القليلة القادمة على سيطرة بحرية فى أوربا فلانجلترا وفرنسا وأسبانيا وهولندا مصلحة مادية ضد روسيا - وبذلك يكون مدعاة للدهشة ألا تتخذ خطوات حاسمة حتى الآن لتأييد الأتراك . إن انجلترا لاتستطيع ولن تقف موقف الحياد بعد ذلك ازاء كل توسع تقوم به روسيا » . واقترحت جريدة St. James Chronicle^(١٠) أن تستغل انجلترا أزمة اوكرزاكوف للتقارب نحو تركيا فتستولى بذلك على ميراث فرنسا فى الشرق الأدنى قبل أن تفيق فرنسا من الثورة . أما العامل الثانى فهو أن مستقبل روسيا الاقتصادى ينذر بأن تصبح روسيا منافسا خطرا للمصدرين الإنجليز بينما لاتستطيع تركيا أن تكفى نفسها ذاتيا من ناحية الانتاج وأنها أضعف من أن تثير خوفا أو حقدا^(١١) . أما العامل الثالث فكان اهتمام انجلترا بمستقبل مصر . فكابتن Sutherland وهو رحالة فى الليفانت نشر كتابا فى عام ١٧٩٠ عن رحلته من جبل طارق إلى القسطنطينية . وفيه عبر عن وجهة نظره حول الحرب الروسية - التركية . وكان يعتقد أن فرنسا ستطلق يد روسيا والنمسا ضد تركيا حتى تتفرغ هى للاستيلاء على جزيرة كريت ومصر . فإذا تم ذلك فإن انجلترا ستضطر إلى التخلي عن تجارتها

St. James chronicle April 7, 1791.

(١٠)

J. Ewart, Observations on the nature of the connection (١١) . that hitherto subsisted between Great Britain and Russia. London 1791.

في الليفانت . « وفي وقت قصير يستطيع الفرنسيون عن طريق برزخ السويس أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى تجارتنا في الهند كذلك »^(١٢).

ولواجهة هذه الخطط الفرنسية اقترح الكاتب أن تقوم إنجلترا وأسبانيا وتركيا بعمل مشترك في البحر الأبيض ضد روسيا . كذلك عبر لورد بلجراف في مجلس العموم عن مخاوفه من أن تحقق روسيا « السيطرة الكاملة في البحر الأبيض باستيلائها على الإسكندرية عقب عبور الدردنيل »^(١٣).

ومن أهم الدراسات المعاصرة التي عرضت لموضوع مستقبل مصر السياسي إبان أزمة أوكزاكوف تلك التي قدمها سير جون دارمبل Sir John Dalrymple .

لم يكن سير جون يؤيد أساسا سياسة بت . فهو يضع تجارة البلطيق في الاعتبار الأول لتحديد موقف إنجلترا من النزاع بين تركيا وروسيا . ومع ذلك فقد كان دارمبل يرى أنه إذا اضطرت إنجلترا إلى دخول الحرب لإتقاذ الدولة العثمانية فيجب أن تكافأ على ذلك « باحتلال مصر » . والواقع أن دارمبل كان أحد السياسيين البريطانيين القلائل الذين نادوا في ذلك الوقت باتباع سياسة بريطانية نشطة في الشرق الأدنى للمحافظة على الامبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها ولتعويض خسائر بريطانيا في حرب التحرير الأمريكية . وإلى جانب ذلك فقد كان دارمبل يرى أن احتلال مصر سيؤدي إلى إنعاش التجارة البريطانية في البحر الأحمر . وذهب إلى حد وضع مشروع كامل لنظام الحكم في مصر . فمن الناحية الشرعية تظل مصر ولاية عثمانية وعلى الباب العالي أن يقنع بجزية سنوية قدرها ١٣٠ ألف جنيه سنويا (وهو قدر لم يكن يحصل عليه من البكوات الماليك) إلى جانب ١٥٠ ألف طن من الحبوب . أما إنجلترا

(12) Account of a tour up the straits form Gibraltar to Constantinople.

(13) Hansard, op. cit. Vol. 29. p.180.

فتقيم « قاعدة عسكرية كبيرة في مصر ليس فقط للدفاع عنها بل وكذلك لتقديم المساعدات العسكرية للسلطات البريطانية في الهند إذا لزم الأمر »^(١٤).

وهذه الناحية بالذات أى استخدام مصر كحلقة للاتصال بين بريطانيا ومستعمراتها في الهند تبرز كذلك في كتابات كل من جورج بلدوين^(١٥) وكابتن تايلور Taylor. فقد كان تايلور يرى أن تستغل إنجلترا تأييدها للدولة العثمانية في أزمة أوكزاكوف لتحصل من الباب العالي على السماح للملاحة البريطانية في خليج السويس وفيما بين جدة والسويس^(١٦). كذلك كتبت جريدة The Public Advisor (٢٩ أبريل ١٧٩١) حول هذا الموضوع فاقترحت أن تعرض إنجلترا على الباب العالي حصولها على حق استخدام البحر الأسود والبحر الأحمر للملاحة البريطانية مقابل كافة الخدمات التي تقدمها إنجلترا للباب العالي « وبالملاحة في البحر الأحمر تعمل بريطانيا على إحياء التجارة مع جزر الهند الشرقية عن طريق برزخ السويس ، وذلك بنقل بضائنها من هناك برّاً إلى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية بحراً إلى أوروبا » . وسيؤدي هذا في اعتقاد الجريدة إلى تنشيط التجارة البريطانية على سواحل آسيا وفي فارس بالذات. ثم عرضت الجريدة للمصاعب التي قد تعترض هذا الموضوع فقالت « ولكن هذا المشروع سوف يسبب قلقاً للشركات التجارية الرئيسية » (الليفانت وشركة الهند الشرقية البريطانية) .

رغم ذلك لم تقابل هذه الحجج التي عبر عنها بت ومؤيدوه بالرضاء من غالبية الرأي العام البريطاني أو حتى غالبية أعضاء الوزارة البريطانية . ففي نطاق الرأي العام كان حزب المويج بصحافته ونوابه في البرلمان يقف موقف المعارضة الصريحة ، هذا بينما لم يكن يؤيد بت في داخل الوزارة سوى لورد ليدز Leeds وزير الخارجية .

Queries, pp. 75-85.

(١٤)

M. Anis; England and the Suez Route. Cairo 1957.

(١٥)

I. O. H. M. 4. 36 (2). Taylor to Abercrombie 1790.

(١٦)

والواقع أن موقف بت كانت تكتنفه نقط ضعف واضحة . فلا هو ولا لورد ليدز شرحا المدى الذى ستسير فيه إنجلترا في معارضة روسيا بل حتى لم يشرحا للرأى العام البريطانى شرحا كاملا مدى الخطر الذى تتعرض له المصالح البريطانية من التوسع الروسى . فقالت The Annual Register أنه «ربما كان فى إمكان بت أن يتدخل فى جانب تركيا إذا كان حرا فى أن يذكر كل ما يعرفه عن مدى الخطر القابع فى الشمال وهو الخطر الذى كشفت عنه الأحداث بعد ذلك للعالم»^(١٧).

ولعل أحد العوامل التى أدت إلى تعذر اتباع سياسة بت ، الضرائب الجديدة المنتظر جمعها من الشعب الإنجليزى بعد الضرائب التى أرهقته إبان الحرب الأخيرة مع أسبانيا - وثمة سبب آخر كثر وضوحا وهو الحرص على تجارة البلطيق مع روسيا - فحزب الهويج كان يمثل بالدرجة الأولى البورجوازية الإنجليزية ولذلك جاء موقفه من المسألة منحصرا فى حدود المصالح التجارية الضيقة بقطع النظر عن الاعتبارات الإمبراطورية والسياسة النابعة من الوضع الجديد للإمبراطورية البريطانية . ولذلك انتقدت جريدة The Morning Chronicle ماسمته بسياسة إفقار «أحسن زبائننا» ، وقالت «من الحقائق التى لا يجب إنغفالها أن روسيا تأخذ من بضائعنا وتوظف من الأيدي العاملة البريطانية أضعاف ما كانت تفعله الثلاثة عشر ولاية فى أمريكا حين كانت هذه مستعمرات تابعة لنا»^(١٨).

ولا شك فى أن أحد العوامل الهامة التى أثارت الرأى العام البريطانى ضد خطة بت كان دينيا . فلقد كان الكاتب الإنجليزى Burke يعبر عن الاتجاهات الرجعية فى السياسة الإنجليزية .

وكانت الحركة الإنجليكية فى عنفوانها تقف جنبا إلى جنب مع صيحات بيرك لتبارك الرجعية البريطانية . واستطاع حزب الهويج فى عام ١٧٩١ أن يتخذ منهما سلاحا ضد كل انقلاب فى السياسة الخارجية البريطانية . فأشار مؤلف أو مؤلفو

The Annul Register. p. 107.

(١٧)

The Morning Chronicle. April 19, 1791.

(١٨)

كتاب Short Reasonable Hint في ١٧٩١ إلى « العبودية المؤلة والشائنة التي تتعرض لها الشعوب المسيحية في الإمبراطورية العثمانية »^(١٩) وكتب مؤلف An adress to the People of England عام ١٧٩١ يحتج على « هجرة حلفاء قدامى من أجل الانضمام إلى أعداء المسيحية ».

أما مجلس اللوردات فعلى الرغم من حملة Fitzwilliam و Porchester و Starmont و Landsdowne فقد فازت الحكومة بتسعة وسبعين صوتاً مقابل أربعة وثلاثين^(٢٠). وفي نفس اليوم توقفت المسألة في مجلس العموم. فقال Fox أنه يعجب لأن بريطانيا تصدر ما يعادل ٤٠٠ ألف جنيه من البضائع في العام إلى روسيا وتستورد منها ما يقدر بمليونين وخمسمائة ألف، وأغلب هذه البضائع تنقل على مراكب إنجليزية، كما أشار إلى « أن إنجلترا لا تستطيع أن تدخل الحرب من أجل مدينة (اكزاكوف) مشكوك في أهميتها، فهي على كل حالة أقل أهمية من القرم ». أما Burke فكان يردد حملة حزب الهويج العنيفة على تركيا ويرى أن لا أهمية لها في ميزان القوى في أوروبا. « ما دخل هؤلاء البرابرة بالدول الأوروبية، إنهم لا يفعلون أكثر من نشر الحرب وإراقة الدماء وإثارة المتاعب بين الدول الأوروبية. أن أي شيء مسيحي يجب أن يفضل على هؤلاء البرابرة المخربين »^(٢١).

وعلى الرغم من هذه الحملة فعند أخذ الأصوات حصل حزب التوري على ٢٢٨ صوتاً مقابل ١٣٥ صوتاً في المعارضة.

وفجأة تراجع بت رغم هذه الأغلبية التي ساندته في مجلسي اللوردات والعموم. وثمة أسباب كثيرة لتفسير هذا التراجع. في مقدمتها أن المعارضة ضد سياسة بت كانت قوية وتزداد قوة خلال المعركة سواء في الصحافة، أو البرلمان. ولعل أهمها أن انقساماً

(19) G. B. Hertz, British Imperialism in the 18th Century. pp. 9-11.

(20) Hansard op. cit. vol. 29 p. 52.

(21) Ibid. pp. 63-70.

حادا وقع بين الوزراء فلقد كان بت ووزير خارجيته لورد ليدز يقفان في جانب واحد ، أما جرتشل فقد كان مترددا منذ البداية . وفي ٣٠ مارس حذر Richmond وزير الخارجية من أن الشعب الإنجليزى قد يتخلى عن تأييده لحكومة بت إذا أصرت على موقفها من هذه المسألة^(٢٢) ورد ليدز على ذلك بأنه لم يعد في الإمكان التراجع . وإبان اجتماع الوزارة مساء ذلك اليوم تكلم رتشموند وجرتشل وكذلك Stafford ضد التدخل .

وحين استأنفت الوزارة اجتماعها في اليوم التالى وجد ليدز نفسه مع لورد Chathan يؤيدان وحدهما رئيس الوزارة . وأعلن لورد ليدز في الاجتماع أنه سيقدم استقالته إزاء موقف الوزارة الجديد لأنه لا يقر التراجع . وعندئذ أعلن بت تراجعه عن موقفه . وهكذا فشلت المحاولة البريطانية الأولى للتدخل في جانب الدولة العثمانية ضد التوسع الروسى في قلب الدولة العثمانية .

وواضح أنه على الرغم من فشل محاولة بت ونجاح السياسة البريطانية القديمة تجاه النزاع الروسى - التركى ، فإن نواة السياسة البريطانية القائمة على المحافظة على التكامل السياسى للدولة العثمانية ، قد بدأت في الظهور .

محمد أنيس

(22) Leed's Political Memoranda. London 1884. pp.152-156.

جسم سلطان والدبلوماسية الدولية

موضوع اللاجئين السياسيين في الشرق الإسلامي من الموضوعات التي استدعت انتباه المؤرخين في الفترة الأخيرة^(١). وهي فضلاً عن أنها تمثل اتجاهًا معينًا في أبحاث التاريخ الإسلامي له جدته وأهميته فإنها تعتبر دعوة لإعادة النظر في بحث طبيعة العلاقات الخارجية للدول الإسلامية وخاصة ما كان منها ذا صلة بالدول الأوروبية. ويهمنا في هذا الصدد وعلى وجه التخصيص، مصر الإسلامية المملوكية. فالمؤرخون المصريون في هذه الفترة، لا يهتمون عادة إلا بذكر خبر وصول القصاد والرسول والسفراء إلى القاهرة ومغادرتهم لها، أو بإرسالهم من قبل سلاطين المماليك. وقل أن نجد منهم من يهتم بما وراء ذلك، إلا إذا كان ذا حظوة لدى السلطان القائم بالأمر، تتيح له الاطلاع على حقائق الأمور ومداخلها ومخارجها. واهتمامهم هذا يكاد يقتصر على ما هو خاص بالدول والإمارات الإسلامية. أما ما كان منها خاصًا بالدول الأوروبية التي تربطها بالدولة المملوكية مصالح عديدة، فإن الباحث يضنيه التعب حتى يظفر بخبر قصير مقتضب يشير أحيانًا إلى اسم الدولة التابع لها الرسول، ولكنه في غالب الأحيان ينسب إلى طوائف الفرج مجتمعة. هذا، بالإضافة إلى أن العلاقات الخارجية لا يمكن أن توفى حقها من البحث العلمي الدقيق إلا بالاطلاع على الوثائق التاريخية من مكاتبات أو معاهدات. وللأسف الشديد فإن هذه الوثائق الخاصة بمصر المملوكية فقدت معظم صورها الأصلية المكتوبة باللغة العربية، ولم يصل إلينا منها إلا النزر

(١) انظر :

Wiet: Deux princes ottomans à la cour d'Egypte, dans B. I. E., T. xx, Le Caire 1938, pp. 137-150 - Réfugiés politiques ottomans en Egypte, dans Arabica, T. 1 Sept. 1654, Fasc. 3, pp. 257-271.

القائل أو النسخ المترجمة إلى اللغة اللاتينية أو اللغات الأوروبية المحفوظة بدور الوثائق والمكتبات في أوروبا وفي استانبول .

وجم سلطان هو أحد هؤلاء اللاجئين السياسيين إلى مصر ثم إلى رودس والتجأؤه إلى مصر وما أعقب ذلك من نشوب الحرب بين العثمانيين والمماليك ، يفسره تاريخ العلاقات بينهما منذ عهد بايزيد الأول وبرقوق وابنه الناصر فرج^(١) . فما حدث في عام ١٤٨٤ ، كان على وشك الحدوث بين الدولتين في مطلع القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي ، لو لم يحل دون ذلك غزو تيمورلنك لبلاد الشام وآسيا الصغرى ، وهزيمته لبازيد الأول في موقعة أنقرة وأسره له في عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م . ومرجع ذلك إلى تنازع النفوذ بين الدولتين بآسيا الصغرى ورغبة العثمانيين في توحيد آسيا الصغرى تحت رايتهم والقضاء على النفوذ المملوكي بها . وقد خرج العثمانيون من معركة أنقرة بدرس بالغ ، وهو أن الوقت لم يحن لتنفيذ خططهم هذه بحمد السيف . وكانت سياستهم تقوم على الاحتفاظ بالوضع الراهن في آسيا الصغرى ، دون أن يؤدي ذلك إلى التصادم مع المماليك أو مع غيرهم من القوى المجاورة ، حتى يفرغوا من تأمين فتوحاتهم في أوروبا . ولذلك فإن الفترة الواقعة بين عام ١٤١٣ ، وهو العام الذي تمكن فيه محمد الأول من تصفية اخوته المنافسين له على العرش ، وبين عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ فتح القسطنطينية ، مليئة بمحادث الحرب الباردة بين الدولتين وحرص كل منهما على تثبيت سيادتها على الإمارات الحاضرة بينهما وخاصة إمارة قرهان وإمارة دلفادر . فالمماليك لم يتركوا فرصة إلا اغتتموها ، لتدعيم سلطانهم على هاتين الإماراتين ، كما حدث في عهد المؤيد ، وپرسبای وإينال ، وخشقدم وقايتباي . وقد أثبتت الأبحاث الأخيرة أن الخطابات المتبادلة بين الدولتين والتي تعبر عن مظاهر

(٢) عن العلاقات الودية بين المماليك والعثمانيين في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي انظر :

Bjorkmann : Die frühesten türkisch - agyptischen beziehung. in 14 jahrundert, dans Mélanges Fuad Koprülü, Istambul, 1953.

الود والصداقة وتبادل التهاني والاحتفالات بمناسبة الانتصارات على المسيحيين لم تكن إلا ستاراً يُخفى وراءه حقيقة العلاقات من تغايرٍ وتحاسدٍ وتربصٍ كل منهما بالأخرى .

ولم يكن جم أول اللاجئين العثمانيين إلى مصر ولا آخرهم . فقد التجأ إليها كثيرون من أمراء القرمانية والدغادرية الخارجين على طاعة العثمانيين . وشهد بلاط العثمانيين أيضاً كثيرون من هؤلاء الأمراء ومن أمراء المماليك^(٣) .

وقد أخذ محمد الثاني بعد فتحه للقسطنطينية يتجه من جديد إلى العمل على توحيد آسيا الصغرى وترقب الأسباب لذلك . وكاد يفرغ من هذه المهمة في السنوات الأخيرة من حياته ، وكاد أن يؤدي ذلك إلى الحرب مع المماليك لولا أن فاجأه الموت وهو بآسيا الصغرى في منتصف عام ١٤٨١ . ثم أعقب ذلك النزاع بين ولديه ، بايزيد الثاني وجم ، والتجاء جم إلى القاهرة . ولكي تفهم ترحيب قايتباي بجم ومساعدته له ، لابد أن نرجع إلى الوداء إلى عصر إينال وعصر خشقدم لنتتبع حقيقة العلاقات بين الدولتين .

فعلى الرغم من تبادل السفارات ورسائل التهاني بين محمد الثاني وإينال بمناسبة فتح القسطنطينية وبمناسبة انتصاره في موقعة نوقوبردا على جورج برانكوفتش ملك الصرب في عام ١٤٥٦^(٤) ، فإن الباحث يلمس بوادر الاحتكاك بين الدولتين .

(٣) انظر :

مجموعة الرسائل المتبادلة بين سلاطين العثمانيين والمماليك بالخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس (المخطوط يعد للنشر) —

Krammers : De la défaite d'Ankara à la prise de Constantinople, dans R. E. I. , 1938 cahier I .

Darrag: L'Egypt sous le règne de Barsby (thèse sous presse) chap. x, La frontière orientale.

Wiet : Deux prinies, Annexe I, p. 147,

(٤)

فيما يختص بفتح القسطنطينية انظر :

خطاب محمد الثاني إلى إينال يبشره بالفتح [فريدون بك : مجموعة منشآت السلاطين ، =

فمحمد الثانى لم يكتب بإبلاغ نبأ فتح القسطنطينية لإينال بل قام بإبلاغه أيضا إلى شريف مكة ، وطلب منه إعلان هذه البشرى من فوق منابر مكة وتوزيع الصدقات التى أرسلها بهذه المناسبة على فقراء الحرمين . ولم ينظر السلطان المملوكى إلى هذا الاتصال المباشر بشريف مكة بعين الارتياح ، واعتبر ذلك تخطيا له بوصفه صاحب السيادة على الحرمين ، ولم ينب عنه خطورة هذا الاتجاه الجديد للعثمانيين نحو الأراضى المقدسة . ولذلك لم يفته لفت نظر السلطان العثمانى إلى تخطيه إياه ، فتولى الرد نيابة عن شريف مكة وأرفق رده هذا برّدٍ شخصيّ من شريف مكة ، الذى لم يفته بدوره أن يطلب المزيد من إرسال الصدقات وأن يرسل إلى محمد الثانى بعض الشاشات المزمنة بركة من الله^(٥) . وإذا كان إينال قد قاوم هذا الاتجاه للعثمانيين برفق فقد قاومه خشقدم بشدة وعنف .

أما فى آسيا الصغرى فإن كلاً من العاهلين عمل على الحدّ من نفوذ إبراهيم بك ابن قرمان والقضاء على أطاعه التوسعية على حساب كل من الدولتين وإجباره على الاعتراف بسيادتهما . فقد قام هذا الأمير جرياً على سياسة أسلافه بمهاجمة الأراضى العثمانية فى غرب آسيا الصغرى منتهزاً الفترة الحرجة التى مرت بالدولة العثمانية فى أوائل سلطنة محمد الثانى ثم انشغاله بالاستعداد لمهاجمة القسطنطينية . وانتهت هذه

== ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٣١ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٥٧ - ٢٦٣] - جواب إينال المؤرخ فى ٢٠ من ذى القعدة ٨٥٧ هـ - مخطوط رقم ٤٤٤٠ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ١٥٧ ب - ١٦٠ ب ؛ فريدون بك : نفس المرجع ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩] - رد محمد الثانى المؤرخ فى ٢٢ من ربيع الآخر ٨٥٨ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى ٣ من شعبان ٨٥٨ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١٦٠ ب - ١٦٢ ب] وفيما يختص بانتصار محمد الثانى على ملك الصرب انظر :

خطاب محمد الثانى إلى إينال المؤرخ فى ٢ من ذى الحجة ٨٥٩ هـ والذى ورد إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى ٨٦٠ هـ [مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٧٨ ب - ٨٠ ب] - جواب إينال المؤرخ فى أول رجب ٨٦٠ هـ [نفس المرجع ، ورقة ٨٠ ب - ٨٣ ب] .

(٥) فريدون بك ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ [خطاب محمد الثانى إلى شريف مكة] ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ [جواب إينال نيابة عن شريف مكة] ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ [جواب شريف مكة] .

الحرب كما انتهت سابقاتها بانسحاب القرمانيين بمجرد عبور الجيش العثماني للبوسفور والإسراع بعرض الصلح والاعتراف بالسيادة العثمانية ، وهو الصلح الذي تم في ١٢ فبراير ١٤٥٤^(٦) .

ولم يسكت إبراهيم بك على هذه الهزيمة وحاول الحصول على مساعدة الدولة المملوكية . فوصل قاصده إلى القاهرة في ١٧ محرم ٨٥٩هـ / يناير ١٤٥٥م يشكو من محمد الثاني ، فلم يلتفت السلطان إليه^(٧) .

وأثارة هذا الانصراف عنه ، قام في العلم التالي بالإغارة على أطراف الدولة المملوكية المجاورة لإمارته ، واستولى على مدينة طرطوس وقلعة الكولك . واضطر إينال إلى تجريد الحملات ضده . وتبادل الفريقان الهزيمة والانتصار وانتهت هذه الحرب باسترجاع الممالك لممتلكاتهم ثم أتبعوا ذلك بالتوغل داخل إمارته يحرقون ويخربون^(٨) . فأجبروه على طلب عقد الصلح في عام ٨٦٢هـ / ١٤٥٨م والاعتراف بالسيادة المملوكية وتعهد بأن يحسن الجوار مع نواب السلطنة المملوكية ، وإلا يتعرض بسوء ولا يضر الجزيرة قبرص^(٩) .

وبينا كان إينال يقوم بالمحافظة على « حرمة ناموس الملك » بحربه التأديبية ضد القرمانيين كان محمد الثاني يعمل بدوره على تصفية الإمارات الأناضولية الباقية . فضمت

Hammer: Histoire de l'empire ottoman, trad. J. J. Hellert, (٦) vol, II, p. 369-Babinger; Mahomet II Le Conquerant et son temps (1432-1441) , trad del Medico, Paris 1954, pp. 91-92, 135.

(٧) منتخبات من حوادث الدهر ، ص ٢٢١ — ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٢٣

(٨) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ — ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٦ — ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٣٩ — ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٩) مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ١١٩٥ — ١١٩٨ [رد إينال على خطاب إبراهيم بك بن

قرمان المؤرخ في ٢٠ من جمادى الآخرة ٨٦٢ هـ] — منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٣١٨ —

ابن إياس : صفحات لم تنشر ، ص ٥٥ .

فيما يخص العلاقات بين إبراهيم بك وقبرص انظر :

الدكتور سعيد عاشور . قبرص والحروب الصليبية ، ص ١٦٢ — ١٦٤

إمارات کرمان وآیدین وهنتشا وطرايزون وسيتوب^(١٠). ولم يبق أمامه لكي ينتهي من مهمة توحيد آسيا الصغرى سوى إمارتي قرمان ودلغادر .

وما أن انتهى من ضم بلاد البلقان وشبه جزيرة المورة حتى وجد أن الوقت قدحان ليجهز على القرمانيين . ففضلاً عما دأبوا عليه من طعن العثمانيين في ظهورهم وهم يحاربون بالجهة الأوروبية ، فإن إبراهيم بك الذي طالت أيامه في الإمرة وازدادت عظمته قد وجدت فيه البابوية والبنادقة منافسا خطيرا لمحمد الثاني فأطلقوا عليه لقب قومان الكبير Grand Qaraman تشبيهاً له بالسلطان العثماني . وعمل البابا كالكستس الثالث ريبوس الثاني على حثه على الاشتراك في آخر مشروعاتهم الصليبية ضد العثمانيين . وجاءت الفرصة المواتية إلى محمد الثاني عندما توفي إبراهيم بك في عام ١٤٦٤/٥٨٦٨م ودفعته كراهيته للعثمانيين إلى حرمان أولاده من زوجة الأميرة نفيسة عمة محمد الثاني من حقهم في عرش الإمارة وفضل عليهم ابنه إسحق بك الذي رزق به من زوجة ثانية ، ففرّ بقية اخوته إلى استانبول يطلبون العون والمساعدة^(١١) .

في هذا العام الذي قرر فيه محمد الثاني انتزاع إمارة قرمان بحجة التدخل لحماية حقوق أولاد عمته كشف النقاب عن سياسة العثمانيين الحقيقية إزاء الممالك ، فأنهت سياسة المداراة وبدأت سياسة الجفوة والترصص . فالممالك يعلمون تمام العلم أن الخطوة التالية لذلك هي التهام إمارة دلغادر والقضاء على النفوذ المملوكي بآسيا الصغرى . وبدأ

(١٠) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤

Hammer : op. cit, II, p. 369, III, pp. 69-71, 79-85-Babinger: op. cit, pp. 19-29-Kritovoulos: History of Mehmed the conqueror, translated from the Greek by Charles. T. Riggs, Princeton, 1954, pp. 163-165, 165-168, 173-175.

(١١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٧٧ ، ٥٨١ - ٥٨٢

Hammer: III, pp. 115-122 - Babinger: p. 19, 221-222, 223, 224-225, 281-Alderson : The structure of the Ottoman dynasty, Oxford 1956, see table LVII (allianus with Karamangullari) .

محمد الثاني تدخله في شئون إمارة قرمان يارهاب السلطنة المملوكية لمنعها من مدّ يد المساعدة لإسحق بك . فجاء قاصده إلى القاهرة في ٢٨ رمضان ٨٦٨هـ / ٤ يونيو سنة ١٤٦٤م يحمل مكاتبتة إلى خشقدم التي أغفل فيها ذكر ألقابه السلطانية واستهانتها بمخاطبته بلقب المقر الكريم وهو اللقب الذي جرى ديوان الإنشاء المملوكي على تلقيب سلاطين العثمانيين به باعتبارهم دون سلاطين المماليك مرتبة . هذا إلى أن القاصد العثماني امتنع عن تقبيل الأرض أمام خشقدم حسبما جرت به التقاليد^(١٢) . وكان هذا إشعاراً واضحاً بتحول ميزان القوى وإنذاراً لم يخف أمره . ورد خشقدم على هذه الإهانة بالمثل . فرفض إرسال قاصد من قبله رداً على هذه السفارة وطلب من القاصد العثماني أن يغادر القاهرة حاملاً معه جوابه والهدايا التي رد بها هدايا محمد الثاني^(١٣) .

وفي العام التالي أغار محمد الثاني على أمانة قرمان . ولم يتمكن إسحاق بك من الصمود إذ أن خشقدم توانى عن مساعدته ، وانتهى أمره بالتجائه إلى حسن الطويل . وتنصيب أخيه الأكبر بير محمد مكانه على عرش الإمارة . وكان حسن الطويل أمير قبيلة الشاه السوداء قد غدا قوة كبرى في هذه المنطقة وامتدت مملكته من إمارة قرمان غرباً حتى خراسان شرقاً ورأى في مساعدته لإسحق بك فرصة للعمل على زيادة رقعة مملكته على حساب الدولتين المملوكية والعثمانية . وعلى الرغم من أن خشقدم كان يخشى قوته الصاعدة فقد تناهى مؤقتاً عن أطماعه ، وقبل التحالف معه ضد محمد الثاني الذي يمثل خطراً مزدوجاً على كليهما وتقدم إسحق بك تسانده قوات حسن الطويل وتمكن من استعادة بعض المدن القرمانية واتخذ من مدينة لارند مقراً له^(١٤) .

(١٢) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧١ - ٤٧٢ - فيما يختص بلقب المقر الكريم . انظر الدكتور حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، من ٤٨٩ - ٤٩٤ .

(١٣) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٤٧٣ .

(١٤) نفس المرجع السابق ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ . ٤٨٣ - ٤٨٤ ، ٤٨٦ - ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠١ ، ٥٠٧ - ٥٠٨ ، ٥١٣ - الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر . بحث مستخرج من المجلة التاريخية المصرية ، =

وقابل محمد الثاني هذه المناورة بأن مد أصابعه إلى إمارة دلفادر التي تربطه بأمرائها صلة النسب والقراية وأحس خشقدم بتحول الأمير الدلفادري أرسلان بك عنه نحو العثمانيين .

وخشى خشقدم أن ينتهى الأمر بالتهام إمارة دلفادر وبالقضاء على السيادة المملوكية فى آسيا الصغرى . فنشطت الدبلوماسية المملوكية لإجبار العثمانيين على وقف عملياتهم الحربية بآسيا الصغرى والإسراع بجيوشهم عبر البوسفور إلى الجهة الأوروبية واتجهت أنظارها نحو البندقية مستغلة صداقتها لها وحرصها على مصالحها التجارية معها ، وتحفزها للقضاء على الخطر العثمانى الذى أصبح يهدد مياهاها الإقليمية ولم يغب هذا الخطر عن محمد الثانى فاتجه بدوره إلى تأمين الجهة الأوروبية عارضا الصلح على البنادقة حتى يتفرغ للماليك وقد أصبحت الحرب معهم قاب قوسين أو أدنى . واقتضى الأمر أن يتظاهر خشقدم بالرغبة فى إعادة علاقات المودة مع محمد الثانى فغادر القاهرة إلى استانبول قاصدا مصرى فى ٢٧ رجب ٨٦٩ هـ / ٢٥ مارس ١٤٦٥ م رداً على السفارة العثمانية السابقة إلا أنه عاد فى ربيع الأول من العام التالى / ١ أكتوبر ونوفبر ١٤٦٥ يخبر بأن ابن عثمان باق على عدائه ويحمل معه جواباً على مكتبة خشقدم يكفى أن تعلم أنها على قول المعاصرين لم تنصف السلطان المملوكى من حيث عدم ذكر ألقابه السلطانية والإصرار على مخاطبته بلقب المقر الكريم^(١٥) . وفى نفس الوقت مهد البنادقة المقيمون بالاسكندرية للاتصال بين خشقدم وحكومتهم ، ووصل السفير للمملوكى إلى البندقية فى نوفمبر ١٤٦٥ فى الوقت الذى كانت فيه مفاوضات الصلح دائرة مع السفير العثمانى . وقد وجدت البندقية فى العرض المملوكى ما يحقق مصالحها فبادرت بقطع مفاوضات الصلح مع العثمانيين^(١٦) . وكان هذا إنذاراً كافياً

= المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ٢٠٢

(١٥) منتخبات من حوادث الدهور، ص ٤٩٥ ، ٥٠٨ - ٥٠٩ - مخطوط رقم ٤٤٤٠ ، ورقة ٧٦ ب - ٧٨ ب [خطاب محمد الثانى إلى خشقدم].

Babinger : p. 294.(١٦)

لمحمد الثاني اضطره إلى التزيت والتمهل في إتمام توحيد آسيا الصغرى حتى لا يعطى للفرصة للمهاليك والبنادقة للإطباق عليه . وانتهى الأمر بتجميد الموقف بين الدولتين مؤقتاً .

وأتاح هذا لحشقدم أن يسترد أنفاسه ، فأخذ يدبر أمر التخلص من الأمير الدغادري أرسلان بك الذى خرج عن طاعته ومالاً العثمانيين ، ووجد في أخيه شاه بوداق الذى كان لاجئاً بمصر منذ أيام الأشرف إينال ، ما يحقق أهدافه فخلع عليه خلعة الإمارة وغادر القاهرة وبصحبه أحد الدواوية الذى انقضّ على أرسلان بك وهو يخطو داخل جامع مرعثن ليؤدى صلاة الجمعة^(١٧) .

وقذف محمد الثاني في المعركة بأخيه الشاه سوار وكان لاجئاً باستانبول منذ وفاة أبيه سليمان بك وتمكن شاه سوار من أن يسبق أخاه إلى عرش الإمارة ثم أتبع ذلك بمطاردته^(١٨) . وأجبر حشقدم مرة ثانية على الاتصال بمحمد الثاني رجاء الوصول إلى حل سلمى يحول دون نشوب القتال بين الدولتين . فأرسل قاصداً إليه في عام ٨٧١ هـ ١٤٦٦ م يطلب منه عدم التدخل في شئون إمارة دغادري^(١٩) . هذا في الوقت الذى كان محمد الثاني يفكر في سبب للتحرش به ، فوصل قاصد من قبله إلى القاهرة في

(١٧) النجوم الزاهرة ، طبعة W. Popper ، ج ٧ ، ص ٧٣٧ - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

Artin : Zul - Kadr et Bab - Zoueleh, dans B. I. E., 2e sér, no. 6, Le Caire 1886, p. 171 - Babinger : p. 490.

(١٨) النجوم الزاهرة ، نفس الطبعة ، ج ٧ ، ص ٧٣٩ ، ٧٤٧ - منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥١٨ ، ٥٢١ - ٥٢٢ .

Artin : op. cit. p. 178 - Babinger : Ibid.

Wiet : Deux princes, Annexe I, p. 147.

(١٩)

نفس العام يطلب السماح له بمهارة عين عرفة وتقنوات المياه بمكة^(٢٠). ويوضح أن هذا الطلب في هذا الوقت بالذات ليس الدافع إليه الرغبة في عمل الخير ، وإنما يخفي وراءه تطلع العثمانيين نحو بلاد الحجاز والتمهيد لذلك بلفت أنظار المسلمين إليهم . وكان طبيعياً أن يرفض خشقدم ، إذ أن الدولة المملوكية كانت تضع في المقام الأول من سياستها المحافظة على سيادتها الفعلية على الحرمين الشريفين .

واضطرت الدولة المملوكية إلى التدخل الحربي لإعادة هيكلة والمحافظة على حقوقها في إمارة دلفادر . وبدأت الحرب المعروفة بحرب شاه سوار وهي التي جردت فيها ضده أربع حملات كبرى في عام ٨٧١هـ / ١٤٦٦ (في عهد خشقدم) وفي أعوام ٨٧٢ / ١٤٦٧ و ٨٧٣ / ١٤٦٨ و ٨٧٥ / ١٤٧٠ (في عهد قايتباي) . وكانت الهزيمة مصير الحملات الثلاث الأولى وعودة العساكر المملوكية على أسوأ حال ، هذا عدا الهزائم التي لحقت بالقوات الحلبية^(٢١) . أما الحملة الرابعة ، وهي التي تولى قيادتها يشبك من مهدى ، فقد انتهت في أوائل عام ٨٧٧هـ / ١٤٧٢ بالقبض على شاه سوار في قلعة زمنطو (قلعة Tsamandus البيزنطية ، وتسمى حالياً بقلعة العزيزية) والعودة به أسيراً إلى القاهرة حيث شنق على باب زويلة . وقبل عودة القوات المملوكية ، نصبت على عرش الإمارة أخاه شاه بوداق الموالي لمصر^(٢٢) .

Wiet: Ibid - Babinger : p. 491 - Laoust: Les gouverneurs (٢٠)
de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans, trad. des
Annales d'Ibn Tulun et d'Ibn Güm'a, Damas 1952, p. 31,32,33.

(٢١) منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٥٣٠ — ٥٣١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٦٠٣ —
٦٥٠ [الحملة التي أرسلها خشقدم] ، ص ٦١٩ — ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ،
٦٣٣ — ٦٣٥ [٨٧٢ هـ] ، ص ٦٣٦ — ٦٣٧ ، ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ — ٦٤٥ ، ٦٤٨ —
٦٧٢ — ٦٧٣ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١٤ — ٧١٦ [٨٧٣ هـ] —
ابن إياس : طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٧ ، ١٠ — ١١ ، ١٢ — ١٣ [٨٧٢ هـ] ، ص
١٤ ، ١٩ ، ٢١ — ٢٢ ، ٢٤ — ٢٦ ، ٢٧ [٨٧٣ ، ٨٧٥ هـ] .

(٢٢) تاريخ يشبك الظاهري ، مخطوط استانبول رقم ٣٠٥٧ ، ورقة ١٢١ ب — ١٣٨ ، =

هذا وجدير بالذكر أن هذا الانتصار على شاه سوار لم يوفق إليه المماليك إلا بعد نجاح السفارة التي أرسلها يشبك من مهدى إلى حسن الطويل في إقناعه بالكف عن مساعدته^(٢٣). وكذلك بعد اتفاق قايتباي ومحمد الثاني على تقاسم النفوذ ، فينفرد العثمانيون بإمارة قرمان وينفرد المماليك بإمارة دلقادر . وقد دفعهما إلى ذلك اتفاقهما في الرأي على مواجهة أطماع حسن الطويل التوسعية في أعالي الفرات وفي آسيا الصغرى . ففي المسكر الآخر ، كانت إمارة قرمان مسرحاً للقتال بين بير محمد يناصره العثمانيون ، وأخيه إسحق بك يناصره محسن الطويل الذي وأصل قايتباي سياسة خشقدم إزاءه ومدّه بالمساعدة والمعونة . ومع هذا فما إن أحسّ بير محمد باستقرار عرش الإمارة نوعاً ما حتى دفعته كراهية القرمانية للعثمانيين التي تجرى في دمه ، إلى التمرد على محمد الثاني والتطلع إلى مخالفة البنادقة ضده . إذ كان يخشى ضم الإمارة نهائياً إلى الحكم العثماني وزوال استقلالها . وإزاء هذا الخطر ، فقد اضطر محمد الثاني إلى عبور البوسفور ، فدخل قونية في عام ٨٧٢ / ١٤٦٨ وسارع بير محمد بالفرار بمجرد اقتراب القوات العثمانية منها ، وأعقب ذلك بضم الإمارة نهائياً إلى الدولة العثمانية وتولية ابنه مصطفى شلي والياً عليها . ثم أخذت القوات العثمانية تقضي على جيوب المقاومة التي تزعمها كلٌّ من إسحق بك وبير محمد الذي لجأ بدوره إلى حسن الطويل . واستمرت مقاومة الأميرين بضع سنوات بفضل مساعدة حسن الطويل لهما^(٢٤) .

وهكذا فشلت الدولتان في القضاء على الخارجين على طاعتها من أمراء التركمان والقرمانية والدلقادرية وأجبرتهما الظروف على التسليم بالأمر الواقع وتقاسم النفوذ.

نصف ١٥٤٠ ب ١١٧٢١ - ابن اياس ، طبعة استانبول ج ٣ ، ص ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ .
(٢٣) تاريخ يشبك الظاهري ، مخطوط استانبول ، ورقة ١٣٨ - ١٥٤ ب [سفارة قاضي

المسكر الشمس ابن أجا إلى حسن الطويل]

(٢٤) Hammer : III, pp. 137-138, 140-Babinger : pp. 325-

326;337.

في هذا الوقت أرسل يشبك من مهدي ، قائد الحملة المملوكية الأخيرة في عام ٨٧٦ / ١٤٧١-١٤٧٢ قاصداً إلى محمد الثاني يطلب منه السكف عن مساندة شاه سوار والوقوف موقف الحياء في النزاع بينه وبين أخيه شاه بوداق . ونجحت هذه السفارة ورد محمد الثاني قصّاد شاه سوار الذين كانوا موجودين باستانبول وقتذاك يستنجدون به . ثم نشطت الدعاية المصرية تذييع في ربوع إمارة دلفنادر تخلي السلطان العثماني عن مساعدته وعدم رضائه عنه ، فانقض من حوله أمراء التركان حتى اضطر إلى الاستسلام^(٢٥) . وأتاح انتصار محمد الثاني على البنادقة في عام ١٤٧٠ واستيلائه على جزيرة بجريون تفرغه للقضاء على مقاومة الأمراء القرمانية ثم محاربة حسن الطويل وخاصة بعد أن علم باتصاله بالبنادقة بقصد التحالف معهم للإطباق على العثمانيين في آسيا وأوروبا في وقت واحد . وتمكن محمد الثاني من إيقاع الهزيمة بإسحق بك أمام مدينة العلايا في عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ ، ثم أجه بقواته لملاقاة حسن الطويل الذي حلت به الهزيمة بالقرب من ترجان Terdjan في أول ربيع الأول ٨٧٨ هـ / ٢٦ يوليو ١٤٧٣^(٢٦) . وبعد ذلك ببضعة أشهر حلت به هزيمة ثانية على يد المماليك^(٢٧) .

وعادت الدولة العثمانية مرة ثانية إلى سياسة الداراة والتظاهر بالملاقات الودية ، إذ شغل محمد الثاني بحرب البنادقة وهي الحرب التي ملبأت الفترة من عام ١٤٧٤ حتى

(٢٥) تاريخ يشبك الظاهري ، مخطوط استانبول ورقة ١٣٨ ، ١٦٧-١٦٧ ب - ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

Artin : p. 179,180.

(٢٦) Hammer.: III, p. 141, 142-144, 151-168, 172-185-
Badinger : p. 325, 327, 361 - 363, 364, 370 - 371-Grösset :
Histoire de l'Asie, vol. III, Paris 1922, p. 127, 128, 129, 130, 131 suiv...

(٢٧) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ - ٨٨ -
الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك في مصر ، ص ٢٠٣

عام ١٤٧٩ وانتهت بعقد معاهدة الصلح معهم . ويكفينا دليلاً على ذلك أنه لم تكد تنتهى هذه الحرب حتى اتجه محمد الثانى بقواته فى عام ١٤٨٠ إلى آسيا الصغرى وعاد إلى التدخل فى شئون إمارة دلفنادر تمهيداً لضمها وإتمام توحيد آسيا الصغرى^(٢٨).

ولم تغب عن قايتباى نوايا محمد الثانى ، وكان على يقين من أن الأمور مع العثمانيين لم تُسوِّ بعد ، ولا بد من القتال فى خاتمة المطاف . ومن ثم كانت رحلته التفتيشية إلى آسيا الصغرى وأعالى القرات فى عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ م وهى الرحلة التى عمل أثناءها على عمارة القلاع والحصون وشحنها بالحاميات والأسلحة وإصلاح طرق البريد وهو أمرٌ على جانب كبير من الأهمية الحربية^(٢٩).

وقد تحقق ظن قايتباى ، فلم تعوز الوسيلة محمد الثانى ، إذ كان لا يزال يوجد لديه باستانبول رصيد من الأمراء الدلفنادريين اللاجئين إليه ، وهما علاء الدولة بك ، وعبد الرزاق بك أصغر أولاد سليمان بك . وقذف محمد الثانى بعلاء الدولة الذى تمكن فى عام ٨٨٥ هـ / ١٤٨٠ بمساعدة القوات العثمانية من طرد أخيه شاه بوداق والترجع على عرش الإمارة والاعتراف بالسيادة العثمانية^(٣٠). ثم تحرك محمد الثانى وعبر البوسفور بجيشه إلى آسيا الصغرى ليكون على مقربة من تطور الحوادث . إلا أنه توفى مسموماً فى ٤ مايو سنة ١٤٨١ بالقرب من بلدة جبزة Ghebze وقد اتهم ابنه بايزيد بدس السم له ، إذ أن العلاقات بينه وبين أبيه لم تكن طيبة فى الفترة الأخيرة نظراً لما يقال من أن الصدر الأعظم كان قد أقنع محمد الثانى بتولية عهده لابنه جيم^(٣١).

(٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

Babinger:p. 490.

(٢٩) Devonshire:Rélacion d'un voyage du sultan Qaitbay en Palestine et en Syrie, trad, de l'arabe, in B. I. F. A. O., T.xx, Le Caire, 1921, pp. 1-40 - Wiet:L'Egypte arabe, pp. 594-595.

Babinger:p. 490-Artin p. 181. (٣٠)

Babinger: pp. 491-492,493-494 (٣١)

وانتظر قايتباي لما عس أن يسفر عنه تطور الحوادث داخل الدولة العثمانية . فلم يلبث أن ثار النزاع بين الأخوين بعد أن أعلن جم نفسه سلطاناً للدولة العثمانية واتخذ مدينة قونية مقراً له ، وأقام الخطبة وضرب السكة باسمه . إلا أنه اضطر بعد هزيمته أمام قوات أخيه في موقعة بني شهر إلى الفرار ومعه والدته وزوجته إلى سورية . ولم يتمكن علاء الدولة ابن دلفادر من تنفيذ أوامر بايزيد من القبض عليه ومنعه من الالتجاء إلى الدولة المملوكية^(٣٢) ، فوصل القاهرة في شعبان ٨٨٦هـ / سبتمبر - أكتوبر سنة ١٤٨١^(٣٣) .

وحاول قايتباي في بادئ الأمر ، التوفيق بين الأخوين على أساس تقسيم السلطة بينهما فيحكم جم الولايات الآسيوية ويحكم بايزيد الثاني الولايات الأوروبية . إلا أن بايزيد ردّ على ذلك بعبارة المشهورة (لا أرحم بين الملوك) . ومن ثم أخذ قايتباي بعد العدة لأمداده بالمال والجند لرحيله إلى آسيا الصغرى للحصول على حقه بحد السيف ، على الرغم من عدم موافقة أمراء المماليك خشية أن يؤدي ذلك إلى نشوب القتال بينهم وبين العثمانيين ، والعهد قريب بالهزائم التي حلت بهم على يد شاه سوار وحسن الطويل قبل انتصارهم الأخير عليهما^(٣٤) ، وعلى الرغم من خلو الخزائن من

Thusane : Djem-Sultan (1459-1495), Paris 1892, pp. (٣٢)

39-40-Alderson : pp.6-7, 38-39.

Hammer : III, p. 347 - Thuasne : pp. 47-48, 41-50 — (٣٣)

Wiet : Deux princes, pp. 139-140 —

ابن اياس ؛ طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣٤) ابن اياس ، استانبول ، ج ٣ ، ص ١٨٦ — الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك

في مصر ، ص ٢٠٤ .

Wiet : Deux princes, 140-141 — Hammer : III, pp. 351-356-
Thuasne : pp. 50-51

[يذكر نقلاً عن المراجع البندقية أن قايتباي أمده بمبلغ ٤٠ ألف دوكة وقوة عسكرية ، كما قدم له كل من نائب دمشق ونائب حلب ١٠ آلاف دوكة]

الأموال لكثرة ما صرف على التجاريد السابقة^(٣٥). إلا أن الظروف السياسية اقتضت دفع العثمانيين في غمار الحرب الأهلية ، حتى تتاح لقايتهاي فرصة إبعادهم عن التدخل في شئون إمارة دلفادر ، وتثبيت السيادة المملوكية عليها .

ونعادر جم القاهرة تاركاً بها والدته وزوجته ثم ابنه عليا الذي وُلد فيها بعد^(٣٦) . وجاءت الأمور على غير مايشتهى قايتهاي ، فخلت به الهزيمة وأجبرته الظروف في هذه المرة على الالتجاء إلى فرسان الاسطارية بجزيرة رودس في ٢٩ يوليو ١٤٨٢ ، بقصد العبور منها إلى أوروبا ومتابعة الحرب ضد أخيه معتمداً على أخواله المجريين . فأتمه جيجك Gigeك كانت أصلاً مسيحية تمت بصلة القرابة إلى ملك المجر ما تياس كورفانوس Mathias Corvinus أخذت أسيرةً عندما اجتاحت والده محمد الثاني بلاد الصرب في عام ١٤٥٩^(٣٧) . ولكن جم ، الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين عاماً أخطأ التقدير والحسبان فجزيرة رودس كانت هدفاً استراتيجياً لمحمد الثاني بعد انتهائه من ضم إمارة قرمان المقاتلة لها وخاصة بعد الدور الذي قام به فرسان الجزيرة من مساعدة البنادقة والأمراء القرمانية الخارجين على طاعته في عام ١٤٧٣ ولم تكن مفاوضات الصلح التي قام بها الأمير جم بتكليف من أية بعد أن ولاه إمارة قرمان سوى ذريعة للرماد في العيون حتى ينتهي محمد الثاني من حربه مع البنادقة وهي الحرب التي انتهت بعقد الصلح معهم في عام ١٤٧٩^(٣٨) . وإذا كان الفرسان قد تمكنوا من صد هجمات

(٣٥) بلغ مجموع ما أنفقه قايتهاي على التجاريد التي أرسلها ضد شاه سوار وحسن الطويل منذ عام ٨٧٢ هـ حتى عام ٨٧٧ هـ مبلغ ثلاثة ملايين وسبعمائة وسبعين ألف دينار . انظر تاريخ الملك الأشرف قايتهاي ، مخطوط رقم ٦١ تاريخ ، دار الكتب ، ورقة ١٦ - ١٥ ب .

(٣٦) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ [الاحتفال بختان ابنه على مع ختان محمد بن قايتهاي في رجب ٨٩٥ هـ] ، ص ٢٨٦ [وفاته في ذي الحجة ٨٩٧ هـ] .

(٣٧) — Thuasne: p. 2, 52-56 — Hammer: III, pp. 351-356

Alderson: See table xxvii (Mehmed II and his family).

(٣٨) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

الأسطول العثماني على جزيرتهم في ذلك العام وفي العام الذي تلاه فإنها لم تنج من غزو محققٍ إلا بوفاة محمد الثاني فجأة على الشاطئ المقابل لها بآسيا الصغرى^(٣٩).

في هذا الوقت العصيب جاءت الأقدار بحجم سلطانا ووجد دوبوسون. رئيس الفرسان الاسبتارية في التحفظ عليه خير فرصة لمنع العثمانيين من غزو الجزيرة ، واضطر بايزيد الثاني إلى مفاوضته في عقد الصلح والرضوخ لشروطه . فقبل مرغماً أن يدفع له سنوياً مبلغ ٤٥ ألف دوكة في مقابل الاحتفاظ به ومنعه من استئناف القتال ضده. واقتضت خطة دوبوسون نقلهم في سبتمبر ١٤٨٢ إلى فيلا فرانكا أحد بيوت الفرسان الاسبتارية بجنوب فرنسا ، بعيداً عن أعين العثمانيين ومناوراتهم لاستعادته^(٤٠).

وما أن اطمأن بايزيد الثاني مؤقتاً باتفاقه مع دوبوسون حتى اتجه لمحاسبة المالك على موقفهم السابق من أخيه والعمل على تنفيذ سياسة أبيه من إتمام توحيد آسيا الصغرى تحت الراية العثمانية والقضاء على النفوذ المملوكي بها . وزاد في توتر العلاقات أن قايتباي قبل تجديد معاهدة الصلح مع فرسان الاسبتارية في ٢٨ أكتوبر ١٤٧٩ عند ما شعروا بنوايا محمد الثاني العدوانية إزاء جزيرتهم^(٤١) . وهم بهذا يطبقون مبدأ رئيسياً من سيادتهم التي أملاها عليهم موقع الجزيرة بين العثمانيين والمالليك ومطمع كل منهما في الاستيلاء عليها . فقد درجوا على المبادرة بعقد الصلح مع إحدى الدولتين في الوقت الذي يكونون فيه على وشك الحرب مع الدولة الثانية حتى يتيح لهم ذلك

Thusne: pp. 11-18 — Babinger: p. 366. (٣٩)

Hammer : III, pp. 356-357 — Thusne: pp. 54-47, 57, (٤٠)
67-69.

Thuasne: p. 18 — Babinger: p. 466. (٤١)

فرصة التفرغ لمواجهة الخطر من جانب واحد^(٤٢). وواضح أيضاً أن استيلاء العثمانيين على الجزيرة يمثل خطراً موجهاً إلى المماليك وخاصة بعد وصول العثمانيين بممتلكاتهم إلى الطرف الجنوبي من آسيا الصغرى، فضلاً عما يثير ذلك في نفوس المماليك من شجى بسبب فشلهم من قبل في غزوها. هذا بالإضافة إلى ما شاع في القاهرة من أن قايتباي راقب في عينه الهدية الحافلة التي أرسلها أحد ملوك الهند على يد بعض تجارهم إلى السلطان العثماني والتي احتاط عليها نائب جده وأحضرها إلى السلطان بالقاهرة، وكان من بينها خنجر ثمين^(٤٣). وإن صح هذا القول فإنه لا يعتبر سبباً كافياً يبرر نشوب الحرب بين الدولتين، ومن الجاز أن يُفسر تصرف قايتباي هذا في ضوء العلاقات العدائية القائمة فعلاً قبل ذلك بينه وبين محمد الثاني وابنه بايزيد الثاني.

وكيفما كان الأمر فما أن حل صيف عام ١٤٨٣، وهو الوقت المناسب للعمليات الحربية في هذه المنطقة الجبلية من آسيا الصغرى حتى تحرك علاء الدولة بن دلفادر وخرج على طاعة الدولة المملوكية وأغار على مدينة ملطية تسانده القوات العثمانية، فخرجت العساكر المملوكية لرد عدوانه^(٤٤). وهكذا بدأت الحرب المملوكية - العثمانية التي انتهت بعقد الصلح بينهما في عام ١٤٩١^(٤٥). وانتصر المماليك في هذه الحرب

(٤٢) تطبيقاً لهذه السياسة عقد فرسان الاسبتارية الصلح مع مصر في عام ١٤٠٣ و١٤٢٧ و١٤٤٥. انظر:

Darrag : E'Egypte sous le regne de Barsbay, chap. VII (La conquête de Chypre), chap. IX (La politique de Barsbay en Méditerranée).

(٤٣) ابن اياس، طبعة استامبول، ج ٣، ٢١٠ - الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥.

Thuasne : p. 142.

(٤٤) ابن اياس، نفس الطبعة والجزء، ص ١٩٧، ١٩٨ - Laoust p. 34

(٤٥) فيما يختص بهذه الحرب انظر :

الدكتور زيادة : نفس المقال ص ٢٠٥ - ٢٠٩

C. I. A., Egypte, I, pp. 549-550 et notes - Wiet : L'Egypte arabe, pp. 598-694 - Laoust- pp. 35, 36, 37, 38.

انتصاراً لم يكن يتوقعه المعاصرون ، وكان موضوع جم من غير شك أحد العوامل الرئيسية في هزائم العثمانيين المتتالية ، إذ أن بايزيد كان يحارب والخوف يتملكه على عرش السلطنة ، فضلاً عن عوامل أخرى ليس هنا مجال إثباتها .

ولنترك موضوع الحرب المملوكية - العثمانية ، لتتابع مأساة جم وما أثارته من صراع دبلوماسي عنيف بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة ثانية ، وبين القوى الأوروبية التي ارتبطت عداوة أو صداقة بهاتين الدولتين الإسلاميتين أو ببعضها البعض ، وهي فرسان الاسطورية بردوس ، والمجر ، والبندقية ، وناپلي ، وفلورنسة ، ودوقية سافوى ، وفرنسا ، والبابوية . ومن هنا كان الاختلاف الشديد في موقف هذه القوى إزاء جم . فبعضها كان يسعى لتسليمه لآخذه ذريعة لشن حرب تحريرية ضد العثمانيين بأوروبا . والبعض الآخر كان يتآمر لتسليمه إلى المماليك لتحقيق مصالحه الخاصة . وفريق ثالث كان يعمل جاهداً على التحفظ عليه حيث يقيم بجنوب فرنسا أو بروما بعد نقله إليها كوسيلة من وسائل تهديد العثمانيين تجنباً لحربهم وحرصاً على المحافظة على سلامة بلاده من الغزو . وفشلت البابوية بسبب تضارب مصالح هذه القوى في التوفيق بينها واغتنام هذه الفرصة لتكوين حملة صليبية عامة ضد العثمانيين والإطباق عليهم في الجبهة الأوروبية في الوقت الذي تتوالى فيه الهزائم عليهم على يد المماليك بآسيا الصغرى .

وفي الفترة ما بين عام ١٤٨٢ ، وعام ١٤٨٨ كان مركز الثقل السياسي لهذه المشكلة الدولية موزعاً بين ردوس ، وروما ، وباريس ، فهذه العواصم الثلاث كان بيدها وحدها حق تقرير مصير جم ، وإليها اتجهت مجهودات جميع القوى المتنازعة عليه . ثم اتجهت الدبلوماسية الدولية نحو القاهرة في عامي ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، وعلى الأخص قبيل الانتصار الثاني للمماليك على العثمانيين تحت أسوار أدنه وطرسموس في ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، وقبل بدء المعركة الثالثة بينهما في عام ١٤٩٠ . فانتصار المماليك النهائي أصبح أمراً

كثير الاحتمال وبذل قايتباي بدوره جهداً كبيراً مع هذه الدول الأوربية لاستعادة جم استعداداً للجولة الأخيرة . وليس أدل على ذلك من أن القاهرة شهدت في هذين العامين استقبال عدة سفارات من المجر وفرنسا ودوقية سافوى وقلورنسة والبندقية والبابا أنوسنت الثامن وأيضاً العثمانيين الذين جاء رسوهم بعرض الصلح . وما أن عُقد الصلح بين المماليك والعثمانيين في عام ١٤٩١ حتى خف الاهتمام بأمرهم وفقد موضوع استعادته ما كان له من أهمية عظيمة .

وقد أوضحت لنا الدراسات التي قام بها فون هر Von Hammer وتوازن Thuasne سياسة العثمانيين وسياسة هذه القوى الأوربية . إزاءهم . ولكن سياسة قايتباي في هذا الصدد لم تنل منهما مثل هذا القدر من العناية نظراً لبعدها عن دراسة عصر قايتباي دراسة وافية شاملة . ويجمل بنا ، أن نوجز هنا عرض دراستهما حتى يلقى ذلك ضوءاً كافياً يمكننا من تفهم سياسة قايتباي .

أما بايزيد الثاني فقد سيطر موضوع جم على سياسته الخارجية سيطرة تامة ، وأدّى ذلك إلى هزيمته أمام المماليك ، وإلى توقف موجة الفتوحات العثمانية في أوروبا مدة طويلة^(٤٦) . وما كاد جم يصل إلى مقر إقامته حتى نشط بايزيد للعمل على استعادته أو للتأكد ، على أقل تقدير ، من عدم وقوعه في يد أحد أعدائه . نقي عام ١٤٨٣ أرسل سفيره حسين بك إلى ردوس حاملاً إلى فرسان القديس يوحنا ، المبلغ المتفق عليه وهدية عزيزة عليهم ، ألا وهي اليد اليمنى لراعيتهم القديس يوحنا حتى يسمحوا له بمواصلة السفر إلى جنوب فرنسا للاطمئنان على وجود جم تحت حراستهم . وفي فرنسا حاول السفير العثماني الحصول على وعدٍ من لويس الحادي عشر بالمحافظة على وجود جم في بلاده والامتناع عن تسليمه لأحدٍ من أعدائه مقابل أن يتعهد له بايزيد الثاني بدفع مبلغ كبير من المال كل عام وأن يقدم له جميع مخلقات القديسين الموجودة بالقسطنطينية . ولكن لويس الحادي عشر رفض التقيد بمثل هذا الوعد ،

على الرغم من نزعتة الدينية وهو يعاني مرض الموت . وبعد وفاته جدد السفير العثماني هذا العرض على ابنه شارل الثامن ، إلا أن نصيبه كان الرفض أيضاً^(٤٧) . وحاول بايزيد محاولات أخرى مع كل من البندقية في عام ١٤٨٣ ومع البابا أنوسنت الثامن بعد نقل جم إلى روما في عام ١٤٨٩ ومع خليفته إسكندر بورچيا بعد عام ١٤٩٢ ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولات جميعها^(٤٨) .

ووجدت المجر في ذلك فرصة طيبة للهجوم على العثمانيين واستعادة ما انتزعتها من بلادها ، في الوقت الذي يوجد فيه الجزء الأكبر من قواتهم العسكرية بآسيا الصغرى . تحارب الماليك . وكان لها في قرابة الدم التي تربطها بجم وفي رغبته التي أبدتها بمجرد وصوله إلى فيلا فرانكا من مواصلة السفر إلى المجر لمواصلة حربه مع أخيه ما يقوى مطلبها الخاص بتسليمه^(٤٩) . فأعلن ملكها ماتياس كورفانوس في عام ١٤٨٢ استعداده لبدء حرب مقدسة ضد الأتراك إذا ما قام البابا بتسليمه إليه وقام ملوك أوروبا بمساندة جهوده والهجوم على الدولة العثمانية بجمراً . ولكن أحداً لم يستجب إليه فاضطر في العام التالي إلى عقد الهدنة مع بايزيد الثاني لمدة خمس سنوات^(٥٠) . وما أن انقضت مدة الهدنة هذه حتى فكر مرة ثانية في تجديد مسعاه ، وبخاصة أن الفرصة كانت مواتية لبدء هجومه على العثمانيين ، بعد هزيمتهم الأولى أمام الماليك ، واستمداد الفريقين للجولة الثانية . فجاء سفيره إلى ردوس في ١٠ يونيو ١٤٨٨ يخبر دوبوسون أنه على اتصال ببعض كبار العثمانيين الذين وعدوه بالتخلي عن بايزيد ومساعدة جم إذا ما تقدم جم على رأس قواته . ولكن رئيس الفرسان كان يخشى تعرض الجزيرة للغزو من جانب الأسطول العثماني الذي عبر مياهها الإقليمية في ٢٨ مايو السابق ، في طريقه

(٤٧) Hammer : III, pp. 361-362,365 — Thuasne : 104-105.

(٤٨) انظر بعد .

(٤٩) Hammer : III, p. 360,363 — Thuasne : pp.99-100.

(٥٠) Thuasne : pp. 120-103,127.

نحو أدنة وطرشوس لمقاتلة الماليك ، ولذلك رفض استجابة طلبه وعلّق ذلك على ضرورة موافقة البابا^(٥١) . وبعد انتصار الماليك على العثمانيين في ١٥ أغسطس جدّد ملك المجر مسعاه لدى البابا الذي كان يقوم في نفس الوقت بمفاوضة شارل الثامن لنقل جم إلى روما حتى يتمكن من مهاجمة الأتراك في هذا الوقت المناسب . ولكن البابا رفض تحقيق طلبه لأن شارل الثامن كان يشترط عليه مقابل السماح بتسليمه عدم تسليمه لأحدٍ إلا بموافقته شخصياً . ولذلك عاد ماثياس كورفانوس ، مضطراً للمرة الثانية إلى تجديد الهدنة القائمة بينه وبين بايزيد الثاني لمدة ثلاث سنوات أخرى^(٥٢) .

وكان فرديناند الثاني ملك نابولي وصقلية يسمى هو أيضاً لأن يكون جم تحت يده . إمّا لاتخاذ ذريعةً لمحاربة العثمانيين أولسالتهم . وإبعاد خطرهم عن مملكته ، أولساومة الماليك على تحقيق أهدافه السياسية في جزيرة قبرص . فالبنديقية بعد عقد الصلح مع محمد الثاني في عام ١٤٧٩ حرّضته على مهاجمة مملكة نابلي التي كانت في عدااء معها ، فتقدّمت الأساطيل العثمانية نحو ميناء أترانتو Otranto في عام ١٤٨٠ واستولت عليها ، إلا أنها أُجبرت على الرحيل عنها في العام التالي^(٥٣) . وعادت البنديقية مرة ثانية في عام ١٤٨٤ إلى تحريض بايزيد الثاني على مهاجمة مملكة نابلي ولكن دوبوسون كان يخشى خروج الأساطيل العثمانية إلى عرض البحر خوفاً من أن تتحول إلى غزو جزيرة رودس ، ولذلك فقد ضغط على بايزيد للكف عن استعداداته الحربية ، مهدداً إياه بتسليم جم إلى أحد أعدائه^(٥٤) ومن جهة ثانية كان فرديناند الثاني يعمل منذ مدة طويلة من أجل الحصول

(٥١) انظر بعد (العلاقات بين قايتباي ورودس والجر في عام ١٤٨٨)

(٥٢) Thuasne : p. 200.

(٥٣) شارل ديل : البنديقية ، ص ١٤٠ ، ١٦٨

Hill : A history of Cyprus vol. III, The Frankish period. 1432-1571, Cambridge 1948, pp.733-743.

(٥٤) - (٥٤) Thuasne : 118-119.

على عرش قبرص لدون ألونزو Don Alonzo أحد أبنائه غير الشرعيين^(٥٥) . وكاد
جم يقع في أيدي رجاله أثناء عبور السفينة التي تنقله عبر مضيق ميسينا^(٥٦) . وما أن
وصل نجم إلى جنوب فرنسا حتى بادر يطالب رئيس الاستبارية بتسليمه إليه . ثم عاد
نجدد مطالبته هذه في عام ١٤٨٥ بعد أن علم بنوايا بايزيد الثاني العدائية ضد مملكته^(٥٧) .
وطلبه مرة أخرى البابا أنوسنت الثامن أثناء مفاوضاته مع شارل الثامن . إلا أن
البندقية كانت حريصة على إفساد مسعاه ، فأخبرت البابا بأنه متفق سراً مع بايزيد على
تسليم جم له مسالمة له ، وبذلك سيتحول العثمانيون إلى محاربة البنادقة^(٥٨) .

أما البندقية فقد ظلت تنذب الحظ الذي لم يمكنها وهي سيدة البحر المتوسط من
وقوع هذا الصيد الثمين في يدها^(٥٩) حتى تستطيع مساومة بايزيد الثاني بعد هذا
الصلح الشائن الذي اضطرت لعقده مع أبيه ، وهو الصلح الذي لم يترك لها سوى
بعض المراكز التجارية ذات القيمة الثانوية في شبه جزيرة المورة وبعض الجزر الصغيرة
في مدخل بحر الأدرياتيك وجزيرة كريت وجزيرة قبرص التي كانت تباشر شئون الحكم
الفعلية فيها باسم الملكة كاترين كورنارو^(٦٠) . أما ولم يُقدّر لها ذلك فقد عملت
دبلوماسية على الاحتفاظ بصداقة العثمانيين درءاً لخطرهم حتى تتفرغ لسياستها في
إيطاليا التي استلزمها انسحابها من شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل ومواجهة القوى
الإيطالية المتحالفة ضدها وهي : البابا ونابلي وفرارا وفلورنسه وميلانو . وكانت

(٥٥) انظر بعد .

(٥٦) Hammer: : III, p. 358.

(٥٧) Thuasne : pp. 101-102, 133.

(٥٨) Ibid : p. 188.

(٥٩) Ibid : p. 198.

(٦٠) شارل ديل : البندقية ، ص ١٤٠

حريصة أيضاً على أن تتوَّج سياستها التي بدأتها في جزيرة قبرص عقب وفاة جيمس الثاني في عام ١٤٧٣ بضم الجزيرة إلى ممتلكاتها . ولم تكن تخشى البندقية على سياستها هذه بجانب الماليك ، إذ قد عرفت بخبرتها الطويلة معهم كيف تحقق أغراضها مع سلاطينهم بدبلوماسية الرنة وبالأموال والهدايا التي كانت تقدمها إليهم وإلى كبار الأمراء ، وإنما كانت تخشى أن يتجه العثمانيون أثناء الحرب المملوكية العثمانية إلى انتزاعها واتخاذها قاعدة لهم في مهاجمة الشواطئ المملوكية^(٦١) . ولذلك كانت تعمل جاهدة على أن يظل نجم في نيس بعيداً عن مسرح الحوادث بالشرق الأوسط ، ومن أجل ذلك تصدت لإحباط إعادته إلى العثمانيين ووقوعه في يد أحد أعدائهم . واكتفت في عام ١٤٨٣ ببذل الوعود لبازيد الثاني عندما أرسل إليها اسكندر بك القائد الألباني المشهور يفاوضها في أن تعمل على تسليم نجم إليه في مقابل التنازل لها عن شبه جزيرة المورة ، ولم تتحرك خطوة نحو تحقيق هذه الرغبة^(٦٢) . وفي العام التالي قابلت بكل تحفظ العرض الذي تقدم به دوبوسون بأن يسلم إليها نجم ، وقررت بعد أن ناقشته في جلسة سرية عدم الاستمرار في هذه المفاوضات لكيلا تثير شكوك السلطان العثماني^(٦٣) . وفي نفس العام اعتذرت للسفير الذي أرسله دوق سافوي الذي جاء يعرض عليها الاتفاق على تهريب نجم إليها على أن تقوم البندقية بمساعدته في الحصول على حقوق الملكة شارلوت في عرش قبرص ، وهي الحقوق التي كان من المتفق عليه أن تؤول إليه بعد وفاة شارلوت^(٦٤) . بل ذهبت إلى أبعد من هذا ، إلى إحباط الاتصالات بين قايتباي ودوق سافوي^(٦٥) ، وإحباط مساعي ملك نابولي لدى البابا في عام ١٤٨٨^(٦٦) .

(٦١) انظر بعد .

(٦٢) Thuasne : 106.

(٦٣) Ibid : pp. 124-125.

(٦٤) Ibid : pp. 109-110

(٦٥) انظر بعد العلاقات بين قايتباي وقبرص وسافوي .

(٦٦) Ibid : 188.

وحاول البابا أن يوسّط التوفيق بين هذه القوى الأوروبية المتعارضة.. إلا أنه لم يوفق في ذلك بسبب سياسة البتادقة والروادسة الذين وضعوا في المقام الأول من سياستهم تجنب عداوة العثمانيين خوفاً على ممتلكاتهم ولما يعرفونه من فشل بحقق للمبشّروعات الصليبية^(٦٧). ولذلك بدأ البابا يفكر جدياً منذ عام ١٤٨٥ في نقل جم إلى روما والتجفّظ عليه تحت يده إلى أن يحين الوقت المناسب لتبفيذ مشروعه^(٦٨). وفي ١٣ فبراير ١٤٨٦ تمكّن من الوصول إلى اتفاق مع دوبرسون في هذا الصدد، بمقابل منحه قبعة الكردينالية والموافقة على ضم بعض طوائف الرهبان إلى طائفه فرسان القديس يوحنا مع ما يتبع ذلك من ضم أموالهم وممتلكاتهم^(٦٩). وفي العام التالي نشط لمفاوضة شارل الثامن ملك فرنسا في نقله إلى روما وطالت هذه المفاوضات واستغرقت ما يقرب من عام نظراً لتشدّد ملك فرنسا من جهة، ونظراً للمحاولات التي قام بها كل من ملك المجر وملك نابلي، وفلورنسة لتسلم جم. وأخيراً غادر جم جنوب فرنسا إلى روما في ٨ نوفمبر سنة ١٤٨٨ فوصلها في ١٣ مارس سنة ١٤٨٩^(٧٠).

وما أن استقر المقام بجم في القصر البابوي حتى طلب من البابا السماح له بالسفر إلى القاهرة لرؤية والدته وزوجته وأولاده فلم يسمح له بذلك^(٧١). وفي روما تقابل سفير بايزيد الثاني وسفير قايتباي، كل منهما يحاول أن يحرك العواطف الإنسانية في قلب البابا حتى يطلق سراح جم، ثم انتقل كل منهما من التوسل إلى المساومة. فعرض السفير العثماني أن يسلم للبابا جميع مخلفات القديسين الموجودة بالقسطنطينية،

Ibid : pp. 126-127. (٦٧)

Ibid : pp. 128-133. (٦٨)

Ibid pp. 138-140 (٦٩)

Ibid : p. 176 — Hammer III, pp. 365-366 (٧٠)

Hammer : III, p. 376 (٧١)

وأشار السفير المصرى إلى انتصار المماليك على العثمانيين فى العام الماضى وطالب بتسليمه إلى قايتباى أو لأحد أعداء العثمانيين حتى يتحقق النصر النهائى على العثمانيين وأخيراً عندما وجد البابا معرضاً عنه طالبه بماله من سلطة روحية أن يعمل على أن يرد دويوسون البالغ الذى كان قد أخذه وهو ٢٠ ألف دوكة ، للإتفاق منه على نقل جم إلى القاهرة حسب اتفاقه مع قايتباى (٧٢).

وإذا كانت فرص النجاح تكاد تكون معدومة أمام بايزيد الثانى فى استعادة جم ، فقد كان الأمل كبيراً لدى قايتباى فى نجاح مساعيه فى هذا الصدد إذ كانت ترتكز دبلوماسيته على عوامل رئيسة ثلاثة تتصل بعلاقاته مع هذه القوى الأوروبية .
وهى :

أولاً — خوف فرسان الاسبتارية من أن يتحول بايزيد الثانى بأسطوله إلى مهاجمة ردوس فى حالة انتصاره على المماليك .

ثانياً — النزاع حول عرش قبرص بين أبناء حنا الثانى بعد وفاته فى عام ١٤٥٨ ثم طال هذا النزاع وتشعب واتسع نطاقه فشمّل كلا من البندقية ومملكة نابلى ودوقية ساقوى .

ثالثاً — رغبة بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وفلورنسة فى استئناف علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية ومنافستها للبندقية التى كانت تتمتع بالمركز التجارى الأول بها . وقد اشتدت هذه الرغبة بسبب تحول النشاط التجارى إلى أسواق الدولة المملوكية بعد استيلاء العثمانيين على امبراطورية طرابزون فى عام ١٤٦١ وعلى ميناء كافا Caffa وغيرها من المراكز التجارية لجنوى فى شبه جزيرة القرم ، عام ١٤٧٥ وما ترتب على ذلك من القضاء على نشاط الأوروبيين التجارى فى البحر

Ibid : pp. 367-368 (٧٢)

الأسود ، وتوقف هذا النشاط تقريباً مع القسطنطينية بسبب حروب محمد الثاني مع البنادقة في شبه جزيرة المورة وبحر الأرخبيل .

أما رودس فقد سارع قايتباي يعرض عليها في عام ١٤٨٤ ، قبيل الحرب المملوكية العثمانية الأولى ، تجديد معاهدة الصلح معها للمرة الثانية . ووجدت رودس في ذلك العرض ما يجعلها تتفرغ لمراقبة حركات الأسطول العثماني أمام مياهاها^(٧٣) . وتحت ستار هذا التعاهد طالب قايتباي في العام التالي بتسليم جم له شدا لأزره وعوناً له على النصر . واقتضى خوف دوبروسون من انتصار العثمانيين أن يتظاهر بالعمل على إجابة رغبة قايتباي ، بل دفعه دهاؤه إلى استغلال هذه الرغبة في الحصول على الأموال لتغطية المصاريف اللازمة لنقل جم والإيقاق عليه . ويقال في هذا الصدد أن دوبروسون كان يستغل إمضاء جم الذي انتزعه منه قبيل مبارحته رودس إلى فيلافرانكا فيكون له شرف المفاوضة باسمه وهي نخسة أخذها عليه كل من أرخ حياة جم من المؤرخين المسيحيين^(٧٤) .

وتمخضت الجولة الأولى في هذه الحرب عن انتصار المماليك في عام ١٤٨٦ ، فتراخي قايتباي في المطالبة بتسليمه إليه . إلا أنه عاود الاتصال بدوبروسون مرة ثانية عندما لاح في الأفق قرب التصادم ثانياً مع العثمانيين في عام ١٤٨٨ . وفي هذه المرة لم يشأ أن يرسل رسولا من المماليك وإنما اختار لهذه المهمة أحد أتباع فرديناند الثاني ملك نابلي الذين كانوا يقيمون بالقاهرة يواصلون التآمر ضد البندقية والسعي للحصول على عرش قبرص لابنه دون الوئزو . ولترك الكلام عن هذا المسعى حتى نعرض أولاً لموضوع النزاع على عرش قبرص .

فقد تجدد النزاع حول عرش قبرص بعد وفاة جيمس الثاني في عام ١٤٧٣ بين أخته الملكة شارلوت التي كان قد نجح في إقصائها عن العرش ، وبين زوجته الملكة

Thuasne : p. 120. (٧٣)

Ibid : p. 96, 133-135-Hammer : III, p. 363, 364. (٧٤)

(٧٥) انظر بعد . .

كاترين كورنارو إحدى شريفات البندقية . واشتد هذا النزاع بعد أن مات ابنه جيمس الثالث الذى ولد بعد وفاته فى ٢٦ أغسطس ١٤٧٤^(٧٦) . وقفت البندقية تؤازر « ابنها » وباشرت شئون الحكم بالجزيرة ووضعتها فى حماية أحد أساطيلها^(٧٧) . ووقف فرديناند الثانى ملك نابلى بجانب شارلوت بعد أن تبنت ابنه دون الونزو وباركت مشروع زواجه من الأميرة شارلا وهى ابنة غير شرعية لأخيها جيمس الثانى وأخذت تعمل على إجلاسهما على عرش قبرص . فدبرت مع فرديناند خطف هذه الأميرة الصغيرة التى كانت مبعدةً بالبندقية . ولما فشلت فى ذلك أبحرت فى عام ١٤٧٨ إلى الإسكندرية وبصحبتهما دون الونز للحصول على موافقة قايتباى ومساعدته . وأتبع فرديناند رحيلهما بأن أرسل إلى الإسكندرية أسطولاً يتكون من ٢٢ سفينة لنقلهما مع القوة التى يجردها قايتباى فى صحبتهما إلى قبرص . ورحب قايتباى بهما على الرغم من أنه لم يكن ميالاً للتدخل فى هذا النزاع طالما أن الجزية المقررة على الجزيرة تدفع له ، فقد وجد فى وجودهما بالقاهرة أداة للضغط بها على البندقية إذا ما اضطرت الظروف إلى ذلك ، فلم يكن يخفى عليه السياسة التى انتهجتها بقبرص عقب وفاة جيمس الثالث إلا أن إقامة شارلوت بالقاهرة قد نفصها وفاة الأميرة شارلا فى عام ١٤٨٠ واتجاه فرديناند إلى تزويج ابنه من الملكة كاترين وكانت لا تزال شابة فى ريعان الصبا ، وخاصة بعد أن أبدت رغبتها فى الزواج لى تنجب وريثاً للعرش يفسد على البندقية خطتها . وأخذت فى الاتصال بأنصار فرديناند من النابليين والكتلان الموجودين

Ziada : The mamluk conquest of Cyprus in the fifteenth century, in 13, F. A., University of Cairo, vol. II, may 1943 (part II) pp. 44-54 — Hill : III, pp. 598-599, 601, 602, 603-604, 651-652, 658:663, 664-665, 669, 679, 711-712, 725. Hill : III, p. 690, 694, 695, 711-721, 717-720, 729, 733, (٧٧) 735-736, 737.

بالجزيرة . فتركت شارلوت دون الوزو وغادرت القاهرة في أواخر عام ١٤٨١ ووصلت روما في يناير من العام التالي^(٧٨) .

وفي هذا العام أيضا توفي زوجها الملك لويس ، فواصل شارل الأول ، دوق سافوي الكفاح بعنه بمقتضى الاتفاق الذى عقد مع شارلوت في عام ١٤٦٢ والذى ينظم حقوق آل سافوي في عرش قبرص إذا ما ماتت دون وريث لها^(٧٩) . وجدّ في الميدان السياسى أيضاً موضوع جم ، فاتخذت منه هذه القوى المتنازعة وسيلة لمساومة قايتباى في تحقيق مصالحها . فبمجرد وصول جم إلى نيس قام دوق سافوي بزيارته وتقديم الهدايا إليه ، واعدأ إياه بالعمل على تخليصه^(٨٠) . وفي عام ١٤٨٤ تعددت مساعيه لتحقيق أهدافه فأرسل سفيرا من قبله إلى البندقية يعرض عليها الاتفاق على تهريب جم إليها ، إلا أن البندقية اعتذرت لانشغالها في حرب فرارا . فأتجه إلى عدوتها فلورنسه وأوعز إليها بالعمل على إجلال شارلوت على عرش قبرص بالقوة ، إلا أن هذا المشروع أهمل أمره بعد أن عقد الصلح مع البندقية في ١٦ أغسطس من نفس العام^(٨١) وفي هذا العام أيضا قبضت سلطات البندقية بجزيرة مودون Modon على عميل من عملاء قايتباى يدعى نقولا النيقوسى Nicolas de Nicosie ومعه رسائل تؤكد الصلة بين الأمير جم وأمه عن طريق دوق سافوي . ولم تشأ البندقية أن تغضب قايتباى فاكثفت بإطلاق سراحه ومنعه من مواصلة رحلته إلى نيس^(٨٢) .

Ibid : p. 601,604,605,606,607-608,609.610,664- (٧٨)
665,669,729-730 — Le Voyage d'Outremer de Jean Thénard, suivie de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Egypte en 1512 ed. Schefer, Paris 1884, pp. XXXI-XXXII.

Hill : III, p. 587,610. (٧٩)

Hammer : III, p. 360,391 — Thuasne:pp.99-100 (٨٠)

Hill : III, p. 611 (٨١)

Thuasne : p.118 (٨٢)

وحاول السفير البندقى أثناء مفاوضاته التجارية مع قايتباى فى عام ١٤٨٣ إيفار صدره إزاء دون الوتزو ، إلا أنه لم يتمكن من ذلك بسبب وجود كثير من أفراد حاشيته بالقاهرة . وطال مقام هذا الأمير بالقاهرة دون أن يتخذ قايتباى أية خطوة فى سبيل إجلاسه على عرش قبرص ، إذ لم ينجح أبوه فى تسليم جم إليه ، فغادرها إلى نابلى حيث وصلها فى ٢٧ سبتمبر ١٤٨٧^(٨٤) . وظل أتباعه بالقاهرة وعلى رأسهم رزودى مارينو Rizzo de Marino وترستانودى چيلتو Tristano de Gibleto يواصلون خدمة مصالحه ، وظل الاتصال قائما بين قايتباى وبين أبيه بعد رحيله^(٨٥) .

وقبيل نشوب المعركة الثانية ضد العثمانيين رأى قايتباى إرسال رزودى مارينو لمفاوضة رئيس الفرسان فى تسليم جم له ، فوصل رودس فى ١٠ يونيو ١٤٨٨ فى نفس الوقت الذى وصل فيه سفير ملك المجر . ورد دوبرسون مساعى السفيرين ، فما كان من رزودى مارينو إلا أن اصطحب معه إلى القاهرة السفير المجرى ، فوصلاها فى شهر (رجب ٨٩٣هـ / يونيو-يوليو ١٤٨٩) . وفى القاهرة تيسر التفاهم معه بفضل وجود عدد كبير من كبار أمراء المماليك من أصل مجرى . وهم (الأسرى الذين أهداهم مراد الثانى إلى جقمق عقب انتصاره فى موقعة ورنه Warna^(٨٦)) ويقال إن السفير المجرى تقابل فى القاهرة مع رسول من قبل جم^(٨٧) ، لانعرف شيئا عنه ولا عن الظروف التى جاء فيها .

Hill : III, p. 735 (٨٣)

Ibid : p. 609 (٨٤)

(٨٥) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ [فى ذى القعدة ٨٩٢ هـ / أكتوبر -

نوفمبر ١٤٨٧ كلف قايتباى قس كنيسته القيامة بالقدس إرسال أحدهم إلى صاحب نابلى ليكتب صاحب قشتالة بأن يحل عن أهل الأندلس ورحل عنهم وذلك بعد أن وصل قاصد من صاحب الأندلس يطلب نجده]

Le Voyage d'Outremer, p. XXXII. (٨٦)

(٨٧) قارن بين مذكرته المراجع الآتية خاصيتها السفير :

Thuasne : pp. 198-199 — Hill : III, p. 739. n. 3 — Wiet : Traduction d'Ibn Iyas. Histoire des Mamlouks Circassiens, T. II, (872-906), Le Caire 1945, 284.

ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٤٨ — الدكتور زياده : نهاية السلاطين المماليك ،

وكيفما كان الأمر فإن الجهود المشتركة لقايتباى ومملك المجر لم تؤد إلى نتيجة ما .
وشهدت القاهرة فى نفس العام وصول خطاب دوق سافوى المؤرخ فى ١٨ أغسطس
سنة ١٤٨٨ على يد رسول من قبله يخبر قايتباى بوفاة شارلوت فى العام السابق بعد أن
صدقت على وثيقة تنازلها له عن حقوقها فى عرش قبرص ، وأنه يأمل بمساعدة الله
وبمساعده ، وهو السلطان الشرعى للجزيرة ، فى استرداد حقوقه^(٨٨) . ومهما يكن
من الأمر فإن هذه الاتصالات لم تسفر عن شىء ما ، إذ رحل جم إلى روما فى ٨ نوفمبر
من نفس السنة .

ومنذ عام ١٤٨٦ ، وعلى وجه التحديد قبيل نشوب الحرب العثمانية المملوكية
الأولى ، والبندقية تخشى على جزيرة قبرص من تحركات الأسطول العثمانى والاستيلاء
على ميناء فاجوستا لانتخاذها قاعدة له فى عملياته الحربية ضد السواحل الشامية .
فوضعت الجزيرة فى حماية أحد أساطيلها وزودت قائده بتعليمات محددة تقضى بمعاملة
الأسطول العثمانى معاملة ودية وبأن يسمح لثمانية أو لعشر سفن فقط من سفنه بالرسو
فى فاجوستا إذا ما طلب التزود بالمؤونة . واشتد هذا الخوف مرة ثانية قبيل نشوب
المركة الثانية بين العثمانيين والماليك فى عام ١٤٨٨^(٨٩) . ومن جهة ثانية اشتدت
المؤامرات ضد البندقية داخل وخارج الجزيرة ، وهى المؤامرات التى كانت تهدف إلى
زواج الملكة كاترين من دون الونزو . واكتشفت البندقية تأمر قايتباى مع رزودى
مارينو ، وتريستانودى جيلتو ، من أتباع فرديناند الثانى ملك نابلى المقيمين بالقاهرة ،
بقصد تهريب الملكة من الجزيرة^(٩٠) . ولذلك قررت البندقية ، بعد هزيمة العثمانيين

(٨٨) Hill : III, p. 611-612, 614-615

(٨٩) Ibid : pp. 735-736.

الأستاذ توفيق اسكندر : سفارة بيرو ديدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرص عام ١٤٩٠ ،
القاهرة ١٩٥٦ . انظر الوثيقة الأولى . [التعليمات إلى السفير البندقى والمؤرخة فى ١٠ سبتمبر
١٤٨٩] من ٥ - ٦ :

(٩٠) Hill : III, p. 738, 739-740, 741-742.

في ١٥ أغسطس ١٤٨٨ ، رفع علمها على الجزيرة والضغط على كاترين للتنازل عن حقوقها ورحيلها للإقامة في البندقية ، وتم للبندقية ما أرادت في شهر مايو من العام التالي^(٩١) . ثم أخذت البندقية بما عرف عنها من مهارة دبلوماسية ، تعمل على صبغ هذا التنازل بالصيغة الشرعية بالحصول على موافقة قايتباي صاحب السيادة على الجزيرة . فأرسلت في بادئ الأمر ، رسولها ماركو مالييرو Marco Malipiero يمهّد لذلك بالتعاون مع قنصلها بالإسكندرية . ثم أرسلت سفيرها بييرو ديدو للانتهاء من هذه المهمة وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك في ١٠ سبتمبر ١٤٨٩ . وكانت البندقية حريصة في تعليماتها للسفير ، أن يعالج في مهارة موضوع جم مع السلطان إذا ما سأل عنه ، فيجيب بأنه يقيم في القصر البابوي منعماً مكرماً . وأن يتجنب مقابلة والدته جم ، وإذا استلزم الأمر مقابلتها فيكون ذلك بعد الحصول على إذن السلطان وذلك جرياً على سياستها بالابتعاد عن هذا الموضوع . ووصل السفير البندقي إلى الإسكندرية في نوفمبر ولكن مفاوضاته بالقاهرة طالت ولم يتمكن من عقد المهادنة التي تنظم العلاقة بين البندقية والدولة المملوكية بخصوص قبرص إلا في ٩ مارس ١٤٩٠^(٩٢) .

ويشير تقرير السفير البندقي إلى الدوج بعد وصوله إلى الإسكندرية والمؤرخ في ٢٤ نوفمبر سنة ١٤٨٩ إلى وجود رسول بابوي بالقاهرة ، ومعه رسول تركي حضر معه من روما من قبل جم ليطمئن والدته عليه ، وأن السلطان استقبله في ٦ أغسطس ثم أرجأ مقابلته الثانية له مدة أربعين يوماً بمناسبة حلول شهر رمضان والاحتفال بالعيد . وقد جاء الرسول البابوي يحمل خطاباً من البابا يهنئ فيه السلطان بانتصاره الثاني على بايزيد الثاني ويحثه على الثأر على قتاله ، وأنه يريد أن يعلم من السلطان شخصياً رغباته بخصوص جم . ثم زار الرسول البابوي ومعه رسول جم والدته وطمأنها على

(٩١) Ibid : p. 737,742-749,750.

(٩٢) الأستاذ توفيق أسكندر: نفس المقال - الوثيقة الأولى ، ص ٧ ، والوثيقة الثالثة [معاهدة

تنازل مصر عن قبرص للبندقية والمؤرخة في ٩ مارس ١٤٩٠] ص ١٣ - ١٥

سلامته^(٩٣) . وتذكر بعض المصادر أن قايتباي كان يساوم البابا على تسليم جم له مقابل التنازل له عن القدس الشريف^(٩٤) ، وهذه مبالغة تبعد كثيرا عن الحقيقة . وحقيقة الأمر أن البابا استغل رغبة قايتباي في استعادة جم لتحقيق مطلب للرهبان الفرنسيين بدير صهيون بالقدس الشريف ، وهو مطلب تدخلت البابوية مرات سابقة لدى سلاطين المماليك لتحقيقه ، فهُؤلاء الرهبان قد انتهزوا هذه الفرصة وطالبوا باستعادة القبر الذي يوجد به قبر داود عليه السلام ، وهذا القبر كان يعلوه قاعة الحواريين ومجاور من الجهة الشرقية للمكان الذي تناول فيه السيد المسيح العشاء الأخير مع حوارييه ، وهو الذي يعرف « بعُلِّيَّة صهيون - Caenaculum » والذي أقيمت فوقه كنيسة العُلِّيَّة . وكان هذا القبر بيد الرهبان الفرنسيين حتى انتزعه منهم اليهود مرتين في عهد المؤيد في عام ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م . وفي عهد رسباي ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م ، إلا أنهم نجحوا في استعادته منهم عقب كل مرة . ثم آل أمره نهائيا في عهد جقمق في عام ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م بيد المسلمين وأقاموا به قبلة وحولوه إلى مسجد . وفضلا عن ذلك فقد قام الرهبان في شهر صفر ٨٩٤هـ / يناير فبراير ١٤٨٩م ببناء كنيسة محدثة بالقرب من الدير فوق مقام يدعون أنه مقام السيدة مريم عليها السلام . وليس من قبيل الصدف أن يكلف قضاة القدس ومشايخها في شهر شعبان / يوليو من نفس العام ، وهو الوقت الذي كان موجودا فيه الرسول البابوي بالقاهرة يبحث شكوى الرهبان بقصد استعادة هذا القبر الذي يدعون أنه من حقوقهم ، ثم يعاد هذا الطلب في أوائل عام ٨٩٥هـ / ١٤٩٠م . ويبدو أن هذا التكليف لم يكن جديا ، إذ كان يراد منه التظاهر بالعمل على تحقيق رغبة البابا أملا في أن يقوم من جانبه بإرسال جم إلى القاهرة . والدليل على ذلك أنه لم تتخذ أية خطوة إيجابية في هذا الصدد ، إلا عند ما أصدر قايتباي مرسوما شريفاً وصل إلى القدس في آخر جمادى الآخرة من نفس العام ٩٠٠هـ / مايو ،

(٩٣) نفس المرجع السابق ، الوثيقة الثالثة [خطاب السفير البندقي إلى الدوج بعد وصوله إلى الإسكندرية المؤرخ في ٢٤ نوفمبر ١٤٨٩] ص ١٠ - ١١

(٩٤) الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٨ .

بأمر القضاة ومشايخ الإسلام يبحث موضوع الكنيسة المحدثه وموضوع القبور . فسارعوا إلى الاجتماع بالمسجد الأقصى بعد ذلك بيومين وقرروا هدم الكنيسة لأنها محدثة في الإسلام وبقاء القبور في يد المسلمين نظراً لما ثبت لديهم من عدم أحقية الرهبان في امتلاكه ونظراً لما سبق تحويله إلى مسجد يذكر فيه اسم الله^(٩٥) . وواضح أن هذه الخطوة قد اتخذت بعد أن فشلت مساعي قايتباي مع البابا لاستعادة جم .

وشهدت السنوات التي كان جم مقيماً أثناءها بجنوب فرنسا توقف العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا . ووجد قايتباي في رغبة لويس الحادى عشر وشارل الثامن في العمل على استئنافها فرصة طيبة للمطالبة بتسليمه إليه . وكانت فرنسا قد بذلت جهوداً متواصلة لإنعاش تجارتها مع الدولة المملوكية بعد تدهورها عقب القبض على التاجر جاك كير Jacques Coeur ومحاكمته في عام ١٤٥١ ، والقضاء على احتكار التجار الإيطاليين للأسواق الفرنسية^(٩٦) . إلا أن هذا النشاط قد توقف بعد الغارة

(٩٥) مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبعة القاهرة ١٢٨٣ هـ ، ج ٢ ص ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨١ — انظر دراستنا عن النزاع بين الرهبان الفرنسيين واليهود والمسلمين على قبر داود وعليه صهيون (تحت الطبع) .

(٩٦) في عام ١٤٥٦ أصدر شارل السابع عفوه عن جان دى فيلاج Jean de Village قريب چاك كير وأخلص رجاله ، ثم عينه لملء من خبرة بالشئون التجارية بالشرق قائداً للسفن التجارية الفرنسية المخصصة للإبحار إلى الإسكندرية . وأتبع ذلك بأن أرسل في نفس العام سفيراً لدى السلطان المملوكي الأشرف اينال يوصيه بحسن معاملة التجار الفرنسيين الوافدين إلى بلاده . ولكن هذا النشاط مالبث أن توقف بعد عامين بسبب نشوب الحرب بينه وبين الفونسو الخامس ملك نابلي وأراجون . وما إن انتهت هذه الحرب في عام ١٤٦٣ ، حتى بادر خلفه لويس الحادى عشر باتخاذ خطوات إيجابية لإنعاش التجارة الفونسية ، وذلك بمحاولة القضاء على منافسة التجار الإيطاليين والعمل على استئناف العلاقات التجارية مع مصر . فأصدر قراراً يحرم دخول البضائع الواردة من المشرق إلى فرنسا إلا عن طريق الموانئ الفرنسية الجنوبية . ثم قام ببناء أربعة سفن تجارية واختار لها ميناء أيج مورت Aigues-Mortes كقاعدة تبحر منها إلى الإسكندرية . وفي عام ١٤٧٦ حلت محلها مرسيليا على الرغم من أنها لم تكن تابعة وقتذاك لإنتاج الفرنسي . ونتيجة لهذه الجهود سجلت السنوات : ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٥ نشاط التجار الفرنسيين بميناء الإسكندرية . انظر :

التي شنها التجار البروقنساليون على ميناء الإسكندرية في عام ١٤٧٥ وقبضوا على عدد كبير من تجارها وكان بينهم بعض تجار السلطان كإبن علييه وغيره ، وقابلت السلطات المملوكية هذا الإجراء بالقبض على جميع تجار الفرنج بالمدن والموانئ المصرية والشامية وألزمهم بمكاتبة ملك فرنسا لإطلاق سراح هؤلاء التجار . ونجحت جهودهم فأطلق سراحهم في العام التالي بعد أن اشتروا أنفسهم كما يقول ابن إياس (بمال له صورة ، وقد جرى عليهم أمور يطول شرحها حتى خلصوا من بلاد الفرنج واستمر ابن علييه من يومئذ مريضاً إلى أن مات بعد مدة)^(٩٧). وفي عام ١٤٧٦ أرسل لويس الحادي عشر وزير ماليته ميشيل جيار Michel Gaillard للعمل على نحو الأثر السيء الذي تركته هذه الغارة وما ترتبت عليه من موجدة قايتباي^(٩٨). ولكن جهوده لم تسكل بالنجاح . والشواهد على ذلك عديدة . فنحن لا نلاحظ أي نشاط تجاري للفرنسيين بالإسكندرية في الفترة التي أعقبت ذلك . والرحالة الألماني فيليكس فابر Felix Faber الذي زار مصر في عام ١٤٨٣ يسجل خلو فندق الفرنسيين بالإسكندرية من البضائع والتجار^(٩٩). وأخيراً فإن الآثار التي ترتبت على هذه الغارة بالنسبة لبضائع وأموال التجار الفرنج المقيمين بالدولة المملوكية لم تسو إلا في عام ١٤٨٩ كما يستدل على

Heyd : Histoire du Commerce du Levant, II, pp. 484-485 —
De Viriville : Histoire de Charles VII, Paris 1886, p. 440 —
Pigeonneau : Histoire du Commerce de la France, vol. I, Paris 1885, p. 366, 397 - Spont : La Bourgeoisie financière au début du XVI^e siècle, p. 3 et n. 2, p. 4 - Baratier et Reynaud : Histoire du Commerce de Marseille, T. II (1291-1480), Paris 1951, P. 354, 355-356-357, 362-363, 369.

(٩٧) ابن إياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ١١٠ ، ١١٥ .

Heyd : II, p. 496 et notes 5,6 — Baratier et Reynaud : II, p. 366

Baratier et Reynaud : II, pp. 397-368 (٩٨) .

Idid : p. ٤79 (٩٩)

ذلك من تقرير السفير البندقى بيروديدو إلى دوج البندقية في هذا العام^(١٠٠) . وترتب على توقف العلاقات التجارية بين الدولتين أن تمكن التجار الإيطاليون من العودة إلى السيطرة على الأسواق الفرنسية وغمرها بالضائع المستوردة من الشرق . وقد اضطر شارل الثامن إلى التدخل لحماية التجارة الفرنسية عندما رفع إليه وزير ماليته دوربول Doriole تقريره في عام ١٤٨٨ عن مدى ما تعانيه التجارة الفرنسية من ركود . فأصدر في هذا العام قراراً يحرم إدخال أية بضائع إلى فرنسا ما لم تكن منقولة على سفن فرنسية وفي نفس الوقت أرسل جيوم بريسونه Guillaume Briçonnet للسعى لدى قايتباى من أجل استئناف العلاقات التجارية مع مصر والوصية بالتجار الفرنسيين . وانتهز قايتباى هذه الفرصة وطالب بتسليم جم إليه ، ويذكر في هذا الصدد أنه عرض مليون دو كاه مقابل ذلك^(١٠١) . ولكن قايتباى لم يكن في حاجة إلى أن يعرض هذا العرض المالى ولا كان في قدرته أن يفي به ، وإنما علق استئناف الفرنسيين لنشاطهم التجارى على تسليم جم له . وهو أمر تعذر تنفيذه نظراً للضغط الشديد الذى كان يبذله البابا لدى شارل الثامن منذ عام ١٤٨٧ لنقل جم إلى روما فضلاً من عدم رغبة شارل الثامن في تسليمه إلى أية قوة من القوى التى تتنازع أمره . وهكذا فشلت جهود قايتباى ، وحرّم التجار الفرنسيون من الاتجار مع مصر فترة طويلة أخرى^(١٠٢) .

ويتضح من دراسة العلاقات التجارية بين فلورنسة ومصر أنها كانت موضوعاً للمفاوضات بين البلدين في الفترة ما بين عامي ١٤٧٩ و ١٤٨٩ وتعثرت هذه المفاوضات واستمرارها هذه المدة الطويلة يكشف عنه موضوع جم . فقايتباى انتهز هذه الفرصة

(١٠٠) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيروديدو . الوثيقة الثالثة ، ص ١١ .

(١٠١) Pauqueville : Histoire du Commerce de France, dans Mémoires de l'Inst. Roy. de France. T. XI, p. 549 — Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 200

الدكتور زياده : نهاية السلاطين المالك ، ص ٢٠٧ .

(١٠٢) Heyd : II, p. 486 — Arnold von Harff : The pilgrimage of Arnold von Harff, p. 95 .

لاستخدام فلورنسة كعميلة له في استعادة جم وكانت فلورنسة تتظاهر من جانبها بتحقيق رغبته ، ولكنها في حقيقة الأمر كانت حريصة على صداقة العثمانيين وعلى المحافظة على المركز التجارى الذى نالته بالقسطنطينية منذ عام ١٤٥٥ منافسة للبنادقة هناك^(١٠٣). وفوق هذا وذاك فإن عداؤها للبندقية ولسياستها فى الأرض اليابسة كان يقتضى منها أن يكون جم فى يدها تتخذ وسيلة لمساومة العثمانيين ضد البندقية^(١٠٤). وقد توقفت علاقاتها التجارية مع مصر ، على أثر الغارة التى شنّها البروقنساليون على الإسكندرية فى عام ١٤٧٥ ، إذ أن انتقام قايتباى قد شمل جميع طوائف الفرنج^(١٠٥) ويتضح هذا من السفارة التى أرسلها قايتباى فى شهر ذى الحجة ٨٨٣ هـ / فبراير - مارس ١٤٧٩ إلى لورنزو العظيم ، الذى يسميه ابن إياس « ملك التليان » . وكان السفير المصرى أحد تجار الإسكندرية وهو الخواجه محمد بن محفوظ الغربى^(١٠٦) . وهذا السفير توالى سفاراته إلى فلورنسة فى عهد قايتباى ولعب دورا هاما فى المفاوضات السرية الخاصة باستعادة جم . واجتمع التجار الفرنتيون فى ٢٧ نوفمبر ١٤٨١ ووضعوا مشروعا بالمقترحات التى يجب على السفارة المزمع إرسالها إلى القاهرة اتباعها فى مفاوضاتها . ولكن هذه السفارة لم يتيسر إرسالها إلى مصر وقتذاك مما دفع قايتباى

Pernoud : Les Villes Marchandes aux XIVe et XVe (١٠٣) siècles, Paris 1948, p. 122.

(١٠٤) انظر قبل الحرب بين البندقية وفلورنسة فى عام ١٤٨٤ .

(١٠٥) كان يمثل فلورنسة بالإسكندرية من عام ١٤٦٥ حتى عام ١٤٧٥ القنصل مريوتو

سكارسيالوبى Mariotto Squarcialupi

انظر : Heyd, II : p. 488 - Baratire et Reynaud II, p. 366.

(١٠٦) ابن إياس لوطبة بولاق، ج ٢ ، ص ١٨٥ - مما هو جدير بالذكر أن طبعة استانبول،

ج ٣، ص ١٤٥ - ١٤٦ تذكر أن هذه السفارة أرسلت إلى ملك الكتلان ، ولكن الصحيح ، بناء

على دراسة العلاقات بين فلورنسة وقايتباى ، أنها أرسلت إلى لورنزو العظيم . وقد وقع فى هذا الخطأ

أيضا الأستاذ فيب فى ترجمته الفرنسية لهذا الجزء . انظر :

Wiet : Traduction d'Ibn Iyas, p. 106.

إلى إعادة إرسال الخوارج ابن محفوظ مرة ثانية إلى فلورنسة في عام ١٤٨٤ (١٠٧) ،
وكان قد جدّ في الميدان السياسي موضوع جم .

وبدأت فلورنسة اتصالاتها بجم حذرةً من لفت الأنظار إليها . فدفت أحدرعاياها
وهو فرانسكو برلنجيري Francesco Berlinghieri إلى إهداء جم نسخة
أنيقة من كتابه عن جغرافية العالم ، وجاء في كلمة الإهداء المؤرخة في ٣١ مايو ١٤٨٤
« أنه يقدم إليه مؤلفه هذا بعد ما علم عن طريق أحد الفرقتين المخلصين لشخصه
العظيم ، وهو باولودي كول Baolodi Colle اهتمامه بالأدب راجيا أن يذكره
الأمير يوماً ما عندما يجلس على عرش أجداده » . وباولو هذا هو أحد التجار الفرقتين
الذين كانوا يترددون على مصر ، فنجدته بعد ذلك بعامين أو ثلاثة في القاهرة يتولى أمر
المفاوضات التجارية مع قايتباي (١٠٨) .

ولكن هذه المفاوضات لم يتيسر نجاحها لأمر لا نعلمه . فعاد قايتباي إلى إرسال الخوارج
ابن محفوظ مرة ثالثة إلى فلورنسة وكان في صحبته هذه المرة مترجم من صقلية ، فوصلها
في ١١ نوفمبر ١٤٨٧ وقدم إلى لورنزو العظيم الهدايا الحافلة التي أحضرها له ، وكان
من بينها أسد وزرافة أثارت دهشة الفرقتين وإعجابهم . ثم اجتمع به لورنزو على انفراد
حيث أخبره برغبة قايتباي في نقل جم إلى مكان آخر أكثر أمناً لاتصل إليه يد أخيه
بايزيد الثاني ، وأنه على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال لوضعه تحت يد البابا أو أن
يسلمه البابا إماماً للملك المجرأولمك نابلي أو إلى البنادقة، وبذلك يحول البابا دون أن يقوم الأتراك

Amari : I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino, (١٠٧)
Firenze, 1863, p. 361-362, document no XLIV — Heyd : II, p.
488. n. 2 Malfoto ou

[وهو كما جاء ذكره في الوثيقة محرراً Mazamet Elmalfet]

Heyd : II, p. 488 — Thuasne : p. 117 (١٠٨)

فيما يختص بميل جم إلى دراسة الأدب وظم الشعر انظر : الدكتور حسين مجيب المصري : تاريخ
الأدب التركي ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٤٧-١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

بأى عمل هجوى ضد أحدهم ، على أن يظل هذا الاتفاق سرا بين هذه الحكومات التى يهملها الأمر . وكان السفير المصرى يحمل أيضا خطاباً من الخليفة العباسى بالقاهرة موجهاً إلى البابا أنوسنت الثامن يذكر فيه أن جم لم يلجأ إلى رودس إلا بعد أن وعده دويوسون بالأمان ولذلك فإن واجب البابا وهو الرئيس الأعلى للمسيحيين أن يبرّ بهذا الوعد وأن يردّ إلى جم حريته ويعيده إلى والدته وزوجته . وطلب السفير من لورنزو أن يمهّد له تدبير مقابلة البابا بروما . وتصادف أن مر بفلورنسة فى ذلك الوقت رسولان من قبل البابا فى طريقهما إلى باريس لمفاوضة شارل الثامن فى أمر نقل جم إلى روما وتجاهلا إخطار لورنزو بقصدهما عندما علما بوجود السفير المصرى^(١٠٩) . ولذلك بادر لورنزو بإخطار البابا بأمر هذه السفارة خشية أن يُتهم بالتآمر مع إحدى الدول الإسلامية ، وعرض على البابا إرسال السفير المصرى إلى روما لمعالجة الموضوع مباشرة معه ، وقد وجد البابا فى هذا العرض المالى الذى عرضه السفير ما يكفل نجاح مفاوضاته مع ملك فرنسا ، إذ أن ذلك ييسّر تدبير المال اللازم لنقله والإتفاق عليه^(١١٠) . وفى نفس الوقت سارع لورنزو بإبلاغ بايزيد الثانى نبأ هذه السفارة حتى لا يثير شكوكه وعداوته^(١١١) ، وعمل أيضا على السعى لدى شارل الثامن ، فى الوقت الذى كان البابا يقوم بنفس السعى لديه ، فأرسل إليه سفيرا قدم فيما قدم له من هدايا الزرافة التى أرسلها قايتباى وعرض عليه تسليم جم مقابل مائة ألف دوكة^(١١٢) .

ونحن لانعرف على وجه التحديد ، هل تمكن السفير المصرى من مقابلة البابا وتسليم خطاب الخليفة إليه أم لم يتمكن من ذلك ، ولكن الأمر المؤكد أن المفاوضات التجارية ظلت معلقة إذ يبدو أن إتمامها كان متوقفا على لورنزو فى تسليم جم إلى قايتباى . والوثائق الخاصة بهذه المفاوضات فى هذه الفترة التالية مضطربة فى هذا

Thuasne : pp. 173-174. (١٠٩)

Ibid : pp. 174-176 et notes — Heyd : II, p. 489. (١١٠)

Thuasne : p. 175 et n. 2 (١١١).

Ibid : p. 192. (١١٢)

الصدد . فهي تشير إلى تكليف السفير الفلورنسي لويجي دى أنجولو دلاستوفا Luigi d'Aangolo della stuffa بالسفر إلى القاهرة في ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ والتنبية عليه بضرورة المرور أولاً على روما لمقابلة الخبر الأعظم ثم على نابلي لمقابلة فرديناند^(١١٣) . ومن بين هذه الوثائق مرسوم لقايتباى أصدره إلى نائب الإسكندرية مؤرخ في ٦ من محرم ٨٩٤/١٠ ديسمبر ١٤٨٨ يبلغه فيه أن لقنصل الفرنتين بالإسكندرية وسائر بلاد السلطان جميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لقناصلة البندقية ويطلب منه تخصيص مكان للفرنتين ينزلون به^(١١٤) . ومن الشكوك فيه أن السفير الفلورنسي قد تمكن من قطع هذه الرحلة الطويلة ثم الاتفاق مع قايتباى في مدى شهر واحد^(١١٥) . والثابت أن فلورنسة لم تتمكن من الاتفاق مع قايتباى إلا في شهر نوفمبر ١٤٨٩ ، كما يستدل على ذلك من المكاتبة التي أرسلها إلى لورنزو والمؤرخة في ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤/١٨ نوفمبر ١٤٨٩^(١١٦) ، ومن تقرير السفير البندقى إلى دوج البندقية والمؤرخ بالإسكندرية في ٢٤ نوفمبر من نفس العام . وفي هذا التقرير يذكر السفير أن السفير الفلورنسي الذى كان موجوداً بالقاهرة لم يدع فرصة دون أن يتحدث جلياً عن شئون البندقية^(١١٧) . ولا نعلم على وجه التحديد ما اتفق الطرفان عليه بخصوص جم . فهل وعدت فلورنسة بالعمل على تسليمه إلى قايتباى ؟ العروف أن جم ظل مقياً بروما ولذلك فإن هذه المعاهدة لم يقدر لها أن تنفذ وظلت بدورها حبراً على ورق ولم يتيسر للفرنتين التماهد مرة ثانية مع قايتباى إلا بعد وفاة جم ، عن طريق السفير المصرى ابن محفوظ أيضاً في جمادى الآخرة ٩٠١ هـ / فبراير ١٤٩٦^(١١٨) .

Amari : pp. 372-374, document ne XLXI. (١١٣)

Ibid : pp. 382-386, document no XLVIII. (١١٤)

Ibid : p. 486. (١١٥)

Ibid : pp. 181-183, document no XXXIX. (١١٦)

Heyd : II, pp. 487-490

(١١٧) الأستاذ توفيق إسكندر : سفارة بيرو ديدو ، الوثيقة الثانية ص ١١ .

(١١٨) Amari : pp. 184-409, document no XL. pp. 210-213. (١١٨)
document no XLI.

وإذا كانت دبلوماسية قايتباي لم تنجح في عامي ١٤٨٨ و ١٤٨٩ على الرغم من فرص النجاح العديدة أمامها في استعادة جم ، فقد قُدد الأمل في ذلك بزوال هذه الفرص ذاتها . فشلت مفاوضاته التجارية مع فرنسا . ثم نقل جم إلى روما أبعد احتمال التفاهم مع ملك فرنسا ودوق سافوى ، وتصفية النزاع على عرش قبرص وضمها إلى البندقية أخرج فرديناند الثاني ملك نابلي ودوق سافوى أيضاً من ميدان المساومة . وكذلك مفاوضاته الطويلة مع فلورنسة ، ومع البابا لم تأت بأية نتيجة . ومع ذلك جادت الأقدار على غير موعدٍ بما مكنه من النصر النهائي على العثمانيين أو على الأصح انسحاب العثمانيين من هذه الحرب بعد أن خرج علاء الدولة بن دلفادر على طاعتهم وانضم إلى المماليك عقب الهزيمة التي حلت به وبالعثمانيين في أغسطس ١٤٨٨ ربما لأنه خشي على نفسه وعلى إمارته والنصر النهائي للمماليك أصبح أمراً مفروغاً منه ، أو ربما يعزى ذلك إلى دبلوماسية الأمير الكبير أوزبك قائد العساكر المملوكية الذي وفق في اجتذابه إلى جانب المماليك . بل زاد على ذلك أماناً له بأن تزوج من ابنته^(١١٩) وانتقاماً منه دفع بايزيد ضده أخاه شاه بوداق الذي كان قد تمكن من الفرار من قلعة دمشق في شوال ٨٩٢هـ / أكتوبر ١٤٨٦ ولجأ إليه ، فأبقاه إلى جانبه انتظاراً لما عسى أن تتمخض عنه الحوادث ثم أمدّه بالعساكر العثمانية وأغار على أخيه بعد عصيانه في ربيع الآخر ٨٩٤هـ / مارس - إبريل ١٤٨٩ إلا أن النصر لم يكن حليفه وخابت آماله في عرش الإمارة ، فلم يلبث أن قدم القاهرة في محرم ٨٩٥هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٤٨٩ مفارقاً بايزيد الثاني^(١٢٠) . وهذا يفسر الانتصارات السريعة لأوزبك في حملته الثالثة بآسيا الصغرى في العام التالي ضد الحاميات العثمانية بقلعة الكولك

(١١٩) ابن اياس ، طبعة استانبول ، ج ٣ ، ص ٢٦٢

Artin: p. 182, 183-184, 185.

(١٢٠) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٣٩ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٣٧٩

[ظل شاه بوداق مقيماً بالقاهرة حتى توفي بها بالطاعون عام ٩٠٣ هـ] -

Artin : pp. 182-183.

وقيصرية ، ورجوعه إلى القاهرة دون أن يشتبك في قتال فعلي مع القوات العثمانية الرئيسية (١٢١).

في هذه الأثناء وصل إلى استانبول سفير سلطان تونس الفقيه مفتي علي عربي يعرض وساطته لإنهاء النزاع بين بايزيد وقايتباي (١٢٢). واستجاب بايزيد لهذه الوساطة فأرسل قاضي قضاة بروصة الشيخ علي حلي إلى القاهرة فوصلها في إبريل ١٤٩١ ولم يغادرها في أواخر العام التالي إلا وكان الصلح قد تم وردت إلى الدولة المملوكية القلاع التي كان العثمانيون قد استولوا عليها (١٢٣).

ونشط بايزيد للمرة الأخيرة لاستعادة جم ، أو للتخلص منه بعد وفاة البابا أنوسنت الثامن وتولى اسكندر بوجيا عرش البابوية ووجد في الصفات التي عرف بها هذا البابا ما شجعه على ذلك . وكان بصحبة السفير العثماني السفير المصري ، الشيخ عبد المؤمن الفارسي الذي أرسله قايتباي إلى استانبول في عام ١٤٩٤ لتمكين أوامر الصداقة بين الدولتين (١٢٤). إلا أن هذه المفاوضات قطعها دخول شارل الثامن ملك فرنسا روما ثم تسلمه جم ورحيله معه إلى نابلي حيث توفي بها في ٢٤ فبراير ١٤٩٥ بعد يومين من دخولها المدينة .

(١٢١) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ — الدكتور زيادة : نهاية السلاطين المماليك ، ص ٢٠٩ —
C.I. A., Egypte I, pp. 549-651 — Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 598-603.

(١٢٢) Artin : pp. 185-186.

(١٢٣) ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ — الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(١٢٤) Hammer : III, p. 368.

ابن اياس ، نفس الطبعة والجزء ، ص ٣٠٩ — الدكتور زيادة : نفس المقال ، ص ٢١٠ .

وتجفع المصادر على وفاة جم يالسم البطى وتذهب فى ذلك مذاهب شتى من توزيع الاتهامات هنا وهناك ضد من تأمروا عليه^(١٢٥). ويهمننا فى هذا الصدد أن ثبت هنا رأياً جديداً ذكره مؤرخ مكة قطب الدين النهروالى ، فيذكر أن السلطان بايزيد أرسل إليه أحد عبيده فى صورة حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق له فحلق له رأسه بموسى مسمومة وهرب فى الحال وأثر السم فى رأسه وسرى إلى بدنه إلى أن مات^(١٢٦).

وأرسل شارل الثامن مع السفيرين مخلفات جم ومن تبقى بجواره من أتباعه حتى أيامه الأخيرة^(١٢٧). وكان من بين هذه المخلفات التى حملها أحد الأتباع بيناء بيضاء كان جم قد عودها على أن تصبح عليه كل صباح قائلة (نصر الله السلطان جم) وفى استانبول صبغ هذا التابع ريشها بالسواد وعلمها قولاً آخر ثم قدمها إلى بايزيد فقالت له (رحم الله السلطان جم)^(١٢٨).

أحمد السير دراج

Hammer : III, pp. 370-375 — Alderson : table (١٢٥)
XXVII et note 18.

(١٢٦) قطب الدين النهروالى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٥٩

(١٢٧) Hammer : III, p. 374-875.

(١٢٨) الدكتور حسين مجيب المصرى : فارسيات وتركيات ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٧٣ - ٧٤.

نظرية جديدة في :

تاريخ بناء جامعة القرويين

بين الحين والآخر تكشف لنا الأيام عن نظريات في تاريخ المغرب كانت إلى أمس القريب تعتبر في عداد الأسرار الدفينة ، الأمر الذي يؤكد أن تاريخنا بحق لم يكتب كما يجب بل قد ناله في بعض المراحل كثير من التزوير والتحريف. وهكذا فمنذ زمن غير بعيد طالعنا الأستاذ ليفي بروفنصال بنظريته حول تأسيس مدينة فاس استناداً على وثائق فيها النقول العربية وفيها بعض القطع النقدية ، هذه النظرية التي تملخص في أن باني عدوة الأندلس من فاس هو إدريس الأول بينما كانت عدوة القرويين من عمل إدريس الثاني ... وطالعنا بعد ذلك عمليات التنقيب التي قام أساتذة آخرون أمثال ماسلوف وطيّراس في جهات متعددة من المغرب ومنها جامع القرويين على حقائق أخرى كانت إلى هذا الوقت خفية على كثير ممن يعنون بالتاريخ ، على أن بين مؤرخينا المغاربة أنفسهم - وفيهم طائفة تمتاز بالمصابرة والمثابرة في البحث - طالعونا - وما يزالون - على دفتان أخرى جديدة بالتنويه والإشادة وأذكر من هؤلاء على الخصوص الأساتذة محمد الفاسي والمختار السومسي وعبد الله كنون ومحمد داود وعبد العزيز بن عبد الله ومحمد التطواني ومحمد النوني ومحمد بن تاويت وأمثالهم ممن توفروا على هواية تاريخية نافذة فراحوا يؤلفون وينشرون. بيد أن كل هذه «الفتوحات» تحتاج دوماً إلى تضافر الجهود حتى نحتمل مكانها في التاريخ وبالتالي حتى تصبح في متناول التلميذ والطالب والأستاذ ...

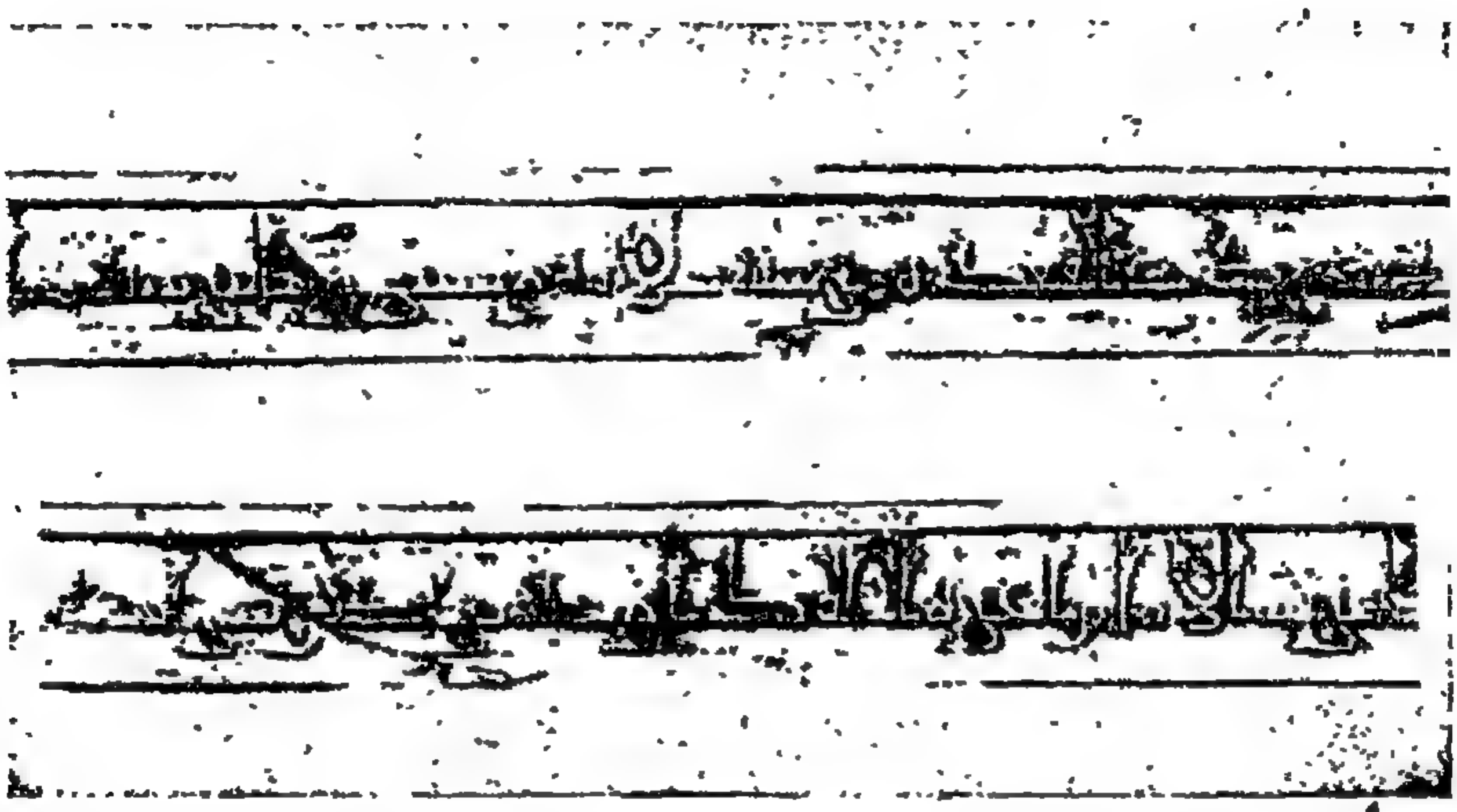
ولا أهدف بهذه المقدمة إلى أن أثير الانتباه إلى هذا «الفتح الجديد» بقدر ما أهدف إلى تصحيح صفحات من تاريخنا المبكر... إن كل أولئك الذين كتب لهم

أن يزاووا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيدا أن ابن أبي زرع في القرطاس والجزنائ في زهرة الآس وابن خلدون في تاريخه وسائر من تبع هؤلاء ، يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس بنى سنة ٢٤٥ بمطالمة العاهل الإدريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية التي تطوعت ببنائه ، ظلت صائمة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله . . . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن كتب التاريخ تطبق — ولا أقول تكاد تطبق! — على أنه لما توفى إدريس الثاني قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه وأن هذا الأخير لما ولى، قسم بلاد المغرب بين كبار إخوته بإشارة من جدته كنزة فاخص كل منهم بجهة وكان من بينهم داود بن إدريس الذي استأثر بإقليم تازة ، ورددت الكتب بعد ذلك صدى « الفتنة » بين بني إدريس على أثر هذا الإقطاع لكنها لم ترجع بحال لذكر داود لا في عداد الثائرين على السلطة المركزية ، ولا في عداد الذين قاموا بتهدئة الثورة . . .

تلك هي الحقائق التي حفظناها ، لكننا اليوم أمام وثيقة ساعدت إلى حد كبير على معرفة مدى صحة تلك « الحقائق » .

نحن الآن أمام لوحة نقشت على عهد الأدارسة أنفسهم عثر عليها في واجهة القبة الرابعة عند البلاط العمودي من جهة العنزة ، أى في منتهى « البلاطات الأربعة » للقرويين الأولى . . . لقد اكتشفت مدفونة في الجبس تحت كثافة سبعة سنتيمترات تقريبا ، مكتوبة بالخط الكوفي العتيق وهي ، ولو أن طائفة من حروفها منهوك ومتعب ، غير أنها مقروءة في الجملة ولم يفت منها إلا قدر يسير من أولها وآخرها . هي لوحة من طول أربعة مترات وأربعة وسبعين سنتيمترا ولكنها ليست عريضة إذ أن سعتها لا تصل إلى عشرة سنتيمترات ، لقد حملت إلينا — فيما حملت — تاريخ بناء القرويين أعني شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين ومائتين ثم هي أى اللوحة المذكورة تحمل سرا ثانيا يفوق الأول ذلك أنها تنصف عاهلا إدريسيا اضطرت الكتب لذكره في

جملة عابرة على أنه عامل لإقليم تازة مع أنه كان السلطان الشرعى على عاصمة الملك، فاس،
فى هذه الفترة الغامضة التى عاشها المغرب إثر توزيع الأمر بين بنى إدريس . هذا
العاقل هو الإمام داود بن إدريس الذى كان بالأمس صاحب تازة. لقد نقش على هذه
اللوحة اسمه على النحو التالى : « مما أمر به الإمام أعزه الله داود بن إدريس أبقاه الله
وانصره نصرا عزيزا ... » .



جزء من النص الذى يحمل التاريخ الصحيح لبناء جامع القرويين
ترى كيف يكون موقف المؤرخين أمام هذه النقوش التى احتفظت بالحياة منذ
أحد عشر قرنا ؟ نحن الآن بين كتب حبرت على عهد بنى مرين فى القرن السابع
الهجرى وبين هذه الوثيقة التى نقشت على عهد الأدارسة فى القرن الثالث الهجرى ،
فأيهما كانت جديرة فى نظر المؤرخ الأمين بالنظر والاعتبار ؟ لاشك عندى فى أن
أحدا من المنصفين لا يتردد فى ترجيح هذه الوثيقة ومنحها الأسبقية على غيرها
أولا لأنها كتبت فى نفس العصر الذى نتحدث عنه ، وثانيا لأنها تاريخ خام لم يلحقه
تأثير ما ، من قبل جهة ما ... وليس بالراجح فى نظرى أن نحاول الجمع بين رواية
المصنفات ومدلول هذه اللوحة فتدعى أن أعمال البناء ابتدأت سنة ٢٤٥ واستمرت إلى
سنة ٢٦٣ ، أى أن يحنى الأول بدأها وأتمها عمه داود وتكون فاطمة بهذا ظلت
صائبة ثمان عشرة سنة ... ذلك لأن المصدر التاريخى أولا يحنى لنا ثم ثانيا لأن مسجد

لاتصل مساحته إلى ألف متر مربع لا يمكن أن يتطلب هذه السنين الطوال بالرغم من حالة الجفاف التي تعرضت لها البلاد في هذه الأثناء ، وبالرغم أيضا من الطريقة التي سلكتها فاطمة في بناء المسجد ، والتزامها - تحريا - أن تستخرج كل مواد البناء من نفس البقعة ... بقى إذن أن نتمسك بـصك منقوش على عهد الأدارسة يحمل الإسم والتاريخ ، وأن نأق على كاهل القرطاس والآس والعبر ، تبعة ما نقلوه عن غيرهم وفي الناس فريق قديتمسك باسم فاطمة القيروانية كمؤسسة ولو أن اللوحة استعاضت عنها بالإمام داود وذلك استثناسا من هذا الفريق بكون الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو إلى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم. بيد أن عدم توفرنا على ترجمة مدققة لفاطمة من جهة ، وعدم نص المصادر على هذا التأويل « الجديد » من ناحية ثانية لا يساعد على الاطمئنان ..

بقى بعد هذا أمر آخر لا نرى مناصا من إثارته هنا ... وذلك مملكة داود ؟ أين مبدؤها وأين نهايتها ؟ ومتى امتد سلطان داود من تازة على فاس ؟ ومتى انتهى ؟ إن التاريخ - كما سبق أن قلت - يخل على داود بن إدريس بأكثر من سطر لم يتجاوز عشرة سنتيمترات ! فكيف يمكن أن نتصور الأمور على ضوء الأحداث ؟ بعد وفاة إدريس وزع ولي عهده محمد بلاد المغرب على « الثمانية الكبار » : عيسى والقاسم وعمر وداود الخ. ويحفظ التاريخ ثورة عيسى وتمرد القاسم كما يحفظ لعمر أمثاله لأمر أخيه محمد لهدئة الثورات ، والتاريخ بعد هذا سكت عن بقية الأخوة الذين ظلوا محتفظين بولائهم محترمين لمهودهم ... وبعد وفاة محمد هذا كان ولي عهده هو ولده عليا الذي لم يبلغ من العمر عشر سنوات والذي توفي مبكرا سنة ٢٣٤ ، بعد أن عهد لأخيه يحيى الذي عرف بهوايته المهارية والذي تنسب لأيامه جامعة القرويين ، وتوفي يحيى الأول هذا في وقت مجهول ليأتى بعده يحيى الثاني الذي عرف بمخلقه المائع والذي يجهل طبعا تاريخ توليته وتاريخ انسحابه من الحكم ، وبعد هذا تأتي « دولة » علي بن عمر ابن إدريس الذي جهل أيضا تاريخ توليته وتاريخ انتهائها !

أريد أن أتصور أن هذين الملكين : يحيى الثانى وعائياً بن عمر - وأمر توليتهما بدءاً وختاماً معلوم ! - لم يكونا شيئاً يذكر وإنما كان عمهما الذى يكبرهما سنّاً ويفوقهما حصافة فى رأى والذى كان فى عداد المتّنين الذين احتفظوا بمراكمهم، أتول هذا العم كان هو المسيطر الحقيقى فى هذه « الفترة الغامضة » إلى أن تربع على الكرسى الملكى يحيى الثالث الذى اغتيل سنة ٢٩٢ ، كان هو المسيطر وإلا فبماذا نفسر أمره ببناء مسجد كمسجد القرويين سنة ٢٦٣ ، وبأى ميزان وزن عبارة الوثيقة الهامة : « أبقاه الله ونصره نصراً عزيزاً » .

الخلاصة أن القرويين بنيت سنة ٢٦٣ وليست سنة ٢٤٥ ، وأن بناءها تم على عهد الإمام داود بن إدريس وليس على عهد يحيى بن محمد بن إدريس ... وشيء ثالث من خلال هذا فإن داود كان فى عداد الملوك الأدارسة البرزين الذين شيدوا وبنوا وليس فقط عاملاً عادياً من عمال أخيه على الناحية الشرقية لمدينة فاس .

عبد الرهأى التازى

النصوص

ذكر الرؤوس الثمانية

[هذا النص منقول عن مقدمة كتاب الخطط]

للمقرئ ، وقد شرح في هذه السطور ، الغرض
من كتابه والمنهج الذي سلكه في ترتيب موضوعاته .

اعلم أن عادة القدماء من العلماء قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح
كل كتاب وهي : الغرض ، والعنوان ، والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أي
صناعة هو ، وكم فيه من أجزاء ، وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه فنقول :
(أما الغرض) في هذا التأليف فإنه جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال
سكانها كي يلتئم من مجموعها معرفة جمل أخبار إقليم مصر ، وهي التي إذا حصلت
في ذهن إنسان ، اقتدر على أن يخبر في كل وقت بما كان في أرض مصر من الآثار
الباقية والبائدة ، ويقص أحوال من ابتدأها ومن حلها ، وكيف كانت مصائر أمورهم ،
وما يتصل بذلك على سبيل الاتباع لها بحسب ما تحصل به الفائدة الكلية بذلك الأثر .
(وأما عنوان هذا الكتاب) أعني الذي وسمته به ، فإنني لما فحست عن أخبار مصر ،
وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم ينهيا لي إذ جمعتها أن أجعل وضعها مرتباً على السنين لعدم
ضبط وقت كل حادثة ، لاسيما في الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء الناس
لعل آخر تظهر عند تصفح هذا التأليف ، فلماذا فرقتها في ذكر الخطط والآثار ،
فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكله ؛ وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق
وتبدد من أخبار مصر . ولم أنحاش من تكرار الخبر إذا احتجت إليه ، بطريقة
يستحسنها الأريب ولا يستهجنها الفطن الأديب ، كي يستغنى مطالع كل فصل بما فيه
عما في غيره من الفصول ، فلذلك سميت « كتاب التواضع والاعتبار بذكر الخطط
والآثار » .

(وأما منفعة هذا الكتاب) فإن الأمر فيها يتبين من الغرض في وضعه ومن عنوانه ، أعني أن منفعته هي أن يشرف المرء في زمن قصير ، على ما كان في أرض مصر من الحوادث والتغيرات في الأزمنة المتطاولة والأعوام الكثيرة ، فتتهذب بتدبر ذلك نفسه ، وترتاض أخلاقه ، فيحب الخير ويفعله ويكره الشر ويتجنبه ، ويعرف فناء الدنيا فيحظى بالإعراض عنها والإقبال على ما يبقى .

(وأما مرتبة هذا الكتاب) فإنه من جملة أحد قسمي العلم اللذين هما العقلي والنقلي ؛ فينبغي أن يتفرغ لطالعه وتدبر مواعظه بعد إتقان ما تجب معرفته من العلوم النقاية والعقلية . فإنه يحصل بتدبره لمن أزال الله أكنة قلبه وغشاوة بصره ، نتيجة العلم بما صار إليه أبناء جنسه بعد التحوّل في الأموال والجنود من الفناء والبيوت فإذا مرتبته بعد معرفة أقسام العلوم العقلية والنقاية ليعرف منه كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبل .

(وأما واضع هذا الكتاب ومرتبّه) فاسمه أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد ويعرف بالمقرئ رحمه الله تعالى ولد بالقاهرة الدزية من ديار مصر بعد سنة ستين وسبع مائة من سني الهجرة الحمديّة . ورتبته من العلوم ما يدل عليه هذا الكتاب وغيره مما جمعه وألفه .

(وأما من أيّ علم هذا الكتاب) فإنه من علم الأخبار ، وبها عرفت شرائع الله تعالى التي شرعها ، وحفظت سنن أنبيائه ورسله ، ودوّن هداهم الذي يقتدى به من وفقه الله تعالى إلى عبادته ، وهداه إلى طاعته وحفظه من مخالفته . وبها نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة ، وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا مانهوا عنه . وبها اقتدر الخليفة من أبناء البشر على معرفة ما دوتوه من العلوم والصنائع ، وتأتى لهم علم ما غاب عنهم من الإقطار البشاعة والأمصار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله . ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلافه

عقائدهم أخبار عندهم معروفة مشهورة دائمة بينهم . ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصّر في كل عصر . ولو استقصيت ما صنّف علماء العرب والعجم في ذلك، لتجاوز حدّ الكثرة وعجزت القدرة البشرية عن حصره .

(وأما أجزاء هذا الكتاب فإنها سبعة) ؛ أولها : يشتمل على جمل من أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها : يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها . وثالثها : يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها : يشتمل على أخبار القاهرة وخلاتها وما كان لهم من الآثار . وخامسها : يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها : يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها : يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر . وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء السبعة عدّة أقسام .

(وأما أيّ أنحاء التعاليم التي قصدت في هذا الكتاب) فإنّي سلكت فيه ثلاثة أنحاء وهي : النقل من الكتب المصنّفة في العلوم ، والرواية عن أدركت من شيخة العلم وجملة الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيتّه . فأما النقل من دواوين العلماء التي صنّفوها في أنواع العلوم فإنّي أعزو كل نقل إلى الكتاب الذي نقلته منه ، لأخلص من عهده وأبرأ من جريرته ، فكثيراً ممن ضمنى وإياه العصر واشتمل علينا المصّر ، صار لقلّة إشرافه على العلوم وقصور باعه في معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس يهجم بالإنكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب من العلم الذي يقطع عليه ولا يحتاج في الشريعة إليه . وحسب العالم أن يعلم ما قيل في ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عن أدركت من الجلالة والمشايخ فإنّي في الغالب والأكثر ، أصرّح باسم من حدّثني ، إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإنّي أرجو أن أكون والله الحمد غير متهم ولا ظنين .

وقد قلت في هذه الرؤوس الثمانية ما فيه قنع وكفاية ، ولم يبق إلا أن أشرع فيما قصدت وعزى أن أجعل الكلام في كل خط من الأخطاء وفي كل أثر من الآثار على حدة ، ليكون العلم بما يشتمل عليه من الأخبار أجمع ، وأكثر فائدة وأسهل تناولاً ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وفوق كل ذي علم عليم .

نقد الكتب

المعجم الصغير في مفردات اللغة المصرية القديمة

للدكتور أحمد بدوى والدكتور هرمن كيس

تطالعنا المطابع في كل عام بعدة مؤلفات جديدة في الدراسات الاليجتولوجية بلغات مختلفة ، يضيف كل منها شيئاً جديداً إلى ذلك العلم الناشئ الذى لا يزيد عمره عن قرن ونصف قرن من الزمان .

يظهر بعض هذه المؤلفات هنا فى مصر ، ويظهر أكثرها فى الخارج ، وهى مجهودات تقابل بالشكر والاعتراف بالجميل من كل مهتم بالدراسات المصرية القديمة أو بالحضارات الشرقية بصفة عامة .

ومن بين هذه المؤلفات التى ظهرت فى مصر فى العام الماضى ، كتاب له طابع خاص هو: المعجم الصغير فى مفردات اللغة المصرية القديمة ، وهو المؤلف الذى اضطلع به الزميلان الأستاذ الدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس والأستاذ الدكتور هرمن كيس أستاذ الدراسات المصرية القديمة بجامعة جوتنجن بألمانيا سابقا . ولست فى حاجة إلى التذكير بفائدة المعجم فإنها أعمال لا أقول إنها نافعة أو مفيدة فحسب ، بل هى فى حقيقة الأمر ضرورية وأساسية للتقدم فى دراسة أى لغة من اللغات ، وبعبارة أخرى ضرورية وأساسية لتفسير النصوص التى لا يمكن أن تتقدم بدون فهمها الصحيح دراسة التاريخ أو نواحي الحضارة المختلفة لأى أمة من الأمم ، حتى ولو كانت لغتها من اللغات الحية التى مازال الناس يتحدثون بها .

ولست فكرة عمل المعجم فكرة جديدة ، أو وليدة العصر الحديث ، فقد سبقتنا إليها الحضارات القديمة : عرفها المصريون القدماء فى الدولة الحديثة وقد عثر بين وثائق تل العمارنة التى يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق . م ، على جزء

من معجم لكلمات مصرية وما يقابلها في البابلية مع نطقها . كما نعرف أيضا أن مكتبات الملوك الآشوريين كانت تحتوي على معاجم لتفسير الكلمات وبخاصة ما كان يستخدم منها في العصور السابقة .

أما في اللغات الأوربية الحديثة فقد بدأت المعاجم في القرن الخامس عشر أو قبل ذلك بقليل وأخذت تتطور على ممر العصور إذ ظهرت منذ البداية تلك المشكلة التي مازلنا نعانيها حتى اليوم وهي هل يقتصر المعجم على الكلمات فقط أو يتناول الموضوعات أيضا ، والتي أمكن حلها جزئيا بالتفريق بين النوعين وأصبح معجم الموضوعات يسمى موسوعة أو دائرة معارف له أسسه وأساليبه الخاصة به .

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى أرى لزاما على أن أنوه بجهود اللغويين العرب في هذه الناحية من الدراسات . ويكفي أن يذكر الإنسان لسان العرب تلك الذخيرة الباقية على مر العصور ليدرك أن العرب لم يقصروا في هذا المضمار . بل إننا إذا قارنا أعمالهم بأعمال معاصريهم في هذه الناحية لزد تقديرنا لهم . ولنترك الآن موضوع المعاجم وتاريخها ونقصر حديثنا على هذا المعجم الجديد . ولكن تقديمنا له لا تكتمل فائدته إلا إذا استعرضنا ماضيه من جهود في معاجم اللغة المصرية القديمة في اللغات الأوربية .

منذ نشأت الدراسات المصرية القديمة أي منذ أيام شمبليون نفسه ظهرت الحاجة الشديدة إلى معاجم اللغة ، بل قد أتم هو نفسه قبل موته في عام ١٨٣٢ عمل أجرومية طبعت عام ١٨٣٦ ومعجا طبعت في عام ١٨٤٤ . كما حاول العالم الإنجليزي برش Birch محاولة مماثلة سنة ١٨٧٦ عندما نشر معجمه عن اللغة الهيروغليفية Dictionary of Hieroglyphics .

ولكن الدراسات المصرية كانت تتقدم تقدما سريعا وأصبحت الحاجة ماسة إلى معجم أكبر اضطلع به العالم الألماني الكبير هنري بروكش Heinrich Brugsch في أربعة أجزاء كبيرة صدرت في عام ١٨٦٧-١٨٦٨ ثم نشر ملحقا له في ثلاثة أجزاء آخرين بين ١٨٨٠-١٨٨٢ وما زالت لهذا المعجم واسمه Hieroglyphich, Demotisches Wörterbuch قيمته حتى اليوم ، لأنه عنى كما هو واضح من عنوانه

بالديموطيقية ومفرداتها مع مقارنتها بأصولها في الكلمات المصرية وهو بمجهود يعتبر من أعظم المجهودات التي اضطلع بها ذلك العالم النابغة ذو الإنتاج الخصب .
وأراد العالم الإنجليزي ولس بذج Wallis Budge أن يقدم لغز الملمين بالألمانية خدمة ، فقام بوضع معجم آخر اعتمد فيه على بروكش كما قام أيضاً بعمل معجم صغير لكتاب الموتى .

وأذكر مع الاعتزاز بالفخر بأنه بالرغم من أن مصر لم تكن قد بدأت تغنى بآثارها العناية اللازمة في مستهل هذا القرن فقد ظهر من بين أبنائها رجل نابغة بحق هو المرحوم أحمد كمال الذي عكف على الدراسات المصرية القديمة فاستفاد وأفاد ، وخلف لنا ثروة من الكتب باللغة العربية نجد فيها خلاصة ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث حتى ذلك الوقت . لقد عكف المرحوم أحمد كمال على وضع قاموس على غرار قاموس بروكش أثبت فيه معاني المفردات المصرية باللغة العربية وعنى عناية خاصة بالمقارنة بينها وبين اللغة العربية بل والتقريب أيضاً . ورغم علمنا بأنه أكمل جمع المادة العلمية وأعد أكثر من جزء واحد من معجمه فقد وافته المنية في عام ١٩٢٣ قبل أن يقدمه للطبعة . رحم الله هذا العالم النابغة . وأرجو بل وألح في نشر ما تركه من تراث علمي ولعل أبناءه يعملون على تحقيق هذا الرجاء وخصوصاً ما حققه من مقارنات بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واللغات السامية الأخرى .

وتقدمت دراسة اللغة المصرية القديمة وخطت خطوات كبيرة في القرن الحالي وظهرت نصوص هامة سواء على جدران المقابر والمعابد ، أو على اللوحات والتماثيل وأوراق البردى وغيرها ، كما ظهرت أيضاً تعديلات كثيرة في معاني بعض الكلمات خصوصاً وأن قاموس بروكش كان يعتمد قبل كل شيء على النصوص المتأخرة ، ولكن تقدم هذه الدراسات المصرية جعل المشتغلين بها يتطلعون إلى معجم أكبر ، يجدون فيه الكلمات الهيروغليفية لا في صورها في العصور المتأخرة فقط ولكن في أيام الدولة القديمة وفي الدولة الوسطى والدولة الحديثة أيضاً ، بل وكانوا

يتطلعون إلى ما هو أكثر من ذلك فاللغة المصرية قد تطورت دون شك منذ نشأتها وعاشت بعض الكلمات خلال آلاف السنين واختفى البعض الآخر ، وظهرت كلمات جديدة ، وأصبحت هذه اللغة في عصرى البطالة والرومان ، لا فى كتابة مفرداتها فحسب ، بل وفى معانيها وفى أجروميته شيئاً يبعد بعدا غير قليل عن الأصل القديم ، وإن ظلت الحروف الهيروغليفية مستخدمة بعد أن دخلها الكثير من التحوير . وظلت مصر على وفائها للغة القديمة فى العصر المسيحى بعد أن تطورت التطور الطبيعى الذى تقتضيه سنة الزمن ومنور آلاف السنين ، ولكن وفاء أقباط مصر اقتصر على اللغة دون الكتابة فاقتبسوا للغة الحروف اليونانية ، وأدخلوا عليها من الكتابة الديموطيقية المتأخرة سبعة حروف لأن أصواتها التى تؤديها لم تكن فى الأبجدية اليونانية . كان المشتغلون بالدراسات المصرية ينظرون إلى هذا التراث كله ويتطلعون إلى معجم كبير يشفى غلتهم ويمجدون فيه ما ينشدون ولكن هل كان فى مقدور فرد واحد أن يقوم بمثل هذا العمل مهما أوتى من نبوغ وطيلة عمر :

لقد فكر علماء الدراسات المصرية كثيرا وأدركوا منذ البداية ما أمامهم من صعب ، وأخيرا أتاهم الحل اللوفى السعيد عندما قام المجمع العلمى الروسى فى عام ١٨٩٧ بتذليل هذه الصعاب وكون نخبة من خيرة علمائه وعلى رأسهم العلامة أرمان لوضع هذا المعجم وتكفل هو ومجمع برلين العلمى بجميع النفقات ، وكانت نفقات باهظة لأن الأمر لم يكن أمر المرتبات لبعض الموظفين أو ثمن الورق والأقلام ، وإنما كان شيئاً أكثر من ذلك لقد كانت أكثر النصوص المصرية التى سبق نشرها فى مؤلفات مطبوعة ينقصها الكثير من الدقة ، كما أن الغالبية العظمى من النصوص المصرية لم يكن قد سبق نشرها ، ولهذا قررت لجنة المعجم منذ البداية ضرورة نقل جميع النقوش المصرية من أصولها ، سواء ما كان منها فى معابد مصر ومقابرها ، أو فى متحف القاهرة أو متاحف العالم المختلفة ، وما كان منها على الحجر أو فى ملفات البردى أو على أى نوع من الآثار التى خلفها المصريون القدماء فى أى عصر من العصور .

خرج العلماء الألمان إلى مصر وغيرها من البلاد التي نقلت إليها الآثار المصرية يجمعون هذه النقوش ويحققونها وساعدتهم على ذلك علماء الدراسات المصرية في جميع بقاع العالم وأمدوهم بما لديهم ، بل إن بعض أولئك العلماء من غير الألمان عكفوا السنين الطوال على حل رموز البرديات المكتوبة باللغة الميراطيقية وقدموا ثمرة علمهم إلى لجنة المعجم . واستمر ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وحتى في تلك الأيام ، أيام الحرب ، استمر العمل في المعجم فلما انتهت الحرب بما أصاب الألمان من نكبة وإفلاس ، مرت على المعجم أيام حالكة دقيقة وأصبح المشروع كله مهددا . ولكن إيرمن وتلاميذه وعلى رأسهم زيته Sete وجراپوا Hermann Grapow ظلوا على تصميمهم ووفائهم ، وتقدم لمساعدتهم أدبيا وماديا كثير من الهيئات المهمة بالدراسات المصرية القديمة ، بل وبعض الأفراد ، حتى قارب العمل أن ينتهي ولكن تكاليف طبع المعجم الكبير ظلت عقبة كثودا بعض الوقت .

كان طلاب الدراسات المصرية في جميع أرجاء العالم في حاجة ماسة إلى معجم جديد ليحل محل معجم بروكش وهنا نشأت فكرة إصدار معجم صغير مؤقت ساعد على تحقيقها ماقدمته سيدتان من هبات مالية فصدر في عام ١٩٢١ تحت عنوان Aegyptisches handwörterbuch باسم أدولف إيرمن وهرمن جراپو فسد ذلك الفراغ الشاغر .

وأخيرا ، وبعد مجهود شاق طويل بدأ المعجم الكبير يأخذ صورته الأخيرة فصدر الجزء الأول منه في عام ١٩٢٦ ، وصدر آخر أجزائه وهو الجزء الخامس في عام ١٩٣١ كما ظهرت أيضا أجزاء عدة من ملحق لهذا المعجم يحدد النصوص التي وردت فيها المفردات . وأخيرا في عام ١٩٥٠ فقط ظهر جزء سادس منه لأن الأجزاء الخمسة الأساسية مرتبة حسب الأبجدية المصرية القديمة فصدر ذلك الجزء الجديد على حسب الأبجدية الألمانية ، وإلى جانب كل كلمة معناها بالمصرية القديمة ومكانها في الأجزاء الخمسة .

بلغ عدد جزازات قاموس برلين أكثر من مليون ونصف ، ولم تقتصر الجزازة على الكلمة بل كانت تشتمل الجملة التي وردت فيها والمرجع الذي نقلت منه ولهذا كانت قاعات ذلك المعجم منذ البداية جنة كل باحث في اللغة المصرية . وقد زاد عدد تلك الجزازات بعد عام ١٩٢٦ وما زالت تزيد كل يوم ، فكلما عثر على نص جديد أضيفت كلماته إلى المعجم حتى كاد يصل الآن إلى مليونين يشرف عليه ذلك العالم الجليل هرمن چرابو الذي أفنى حياته العلمية كلها في استكمالها .

وإني إذ أتحدث الآن أتصور أمامي قاعات ذلك المعجم عندما كنا نطلب العلم هناك وأتذكر أمامي تلك الصناديق التي تغطي الجدران والتي تحتوى على الجزازات ننظر إليها نظرة تقرب من التقديس ، وأتذكر زميلي الدكتور أحمد بدوى عندما كنا سويا في عام ١٩٣١ نتحدث عن ذلك المعجم ونتمنى بكل ما في الشباب من أمل بسام أن يكون لنا في مصر شيء منه ، وبالرغم مما ذكره الدكتور بدوى في مقدمته التي سماها قصة المعجم بأن فكرة وضعه بدأت في عام ١٩٥٢ فإني أؤكد له ولكم أن مثل هذه الأمنية داعبت خياله وأحلامه قبل ذلك بعهد طويل ، ولكنه لم يتخذ خطوات جدية لتنفيذها إلا في عام ١٩٥٢ . ولم تنته مهمة معجم برلين الكبير بإصداره بل استمرت حتى في أيام الحرب العالمية الثانية وظل چرابو راعيا له أمينا على محرابه حتى قضى الموقف الحربي بنقله من برلين إلى أحد الأماكن النائية في شرق ألمانيا . وأراد بعض ذوى الشأن بعد الحرب نقله إلى موسكو ولكن مساعى چرابو وعودة أهل السياسة إلى شيء من التعقل أبقت المعجم في برلين الشرقية وبُنيت له قاعات غير بعيدة من مكانه القديم الذي هدمته القنابل . ولست أنسى زيارتي لهذه القاعات في عام ١٩٥١ إذ وجدت هناك أستاذي القديم الذي وقف حياته لخدمة المعجم وأصبح ، بعد أن فقد كل شيء ، يعتبر هذا المعجم أهله وولده . رأيت الشيخ الجليل يقف مرة أخرى بين أبنائه من مساعديه الجدد عاكفين على إضافة جزازات جديدة . فقد نجا المعجم كله من ويلات الحرب ولم يفقد منه أثناء نقله عدة مرات إلا صندوق

واحد - كما أخبرني جرابو - سرعان ما عوضوا جزازاته . وسيظل هذا المعجم في مكانه الجديد في بناء المجمع العلمى ، كما كان دائماً ، نوراً يشع منه العلم ومنهلاً عذباً صافياً لكل من ورده .

لقد سدت معجم برلين سواء الصغير أو الكبير حاجة كبيرة ولكن مع الأسف كانت فائدته لغير اللامين باللغة الألمانية فائدة محدودة ، وكيف يتمكن أبناؤنا من الاستفادة منه ، بل وكيف يتقدمون في دراساتهم بدون وجود معجم يستخدمونه . لقد دعا الدكتور بدوى عند ما كان أستاذاً للدراسات القديمة في جامعة عين شمس أستاذه وصديقه الدكتور هرمن كيس ليكون أستاذاً في تلك الجامعة الناشئة وقد كان ذلك كسباً لنا جميعاً . فالأستاذ كيس من أعظم علماء العالم المعاصرين؛ لا يمتاز بسمعة العلم وغزارة المادة فحسب ، بل يمتاز أيضاً بفهمه العميق للروح المصرية القديمة ، ويمتاز بما هو أكثر من ذلك . يمتاز بروحه العلمية الصافية التى لا تضن بمساعدتها لكل من أراد . فكلنا يعرف فضل هرمن كيس ويعرف أيضاً أنه ما قصر أو بخل على أحد من تلاميذه أو غير تلاميذه بنصحه وعونه العلمى ، ولو استغرق منه ذلك أياماً وأسابيع ، وعطل بحوثه الخاصة . والآن أترك لقم زميلى الدكتور بدوى يتحدثنا عن بداية القصة في تنفيذ هذا المعجم :

فهو يقول: « لم يكد العالم الجليل يتلقى دعوة الجامعة حتى أسرع ملبياً فشارك في رعاية الطلاب وأسهم في ذلك بمجهود مشكورة . على أننا لم نلبث غير قليل حتى بان لنا أن حياة طلابنا العلمية لا يمكن أن تستقيم دون أن يتاح لهم استخدام معجم اللغة المصرية في سهولة ويسر . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والمعجم كبير ضخيم أخرجه المجمع العلمى الروسى وبذل في سبيل إخراجه من الفكر والجهد المتصل ومن السهر والعرق والورق ثم من الوقت والمال ما شغل الدنيا - ولم يزل - أكثر من نصف قرن ، أخرجه وشرح مفرداته باللغة الألمانية التى لم تتح لطلابنا المصريين رغم ما يبذل معهم من جهود في سبيل تعلمها ، ولن تتاح لهم مهما تضاعفت تلك الجهود في وقت قصير .

ترانا نعلم إلى هذا المعجم الضخم فنترجمه إلى اللغة العربية لنتيح لطلابنا المصريين استخدامه والانتفاع به؟ ذلك أمر لن يمكن تحقيقه في سهولة ، ولو أمكن إذا لبذلنا في سبيل ذلك من الجهد والمال والورق والعرق ما يكلفنا من أمرنا شططا ويرهقنا من أمرنا عسرا . ولن يكون لنا بعد ذلك من الفضل غير نصيب من ترجم متفعلا بجهود غيره فوق ما ينفق من مال قد يكون من الخير أن ينفق في غير هذا العمل . بل لن يتاح لطلابنا أن ينتفعوا بهذا الجهد دون أن يكون بعضهم قد شاخ أو أن يكونوا كلهم قد ودعوا حياة العلم والثقافة إلى أخرى قد لا يحتاجون فيها إلى ثقافة هذه الدنيا .

لقد يكون أسهل من ذلك وأهون - إن نحن فكرنا في الترجمة - أن نعلم إلى ذلك المعجم الصغير الذي أخرجه العالم الألماني « أدولف أرمن » ليعين به المبتدئين من طلابه إلى أن يخرج إليهم المعجم الكبير .

ذلك أمر يسير ، كان من الممكن إنجازه في شهرين على أكثر تقدير . إلا أن مجرد التفكير فيه يعرضنا حتما إلى سخرية لا قبل لنا بتحمل نتائجها ، ذلك لأن المعجم المشار إليه قد أُلجأت إلى إخراجه يومئذ ضرورة ملحة . فلما ظهر المعجم الكبير كان المعجم الصغير قد استنفد أغراضه ، وكان حتما عليه أن يزول بزوال تلك الضرورة .

فلنفكر إذا في إخراج معجم مصري عربي صغير يكون فيه شيء من الابتكار يتيح لطلابنا المصريين أن ينتفعوا به في سهولة ، وأن يستعينوا به في الدراسة والتحصيل . وحرصاً على أن تكون استفادة الدارسين من أبناء الشرق العربي كاملة ، لم نكتف في إخراج هذا المعجم بترجمة معاني مفرداته إلى اللغة العربية وحسب ، بل أضفنا إلى ذلك الترجمة الألمانية أيضا ، ولم يفتنا كذلك ، أن نثبت من مفردات اللغة القبطية كل ما يرجع إلى ما في هذا المعجم من أصول مصرية قديمة « ويسترسل الدكتور « بدوى » في ذكر ما لقيه هو وزميله من تشجيع حينما لاقاه هو من صواب في أكثر الأحيان إلى أن يصل إلى قوله :

« فإذا جاز أن يكون هناك ما يميز هذا المعجم الذي نخرجه اليوم ، فإننا لا نريد إبرازه وإنما نترك أمر ذلك إلى من يقرأ أو يطلع وينتفع ثم إلى من يقدر ويحكم » .

ولنلق الآن نظرة على هذا المعجم الصغير الجديد Hand wörterbuch . يقع المعجم في ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير سلك فيه واضعاه من ناحية التبويب والترتيب منهاج معجم برلين سواء الكبير أو الصغير معتمدين على لغة الدولة الوسطى ، وهي ما يرى أكثر علماء الدراسات المصرية أنها تمثل خير عصور اللغة المصرية القديمة ويمكننا أن نطلق عليها اسم اللغة الفصحى . ولكنهما لم يقتصرا على ما لدينا من تراث من الدولة الوسطى بل أضافا أيضا الشيء الكثير من مفردات الدولة القديمة والدولة الحديثة كما أثبتنا أيضا كثيرا من المفردات القبطية المطابقة لأصولها المصرية القديمة بنفس القدر الوارد في المعجم الكبير على وجه التقريب ، كما ذكرنا في المقدمة .

وكل صفحة من صفحات المعجم مقسمة إلى أربعة أعمدة ، نجد في أقصاها على اليسار نطق الكلمة المصرية بحروف لاتينية وفي العمود الثاني كتابتها هي ومشتقاتها باللغة المصرية القديمة ، وفي العمود الثالث وهو أكثرها اتساعا معنى الكلمة باللغتين الألمانية والعربية والقبطية في بعض الحالات . أما رابع الأعمدة فهو مخصص أيضا للكتابة المصرية للكلمة نفسها كما وردت في الدولة القديمة أو في الدولة الحديثة . ولناخذ مثلين أو ثلاثة :

(١) من حرف الميم :

كلمة « خمس » (ص ١٥٩) نجدها في العمود الأول من اليسار مكتوبة بدون حروف العلة أي الحروف الساكنة فقط hmsj حرف h تحتها نقطة للدلالة على نطقه كحاء ، ثم حرف m يليه حرفا s ثم z وفي العمود الثاني كتابتها بالهيروغليقية كما وردت في نصوص الدولة الوسطى ، وفي العمود الثالث معناها باللغتين الألمانية والعربية : هكذا (رابعي معتل الآخر) جلس ، قعد (lv inf.) setzen, sich setzen ثم بالقبطية إلى جوارها ؛ وفي العمود الأخير كتابتها كما وردت في الدولة القديمة .

(٢) من حرف الباء :

كلمة بتك (ص ٧٨) في العمود الأول btk وفي العمود الثاني كتابتها بالهيروغليفيه ومخصصها السكين مكتوب وراءها. وفي العمود الثالث معناها بالألمانية schlachten وبالعربية كلتان بَتَكْ ، ذبح (العدو) - وأعترف أن كلمة بتك العربية التي تقابل بتك المصرية كانت جديدة علىّ فبحثت عنها في أحد المعاجم العربية الصغيرة فوجدتها - البَتَك : القطع ، وبابه ضرب ونصر . وبتك آذان الأنعام : قطعها ، شُدّد للكثرة . وأردت التحقق من وجود هذه الكلمة المصرية في معجم برلين الصغير فلم أجدها ولكني وجدتتها في المعجم الكبير فقط .

(٣) وها هو مثل ثالث من حرف القاف :

كلمة « قرر » (ص ٢٥٧) - في العمود الأول نطقها krr وفي العمود الثاني الكلمة المصرية ومعها مخصصها رسم ضفدعة وفي العمود الثالث معناها باللغة الألمانية وهو frosch ثم كتابتان لها في القبطية وإلى جانبها معناها باللغة العربية وهي ضفدع . ولكن الدكتور بدوى لم يقتصر على ذلك بل وضع أيضا إلى جانب الضفدع اسما عربيا غير مألوف لنا الآن وهو قُرّه ، قرّه ، قَرّة بالضم والفتح والكسر . وقد بحثت عن هذه الكلمة في المعاجم العربية الصغيرة فلم أجدها ولكنه عثر عليها دون شك في المعجم الكبير ، وفي إيرادها فائدة للمشتغلين بالمقارنات اللغوية لأن هذا الاسم للضفدع معروف أيضا في البابلية « پكرورو pakruru » والتي يحتمل أن تكون مأخوذة من الكلمة المصرية بعد دخول أداة التعريف « يا » قرر « أى الضفدع » .

وعلى ذكر هذه الكلمة أذكر أنني سمعت اسم الضفدع في لهجة أهل الواحات البحرية يقولون عنها « بجرورة » وأغلب الظن أنها من الكلمات الباقية من اللغة المصرية في اللهجات ، وليست من العربية .

يكفي هذا القدر من الأمثلة لإيضاح أهمية هذا المعجم وأنه لم يلتزم بما جاء

في المعجم الصغير لبرلين بل أضاف عليه الشيء الكثير كما يظهر فيه مجهود الدكتور بدوى بصفة خاصة فهو المسئول عن وضع المعاني العربية إذ عني عناية خاصة بالبحث عن معانيها في العربية سواء ما يستخدم منه اليوم أو ما كان يستخدم في العربية في أزمنة ماضية إذا كانت هناك مشابهات لفظية ليستفيد من ذلك المعنيون بالدراسات المقارنة بين اللغات .

لقد سار هذا المعجم على منوال معجم برلين سواء في ترتيب حروف الأبجدية أو في طريقة عرض المفردات والسبب بسيط فهي الطريقة المثلى في مثل هذا النوع من المعاجم .

ويحق لنا أن نتساءل عن مدى اختلاف هذا المعجم الجديد عن معجم برلين الصغير وهل تناولته يدا المؤلفين بالتحوير أو التجديد أم هي ترجمة له .

وخير ما يمكن للإنسان أن يفعله في مثل هذه الحالة أن يقارن بين الإثنين . لقد وضعت أمامي المعاجم الثلاثة ، معجم برلين الكبير ومعجم برلين الصغير والمعجم الصغير في مفردات اللغة المصرية القديمة وفتحتها عند بداية حرف الميم وفحصت المفردات التي وردت في كل منها وتبدأ بميم تليها ألف ممدودة ، ما فكانت النتيجة ما يأتي :

عدد المفردات التي ذكرت في معجم برلين الكبير ١٣٨ وفي معجم برلين الصغير ٢٧ وفي هذا المعجم المنشور في القاهرة ٣٠ . ولترك المعجم الكبير جانبا . ولننظر في المعجمين الصغيرين فإن الرقمين ٢٧، ٣٠ يدعوان إلى ذلك .

ولكن المقارنة بين هذين المعجمين قد أوضحت لي أن هناك بعض كلمات قد اختصرت من معجم برلين ، وأخرى جديدة قد أضيفت ، كما ترى في كثير من المفردات اختلافا في طريقة الكتابة وفي المخصص بل هناك ما هو أهم وأعق من هذا كله فإن بعض معاني الكلمات فيها تغيير أيضا ، وهو تغيير أصبح لأنه قد اعتمد على أبحاث أحدث إذ يجب ألا ننسى أن ما يقرب من سبعة وثلاثين عاما تفصل بين المعجمين .

لقد نفدت جميع نسخ معجم برلين الصغير منذ سنوات كثيرة وأصبح الطلبة وغير المتخصصين في حاجة شديدة إلى ما يحل محله ، وقد ظهر هذا المعجم الجديد والله الحمد في الوقت المناسب وفيه معاني المفردات باللغة الألمانية ليحل هذه المشكلة ولن تقتصر فائدة المعجم على أبناء الأمة العربية وحدهم بل سيستفيد منه إلى أبعد الحدود من يعمل في حقل الاستشراق فهو دون شك فتح جديد في دراساتهم . وسيتبنى الكثير منهم لو أن مؤلفي هذا المعجم قد زادا من عدد المفردات ، ونحن نتمنى معهم أن نرى ذلك في الطبعة القادمة .

وهناك نقطة أخرى ، وهي صحة جميع المعاني التي وردت في هذا المعجم وهل هي نهائية أم أن بعضها يحتاج إلى شيء من التعديل ؟ والجواب على ذلك أن الدراسات المصرية القديمة علم ناشئ كما قلت قبل الآن ، ولا يمكن أن يدعى المؤلفان غير ذلك فإن معجم برلين الكبير نفسه لم يحتو على كل المفردات ومن آونة لأخرى تظهر أبحاث جديدة تحدد معاني الكلمات التي لم يكن الألمان قد توصلوا إليها عند نشر ذلك المعجم أو ظهرت وثائق جديدة أثبتت أن المعاني القديمة يجب تعديلها .

وما من شك في أنه توجد في هذا المعجم بعض المآخذ ولكنها مآخذ يسيرة إذا قورنت بفائدته الكبيرة ، والعصمة لله وحده .

إن المعاجم تحتاج دائماً إلى التعديل سواء بتصحيح ماورد فيها من معان أو إضافة معان أو مفردات جديدة وخصوصاً في مثل الدراسات المصرية الناشئة ، وقد أدرك هذه الحقيقة كل المشتغلين بالدراسات المصرية وأولهم الألمان ونرجو أن يطول بنا العمر حتى نرى طبعة جديدة منقحة ومزادة من معجم برلين الكبير .

كانت هذه الرغبة واضحة جلية في مؤتمر المستشرقين في عام ١٩٤٨ بباريس عندما قرأ ألن جاردنر بحثاً عن الصفحتين الأولى والثانية من الجزء الأول من ذلك المعجم تناول فيه ماورد من معنى لثلاث كلمات وإضافة أشكال جديدة لبعض المفردات وقد أصاب جاردنر في تصويبه لإثنين منها وانبرى له آخرون يذكرون تصويبات أخرى

لم يفتن إليها ، وعندما نشر جاردنر بحثه الذى ألقاه فى ذلك المؤتمر فى مجلة الآثار المصرية بالجلد فى عدد ديسمبر سنة ١٩٤٩ أشار إلى ذلك كما أضاف إشارات أخرى إلى نصوص لم ترد فى ذلك المعجم ، وما أحكم النتيجة التى وصل إليها بعد ذلك البحث .

فقد قال : « أن ما ورد فى هذه الحاشية التى أضفتها بين بوضوح الغرض الأساسى الذى كنت أهدف إليه وهو القول بأننا لم نصل إلى النهاية ، بل إننا قريبون جدا من نقطة البداية فى موضوع البحوث الجدية للمعاجم المصرية » .

وما من شك فى أن جاردنر محق فى تعليقه فلربما مضت بضعة عشرات من السنين قبل أن نصل إلى المستوى الذى نشده وتمناه ، ولكن ذلك لا يعنى وقوفنا مكتوفى الأيدي بل يعنى الاستمرار فى البحث العلمى المنظم وإضافة الجديد إلى ما لدينا من ثروة ، والتعاون العلمى الصحيح بين جميع هيئات المشتغلين بالأبحاث المصرية .

وإنى إذ أكرر التهنئة للدكتور بدوى وزميله الدكتور كيس على توفيقهما فى هذا المعجم الذى سد دون شك فراغا كنا نحس به ، وسيساعد الكثيرين من المشتغلين بالدراسات اللغوية السامية والمقارنة بينها على السير فى أبحاثهم ، إذا أرادوا عقد مقارنات بين المصرية القديمة واللغة العربية كإحدى اللغات السامية .

وإنى إذ أزجى التحية والتقدير أشفعهما بأمنيتهما ، ولا أقول شرطين ، أولاهما أن يكون هذا المعجم الصغير نواة لمعجم كبير ، أما الأمنية الثانية فهى موجهة إلى الدكتور بدوى وحده .

لقد استمعت إليه فى حفل استقباله فى مجمع اللغة العربية منذ ثلاثة أسابيع بمناسبة اختياره عضوا فيه . وكم أعجبني وسررتى منه إشارته إلى أنه كثيرا ما كادت بعض الدراسات الأخرى أن تنجح فى اجتذابه إليها فيترك الدراسات المصرية ولكن فرعون كان أقوى بأسا وأشد ساعدا فاستطاع الاحتفاظ به .

لقد أصبح الدكتور بدوى الآن مديرا لجامعة عين شمس وهو يؤدى دون شك فى هذه الوظيفة خدمات كبيرة لأمتة ولكنى لست أدرى هل هو أسعد حالا فى تلك الدوامه

الكبيرة من الأعمال أم كان أسعد حالا وأطيب نفسا عندما كان يقوم بالتدريس . على
أى حال فهو والله الحمد مازال متصلا عن قرب بالدراسات المصرية كمشرف على مركز
تسجيل الآثار ولهذا أتقدم إليه بهذا الرجاء .

لقد اجتازت الدراسات المصرية القديمة ، ومازالت تجتاز حتى الآن محنة أثق أنها
لن تطول، فهل نطمع منه في أن يولى الدراسات المعجمية المصرية شيئا من عنايته فيجعل
لها مكانا في المركز.

لدينا نواة وهي جازات قاموس المرحوم أحمد كمال ولدينا نواة أخرى وهي نسخة
من معجم برلين عن مفردات الدولة القديمة فهل نطمع منه في العناية لنشر الأولى
وإكمال الثانية ونشر معجم مصرى لمفردات الدولة القديمة أو على الأقل إكمالها ليتيسر
الانتفاع منها لأبناء الأمة العربية وغيرهم من الباحثين الأجانب الذين يأتون إلى
وادي النيل كل عام .

إننى أدرك أيها الزملاء ما تنطوى عليه آمياتى من جهود وسهر وعرق وورق
كما يقول الدكتور بدوى وهي تحتاج أيضا إلى ورق غير قليل فالمال ضرورى لبدء
أى عمل والسير فيه ولكن عهدنا به أنه يرحب بالمصاعب ويحب الأعمال النافعة الكبيرة
ففى أن يستجيب لهذا الرجاء .

أحمد فخرى

الزى لشتنشتاتر : الإسلام والعصر الحديث

مع مقدمة بقلم سير محمد ظفر الله خان

Ilse Lichtenstadter : Islam and modern age

مؤلفة هذا الكتاب يهودية الديانة، ألمانية الأصل، ثم رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنست بالجنسية الأمريكية.

وقد درست الثقافتين العربية والإسلامية في جامعات ألمانيا وإنجلترا وحصلت على إجازتي دكتوراه، إحداهما من جامعة فرانكفورت، والثانية من جامعة أوكسفورد، وهي الآن عضو في المدرسة العليا للآداب والعلوم بجامعة نيويورك، وكانت قبل ذلك أستاذة للأدب العربي والثقافة الإسلامية في المعهد الآسيوي بنفس المدينة. وللمؤلفة - غير هذا الكتاب - مقالات وأبحاث أخرى نشرت في كثير من المجلات العلمية في ألمانيا وأمريكا والباكستان ومعظمها تدور حول النواحي الاجتماعية في الإسلام مثل مكانة المرأة أو نظام الأسرة، وفيما يلي بيان بأهم هذه المقالات :

Lichtensladter (Ilse)

An Arab - Egyptian Family ; (The midelle East Jaurnal, vol. VI. Washington, 1952)

The Muslin Woman ; (Sociologus, vol. VII, Berlin 1957)

From Particularism to Unity : Race, nationality and minorities in the Early Islamic Empire. ; (Islrmic Culture, Hyderabad, 1949).

ولم تقنع الدكتورة «الزى» بما حصلت من معلومات عن هاتين الثقافتين : العربية والإسلامية جمعتها من الكتب التي قرأت ، أو من المحاضرات التي استمعت إليها ، بل أرادت أن تتصل بالعرب وبالمسلمين اتصالا شخصيا ، وأن ترى بلادهم ، وأن تحيا بينهم وتعيش معيشتهم وأن تدرس عن كتب عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، وأن تلمس بنفسها مشاكلهم وتستمع إلى أفكارهم وآرائهم ، ولهذا سافرت إلى مصر ثلاث مرات في السنوات : ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وأقامت بها مددا طويلة ، وزارت معظم البلاد العربية المجاورة لمصر كما زارت باكستان - باعتبارها دولة إسلامية - في سنة ١٩٥٥ ، وأقامت بها شهورا ، ثم أقامت في مدينة دلهي ثلاثة أسابيع اتصلت خلالها بالجالية الإسلامية المقيمة في عاصمة الهند .

وقد عقدت المؤلفة أواصر الصداقة أثناء هذه الزيارات مع عدد كبير من مسلمي الشرقين الأدنى والأوسط - رجالا ونساء - وكانت تجربة طيبة مكنتها من جمع كثير من الملاحظات والمعلومات وقد لقيت من أصدقائها المسلمين كل ترحيب ، وكانوا - كما تقول في مقدمة كتابها - يشعرونها دائما - مع أنها يهودية أنها في بيتها ، وذلك على الرغم من اختلاف أنماط حياتهم وقواعد دينهم . وقد تحدث إليها كثيرون من هؤلاء الأصدقاء في مصر وباكستان عن كفاحهم وعن إيمانهم ، كما كانوا في معظم الأحوال يصارحونها بنقدهم للأساليب الأوربية ، وقصور الغرب وعجزه عن فهم أساليبهم .

والكتاب كما تقول المؤلفة في مقدمتها فيه محاولة لتحليل المشاكل التي تعترض العالم الإسلامي المعاصر من حيث علاقتها بأسسها القديمة مع فحص الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه المشاكل .

ومن الواجب في رأيها إبراز هذه الأسس الكامنة في الإسلام والتي ظلت قوية ثابتة على مر العصور ، كما كانت مستقلة عن الأحوال الخارجية أو العصور المتغيرة ، فإن الكشف عن هذه الأسس يمدنا بالدوافع الداخلية الثابتة للحياة والفكر الإسلاميين .

والعالم الإسلامي خرج أخيراً من عزلة الطويلة وبدأ يشارك من جديد في الشؤون العالمية ، وكثير من مداخل صراعه ترجع أسبابها إلى عودة الاتصال بينه وبين الغرب ، وإنه لما يعنى الشرق والغرب معا إيجاد حل لهذه المشاكل ، ولذلك كان الهدف الثاني لهذا الكتاب - كما تقول المؤلفة - هو تحليل المشاكل التي نشأت عن تقابل العقليتين الشرقية والغربية .

والقسم الأول من هذا الكتاب الذي يتناول مبادئ الإسلام وأسسها يعتمد اعتماداً كبيراً على المراجع والمصادر الإسلامية القديمة ، في حين أن القسم الثاني الذي يعنى بتحليل مشاكل العالم الإسلامي المعاصر يعتمد في معظمه على الملاحظات الشخصية للمؤلفة .

وقد ركزت المؤلفة جهودها للعناية بدراسة النواحي الدينية والثقافية والأدبية والتاريخية للعرب والعالم الإسلامي ، ولكنها تقرر كذلك أنها لكي تفهم الإسلام فهماً عميقاً دقيقاً كان لا بد لها أيضاً من العناية بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية .

والمؤلفة تذكر أنها كانت قد انتهت من تأليف كتابها وكتابة الصفحات الأخيرة منه في الوقت الذي نشأت فيه أزمة السويس أي قبيل العدوان الثلاثي على مصر ، ذلك العدوان الذي هز ضمير العالم - على حد تعبير المؤلفة وهي يهودية - ، ومع هذا فإن هذه الأحداث المؤلمة لم تغير - كما تقول - أي جزء من أجزاء البحث ، بل على العكس زادت من اعتقادها أن الإدراك المتعمق ليناابيع الثقافة الإسلامية أصبح ضرورياً لفهم الصراع القائم بين الشرق والغرب ، وأسباب الشدة والجذب المتبادلين بين العالمين .

والمؤلفة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتقييم هذه الأزمة بكل تشعباتها وأسبابها المتعارضة ، وقد يتضح من المناقشات العامة أن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة إنما ترجع إلى العوامل السياسية والاقتصادية ، أو إلى الانفعالات الوطنية ، أو إلى الصراع بين الدول الكبرى ، أو إليها جميعا ، ولكن المؤرخ الحق يجب عليه - وسط هذه المنافسات والثورات المتكررة المتتابة ، ووسط حالة القلق العام التي تسود عصرنا الذي نعيش فيه - أن ينفذ ببصره إلى مظاهر التغير والانتقال بين عصر وعصر ، وأن يقارن بين هذه الفترة التي نعيش فيها وبين الفترات الحاسمة الشبيهة لها في التاريخ مثل انحلال الامبراطورية الرومانية ، أو قرون النهضة والإصلاح ، أو عصر الثورة الفرنسية .

ولهذا ترى المؤلفة أن أزمة الشرق الأوسط الحالية ليست إلا جزءا من الصراع في سبيل السيادة بين آسيا والغرب .

والمؤلفة ترى أخيراً أن الصراع بين العرب وإسرائيل يجب أن يحكم عليه وأن يبحث عن حل له داخل نطاق هذا الصراع الكبير بين آسيا والغرب ، ونحن نختلف المؤلفة في هذا الرأي ، ونرى أن الصراع بين العرب وإسرائيل هو أولاً جزء لا يتجزأ من الصراع بين القومية العربية وكل القوى الخارجية - شرقية أو غربية - التي تحاول العدوان على العالم العربي .

وقد قسمت المؤلفة كتابها إلى : مدخل ، وباين ، وخاتمة .
ففي المدخل تكلمت عن المشكلة : مداها ومعناها .
وجعلت عنوان الباب الأول : « أسس الإسلام » ، وقسمته إلى فصول تكلمت فيها عن :

١ - الأساس الثقافي : المجتمع العربي قبل الإسلام .

٢ - الأساس الديني .

٣ - الأساس الفقهي والقانوني .

٤ - الأساس الاجتماعى .

٥ - الأساس الفلسفى .

وجعلت عنوان الباب الثانى « المسلم والتجديد » ، وقسمته إلى فصول تكلمت

فيها عن :

١ - المشكلة العامة .

٢ - المشكلة الاجتماعية : الزواج والأسرة ، التعليم ، الاقتصاديات .

٣ - المشكلة السياسية : الدولة الإسلامية ، الإسلام والقومية .

٤ - الفكر الجديد فى الإسلام .

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن موقف الشرق قبالة الغرب أو بمعنى آخر عن تقابل

الشرق والغرب .

وفى نهاية الكتاب قائمة مفيدة بالمراجع التى أفادت منها المؤلفه عند وضع

الكتاب .

وقد جهدت المؤلفه - كما تقول فى مقدمتها - أن تلزم الحياد فى بحثها وأن تتناول الموضوع كما يتناوله كل باحث يسعى إلى الحقيقة ، فلا تحابى فريقا على فريق آخر . وحاولت قدر الإمكان أن تلزم الأمانة فى تفسيراتها ، ولهذا هى تتوقع أن لا يرضى عنها فى بعض الأحيان القارئ المسلم أو القارئ الغربى ومع هذا فإنها تصرح أنها اضطرت احتراماً لقواعد البحث ولصداقتها العميقة للمسلمين واحترامها التام لدينهم أن تلزم الحقيقة بالقدر الذى استطاعت .

والحق نقول إن المؤلفه حاولت جهداً أن تكون معتدلة ومعقولة عند كلامها عن الإسلام والمسلمين ، فهى تقول مثلاً عند حديثها عن الإسلام : الإسلام ليس ديناً وحسب ، إنه أكثر من ذلك ، إنه أسلوب من أساليب الحياة .

والإسلام كدين له قيم خاصة ، وخير دليل على هذا أن الدين المسيحى لم يستطع

أن يجد سبيله إلى نفوس الأميين والفقراء من المسلمين أو إلى نفوس المثقفين ثقافة عالية أو إلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الذرة والحيوان والرياضة - رغم بلوغهم هذه الدرجة العليا من العلم - ظلوا مخلصين لدينهم الإسلامى .

ومما يستحق الالتفات أنه ما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم فى أوربا قد تحول إلى المسيحية ، قد يكون من بينهم من استغرب فى أنماط حياته ، ولكن ليس من بينهم من استنصر ، ولم يحدث هذا عن مصادفة ، ولكن له دلالة القوية ، وذلك أن الإسلام له قيمة التى لا ترضى الجاهل وحسب ، بل التى تكفى حاجات المعلمين والمثقفين »

ومن المثل الطيبة على اعتدال المؤلفة ودفاعها عن الإسلام وتأييدها لأحكامه حديثها عن المرأة وحقوقها فى الإسلام ومكانتها فى المجتمع الإسلامى (انظر ص ١٢٢ وما بعدها) وكلامها عن الحجاب ، نشأته وتطوره وحكم الإسلام فيه (ص ١٢٣ وما بعدها)

ومع ذلك فإن القارئ السلم لا يستطيع أن يرضى عن كل ما أوردت المؤلفة فى كتابها من آراء فإن فيه مأخذ كثيرة ، وفى رأى أنها لا تنفرد وحدها بترداد هذه الأفكار التى تأخذها عليها ، بل هى أفكار سمعناها ونسمعها كثيراً من عدد من المستشرقين ، وقرأناها وتقرؤها لهم فيما يكتبون ويؤلفون .

من ذلك قولها بوجود تعارض أو تناقض فى القرآن^(١) وتستشهد على هذا بالآية رقم ١٠٥ من سورة البقرة التى تقول :

« مَانَسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وهذه دعوى باطلة لست أحسب أن الهدف منها برىء ، وقد فطن إلى هذا المأخذ السيد محمد ظفر الله خان وأشار إليه فى المقدمة التى قدم بها للكتاب

(١) انظر كذلك ص ٩٨ - ٩٩ من الكتاب .

وناقشه وحاول أن يفنده مستندا إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ، محكمات هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وأُخَرٌ متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغٌ فيتبعون مآثابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكركم إلا أولو الألباب . »

والذى نعلمه ونؤمن به نحن المسلمين أن لاتناقض ولا تعارض فى القرآن البتة ، ولو أن المؤلفه ومن يقول بقولها من المستشرقين رجعوا إلى المعجم المفهرس للقرآن لوجدوا أن الكتاب الكريم به نحو ٣٨٥ آية وردت فيها كلمة « آية » ، وأن كلمة « آية » فى كل هذه الآيات لاتعنى فقرة من فقرات سور القرآن ، وإنما هى تعنى دائما: الدليل والبرهان والشاهد والعلامة والبرة والعظة مثل قوله تعالى :

« قال رب اجعل لى آيةً قال آيتك ألا تكلم الناس »

وقوله : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله : « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .

وقوله : « أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية » .

وقوله : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله » .

وقوله : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » .

وقوله : « فاليوم نحن ننجيك بيدناك لتكون لمن خلفك آية » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » .

وقوله : « وكأين من آية من السموات والأرض يمرون عليها » .

وقوله : « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

وقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل » ... الخ والمقصود بالنسخ

فى الآية التى استشهدت بها الأستاذة « الزى » إنما هو نسخ آيات الله فى كونه ،

والسياق يدل على هذا بدليل أن الآية تختتم بقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

والحقيقة أن هذا التناقض المدعى منشؤه جهل باللغة العربية وكتب الأصول والتفسير ، وتقصان في معرفة مصطلحات القرآن .

ومما يؤخذ على مؤلفة هذا الكتاب أنها حين تحدثت عن فرقة الأحمدية القاديانية التي نشأت في الهند أشارت إلى القول الخاطيء الذي حاول أن يفسر به أحمد قاديان - مؤسس الفرقة - قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » من أن المقصود « بخاتم النبيين » الخاتم الذي يختم به ، لا أنه آخر الأنبياء ، ولو أنها روت هذا القول على أنه قول أحمد قاديان لما كان هناك ما نأخذه عليها ، ولكنها ذكرت ما يفيد موافقتها على هذا القول ، بل وادعت أن القرآن يؤيده ، فقالت :

« The Korman itself calls Muhammad - Seal of prophets »

انظر ص ٦٨ ، ص ٨٦

ومما يعيب هذا الكتاب في نظر القارئ المسلم أن المؤلفة تتحدث عن محمد عليه السلام باعتباره مشرعا ، وتحدث عن التشريعات الواردة في القرآن باعتبارها من وضعة ، ولهذا تنقده وتصف تشريعاته بالقصور وعدم الشمول ، فهي تقول مثلا في ص ٧١ - ٧٢ :

« ومحمد - رغم ما يمتاز به من عبقرية - لم يكن مشرعا لتشريعات شاملة - حتى داخل النطاق المحدد لتنظيماته المبتكرة - فالتشريعات الوحى بها في القرآن هي قرارات صدرت لتوائم حالات خاصة ، وتشريعاته الاجتماعية تبدو وكأنها فصلت لتناسب حاجات بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومثل هذا القوانين المتصلة بالعلاقات الأسرية وبالزواج والميراث »^(١)

=

(١) ونس كلامها باللغة الإنجليزية : [انظر الصفحة التالية]

والكاتبة لم تنس يهوديتها ، فهي تبدي الأسى والأسف وتتهم الرسول عليه السلام بالقسوة لأنه أبعد اليهود عن المدينة (انظر ص ٤٩) ، مع أنها اعترفت عند تحليلها « للصحيفة » وهي أول دستور أصدره النبي للمجتمع الإسلام في المدينة بعد هجرته إليها - أنها أول وأقدم وثيقة في العالم تنص على الحرية الدينية ، فقد نصت الصحيفة على أن يترك لليهود الحرية في أن يظلوا يهودا .

والحقيقة أن الرسول عليه السلام قد جامل اليهود بجاملة لم يجاملها لأية طائفة أخرى ، وأكرمهم غاية الإكرام ، واعترف بهم - في الصحيفة - كعنصر ثالث إلى جانب المهاجرين والأنصار ، ونص فيها على حريتهم الدينية ، ولكنهم قابلوا هذا كله بالجحود ونكران الجليل والدسائس والمؤامرات يدبرونها ضد الرسول ، ثم انضموا أخيرا إلى الحلف الذي جمع أعداءه جميعا في موقعة الخندق ، فالرسول إذن لم يكن قاسيا حين اضطر إلى إقصاء اليهود عن المدينة ، بل كان رحيا الرحمة كلها ، والرسول اضطر إلى اتخاذ هذا الإجراء اضطرارا لأنه كان في سبيله لتكوين دولة جديدة ، والثورات والدول الجديدة - في كل عصور التاريخ - لا يمكن أن تسمح ببقاء العناصر المناوئة الهدامة .

والؤلفة - ويشاركها نفر من المستشرقين - تحاول في أكثر من موضوع أن ترد الإسلام إلى أصول قديمة ، بعضها يهودي أو مسيحي ، وبعضها وثني ، فهي على سبيل المثال - تقول في ص ٤٩ وما يليها : إن الحج بصورته الإسلامية فيه كثير من

In spite of his genius, Muhammed was not a systematic law-giver, not even within the limited range of his original organization. The laws revealed in the koran are decisions (ad hoc) made to fit specific cases. His social legislation is cut to the requirements of his own social environment, for instance the regulations affecting family relations, marriage and inheritance).

الشعائر التي كانت تتبع في عهود الوثنية مثل الطواف وتقبيل الحجر الأسود ، وهذه محاولة ماكرة لأن أصحابها يريدون أن يثبتوا أن الإسلام لم يأت بجديد ، بل هو مجموعة من الأصول والقواعد والشعائر أخذت عن الأديان السابقة ، حتى الوثنية العربية القديمة التي قام الإسلام لمحاربتها والقضاء عليها .

والمؤلفة تستعمل عند كلامها عن الإسلام بعض المصطلحات المتصلة بالدين المسيحي والنظام الكهنوتي ، فهي مثلاً عند كلامها عن أثر الدين ورجال الدين في الحركات السياسية خلال العصور حتى وقتنا الحالى تضرب أمثلة كثيرة ، ومنها أن شيوخ الأزهر في القاهرة يهددون وينذرون بإصدار قرار الحرمان (excommunication) ضد أى مسلم يعقد صلحاً مع إسرائيل ، فهي تقول في ص ٦٧ - ٦٨ :

(The Azhar Sheikhs in Cairo who threaten to excommunicate any muslim who would make peace with Israel ... etc).

ونظام الحرمان نظام كهنوتي عرفه باباوات وكرادلة روما في العصور الوسطى ، ولم يكن يعرفه ولا يمكن أن يعرفه الإسلام ، وإذا كان لشيوخ الأزهر من رأى في إسرائيل فهو أنها دولة مصطنعة معتدية دخيلة ، لا وجود لها من الناحية القانونية، وكل من يتعامل مع هذه الدولة من المسلمين يعتبر خائناً لوطنه ودينه .

وبعد ، فهذه مأخذ لا يرضى عنها القارئ المسلم لأنها تتصل بعقيدته وإيمانه ، والكتاب رغم هذا له قيمته ، فقد بذلت صاحبة جهداً كبيراً في الدراسة والبحث وجمع المعلومات ، وحاولت حقيقة أن تفهم أصول الدين الإسلامى والأسس التي قام عليها المجتمع الإسلامى خلال العصور ، ونجحت في مواضع كثيرة في تفهم وجهة نظر المسلمين ومشاكلهم ، وإذا كانت قد خانها التوفيق عند عرض بعض النقاط التي أخذناها عليها فإنما فعلت ذلك مرغمة وتحت تأثير رواسب قوية استقرت في نفسها ، وكانت أقوى من منهجها العلمى ومن رغبتها في التزام الحيدة والعدالة عند إصدار

أحكامها . تلك الرواسب بعضها يرجع إلى الأثر القوي للديانة اليهودية التي وُلدت عليها المؤلفة وفي جوفها نشأت ، وبعضها يرجع إلى الأثر الأقوى للثقافة الغربية التي تلقّتها وللأساتذة الأوربيين الذين درست عليهم .

ونحن إذا كنا نحب ديننا ونعمل على دراسته وفهمه فإن من واجبنا أن نقرأ هذا الكتاب وأشباهه ، فإن فيه إلى جانب هذه المآخذ خيراً كثيراً ، ومن واجبنا أن نترجمه إلى اللغة العربية وأن نناقش ما يستحق المناقشة ونرد على ما يستحق الرد .

بممال الدين السّبال

هارولد لاسكى: تأملات فى ثورة العصر

Reflection son the Revolution of our Time

قدم لنا الفكر السياسى الإنجائزى فريقين من الفلاسفة السياسيين، فريق تفرغ للبحث والتدريس والكتابة مثل سير أرنست بيكر وبروفسور هـ . تونى ، وفئة ثانية جمعت بين البحث الأكاديمى والممارسة العملية للسياسة مثل جراهام دالاس وجون ستراشى . ومن بين أعلام الفريق الأخير هارولد لاسكى . فقد ظل الأستاذ لاسكى يقوم بالتدريس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن وغيرها قرابة ثلاثين عاما، منذ سنة ١٩٢٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ ، كما ظل فترة طويلة عضوا فى جماعة « النايين » ثم عضوا فى اللجنة التنفيذية لحزب العمال ، وكان رئيسا لها عند ما تولى حزب العمال الحكم فى سنة ١٩٤٥ حتى إن الكثيرين كانوا يعتقدون أنه الزعيم الحقيقى للحزب ، وأصدر عشرات الكتب والمقالات والنشرات دفاعاً عن مبادئ الحزب ودعوة له . فلاسكى مزيج فريد من الفياسوف السياسى والأستاذ والداعية وعضو الحزب يجمع بينهما جميعا فى نشاط لم يفتر حتى مات .

ولعل كتبه الثلاثة « قواعد السياسة » سنة ١٩٢٥ و « الديمقراطية فى محنة » سنة ١٩٣٣ و « تأملات فى ثورة العصر » سنة ١٩٤٣ هى أهم ما كتبه ، إذ أن كلا منها يمثل بداية مرحلة من مراحل تطوره الفكرى . وذلك أن لاسكى كان فى الفترة الأولى من حياته الأكاديمية يؤمن بالمبادئ النائية ودعوتها إلى التغيير التدريجى « gradualism » ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « قواعد السياسة » المشار إليه ، ثم تحول عنها إلى اليسارية المتطرفة حوالى سنة ١٩٣٠ وكان أول مؤلف كبير له ظهر فيه هذا التحول هو كتابه الثانى « الديمقراطية فى محنة » الذى بدأ يدافع فيه عما أسماه

التجربة الاشتراكية في روسيا ، ويشيد بالنظرية الماركسية ذاهباً إلى أنها في مجموعها خير محاولة للإصلاح الجذري الذي يتطلبه العصر ، ولو أنه لم يؤيدها على طول الخط فقد وجه سهام نقده إلى نقطة أساسية في النظرية وهي ما تذهب إليه الماركسية من ضرورة العنف في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهو يقول في ذلك إنه لا مكان للأمن والطمأنينة والحرية في ظل أى نظام يتطلب من الناس إيماناً به إلى حد اعتباره في ذاته مبرراً كافياً لاستعمال العنف ؛ ولعل اتجاهه هذا في نقد النظرية الماركسية أثر من آثار التدريجية النائية التي كان يؤمن بها من قبل . كما اعترض لاسكى على المادية التاريخية لنزعتها « العقلية » المغالى فيها ولتجاهلها أن هناك عوامل أخرى لها في توجيه النشاط الإنساني أثر يفوق أثر العوامل الاقتصادية ، بيد أنه يتفق مع الماركسية في أن النظام الاقتصادي السائد في مجتمع ما هو العامل الرئيسى في تحديد صورة الحكم فيه وأن الفئة التي لا بد أن تسيطر في ظل الرأسمالية ، بناء على ذلك ، هي الفئة التي تتحكم في تكييف علاقات الإنتاج ومن ثم تستطيع أن تحصل على قدر من القوة السياسية يكفى لتوجيه سياسة المجتمع كله .

وجاءت المرحلة الثالثة في التطور الفكرى عند لاسكى بعد قيام الحرب العالمية الثانية وتعرض إنجلترا لهزيمة تقضى على أسس مدنيها وتقاليدها السياسية فبدأ يدافع عن هذه التقاليد ويشيد بالروح الديمقراطية المتأصلة في الشعب الإنجليزى ويوجه إلى الفاشية هجوماً لا هوادة فيه ، كما يبدو في كتابه « تأملات في ثورة العصر » الذى نحن بصددده ؛ كما كان لاعتداء روسيا النازية على فنلندا في أوائل الحرب رد فعل سيء عند لاسكى ظهر صده في كتابه في شدة نقده لحكام روسيا كما سيجىء في حينه .

والكتاب نفسه ، الذى يقول لاسكى إنه بدأه في الشهر الثانى من الحرب العالمية الثانية عند ما بدأ البرلمان البريطانى يناقش تقرير « بفريدج » عن الخدمات الاجتماعية ، وانتهى منه في نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، ظهر في أوائل سنة ١٩٤٣ . وهو يدور حول رأى لمؤلفه عن المرحلة التى تمر بها المدينة الغربية في الوقت الحاضر . نتيجة لواقع اقتصادى

أدى بصورة حتمية إلى أن أصبحت علاقات الإنتاج الحاضرة لا تسمح بأية صورة من الصور بالإنتاج التوسعي في ظل الرأسمالية ، حيث إن الرغبة في الكسب ، وهي الحافز الرئيسي في ظل نظام الملكية الخاصة ، لا بد أن تتحكم في كمية الإنتاج ونوعه دون وزن لحاجات المجتمع في مجموعه . ومن ثم لا بد من تغيير هذه العلاقات التي تتضمن في جوهرها تمتع فئة قليلة بميزات تمنحها قوة اقتصادية، وبالتالي قوة سياسية، لا تتفق مطلقاً مع نسبتها العددية في المجتمع. ولما كانت هذه الفئة المتميزة غير مستعدة لأن تتنازل عن امتيازاتها فإنها تصم أذنيها عن صوت العقل والمنطق والواقع وتلجأ إلى جميع الوسائل للمحافظة على الوضع القائم فيما يتعلق بالمصدر الأساسي لهذه الامتيازات وهي الملكية الخاصة في وسائل الإنتاج وما يتبعها من سيطرة على الائتمان . وهكذا فإن التغيير المنشود لا بد أن يأخذ صورة الثورة التي قد تنسم بالعنف وتكون صراعاً دائماً ، كما حدث في روسيا، أو قد تتم بوسائل سلمية كما تنبأ ماركس بما سيقع في إنجلترا .

ويصف لنا لاسكي هذه المرحلة من التغيير في الفصل الأول من كتابه تحت عنوان « نبذة عن روح العصر » بأنها تغيير ثوري لا يقل عمقا عن أي تغيير آخر في تاريخ الجنس البشري الحديث ولا يقل في جوهره ومغزاه عن التغيير الذي شهد سقوط الأمبراطورية الرومانية أو مولد المجتمع الرأسمالي وحركة الإصلاح الديني . وهذا التغيير حتمي تكمن حتميته وطبيعته في كل ما يتكوّن منه طابع مجتمعا . ثم يستعرض لاسكي بعد ذلك الآراء المختلفة والأسباب التي سبقت في تحليل هذا الوضع ، من سياسية واجتماعية ونقص في نظم التربية وانكماش في سيطرة القانون ، ويستبعد أن يكون أيّاً منها وحده هو العلة ، ولكنها جميعاً أدت مشتركة إلى قيامه . بيد أن من بين هذه الآراء رأياً يعزو المحنة التي يمر بها العالم والسبب في ضرورة التغيير إلى زيادة تدخل الدولة في مختلف قطاعات النشاط القومي ، وخاصة في القطاع الاقتصادي ، ويرى في سياسة عدم التدخل « Laissez faire » علاجاً للموقف وأساساً صالحاً

لمجتمع يتطور تبعاً لمقتضيات حاجاته وظروفه ؛ ويهاجم لاسكى هذا الرأى بشدة فى كتابه. ولا غرو فهو اشتراكى عتيد يطالب بزيادة تدخل الدولة لصالح الطبقة العاملة؛ وهو يقول بصراحة فى هذا الصدد إن الدولة ليست عاملاً محايداً لخدمة المجتمع كله ، بل هى سلاح يستعمل فى خدمة الطبقة التى تجعل سيطرتها على وسائل الإنتاج فى وضع يمكنها من استغلال إمكانيات الدولة لخدمة مصالحها الخاصة .

ثم ينحصر الجزء الأكبر من بقية الفصل الأول لشرح سمات العصر الذى نعيش فيه من انتشار للخوف والقلق وعدم الطمأنينة مما يقضى على كل أمل فى التفاهم بين الفئات المختلفة فى المجتمع . وينتهى إلى أن البشر يواجهون الحاجة إلى تغيير جذرى فى روح الحكم كلها ، وإن هذا التغيير إما أن يحدث بتعاون من جانب أولئك الذين يحكمون الآن ، أو تؤدى الوقائع الموضوعية حتماً إلى تنفيذ عنيف من أسس المجتمع الذى يحكمونه . وهو يستنكر الرأى القائل بأن نبد الديمقراطية بوصفها إطاراً للدولة يحل أى مشكلة من المشاكل التى يتعرض لها حالياً الجنس البشرى ، بل إن ذلك ، فيما يرى يزيد هذه المشاكل حدة حيث إن نبد الديمقراطية يؤدى إلى إنكار المناقشة الحرة ، وهذا يؤدى بدوره إلى القضاء على الروح التى يتطلبها الكشف العلمى الذى يعد شرطاً لا بد منه لبقاء أى مجتمع حديث .

ويناقش لاسكى فى الفصل الثانى من كتابه الثورة الروسية التى يقول عنها أنها تمثل فى علاقاتها التاريخية بالقرون العشرين نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرون التاسع عشر . وهو يذهب إلى أن العالم يمر الآن بفترة من رد الفعل لا يديولوجية الثورة الروسية مما يجعل قدرتنا على الحكم عليها دون تحيز تشوبها العواطف والانفعالات التى أثارها هذه الثورة . فالناس حيالها فريقان ، فريق يرى مزاياها من الضخامة بحيث لا يستطيعون حتى مجرد التفكير فى الثمن الذى اقتضته ، وفريق هاله الثمن البشع الذى دفعته البشرية فى سبيل تحقيق هذه الثورة فلم يعد يقبل أية مناقشة فى مزاياها. ويتهم لاسكى الفريقين بالتطرف والغباء. فالفريقان ينظران إلى الثورة الروسية

في ذاتها بوصفها حدثاً قام به الروس وحدهم ونسى الناس أن كل حركة الأفكار التي نسميها التاريخ «الحديث» ساهمت في وقوعها ، إذ ما كانت هذه الثورة لتم ، في نظره لولا الثورة العلمية التي قامت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولولا أيضاً الثورة الصناعية التي حدثت في القرن التاسع عشر ، كما أن جميع الأفكار والمثل التي أتى بها مفكرون من أمثال هوبز وروسو وهيغل والاشتراكيون المختلفون من برودون إلى ماركس ساهمت في تهيئة الجو لوقوعها بالصورة التي وقعت بها . ويقول لاسكي إن نجاح الشيوعيين في الاستيلاء على السلطة واحتفاظهم بها يرجع إلى أسباب أهمها إدراكهم وفهمهم العميق لحاجات الناس الذين تحت سيطرتهم والعمل الحاسم على إجابة الرغبات الحقيقية لهؤلاء الناس ؛ وكذلك التدخل الأجنبي الذي استغله زعماء الشيوعية إلى أقصى حد في إثارة المشاعر الحماسية لدى مواطنيهم وتكثيلهم للعمل السريع في بناء نظامهم ، رغم أن الرصيد الكبير من الشعور الطيب نحو الثورة الشيوعية بين الطبقات العاملة في مختلف أنحاء العالم جعل هذا التدخل أضعف من أن يقضي حقيقة على النظام الجديد .

ورغم إعجاب لاسكي الصريح بما حققته الثورة الروسية، وخاصة تحت زعامة لينين ، والتماسه المعاذير لشتى تقائضها ، ما يعترف به منها ، فإنه عندما يتعرض لنزو ستالين لفنلندا يتحول إلى هجوم شديد على زعماء روسيا السوفيتية ناعثا الاعتداء السوفيتي بأنه مغامرة تنسم في كل تفاصيلها بالطابع العدواني الفاشي الذي ظل هؤلاء الزعماء ينددون به سنين طويلة . وهو لا يقتصر في نقده لحكام روسيا على هذه المناسبة وحدها بل أنه يتهمهم أيضاً بأنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغي في حكمهم ومحافظتهم على سلطتهم على أجهزة البوليس السري حتى أصبحت هذه الأجهزة دولة داخل الدولة ، ولو أنه يلتمس لهم في ذلك بعض العذر من الظروف المحيطة بهم ومن كونهم عاشوا عيشة المتآمرين الشردين ، في ضراع دائم مع هذه الأجهزة نفسها عندما كانت تحت سيطرة حكام روسيا السابقين مما جعلهم ينجحون إلى إقامة حكم

دكتاتورى مطلق عند ما استولوا على السلطة والقضاء على كل مظهر من مظاهر الديمقراطية .

ويقول لاسكى فى هذا الصدد إن ديكتاتورية البروليتاريا التى نادى بها ماركس تحولت عند التطبيق العملى إلى ديكتاتورية الحزب الشيوعى الذى يسيطر عليه حفنة من الزعماء أو ، فى معظم الأحيان ، فرد واحد . وهنا يصف المؤلف ديكتاتورية ستالين فينعتها بأبشع ما يوصف به حكم من مصادرة للحريات وأحكام بالإعدام بالجملة دون محاكمة ونفى وتشريد لكل مخالف فى رأى وتزوير فى الانتخابات ورقابة صارمة على كل ما يكتب أو يقال وإثارة الأبناء ضد الآباء وانتشار الخوف بصورة لم يسبق لها مثيل . وهو يقول إنه لا يستطيع أن يجد مبررا يستسيغه العقل لمثل هذا الاضطهاد الفظيع أو دفاعاً عنه ، اللهم إلا على أساس أن حكام روسيا الشيوعية لا يخططون ، وهو ما لا يسلم به عاقل .

ورغم ما عرف عن لاسكى من ميول شيوعية فإن هذا الجزء من كتابه يعد عريضة اتهام قاسية من أقوى ما كتب فى هذا الصدد حتى بدا أشد أعداء النظام الشيوعى هجوما عليه ، ولعل لاسكى لم يهاجم وضعا أو نظاما بهذه الشدة إلا عند ما يتعرض للحديث عن الفاشية التى اشتهر بعدائه الشديد لها .

ويسوقنا ذلك إلى الحديث عن الفصل الثالث من الكتاب الذى خصصه المؤلف للفاشية تحت عنوان « معنى الفاشية » . ويعتبر لاسكى الفاشية العدو الحقيقى للجنس البشرى فى العصر الحاضر ، وأن هزيمتها أصبحت ضرورة تاريخية بالنسبة للطبقة العاملة لأنها تمثل أبشع وسيلة لجأت إليها الطبقات المتميزة لخنق الديمقراطية السياسية التى أصبح من الواضح أنها ستؤدى حتما ، مع ما يترتب عليها من اتساع فى القاعدة العددية للقوة السياسية ، إلى القضاء على جوهر النظام الرأسمالى وهو سيطرة فئة قليلة تملك وسائل الإنتاج على مصائر المجتمع كله .

ويفسر ذلك بأن المستفيدين من الأوضاع القائمة فى ظل النظام الرأسمالى لا يقفون

عند حد في دفاعهم عما يعتقدون أنه مصالحهم الحقيقية ، بل وكيانهم نفسه ، مستعملين في ذلك كل الأسلحة بما فيها التعاون مع بعض النازيين الذين لا ييغون سوى الحصول على المكاسب لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على القوة في المجتمع ، ومن هنا تنبثق الفاشية وتترعرع ثم يشتد ساعدها وتنجح في الحصول على القوة التي تبغيها . ويطلق لاسكي على هذه المحاولة ، وعلى محاولات أخرى تلجأ إليها الرأسمالية في محاولة إيقاف التغيير الحتمي المنشود ، اسم الثورة المضادة . فالفاشية في نظره صورة من صور الثورة المضادة التي تهدف بها الطبقة الرأسمالية إلى أقلمة المجتمع الرأسمالي - مع الاحتفاظ بجوهره - لظروف الأساليب الفنية الحديثة والسوق العالمي وتقسيم العمل . فهي رأسمالية نبذت أصولها التحررية التقليدية بعد أن تأكدت بالتجربة من اتجاه الأحداث أن الفكرة التحررية ، سواء في المجال الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي ، لا بد أن تؤدي بطبيعتها إلى القضاء على الفكرة الرأسمالية .

ولعل لاسكي لم يتعرض للفاشية وأصولها وطبيعتها ونتائجها في مؤلف من مؤلفاته بالتفصيل والإحاطة التي عالج بها الموضوع في كتابه هذا . وهو يخلص من بحثه إلى أن الفاشية نظام مدمر بطبيعته ، فزعماؤه مضطرون إلى القضاء على جميع المراكز التي يمكن أن تكون مصدر خطر على خططهم أو تعترض سبيل تفردهم بالسلطة في المجتمع . فلا يقتصر الأمر في ذلك على الطبقة العاملة وحدها ، التي يعمل زعماء الفاشية على إثارة مشاعرها الوطنية واستمالتها بمختلف الوسائل والوعود حتى يضموها إلى صفهم ويلهوها عن المطالبة بمصالحها الحقيقية ثم لا يلبثوا أن يسيطروا عليها تماما ويستغلوها في صراعهم ضد القوى الأخرى داخل المجتمع وخارجه ؛ ولا على فئة المفكرين التي يحاول النظام الفاشي أن يخضعها أيضا لمقتضيات شمولية حتى ولو أدى الأمر إلى قتل البحث العلمي الحر الذي قد لا تتفق نتائجه مع ادعاءاته ، بل إن طبقة الرأسماليين نفسها - التي أتت بهذا النظام إلى الحكم ليساعدها في كفاحها ضد الطبقات العاملة - سرعان

ما يأتى دورها وينشب فيها النظام مخالفه حيث إنه بطبيعته يقوم على التوسع العدوانى الذى لا بد أن يؤدى إلى الحرب ، أو إلى حالة مستمرة شبيهة بالحرب ، مما يتطلب تدخلا بل وإشرافا كاملا من أجهزة الدولة على جميع مجالات النشاط الاقتصادى بصورة تنقل القوة الاقتصادية ، والسياسية بطبيعة الحال، إلى جهاز يروقراطى يخضع للإشراف المباشر لزعماء الحزب . وهكذا فالفاشية فى نظر لاسكى المدو الأول الذى ينبى أن تتضافر جميع الجهود فى القضاء عليه وعلى الأسباب التى أدت إلى قيامه . ولذلك نجد فى هذا الكتاب يدافع عن اشتراك حزب العمال البريطانى فى وزارة تشرشل الائتلافية إبان الحرب ، مع ما فى ذلك من تضحية ببعض المبادئ الرئيسية للحزب، على أساس أن هتلر وما يمثله هتلرهما العقبة الأساسية فى إتمام التغيير الثورى الذى يدعو إليه ويعتبره ضرورة حتمية يفرضها الواقع التاريخى وامتطور الحادث ، وأو الذى لا بد أن يحدث ، فى علاقات الإنتاج .

ويخصص لاسكى بعد ذلك الفصول الثلاثة التالية من كتابه للحديث عن الديمقراطية وانظروف الداخلية والخارجية التى يتطلبها بقاؤها وحسن أدائها لوظيفتها . ويجدر بنا هنا ، قبل الكلام عن مفهوم لاسكى عن الديمقراطية وظروفها ، أن نشير إلى أنه كان قبل الحرب ، خاصة بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ ، قد دأب على مهاجمة الديمقراطية الإنجليزية بوصفها قناعا تخفى وراءه سيطرة المصالح الرأسمالية ؛ ولكننا سنجد فى هذا الكتاب ، الذى كتبه فى السنين الأولى للحرب وبعد أن أصبحت إنجلترا مهددة فى كيانها نفسه ، يدافع بشدة عن القيم الديمقراطية التى تشبعت بها روح الشعب الإنجليزى ويعتبر الدفاع عن هذه القيم واجبا يستحق ، كما ذكرنا ، تضحية من جانب العمال ببعض مبادئهم الأساسية .

ومع ذلك فإن لاسكى لا يفوته أن يذكرنا فى كتابه هذا بأن نظم الديمقراطية الرأسمالية لا تكفل إلا حرية سلبية ، وأن وظيفتها الأساسية هى حماية حقوق فئة

واحدة من الفئات التى يتكوّن منها المجتمع وهى الفئة التى تهى لها سيطرتها الاقتصادية أسباب التحكم فى القوة السياسية .

ويرجع لاسكى أسباب إخفاق الديمقراطية ، فى نظره ، إلى عاملين أساسيين . أولهما إصرار بعض الفئات التى تتمتع بامتيازات معينة على تجميد الديمقراطية السياسية عند النقطة التى لا تهدد فيها الأسس الاقتصادية للمجتمع القائم ، ولما كان هذا التجميد يتنافى مع ما تتطلبه المحافظة على الديمقراطية نفسها من قدرة الغالبية العديدة فى المجتمع على إحداث أى تغيير ، مهما كان جذرياً ، بوسائل دستورية سلمية فإن إصرار هذه الفئات على تجميد الديمقراطية السياسية عند نقطة معينة هو فى الواقع قضاء عليها . والعامل الثانى الذى يعزو إليه لاسكى إخفاق الديمقراطية ، وهو منبثق من الأول ، أن اليسار بدأ يندفع فى اعتقاده بأن إيمان الرأسماليين بالأساليب الديمقراطية سينهار بمجرد أن تتعرض مصالحه للخطر ، ومن ثم سيلجأ إلى وسائل فيها القضاء على الديمقراطية الحققة دفاعاً عن هذه المصالح . وقد نجم عن ذلك جو من الشك فى الديمقراطية وفى قدرتها على تحقيق وظيفتها بحيث أصبح الموقف مهياً بشكل واضح للثورة من ناحية وللثورة المضادة من ناحية أخرى . ومن ثم قامت أصوات بتفكير للديمقراطية باعتبارها لا تؤدى إلى شىء سوى تهيئة السرح للصراع بين الأغنياء والفقراء . بيد أن لاسكى يخالف هؤلاء جميعاً فى رأى ويقول إن العيب فى الواقع ليس نقصاً فى الديمقراطية السياسية نفسها ولكن فى أنها غير مصحوبة بديمقراطية اقتصادية موازية لها بحيث لا يختل توازن المجتمع وأن ذلك ناجم عن عدم إدراك لمفهوم الديمقراطية على حقيقته وعن ظروف الواقع التاريخى الذى تطبق فيه . فالمجتمع الديمقراطى فى نظره هو نتاج العلاقات الروحية بين أعضائه بقدر ما هو نتاج صورة الحكم فيه ، وأن الاثنين - العلاقات الروحية بين أفراد المجتمع وصورة الحكم فيه - متأثران إلى أبعد حد بالأوضاع الاقتصادية القائمة ؛ ومن ثم فإن الأمر يتطلب وحدة فى الأهداف العظمى لدى جميع قطاعات المجتمع كما يتطلب أن تكون مسئولية الحكم

مسئولية حقيقية خاضعة للرقابة المستمرة من أفراد المجتمع دون حاجة إلى الالتجاء للقوة. ويقول لاسكى إن السبيل إلى ذلك لا يتأتى إلا بواسطة نظام يقوم على حرية كاملة ، غير متأثرة بالأوضاع الاقتصادية ، في اختيار الحكام وتغييرهم بطريقة دستورية منظمة. وعندما ينتقل لاسكى إلى الكلام عن الظروف الدولية التي لا بد من توافرها حتى تؤدي الديمقراطية مهمتها يبدأ بأن يذكرنا بأن الانتصار في الحرب يعني هزيمة هتلر ولكنه لا يعني هزيمة الظروف التي جعلت وجود هتلر ممكنا . ومن ثم كان لا بد من تنظيم شامل على الصعيد الدولي بحيث تقوم الدول بمجهود موحد لتحرير قوى الإنتاج في العالم؛ بيد أنه يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يتم بصورة حقيقية وحاسمة وفعالة إلا إذا عدلنا علاقات الإنتاج داخل كل دولة تمديلا جذريا .

فتمديد الأوضاع الاقتصادية في نظره هو العامل الأساسي في تهيئة الظروف الداخلية والخارجية اللازمة للديموقراطية الحقة ، ويقول إن فشل مؤتمرات نزع السلاح العديدة التي عقدت بعد الحرب الأولى دليل واضح على أن الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية لا يمكن أن تستغنى عن الحرب كوسيلة من وسائل التعبير عن نفسها !!

ويشير لاسكى إلى أن هذا التنظيم الشامل في المجال الدولي يتطلب إنشاء هيئة تضم جميع الأمم ، المنتصرة في الحرب والمهزومة على السواء ، على أن يتجنب بعد الحرب مأساة فرسايل ومعاملة الشعوب المهزومة كما لو كانت كلها عصابات من المجرمين . وينبغي أن تكرر هذه الهيئة جزءا كبيرا من إمكانياتها وجهودها لتحقيق هدفين أساسيين ؛ أولهما إدخال المدنية الحديثة في المناطق المتخلفة من العالم والثاني تصفية الاستعمار تماما بمظهره السياسي والاقتصادي معا .

فإذا تم ذلك وتوطدت دعائم الهيئة الدولية زالت من العالم إلى حد كبير تلك الظروف التي أثارت الحرب عامدة لصالح الثورة المضادة ، وعندئذ سيظهر حتما أن الرأسمالية الفردية التي تمخض عنها الاقتصاد التقليدي غير ذات موضوع .

ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه للديموقراطية في ظل التخطيط باعتبار أن هذا الموضوع هو مشكلة الساعة . فمن رأيه أن الأمر الذي لا شك فيه ، أننا عند نهاية الحرب سنكون قد انتقلنا إلى عهد المجتمع الخاضع للتخطيط الشامل ، وأن ذلك يقتضينا استعدادا خاصا وتحديداً دقيقا لأهدافنا من التخطيط لأن النازية أثبتت أن التخطيط يمكن أن يوجه في خدمة مصلحة فئة قليلة ، خاصة وأن الأساليب الفنية الحديثة في التسليح والحكم تجعل في وسع هذه الفئة أن تسيطر تماما على الكثرة . وهو يذكرنا بأن التخطيط الشامل للمجتمع قد يقوم بسهولة على التضحية بحرية الفرد .

ويحاول لاسكي بعد ذلك أن يحدد المجالات الرئيسية للتخطيط بأنها الميادين التي يجب أن تخضع للسيطرة المباشرة للدولة ، وهي الائتمان والأرض والتصدير والاستيراد ووسائل النقل والوقود ومصادر القوى . وينفى لاسكي ما يقوله خصوم التخطيط من أنه يتعارض بطبيعته مع الحرية ويدمر شخصية الفرد ؛ ويقول إن أصحاب هذا الرأي ينسون أن جوهر الحرية نفسه في حاجة إلى إعادة تحديد كلما ظهرت مجموعة جديدة من الظروف التاريخية .

كما يشير إلى بعض الاعتراضات الأخرى التي تساق ضد تدخل الدولة عن طريق التخطيط وإشرافها على المشروعات الاقتصادية الكبرى مما يؤدي إلى سيطرة حفنة من البيروقراطيين الذين قد يستغلون وضعهم للحصول على امتيازات على حساب المجتمع ، وكأننا استبدلنا سيطرة رأس المال بسيطرة البيروقراطية ، بالإضافة إلى أن البيروقراطي ، الذي يتصرف في رأس مال لا يملكه سينقصه الحافز الرئيسي لإتقان عمله ويقتل روح الابتكار لديه . ويحاول لاسكي أن يفند كلا من هذه الاعتراضات على أساس المقارنة بما حدث فعلا في التجربة الاشتراكية في روسيا . ورغم أنه يهزأ بهذه المخاوف باعتبارها مجرد دعاية من جانب الطبقات التي تتمتع في الوقت الحاضر بامتيازات ليست من حقها ، إلا أنه يعترف بالحاجة إلى ضمانات ضد خطر أن يفقد

المجتمع في ظل التخطيط الشامل ، عاداته الديمقراطية ويقع فريسة لطمع البيروقراطيين في السلطة . ولذلك نراه يطالب باللامركزية الكاملة في الحكم ويذهب إلى أننا إذا لم ندرك أنها سر الحرية فسندفع الثمن غاليا من حريتنا وأمننا .

ويختتم المؤلف كتابه بأن العالم غامر مرتين خلال هذا القرن بأرواح الملايين من شبابه في سبيل مثل عليا جميلة وأمل في تغيير الأوضاع التي تئن البشرية تحت وطأتها ولكن في المرة الأولى أخفق تماما في تحقيق هذه الآمال وراحت أرواح الملايين هباء . فاعلمنا لا نفعل نفس الشيء مرة أخرى ونتمتع بالتجربة الماضية .

وأخيراً أود أن أضيف أنه من الواضح أن لاسكي وإن كان قد نجح في التخلص تماما من تدريجيته الغاية بتأثير الماركسية ، إلا أنه لم يستطع أن يوائم بين إيمانه بالحرية وبشخصية الفرد وبين الماركسية التي اعتنقها وظل يدافع عنها طوال الفترة الأخيرة . من حياته ؛ وتبدو جميع المحاولات التي بذلها في التوفيق بين هذين الأمرين مفتعلة وغير ذات جدوى ؛ ولعلهما - أي الحرية والحفاظة على شخصية الفرد من ناحية والماركسية من ناحية أخرى - أمران لا يتفقان .

عبد الكريم أحمد

المكتبة التاريخية

بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

في نهضتنا العربية الحاضرة تلتقى القوى المفكرة والقوى العاملة لتسهم جميعا في بناء الوطن العربي ، كل يؤدي دوره في ناحية تخصصه . ودور التاريخ ، دور بارز في إنهاض الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها ؛ فالتاريخ سجل الحياة ، يحكي قصتها ، ويصور صراعاها الدائب في سبيل الكمال ، ويقص تجربتها وما انطوت عليه أعمالها من خطأ ومن صواب ، رائده تقصى الحقيقة في كل ما يصور وما يقول .

« والمكتبة التاريخية » مشروع قام على أساس هذا الفهم لدور التاريخ في بناء الأمم . ويشرف على إصدار هذه المجموعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس . ويرى المشروع كما قال الدكتور في تقديم الكتاب الأول إلى أن تكون سلسلة الكتب التي تصدر في متناول جمهور القراء المثقفين ، فلا هي دراسات أكاديمية عميقة لا يقف عندها إلا المتخصصون ولا هي تنزل إلى مستوى التأليف التهافت ، وإنما تكون وسطا يفيد طلاب الجامعات وكل صاحب حظ من ثقافة ، وعلى ألا تقصر ما تنشره في هذه السلسلة من الكتب على ناحية من التاريخ بعينها ، وإنما تكون مطلقة تتناول شتى أنواع الثقافة التاريخية وما يتصل بها من تآليف مترجمة حتى ينفصح المجال لكل باحث وتعم الفائدة جمهور القارئ . وبذلك تسهم « المكتبة التاريخية » في نشر الوعي التاريخي بين أبناء الوطن العربي ، وتعاون معاونة فعالة فيما تهدف إليه الآن من بناء الوطن العربي الكبير .

والأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من أنشط وأخلص رجال مدرسة التاريخ الحديث ، وقف جهوده على خدمة التاريخ وطلابه ؛ فلا عجب أن سار مشروع « المكتبة التاريخية » قدما وبخطى سريعة ثابتة إلى غايته ؛ فقد أخذ المشروع طريقه

إلى الظهور في يونيو سنة ١٩٥٨ ، وما لبث أن تحمس له عدد كبير من الأساتذة واحتفلوا احتفالا كبيرا لإنجاحه ، فظهر منه حتى الآن تسعة كتب اتخذت حجما واحدا وزيا واحدا . وسوف نعرض لها هنا بالتعريف .

الكتاب الأول : المجمل في تاريخ الأندلس : للأستاذ المرحوم عبد الحميد العبادي . هذا الكتاب عبارة عن فصول دونها عن المحاضرات التي ألقاها الأستاذ المرحوم عبد الحميد العبادي على طلبة التاريخ بجامعة عين شمس في تاريخ المغرب والأندلس ، أحد تلاميذه وهو « أحمد إبراهيم الشريف » العيد الآن بقسم التاريخ بجامعة عين شمس ، وأعد أكثرها في حياة الأستاذ ، ثم أجرى فيها - رحمه الله - قلمه وأقرها تمهيدا لنشرها . وقد حرص الشريف - كما ذكر في مقدمة الكتاب - على أن يحتفظ قدر ما استطاع بأسلوب أستاذه العبادي وروحه في الدرس ، كما حرص على التزام الخطوط العامة التي كان يرسمها رحمه الله ، بل إنه حرص على تسجيل كثير من أساليب الأستاذ وعباراته الشخصية ، وألزم نفسه بأن تكون شخصية الأستاذ واضحة تماما فيما يكتب .

وقد جمع الكتاب - على صغر حجمه مادة غزيرة وحوى صورة واضحة كاملة لتاريخ الأندلس . وقد بدأ الكتاب بالحديث عن أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس من ناحية التاريخ الإسلامي الخاص ، ومن ناحية التاريخ العام ، ثم عرض لفتح المغرب الإفريقي ، ثم فتح الأندلس ، ثم عرض في تسلسل لتاريخ العرب في الأندلس منذ الفتح إلى نهاية العرب في الأندلس ، بأسلوب رشيق وصور النواحي السياسية والاجتماعية والظروف الدولية في ذلك الوقت ، تصويرا قويا خاليا من التفاصيل التي قد تجنى على الصورة التاريخية وتذهب برويقها ووضوحها .

والكتاب إلى ذلك عمل من أعمال الوفاء ، قصد به تخليد ذكرى عالم كبير خدم التاريخ خدمة جليلة ؛ فقد جمع المادة ونسقها وأعدّها الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف وراجعها الدكتور مختار العبادي ، وتفضل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فجعلها

فاتحة سلسلة كتب « المكتبة التاريخية » ، وقد تنازل الجميع عن حقوقهم المادية كما تنازلت عنها أسرة الفقيد ، ورصد دخل الكتاب لإنشاء جائزة مالية باسم « جائزة الأستاذ عبد الحميد العبادي في التاريخ الإسلامي » وتمنحها « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » في كل عام لأحسن طالب في مواد التاريخ الإسلامي بجامعة عين شمس والإسكندرية والقاهرة على التوالي ، وقد عمل العبادي بها جميعا وأفاد الطلاب من فيض علمه .

الكتاب الثاني : الإسلام في أسبانيا : للدكتور لطفى عبد البديع المدرس بكلية آداب عين شمس .

وهذا الكتاب يعالج نفس الجانب من التاريخ الإسلامي الذي عالج الكتاب الأول وهو تاريخ الأندلس ، وإذا كان كتاب الأستاذ العبادي قد عالج الناحية السياسية ولم يهمل الناحية الحضارية ، فكتاب الدكتور لطفى عالج الناحية الحضارية ولم يهمل الناحية السياسية .

والدكتور لطفى عبد البديع رجل اجتمعت له أكثر من أداة للكتابة في هذا الموضوع ، فهو إلى جانب ثقافته اللغوية والأدبية العربية ، قد توفر على دراسة اللغة الأسبانية والحضارة الإسلامية في أسبانيا عدة سنوات . وقد أدار الدكتور لطفى بحثه حول فكرة أساسية هي أن « الفتح الإسلامي لم يكن مجرد حادث سياسى في تاريخ أسبانيا وإنما كان حدثا حضاريا استهلت به حقبة خلقت في الحياة الأسبانية بشتى مظاهرها ، آثارا عميقة لم تنقطع بزوال سلطان الإسلام السياسى ، بل ظلت ماثلة تتراءى في كيان أسبانيا وعناصرها المختلفة . والحياة الإسلامية كانت من التغلغل في أسبانيا بحيث لم يكن من الطبيعى أن تمتحى برفع راية سنتياجو على قصر الحمراء ؛ ولذلك مر مريرما على الحالة السياسية ليلقى بثقل بحثه على الناحية الحضارية . وكان من أبدع ما كتب الفصلان الرابع والخامس عن « تأثير الإسلام في أسبانيا » ثم « التأثير الثقافى للإسلام في أسبانيا » . إذ تناول فيهما تأثير

الإسلام في الحياة الأسبانية الاجتماعية والدينية ، والتأثير الثقافي الإسلامي في اللغة والأدب والفن القصصي والشعر والفلسفة والعلوم والفنون . كما تناول « العلوم والآداب في الأندلس » في الفصل الثالث تناولا قويا ، فعرض لتاريخ العلوم والآداب في الأندلس عرضا إجماليا ولكنه واضح مدعم بالأسانيد .

الكتاب الثالث : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر : للدكتور

جمال الدين الشيال ، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإسكندرية .

جعل الدكتور الشيال كتابه على قسمين : القسم الأول تناول فيه التأليف التاريخي في مصر في القرن التاسع عشر ، فتحدث فيه عن تطور التأليف التاريخي في مصر الإسلامية ، ثم انقطاع حركة التأليف خلال القرون الثلاثة منذ الفتح العثماني لمصر في بداية القرن السادس عشر ، حتى يصل الجبرتي حبل ما انقطع في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . ويتكلم الدكتور الشيال عن الجبرتي ومدرسته في التأليف التاريخي كلاما مستفيضا عرض فيه حياة الجبرتي التي أهلتها لكتابة تاريخه ، ثم تناول كتبه وخطته في التأليف والإمكانات التي أعانتها على جمع المادة التاريخية وتحقيقها حتى ليعتبره واحد عصره .

ثم تحدث عن النهضة الجديدة في القرن التاسع عشر . وأفرد فصلا للحديث عن « رفاة رافع الطهطاوي » ومدرسته ، ثم فصلا للحديث عن « علي مبارك » ومعاصريه . وتحدث عن تأليفهم فأعطى صورة موضحه لها . ثم تحدث عن الحركات الوطنية وأثرها في التأليف التاريخي . كما أفرد فصلا عن المؤرخين السوريين في مصر في القرن التاسع عشر .

والقسم الثاني من الكتاب دراسة مقارنة بحث فيها مختلف الاتجاهات في التأليف التاريخي ومناهجه والعوامل المؤثرة فيه .

وبالجملة فكتاب الدكتور الشيال سجل حافل للنهضة الثقافية في مصر في القرن

التاسع عشر ، ومرشد لن أراد أن يقرأ لؤرخى هذا القرن بما حوى من ثبت لمؤلفاتهم جعله المؤلف ملحقا فى آخر الكتاب .

الكتاب الرابع : طائفة الاسماعيلية (تاريخها - نظمها - عقائدها) : للدكتور محمد كامل حسين أستاذ الأدب المصرى بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى تقديمه لهذا الكتاب « لا أكاد أعرف أستاذا تعشق موضوع تخصصه ، فأخلص له وبذل له من ذات نفسه وقلبه وعقله وفرغ له حتى لا يكاد يريم عنه ، كما فعل زميلى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . فقد تخصص فى الدراسات الإسماعيلية منذ سنوات بعيدة وحشد لها جهودهم ووقف عليها نشاطه حتى أصبح بحق من روادها الأول ، لا بين الناطقين بالضاد فحسب وإنما بين سائر علمائها فى شتى أقطار الأرض » والحق أن من يقرأ الكتاب يلمس أثر التخصص فيه ويدرك إحاطة المؤلف تماما بالموضوع الذى يتحدث عنه . فقد تحدث عن طائفة اسماعيلية فى تاريخها القديم والحديث وعرض لنظمها وعقائدها حديث الأستاذ المتمكن القدير ، وعرض الخبير الذى ملك ناحية بحثه حتى أصبح بين يده أمرا سهلا يسرا .

وطائفة الاسماعيلية تستحق هذه العناية من البحث والدرس فلها تاريخ حافل بالحوادث والتيارات ، فقد لعبت دورا كبيرا فى الحياة الإسلامية . فقد أسس أصحابها لهم دولا فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى ، وكانت لهم قلاعهم وحصونهم ، وقد خشى بأسهم كل الدول المجاورة لهم ، بل والبعيدة عنهم ، وكانت بينهم حروب عنيفة قاسية امتدت وتشعبت . كما أحدث الجدل بينهم وبين خصومهم فى الآراء الدينية قوة علمية شغلت الفكر الإسلامى زمنا طويلا . وقد امتاز الإسماعيليون بالتنظيم الدقيق فى نشر مذهبهم الدينى الذى يدينون به ، حتى استجاب لهم جمهور كبير من الناس . وكتاب الدكتور محمد كامل حسين يعرض لكل ذلك فى بيان ووضوح .

الكتاب الخامس : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان :

للدكتور جلال يحيى مدرس التاريخ الحديث بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة .

تناول الدكتور جلال يحيى في كتابه هذا فترة دقيقة من تاريخ مصر والسودان شهدت صراع كل من شطرى الوادى فى سبيل التخلص من التدخل الأجنبى والحيلولة دون وقوع كارثة الاحتلال لكليهما ؛ فقد قامت وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر من مصر والسودان وما يكملهما ، وسارت فى طريق التقدم يحدوها الإخاء والتعاطف لتحقيق الخير لهما معا . ولكن حدث إلى جانب ذلك أن امتدت موجة الاستعمار الغربى إلى القارة الإفريقية ، وبدأت السياسة البريطانية ترسم لنفسها خطة استثمارية واسعة فى هذه المنطقة من العالم . ولما بدا عجز الحكومة المصرية وارتماؤها فى أحضان الأجانب فى عهد توفيق ، قامت الثورة العرابية فى مصر ولكن لم يقدر لها النجاح ووقعت مصر فريسة للاحتلال البريطانى . وكان رد الفعل الذى أحدثه الارتباك فى مصر والنفوذ الأجنبى فيها أن قامت الثورة المهدية فى السودان كمحاولة من الشطر الجنوبى للتخلص مما وقعت فيه مصر ، يشهد بذلك التعاطف الذى كان قائما بين الوطنيين فى كلا البلدين ، ثم المحاولة التى قام بها التعايشى لغزو مصر بغية تخليصها من الاحتلال الانجليزى . ولقد بذلت الحكومة المصرية بالرغم من الاحتلال - جهودا كبيرة للحد من الثورة المهدية فى السودان ومحاولة القضاء عليها لإبقاء الوحدة بين شطرى الوادى ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت قد رسمت خطتها على انتهاء الفرصة لتصفية الامبراطورية المصرية الافريقية ، ثم ضمها بعد ذلك لحسابها ، وكانت ترى فى استفحال الثورة المهدية ونجاحها ما يحقق لها هذه السياسة ، فإمكانيات الجنوب فى الحكم لم تكن لتجعل منه دولة قادرة على الصمود أمام أطماع انجلترا إذا ما تقدمت إليه ، يشهد بذلك ما قاله رئيس وزراء بريطانيا لورد سولسبرى فى مجلس العموم « لماذا نحارب الدراويش ، إنهم يحققون سياسة صاحبة الجلالة ، فهم سيحفظون السودان لنا » . والدكتور جلال يحيى حينما

يتناول هذا الموضوع، يتناوله تناول الباحث الذى أتيت له فرصة الاطلاع على الوثائق الرسمية المصرية والأجنبية ، ولذلك جعل اهتمامه إلى توضيح مالا بس الحركة المهدية من أصول السياسة البريطانية ، فهو دراسة للتاريخ الدبلوماسى للعلاقات المصرية السودانية الانجليزية فيما بين سنتى ١٨٨٠ - ١٨٨٥ وهى الفترة الحاسمة التى وضع فيها الأساس الذى حدد مستقبل مصر والسودان لمدة طويلة .

الكتاب السادس : الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى : للدكتور سعيد

عبد الفتاح عاشور ، المدرس بكلية آداب القاهرة .

فى هذا الوقت الذى تتجه فيه الجهود إلى النهوض بالجامعة ، يظهر هذا الكتاب الذى تناول فيه كاتبه تطور نشأة الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى ، وتاريخ النشاط الفكرى والتعليمى فيها فى ذلك الوقت . فتناول فى الفصل الأول النشاط الفكرى فى غرب أوربا حتى نشأة الجامعات ، ثم تحدث فى الفصل الثانى والثالث عن نشأة الجامعات الأوروبية وانتشارها . ثم عرض فى الفصل الرابع للنظم الجامعية فتكلم عن إدارة الجامعة ، ومبانيها ، وطريقة التدريس ، ومناهج الدراسة ، والكتب والمكتبات ، والامتحانات والإجازات . وعرض فى الفصل الخامس لحياة الطلبة فتحدث عن حياتهم اليومية ومستوى معيشتهم وما يلاقونه من مصاعب . وأبرز فى الفصل السادس الدور الذى قامت به الجامعات فى حركات الإصلاح وبخاصة فى حركات الإصلاح الدينى . وأما أثر الجامعات فى النشاط الفكرى ، فإن الجامعات تعبر عن أقصى ما بلغته أوربا فى العصور الوسطى من نشاط فى ميدان الثقافة والفكر . وكانت الجامعات هى الضوء الذى بدد ظلمة العصور الوسطى ، وأمدت المجتمع الأوروبى بفئة ناضجة من المثقفين المعلمين ، وهى الفئة التى أمسكت بزمام الحكومات الأوروبية فى العالم الحديث .

وختم الدكتور عاشور بحثه القيم بخاتمة تحدث فيها عن أثر الجامعات فى العصور الوسطى فى النظم الجامعية الحديثة ، ثم عن مدى تأثير الجامعات الأوروبية عند

نشأتها بالجامعات الإسلامية التي كانت أسبق منها . وبهذا الصدد نأمل أن يقوم من أساتذة التاريخ الإسلامي من يقدم لنا بحثا عن الجامعات الإسلامية حتى تكتمل الصورة عن التعليم الجامعي والحياة الجامعية في الشرق والغرب .

الكتاب السابع : سلاجقة إيران والعراق : للدكتور عبد النعيم حسنين الأستاذ المساعد بكلية آداب جامعة عين شمس .

« شهد التاريخ حركات اندفاع شعوب وجماعات خرجت من مواطنها الأصلية إلى حيث استقرت في أرض جديدة صنعت فيها مواطنها ، وحملت معها عناصر مقوماتها الأولى فاحتفظت منها بما ينفعها في حياتها الجديدة ، واقتبست مما وجدته صالحا للبقاء والتطور من الحضارات الأصلية في الأرض الجديدة » وكانت هذه الهجرات لشعوب بربرية اندفعت نحو مواطن الحضارة ؛ فالواطن الحضارية تنطوي على قوة جذب كبيرة للمتبررين ، يجذبهم إليها ما تنطوي عليه من فرص كبيرة لحياة أفضل . وقد أثرت هذه الهجرات في تاريخ العالم وشكلته تشكيلا جديدا .

من هذه الحركات العالمية خروج الشعوب التركية من مواطنها في وسط آسيا وحول سواحل بحر قزوين ، وتسربها أحيانا واندفاعها أحيانا أخرى إلى غرب آسيا وشرق أوروبا ووسطها . ولقد اعتنق الترك الإسلام منذ وصل إلى ديارهم ، ثم شاركوا في حياة الجماعة الإسلامية مشاركة فعالة حتى لم يمض قرن من الزمان حتى كان مصير العالم الإسلامي في الشرق الأوسط بيد الترك .

والترك السلاجقة مجموعة من القبائل التركية عرفوا باسم الغز ، هاجرت إلى العالم الإسلامي من أقصى التركستان في خلال القرون الثاني والثالث والرابع الهجريه تحت ظروف قاهرة ، والتفت حول زعامة بيت من بيوتها هو بيت سلجوق ، فظلت تحت زعامة هذا البيت تصطنع لنفسها الملك وتحارب في سبيله من يتصدى لها حتى تمت لها السيطرة على إيران والعراق وهيمنت على الخلافة العباسية وحاربت الفاطميين

والإسماعيليين تأميناً للوحدة المذهبية . ثم تابع السلاجقة رسالة العرب في قتال الروم حتى انتزعوا منهم أرض الأناضول وحولوها إلى أرض تركية إسلامية فهدوا بذلك للترك العثمانيين فيما بعد أن يقضوا على دولة الروم ، وأن يندفعوا في الأرض والبحار الأوربية . ولكن السلاجقة احتفظوا فيما احتفظوا به بمبادئهم في اعتبار الملك ملكاً خاصاً يقسمه الملوك بين أبنائهم ، فنشأ عن ذلك النزاع بين فروع البيت السلجوقي ، كما أن تحرك القبائل والجماعات كان مستمراً في هذه الفترة والتنازع بينها على امتلاك الأرض كان دائماً ، الأمر الذي ساعد على التشتت والانقسام والضعف .

والدكتور عبد النعيم حسنين أحد الثقات في اللغة الفارسية وآدابها وفي تاريخ إيران وكل ما يتعلق بالثقافة والحضارة الإيرانية . وقد سخر هذا كله في كتابة هذا الكتاب فاعتمد على مراجع مطبوعة وغير مطبوعة أ كثرها باللغة الفارسية لعلها لم تستخدم قبل الآن في التأريخ للدول الإسلامية في العصور الوسطى باللغة العربية ولعلنا نقرأ قريباً كتاباً آخر في سلاجقة الروم يكمل المعرفة بتاريخ هذا البيت السلجوقي الذي قام في التاريخ الإسلامي بدور كبير .

الكتاب الثامن : سيف الدولة الحمداني : للدكتور مصطفى الشكعة المدرس بآداب عين شمس .

انتهى العصر العباسي الأول ، وانتهى معه عهد الخلفاء العظام - الذين كانت قبضتهم على الدولة قوية ، وبدأت شخصية الخليفة تضعف نتيجة لظهور شخصية القواد الذين كانت تلتف حولهم أجنادهم من الترك والديلم وغيرهم وتأتمر بأمرهم لا بأمر الخلافة ، واضطرت الخلافة إلى الاعتراف بحكم المتغلبين من القواد . غير أنه وإن ضعفت قوة الخلافة وقل نفوذها فإن حيوية العالم الإسلامي لم تضعف تبعاً لذلك ، بل قامت الدولة الثغرية التي نشأت على أطراف العالم الإسلامي بدورها خير قيام في الدفاع عن حدود أرض الإسلام ، بل والدفع بها إلى الأمام في بلاد الحرب

وضم أجزاء جديدة إليها .

ومن هؤلاء الأمراء المتغلبين « سيف الدولة الحمداني » الذي أنشأ لنفسه ملكة في حلب ، وقامت دولته بوظيفتها الثغرية خير قيام ، فقد كانت تواجه ثغرا من أهم ثغور المسلمين بل هو أهمها جميعا ، ذلك هو ثغر الروم ، وقد نشطت الدولة البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية التي حكمت في ذلك الوقت ، وبلغت حدا كبيرا من القوة ، وظهر فيها كثير من القواد والأباطرة العظام من أمثال تقفور فوكاس ، وقد امتدت آمالهم إلى التفكير في استعادة بيت القدس من أيدي المسلمين ، وكان من الممكن أن يتم هذا لولا قوة سيف الدولة وقدرته على تنظيم الجيوش وحسن قيادتها .

وسيف الدولة أمير عربي وهو من بيت اشتهر أفراده بالشجاعة والقيادة والغزو ، ذلك هو البيت الحمداني . ولقد كان في عمل سيف الدولة الحربي ما يذكر بمجد العرب وقوتهم ، ولكن ما هو أظهر من ذلك ما حفل به بلاط سيف الدولة من شعراء وأدباء أحدثوا في الأدب العربي بريقا أخذا يأخذ بمجامع النفوس ، وحسبك أن تعرف أن من بين هؤلاء الشعراء أبا الطيب المتنبي وأبا فراس الحمداني . وكان سيف الدولة نفسه يقول الشعر ويطرب له ويجزى عليه فهو بحق رب السيف والقلم . والدكتور مصطفى الشكعة أديب يقول الشعر ويطرب له وقد تخصص في دراسة الأدب أيام الحمدانيين وله فيه بحوث قيمة . وكتابه هذا جمع بين الأدب والتاريخ فكان تصويرا جميلا لعصر سيف الدولة من ناحيته الحربية والأدبية .

الكتاب التاسع : موجز تاريخ الاشتراكية : تأليف نورمان ماكنزي ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى المدرس بآداب عين شمس ، والأستاذان إسحاق ملطي وعبد العزيز محمد بن المدرسان بكلية المعلمين .

هذا الكتاب عرض موضوعي دقيق شامل للمذاهب والحركات الاشتراكية الأوربية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر على وجه الخصوص حتى عام ١٩٤٨ .

وقد تناول النشاط الاشتراكي لدى العمال ومفلسي حركاتهم في كل قطر من الأقطار الأوروبية الكبرى وبخاصة إنجلترا وألمانيا وفرنسا . وأعطى أهمية خاصة للثورة الشيوعية في روسيا منذ أكتوبر سنة ١٩١٧ ، وذلك بسبب ما أثارته من تطورات اقتصادية وسياسية هائلة . وتطرق المؤلف في بحثه إلى تناول النشاط العمالي في كل قطر أوروبي وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولح إلى نضال الاشتراكية والشيوعية والأحرار جنباً إلى جنب ضد الخطر الفاشي الذي تمثل في اليابان وألمانيا وإيطاليا - أو ما يسمى دول المحور - وأعطى أهمية خاصة للحرب الأهلية الأسبانية التي كانت من مقدمات الحرب العالمية الثانية . وعلق على انتصار العمال في إنجلترا أهمية كبرى ، ومال إلى وجهات نظرهم . وانتهى في كتابه إلى أن الاشتراكية قد قطعت شوطاً بعيداً في نشاطها ، وإن لم تكن الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يتبعه العالم ؛ فهناك النشاط الرأسمالي الحر وله مزاياه ، وهناك النشاط الرأسمالي الموجه لمصلحة المجموع - كما هو الحال في بريطانيا - وهناك الشيوعية القومية كما هو الحال في يوجوسلافيا .

ويعتبر هذا الكتاب أول كتاب علمي رزين يصدر باللغة العربية عن تاريخ الحركات والفلسفات الاشتراكية ، بعد كل الذي ظهر بالعربية من كتب لا تمثل إلا أهواء أصحابها .

والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى الذي تولى الترجمة مع زميليه ، متخصص في التاريخ الحديث ويدرس النظم والنظريات السياسية بكلية آداب عين شمس وقد جاءت ترجمته دقيقة وفي أسلوب عربي سليم . وقد أضاف إلى الكتاب مقدمة تحدث فيها عن أهم ما طرأ على الاشتراكية منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

حوادث دمشق اليومية

(١١٥٤ - ١١٧٥ هـ ، ١٧٤١ - ١٧٦٢ م)

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق

تقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

وقف على تحقيقها ونشرها : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ،

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة دمشق

[مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٥٩] .

في المكتبة الظاهرية في دمشق مخطوط كتبه الشيخ أحمد البديري الحلاق بين سنتي ١١٥٤ - ١١٧٥ هـ الموافقة ١٧٤١ - ١٧٦٢ م شرح فيه حوادث دمشق اليومية في تلك الفترة شرحا عفويا صادقا « لقد كان البديري منفصلا مع أحداث زمانه فأخذ يسجل ما شاعده وما سمع يوما بعد يوم ، دفعه إلى هذا هواية الكتابة ، والتعبير عن مشاعره . والتنفيس عن كامن عواطفه . لقد سجل لنا رأيه في الناس وفي الحكام وفي الحوادث ، ووصف لنا الحياة بجميع مظاهرها وصفا دقيقا بارعا حتى نكاد نحس أننا نعيش معه في تلك الفترة من القرن الثامن عشر ، نحيط بجميع جوانب الحياة وننفعل معها كما انفعل كاتبها بها .

لم يكن البديري عالما « ولا متعلما » إلى درجة أنه يستطيع أن يكتب بلغة سليمة لكنه كان على جانب من ثقافة عملية شعبية يدرك ما يحيط به ، ويستطيع التعبير عن خلجات قلبه بأسلوب عامي لطيف ، وبشعر شعبي هو الزجل والواليا . فأتى كتابه صورة حية عن حياة دمشق في فترة من فترات التاريخ المجهول ليس فيها صنعة ولا تزويق ولا تزوير ، لأنه كتبه لنفسه ولم يكتبه لأمر أو وزير ... لذا كان كتابه مرآة تعكس لنا أحداث عصره ، ووثيقة تاريخية شعبية ، ومصدرا جيدا يصف لنا

الحياة الاجتماعية بتفاصيلها والحياة الاقتصادية برخائها وشدتها والنظام الإداري والعسكري بعسفه وفساده .

لم يصلنا كتاب البديري كما كتبه تماما بل وقع في يد عالم من دمشق في القرن التاسع عشر هو المرحوم الشيخ محمد سعيد القاسمي - جد أسرة القاسمي الدمشقية الفاضلة - فنسخه لنفسه وبدا له أن ينقحه ويهذبه ويحذف منه بعض الألفاظ الحوشية العامة والأشعار الزجلية والأدعية الصوفية الطويلة ... لكن الذي وقع هو أن نسخة البديري الأصلية التي كانت في حوزة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري قد فقدت تماما ، وبقيت لنا النسخة النقيحة ، وهي محفوظة في مكتبة أسرة القاسمي العاصرة ، وقد نسخ عنها نسختان موجودتان في المكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة أخرى في المكتبة التيمورية في القاهرة . وعلى نسخة المكتبة الظاهرية اعتمد العالم المحقق الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، طابقها مع النسخة التيمورية وراجع النقاط الهامة في نسخة الأسرة القاسمية .

لقد أدي الدكتور عبد الكريم خدمة جلي للعلم والمعلمين وللأمة العربية وخاصة الإقليم السوري بهذا الجهد الطيب الذي بذله في تحقيق الكتاب . ولقد أتى تحقيقه دقيقا وافيا يستند على أمتن القواعد العلمية وإليك الخطوات الهامة في هذا التحقيق :

١ - المقدمة : يعتبر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بحق من أقدر المختصين بتاريخ العرب الحديث لذا كانت المقدمة المؤلفة من ٦٠ صفحة من أحسن ما كتب عن تاريخ دمشق في العهد العثماني بشكل مختصر ، فلقد أخذ مادتها من كتاب البديري نفسه ومن الكتب المعاصرة أو القريبة من العصر المبحوث ككتاب العجمي (خلاصه الآثار ...) وكتاب المرادي (سلك الدرر ...) والقار والقاري والغزي والجبرتي والأمير حيدر الشهابي والقرآلي ... ومن كتب الرحالة الأجنبية كقولني وبورخارت وبرتون وأخيرا « تريس الذي يعتبر كتابه عن الحج أحسن مرجع له » .

لقد بين لنا المحقق في المقدمة أهمية البحث عن المصادر الأصلية والكشف عنها وصنف لنا هذه المصادر على نوعين :

- أ - الوثائق الرسمية وهي بحاجة إلى حملة عظيمة تقوم بها الدولة ورجال العلم .
- ب - الوثائق الأهلية (على حد تعبيره الموفق) وهي من أمثال كتاب البديري التي تصف الحياة من الداخل .

لقد استنبط المحقق حياة البديري من كتابه وأوضح لنا مهنته وبيئته ومستواه الثقافي والديني والماضي كما ذكر لنا لمحة عن حياة المنقح الشيخ محمد سعيد القاسمي ومستواه العلمي والديني ولم يغفل ذكر الأسرة القاسمية والناهين فيها .

ثم حلل المحقق كتاب البديري تحليلاً رائعاً وصنفه بحسب مواضيعه الهامة وكتبه بأسلوب علمي دقيق مستشهداً على كل نقطة بما ذكره المؤرخون العرب القريبون من عصره والمحدثون والأجانب المعاصرون والحديثون .

لقد دلت كتابة هذه المقدمة على سعة اطلاع الأستاذ المحقق القدير في هذا الموضوع ، وعرضت المواد التي يحويها كتاب البديري عرضاً موافقاً للطريقة العلمية بحيث يستطيع الباحث أن يحيط بالمعلومات التي نردها البديري متفرقة ومضطربة هنا وهناك ، وأن ينتفع بها .

٢ - تحقيق الكتاب : في كل نسخة من النسخ المنقحة التي ذكرناها سابقاً لا تأتي دائماً الجمل والكلمات متطابقة ، ويعود هذا بلا شك إلى عمل النساخين ، ولقد استطاع المحقق من المطابقة والمراجعة أن يصل إلى أفضل حل وأقربه إلى قصد الكاتب والمنقح . ولقد ذكر في الحواشي اللتبس من هذه المطابقات كما شرح فيها رأي البديري ومقصده وبين أحيانا خطأ البديري في ذكر حادثة مستعدلاً بذلك من قول البديري نفسه ومن أقوال معاصريه واستطاع أيضاً أن يصحح - اعتماداً على البديري - ما ورد في الكتب الأخرى العربية منها والأجنبية لاعتقاده أن البديري كان أصدق في تصوير الحادثة وإيرادها

٣ - الفهارس : : ذيل الكتاب بفهرس جامع للأعلام الواردة في الكتاب وفهرس للأماكن والبلاد وفهرس للمصطلحات والوظائف . وهذه الفهارس بلا شك من أنفع ما يمكن أن يسديه محقق إلى جمهور الباحثين .

٤ - الفهرس المفصل لمواضيع الكتاب : لقد وضع العالم المحقق فهرسا مفصلا لمواضيع الكتاب في النهاية يعين الباحث في الحصول على غايته من الكتاب . وإن بهذا الفهرس مع المقدمة عمل هام جدا يخدم موضوع الكتاب ويجعله سهل التناول .

٥ - أرفق الكتاب بمخططين لمدينة دمشق ، نقلا عن العالم الفرنسي سوفاجه ، أحدهما دمشق في القرن ١٦ ، والآخر دمشق في القرن ١٩ وعليهما صور توضح تطور المدينة القديمة .

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في مقدمته : « نرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع الذي نتقدم به اليوم لجلاء جانب من تاريخ سورية في القرن الثامن عشر مقدمة لهذه الحملة التي تدعوا إليها (أى الحملة لجمع الوثائق الرسمية والأهلية المتعلقة بالتاريخ السوري في العصر العثماني) ، ولبنة في البناء التاريخي الذي ندعو لإقامته » .

وقد أهدى الأستاذ المحقق هذا الجهد إلى البلد الطيب الذي أحبه وعاش فيه ثلاث سنوات يدرس فيها بجامعة دمشق ، وإلى الأجيال التي ستصنع الوحدة العربية بجميع مفاهيمها .

شكرا للأستاذ العالم المحقق على ما أسداه لهذا البلد ولجميع البلاد العربية من خدمة جلي ولما يقدمه إلى العالم والإنسانية من عمل طيب يفوح منه الإخلاص والإيمان بالقضية العربية .

المحمد أبو الفرج العشي

محافظ متخف دمشق

أنباء ومؤقرات

المؤتمر الثالث للآثار

في البلاد العربية

عقد المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية في مدينة فاس بالملكة المغربية في المدة من ٨ - ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك محمد الخامس ، وتضمن جدول أعماله الموضوعات الآتية :

١ - تقارير الدول أعضاء جامعة الدول العربية عما قامت به كل دولة من أبحاث أثرية أو حفائر أو ما أصدرته من مؤلفات علمية خاصة بالآثار في السنتين الأخيرتين .
ب - بحث موضوع توصيات المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية ، الذي عقد في بغداد في نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، ومعرفة ما تم تنفيذه منها في كل دولة ، وما لم يتم تنفيذه وأسباب ذلك .

ج - بحوث علمية يلقيها أعضاء المؤتمر .

د - محاضرات عامة عن الآثار في مختلف البلاد العربية .

واشتركت في المؤتمر وفود عن الأمانة العامة للجامعة العربية ، والملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية العراقية ، والجمهورية العربية المتحدة ، والجمهورية اللبنانية ، والملكة الليبية المتحدة ، والملكة التوكلية اليمنية ، والملكة المغربية ، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، وإمارة قطر ، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وجامعة الإسكندرية ، وجامعة عين شمس ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، والجامعة الأمريكية ببيروت ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وهيئة اليونسكو كما اشترك فيه خبيران عالميان في الآثار هما الأستاذ شارل كوينتر المدير السابق للمعهد العلى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، والأستاذ رومانلى ، مفتش الآثار بوزارة المعارف الإيطالية ورئيس الاتحاد الدولى للآثار .

وتفرع المؤتمر إلى ثلاث لجان فرعية هي :

١ - لجنة التعاون العلمي بين المشتغلين بالآثار في البلاد العربية .

٢ - لجنة قوانين الآثار في البلاد العربية وتوحيدها .

٣ - لجنة المصطلحات العلمية في الآثار .

وقد ناقش المؤتمر تقارير الدول عما قامت به من أبحاث أثرية أو حفائر في السنتين الأخيرتين ، كما ناقش الأسباب التي حالت دون تنفيذ بعض توصيات المؤتمر السابق الذي عقد في بغداد في نوفمبر سنة ١٩٥٧ . وبحث المؤتمر موضوع توحيد قوانين الآثار في البلاد العربية ، وألقى فيه نحو عشرون بحثاً علمياً في النواحي الأثرية المختلفة الهامة كما أقيمت ست محاضرات عامة حضرها عدد كبير من أهالي مدينة فاس ، وهذه المحاضرات عن :

١ - اليمين قديماً وحديثاً ، ألقاها الدكتور أحمد نفري .

ب - الحروف المنحوتة بالقرويين في خدمة الآثار ، ألقاها الأستاذ عبد الهادي التازي عضو وفد المغرب .

ج - جولة في آثار الأردن ، ألقاها الدكتور عوني الدجاني مندوب الأردن .

د - المشاريع الأثرية الكبرى في الإقليم السوري ، ألقاها الدكتور سليم عادل عبد الحق رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة .

هـ - روائع الآثار في العراق ، ألقاها الأستاذ فؤاد سفر رئيس وفد العراق .

و - شالة وقيمتها التاريخية والأثرية ، ألقاها الأستاذ عثمان عثمان إسماعيل المدرس بكلية الآداب بالمغرب .

وأتخذ المؤتمر عدة توصيات هامة ، منها التوصيات الآتية :

١ - يرى المؤتمر أن مشروع القانون الذي عرضه وفد الجمهورية العربية المتحدة

يصلح لأن يكون أساساً لدى الدول الأعضاء في بجامعة الدول العربية عند وضع تلك الدول قوانينها الأثرية .

٢ - يوصى المؤتمر بإنشاء مجلس للمتاحف والمعارض في كل دولة عربية ، له حق الإشراف على إقامة المتاحف والمعارض وتنظيمها .

٣ - يرى المؤتمر أن صيانة المباني الأثرية ومعالجة الآثار في كافة البلاد العربية تقتضيان المبادرة بإنشاء مركز للترميم ولتقديم الخدمات الفنية الضرورية لجميع أعضاء جامعة الدول العربية .

٤ - يوصى المؤتمر بأن تهتم الإدارات المختصة بالآثار في حكومات جامعة الدول العربية بالبحث عن الآثار المغمورة تحت المياه .

٥ - يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية أن تتصل بحكومات الدول العربية الممثلة في المجلس التنفيذي لليونسكو لاتخاذ الخطوات اللازمة لإرسال لجنة لتحقيق ما جرى من اعتداءات على المباني الأثرية في كل من القسم المحتل من فلسطين والجزائر .

وقام المؤتمر بعدد من الرحلات والزيارات ، فزاروا معالم مدن فاس والرباط والدار البيضاء وصفرو وإفران وزرهون ووليلي وتازة .

وخلاصة القول ، لقد نجح المؤتمر نجاحا كبيرا ، إذ حقق أهدافه العلمية ، وكان فرصة طيبة لتعارف العلماء العرب في الآثار على بعضهم البعض وتوثيق الصلات بينهم كما كان فرصة لأن يشاهد هؤلاء العلماء بلاد المغرب الجميلة وآثارها الخالدة ، ولأن يقفوا على نهضتها الحديثة التي تخطو خطوات سريعة واسعة .

أحدث مطبوعات الجمعية :

(١)

الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الأحمر (١٨٦٣-١٨٧٩)

جمعها وحققها ورتبها وأعدّها للنشر
مع دراسة تحليلية

الدكتور شوقي عطا الله الجمل

الثنى : ٩٠

الصفحات : ٤٣١

(٢)

حوادث دمشق اليومية (١٧٤١-١٧٦٢)

وتقحها :

جمعها :

الشيخ محمد سعيد القاسمي

الشيخ أحمد البديري الحلبي

ووقف على تحقيقها ونشرها :

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

الثنى : ٧٠

الصفحات : ٣١٣

(٣)

رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان

تأليف

جورج لوى بوركهارت

ترجمة : فؤاد اندراوس

تقديم : محمد محمود الصياد

حقق الأعلام : الساطر بوصيلى

إشراف : محمد شفيق غربال

الثنى : ٩٠

الصفحات : ٣٩٢

تطلب هذه المطبوعات من المكتبات الكبيرة

ومن :

دار المعرفة

١٥ شارع محمد صبرى أبو علم بالقاهرة

ت : ٥٨٥٠٥

قائمة

بأحدث مقتنيات مكتبة الجمعية

FINE ARTS

CLARK, Kenneth

Leonardo da Vinci, An Account of his Development as an Artist. London, Pelican Books 1958.

181 p. - Index. (4522)

NEWTON, Eric

European Painting and Sculpture. London, Pelican Books 1958. 266 p. - Index. (4523.)

ATLASES

HAMMOND

Ambassador World Atlas. New-York. Hammond and Co, 1958. 416 p. (4566.)

Mc. NALLY, Rand

Atlas of World History. Edited by R.R. Palmer New-York, Mc. Nally 1957. 7216 p. (4567.)

OXFORD

Oxford Economic Atlas of the World. London, Oxford Univ. Press 1957. 152 p. (4557.)

BIBLIOGRAPHIES

JONES, Ruth. (comp.)

Africa Bibliography series. Ethnography, Sociology, Linguistics and related subjects. — North — East Africa : general Ethnography, Sociology, Linguistics. 51 p. (4747.)

KHAN BAHADUR MAULVIZAFAR HASAN

Bibliography of Indo—Moslem History, excluding provincial Monarchies. Calcutta, Govt. of India, 1932

42 p. (4626.)

SOCIAL SCIENCES

BIRO, Sydney Seymour

The German Policy of Revolutionary France. A Study in French Diplomacy during the First Coalition (1792—1797) Harvard Univ Press 1957.

2 vols. (4563.)

BUSH, Vannever.

Modern Arms and Free Men. A Discussion of the Role of Science in Preserving Democracy. N. York, Simon and Schuster 1959. 273 p. (4469.)

EASTMAN, Max

Reflections on the failure of socialism. N. Y. Devin. Adair Co. 1955. 127 p. (4471.)

SCHUMPETER, Joseph

Imperialism; social classes. Two essays by Joaseph Schumpeter. Tr. by Heinz Norden. N. Y. Meridian Books 1958 .182 p. (4614.)

BIOGRAPHIES

KLYUCHEVSKY, Vasili

Peter the Great, by V. Klyuchevsky, Tr. by Liliana Archibald, London, Macmillan 1958.

282 p. Glossary. Index. (4541.)

NANDA, B. R.

Mahatma Gandhi. A Biography. London, G. Allen and Unwin 1958. 542 p. Index & Select Bibliography. (4549.)

DAUTRY, Jean

1848 et la Deuxième République. 2^{ème} édit. Paris,
Editions Sociales. 1957.

338 p. illus. (4579.)

MOORE, Ben. T.

Nato and the future of Europe. Foreword by Wm.
C. Foster. N. Y. Harper 1958.

263 p. (4625.)

THOMSON, David

Europe since Napoleon. N.Y. Alf. Knopf. 1957.

909 p. Bibliog. Index. (4564)

AMERICA

ALLEN, Frederick Lewis.

The Big Change. America transforms itself (1900-1950)
N. Y. Harper 1952.

308 p. Index. (4664.)

COMMAGER, Henry Steele

The American Mind. New Haven, Yale Univ.
Press 1953.

IX + 476 p. (4663.)

GOTTMANN, Jean

L'Amérique. Paris, Hachette, 1959.

457 p. illus. (4837.)

RIPPY, J. Fred

Latin America. A Modern History. N. York, Michigan
Univ. Press. 1958.

579 p. + Index. (4701.)

LATOURETTE, Kenneth Scott.

A History of Modern China London, Penguin Books, 1956. 234 p. Index. (4532.)

LEWIS. G. G. L.

Turkey. London, Ernest Benn, 1955.
222 p. maps, Bibliog. Index. (4543.)

PEFFER, Nathaniel

The Far East. Univ. of Michigan Press, 1958.
489 p. (4698.)

WALSH, Warren Bartlett

Russia and the Soviet Union. A Modern history. New York 1958.
640 p. Index. (4700)

WINT, Guy

Spotlight on Asia. Revised ed. London, Penguin Books 1959.
218 p. maps (4613.)

EUROPE

BONNET, Colonel Gabriel

Les guerres insurrectionnelles et révolutionnaires, de l'antiquité à nos jours, Paris, Payot 1958.
287 p. (4577.)

COBBAN, Alfred

A history of Modern France, Vol. One. London, Penguin Books, 1957.
287 p. Index. (4533.)

COULTON. G. G.

Medieval Panorama. The English scene from Conquest to Reformation. N. York. Meridian Books, 1955
801 p. + index. (4568.)

THOMPSON, Virginia.

French West — Africa, by Virginia Thompson and
Richard Adlaff. London, Allen & Unwin, 1958.

626 p. (4692.)

ASIA

B.I.R.D

The Economic development of Malaya. Baltimore, John
Hopkins Press 1955

70 + p. (4587.)

CARR, Edward Hallett

A History of Soviet Russia. London, Macmillan 1954.
4vols. (4555.)

GRIFFITHS, Percival

Modern India, 2nd ed. London, Ernest Benn 1958.
267 p. maps. (4542.)

GROUSSET, René

La Face de l'Asie, données Permanentes et Facteurs de
Renouvellement, Préface et deux chapitres complémentaires
de Georges Deniker. Paris, Payot 1955.

444 p. (4595.)

HAMMOND, Thomas Tylor

Lenin on Trade Unions and Revolution (1893—1917).
N. Y. Columbia Univ. Press. 1957.

X + 155 p. (4604.)

LAMB, Harold

Constantinople. Birth of an Empire. London
Robert Hale, 1957.

332 p. (4603.)

DUQUESNE, Jacques

L' Algérie ou la guerre des mythes. Desclée de
Brouwer, Paris 1958. 200 p. (4581.)

GRIFFITHS, James

Livingstone's Africa. Yesterday & Today. London,
Epworth Press 1958 96 p. (4602.)

HANCE, William A.

African Economic Development. London, Oxford
Univ. Press. 1958
301 p. + Index. Bibliog. (4620.)

INGHAM, Kenneth

The Making of Modern Uganda. London, G. Allen
and Unwin, 1958.
302 p + Index Bibliography. (4520.)

MATHEW, David.

Ethiopia, the study of a Polity (1570-1935) London.
Eyre and Spottiswoode 1947.
254 p. illus. (3 copies). (4552.)

OLDHAM, I. H.

New Hope in Africa. London, Longmans 1955.
102 p. (4704)

PEDLER, H. I.

Economic Geography of WestAfrica. London,
Longmans 1952.
232 p. (4703.)

SURET — CANALE, Jean.

Afrique noire occidentale et centrale. Géographie,
civilisations. préface de Jean Dresch. Paris, Editions
sociales, 1958.
280 p. index. (4582.)

MUHSIN MAHDI

Ibn Khaldun's Philosophy of History. London, Allen and Unwin 1957.

325 p. (4521.)

PIRENNE, Henri.

Mohammed and Charlemagne N. Y. Meridian Books 1958. 293 p. (4607.)

AFRICA

APTER, David E.

The Gold Coast in Transition Princeton Univ. Pr. 1955.

XVII + 355 p. (4618.)

BALANDIER, Georges

Afrique Ambiguë. Paris, Plon 1957. 291 p. (4576.)

BARBOUR, Nevill

A Survey of North — West Africa.
London. Oxford Univ. Pr. 1959.

406 p. (4702.)

B.I.R.D.

The Economic Development of Nigeria. Baltimore, John Hopkins Press 1955

XXII + ill. (4708.)

CHEVALLIER, Jacques

Nous, Algériens. Paris, Calmann.-Lévy 1958.
187 p. (4580.)

COLE, Sonia

The Prehistory of East-Africa. London. Penguin Books 1954.

301 p. Illust. (4472.)

NEAR AND MIDDLE EAST

CAMPBELL, John C.

Defence of the Middle East. Problems of American Policy. N. Y. Harper 1958.

392 op. + index (4624.)

L' HUIILLIER, Fernand

Fondements Historiques des Problèmes du Moyen-Orient. Paris. Jouve. 1958.

122 p. (4583.)

MARLOWE, John

The Seat of Pilate. An Account of the Palestine Mandate. London, the Crescent Press 1959.

XI + 289 p. (4610.)

YALE, William

the Near East. N.Y. Ann Arbor 1958.

481 p. (4699.)

ZIADEH, Nicola A.

Syria and Lebanon. London, Ernest Benn' 1957.

312 p. (2 copies.) (4544)
(4822)

ISLAMIC STUDIES

CHELHOD Joseph.

Introduction à la Sociologie de l' Islam. Paris
Majsonneuve' 1958.

230 p. (4573)

HUART, Clément.

Littérature Arabe. Paris, A. Colin, 1934.

XIV + 470 p. (4838.)

ARCHAEOLOGY

ALLEGRO, John M.

The Dead Sea Scrolls. London, Pelican Books, 1958.
205 p.+ index. (4524.)

CARRINGTON, Richard.

A Guide to Earth History, by R. Carrington, illustr.
by M. Wilson. London, Pelican Books 1958.
272 p. (4693.)

GLOVER, T. R.

The Ancient World. London, Pelican Books, 1957.
350 p. map.+index. (4534.)

GRAVES, Robert

Claudius the God and his wife Messalina, the
troublesome of Tiberius Claudius as described by himself.
London, Penguin Books 1956. 443 p. (4751.)

HEATON, E. W.

The Old Testament Prophets. London, Pelican
Books 1958.
186 p. + index. (4535.)

CLASSICAL HISTORY

Glover, T.R.,

The Ancient World. A beginning. London, Penguin Books 1973

350 p + index (4753.)

GRANT, Michael

Roman Readings. Translations from Latin Prose and Poetry. London, Pelican Books 1958

464p. + index (4528.)

GRAVES, Robert

The Greek Myths. London, Penguin Books, 1957

2 vols. (4539.)

KITTO, H. D. F.

The Grecks. A Study of the Character and History of an ancient Civilisation and of the People who created it. London, Pelican Books 1957. (4530.)

ROBINSON, C. E.

Hellas. A Short History of Ancient Greece. Boston, Beacon Press. 1955

201 p, + index (4558.)

ROSE, H. I.

Gods and Heroes of the Greeks. An Introduction to Greek Mythology. N. Meridian Books 1958

202 p+ Index (4560.)

STARR, Chester G.

Civilisation and the Cacsars. The Intellectual Revolution in the Roman Empire. N. Y. Cornell Univ. press 1954

VIII + 413 p+Index. Illus (4518.)

FRANKFORT, H .

Before Philosophy. The Intellectual Adventure of Ancient Man. London, Penguin Book 1953.

275 p. + Index (4752.)

GIERKE, Otto

Political Theories of the Middle Ages, by Otto Gierke, Tr. by Frederic William Maitland. London, Cambridge Univ. Press 1958, 197 p. (4559.)

GOAD, Harold.

Language in History. London, Penguin Book, 1958.

246 p. index. (4598)

GOOCH, G.P.

History and Historians in the XIXth Century. Boston, Beacon Press 1959, XLI + 547 p. (4616.)

HAND, Learned

L'Esprit de Liberté. Préface et trad. de Paul de Madelsen. Paris Ed. de la Colombe 1957, 316 p. (4578.)

HEGEL, Georg Wilhelm Friedrich

The Philosophy of History. Tr. by J. Sibree, with a new introd. by Prof C.J. Friedrich. N.Y. Dover Publications 1956. 457 p. (4611.)

HOOKE, Sidney

The Hero in History. A study in Limitation and Possibility. London, Secker, 1945 184 p. (4754.)

HULL, L, W. H.

History and Philosophy of Science, London Longmans 1959

340 p + index (4707.)

SNYDER, Phil. L. (ed)

Detachment and the Writing of History: Essays and Letters of Carl L. Becker, N.Y. Cornell Univ. press 1958

240 p. (4565.)

New Acquisitions of Books

GENERALIA

LONGMANS (ed.)

World Events, being the annual Register of the
year 1958. London, 1959. 589 p. (4742.)

ANTHROPOLOGY

GRAHMANN, R.

La Préhistoire de l'humanité. Introduction à l'étude
de l'évolution corporelle et culturelle de l'homme. Payot, 1955
332 p. illustr. (4594.)

TYLOR, Edward B.

Primitive Culture. London, Murray, 1913. 2 vols (4591.)

CIVILIZATION & PHILOSOPHY OF HISTORY

BOBER, M.M.

Karl Marx's Interpretation of History. Cambridge,
Harvard Univ. Press, 1950 445 p.

(Harvard Economic Studies vol. XXXI) (4469.)

CASSIRER, E.

Language and Myth. Tr. by Suzanne K. Langer.
& Brother 1946. (4615.)

103 p + index

CHILDE, Gordon

What happened in History. London, Penguin (Book,
1957. 288 p. (4599.)

FRANKFORT, Henri

The Birth of Civilization in the Near East and India
Univ. Press. General Organization Of the Alexan-
dria Univ. (GCAL)
Bibliotheca Alexandrina
142 p. illust. Index. (4612.)